أمين نخلة

الأعمال الكاملة

المؤلفات النثرية

اساتذة النثر العربي





3



الاعمال الكاملة

3

المؤلفات النثرية

اساتذة النثر العربي

دار صادر
بيروت

الطبعَة الأولى

1435هـ - 2014 م



تأسست سنة 1863

ص. ب 10 بيروت، لبنان

P.O.B. 10 Beirut, Lebanon
Fax: (961) 4. 910270 Tel: 910340
e-mail: darsader@darsader.com
http:www.darsader.com

Amine Nakhleh
al-A'māl al-Kāmilah
(Vol III)

p. 448 - s. 17.5 x 25 cm

ISBN 978-9953-13-776-6



البَابُ الأَوَّلُ

العصر الجاهلي

أم عصام

(لا تأريخ لمولدها، ولا لوفاتها)

ليس بين يدينا من خبر امِّ عِصام الاَّ كونها « امرأة من كندة ، ذات عقل ولسان وأَدب وبيان » ، على ما ذكر الضَّبِّيّ في « الأَمثال » ، أرسلها الحارث بن عمرو بن حُجْر ملك كندة ترى له الخنساء ابنة عوف . فلمَّا رجعت إليه ، جاءَته بوصف للخنساء . لا يزال على الأَيَّام غرَّة من غرر الأَدب العربيِّ . وفي « الأمثال » أنَّ أُمَّ عصام لمّا خرجت من عند الخنساء ، قالت : « ترك الخداع من كشفَ القناع » فذهبت مثلاً ، وانَّ الحارث لمَّا رآها مقبلةً ، قال لها : « ما وراءَكِ يا أم عِصام ؟ » ، فذهبت أَيضاً ، مثلاً .

والخنساء هي بنت عَوْف بنْ مُحَكِّم الشَّيبانيّ ، تزوَّجها الحارث ، وولدت له السَّبعة الَّذين ملكوا اليمن بعده .

وقد قال خليل مطران في « المجلَّة المصريَّة » يعلِّق على وصف أُمّ عصام للخنساء :

« وصف أمّ عصام للخنساء أجمع ما قرأته في كتب اللُّغة من هذا النَّوع ، مع جزالة في اللَّفظ ، وسلامة في التَّركيب ، وبلاغة في تأدية المراد ، حتَّى كأنَّ النَّظر في مكان التَّصوُّر ، وكأنَّ المتكلِّم عنها في موضع الكلام من العيون !

« ولولا أذناب الخيل المضفورة في تشبيه الشَّعر بها ، ودعص الرَّمل الذي لبَّده سقوط الطَّلّ ، والسَّاقان اللَّذان يُرى من صفائهما مُخ العظام ، والقدمان اللَّتان كحرف اللِّسان ، وأمثال هذه ، لما تحرَّج أعظم أديب من المتقدِّمين ، أو المتأخِّرين ، على اختلاف الأذواق والمشارب والعادات من نسبة مثل هذا القول إليه ، بل لكاثر به ، وباهى ! » .

ومن كلام للدكتور محمد صبري ، في كتابه « خليل مطران ، أروع ما كتب » ، على ما هنا من كلام مطران :

« حسبُ هذه القطعة انَّها دليل على حبِّ الجمال والفنِّ عند العرب ، وهي لا تقلُّ في دقَّتها وروعتها عن تمثال أبدعه صاحبه ، أو لوحة مصوَّرة » إلى أن يقول : « إنَّنا لا نشارك مطران رأيه حين يقول في وصف أمِّ عصام للخنساء : ولولا أذناب الخيل المضفورة في تشبيه الشَّعر بها ، ودعص الرَّمل الذي لبَّده سقوط الطَّلّ (وهنا يورد بقيَّة ما تقدَّم من هذه الفقرة في كلام مطران ، ثمَّ يقول :) لنبدأ أوَّلاً : بتصحيح النَّصّ : [ويحمل ذلك قدمان كحذو اللِّسان] لا كحرف اللِّسان ، كما روى مطران . فالحرف هو الطَّرف والحدُّ . ولا معنى لتشبيه القدم بطرف اللِّسان . الحذو : الموازاة ، وقد استعملت

الأعرابيَّة هذه الكلمة استعمال مالكة لنواحي اللُّغة . تريد أنَّ القدمين صغيرتان [مسحوبتان] في دقَّة على مثال اللِّسان . وهذا أروع تصوير لأقدام العذارى ، ولا يقلُّ عنه في الرَّوعة تصوير السَّاقين [اللَّذين يُرى من صفائهما مخُّ العظام] . ليس بعد هذا تعمُّق في النَّظر إلى محاسن المرأة . وهذا الَّذي يقول [ذو الرمَّة] : [ورملٍ كأوراك العذارى] لم يترك بعده ، كهذه الأعرابيَّة ، قولاً لقائل ! (إلى أن يقول :) فتشبيه الكفل بدعص الرَّمل الَّذي لبَّده النَّدى ، على الرغم من كثرة استعماله وابتذاله ، لا يزال يحتفظ بنضارته ! وأيُّ شيء أبهى منظراً من الكثيب الَّذي لبَّده سقوط النَّدى ، أو الطَّلُّ [المطر الخفيف] في ضياء الشَّمس ، أو في ظلِّ الغمام؟ إنَّها الطَّبيعة الكبرى . في هذه الطَّبيعة الخلاَّقة المتفنِّنة تتساوى جميع الكائنات ، تتساوى المهرة الأَرنة والمهاة والظَّبية مع المرأة الجميلة ، كما تتساوى أذناب الخيل مع ضفائر الغيد . فالحسن واحد في سلطنة الفنّ » .

وفي رواية هذا الفصل اختلاف كثير ، بعضهم يضيف وبعضهم يحذف ، وبعضهم يبدّل لفظاً من آخر . والَّذي هنا ، هو الرِّواية التي نراها أسلم من الرَّيب :

وصف الخنساء ابنة عَوْف[1]
(رواية الأصمعيّ)[2]

رأيتُ جبهة كالمرآة المصقولة ، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل المضفورة[3] ، إن أرسلتْهُ خلتَهُ السَّلاسل ، وإن مشطتْهُ قلتَ عناقيد جلاها الوابل[4] ، وحاجبين كأنَّهما خُطَّا بقلم ، أو سُوِّدا بُحمم[5] ، تقوَّسا على مثل عين الظَّبية العَبْهَرة[6] الَّتي لم يذعرْها قانص ، ولا راعتها قَسْورة[7] . بينهما أنف كحدِّ السيف المصقول ، لم يعبْه قصر ولا طول . حفَّت به وجنتان كالأُرجوان ، في بياضٍ كالجُمان[8] شُقَّ فيه فم كالخاتم ، طيِّب المبسم ، لذيذ الملثم ، تقلِّب فيه لساناً يبين عن عقل وافر ، وجواب حاضر ، تلتقي دونه شفتان حمراوان يجلبان ريقاً كالشُّهد . رُكِّب ذلك في رقبة بيضاء كالفضَّة ، على صدر كتمثال

---

(1) من « الأمثال » للمفضّل الضّبّيّ .

(2) الأصمعيُّ (وُلد سنة 740 ، وتوفّي سنة 831 م .) هو أبو سعيد عبد الملك بْن قُريب الأصمعيّ (نسبة إلى جدّه أصمع) راوية العرب ، ومن أئمّة العلم باللُّغة والشِّعر والبلدان . وُلد في البصرة وفيها توفّي. وتصانيفه كثيرة ، مُثّلت طائفة منها بالطبع. كان كثير الخروج إلى البادية ، يشافه فيها الأعراب ويساكنهم ، حتّى اجتمع له من الأخبار والنّوادر والغريب ما لم يجتمع لغيره . قال فيه أبو نواس ، كما في « وفيات الأعيان » : « بلبل يطرب بنغماته » .

(3) ضفر الشّعر ، ونحوه : نَسَجَ بعضه على بعض .

(4) الوابل ، هنا : المطر الشّديدُ الضخم القطر .

(5) الحُمم ، هنا : الفحم . وهو جمع حُممَة .

(6) العَبْهرة : الرّقيقة البشرة ، الناصعة البياض ، والسّمينة الممتلئة الجسم .

(7) القَسْورة ، هنا : الرُّماة من الصيّادين . وهو جمع قَسْور .

(8) الجُمان : اللُّؤلؤ .

دُمية[1] ، يتَّصل به ذراعان وعضدان ليس فيهما عظْم يُمسُّ ، ولا عرق يُجسُّ . ركِّب فيهما كفَّان رقيق قصبهما ، ليِّن عصبهما ، تعقد إن شئت منهما الأنامل . نبت في ذلك الصَّدر ثديان كالرُّمَّانتين يخرقان عليها ثيابها ، ويمنعانها أن تتقلَّد سِخابها[2] . تحت ذلك بطن طُوي كطيِّ القَباطيّ[3] المدمجة ، وكُسي عُكنا[4] كالقراطيس المدرجة . تُحاط بتلك العكن صرة كالمدهن[5] المجلوِّ . وخلف ذلك ظهر فيه كالجدول ينتهي إلى خصر لولا رحمة الله لانتثر ! لها كفل يقعدها إذا نهضت ، كأنه دِعْص الرمل[6] لبَّده سقوط الطَّل[7] . تحته فخذان كأنَّهما حُشيا ريش نعام ، ركِّبا على ساقين عَبْلين[8] يُرى من صفائهما مُخُّ العظام[9] . يحمل ذلك كلَّه قدمان لطيفان كحذو اللِّسان[10] . فتبارك الله مع صغرهما كيف يطيقان حمل ما فوقهما !

---

(1) الدُّمية : الصُّورة المنقشة ، المزينَّة . والصَّنم .

(2) السِّخاب : القلادة تتخذ من قرنفل وسُكٍّ (والسُّكُّ ، هنا : ضربٌ من الطِّيب) ومَحْلب ، ليس فيها من اللُّؤلؤ والجوهر شيء .

(3) القباطيُّ (بفتح أوَّله وبضمِّه) ثياب من كتَّانٍ بيضٍ رقاق ، كانت تُنسج في مصر . وهي منسوبة إلى القِبْط على غير قياس .

(4) جمع عكنة . وهي ما انطوى وتثنَّى من لحم البطن سمناً .

(5) المُدْهُن : قارورة الدُّهْن .

(6) أي : قطعة منه مستديرة .

(7) يقال : « لبَّد المطر والنَّدى الأرضَ » ألصق بعض ترابها ببعض ، فصارت قويَّةً لا تسوخ فيه الأرجل .

(8) العَبْل : الضَّخم من كلِّ شيء .

(9) مُخُّ العظام : نِقيها ، أي خالصها .

(10) الحذو : الموازاة .

البَابُ الثَّانِي

عصر صدر الإسلام والدولة الأموية

من القرآن الكريم

إنَّ النَّثر العربيَّ ارتفع بالمُصْحَف[1] إلى ما وراء الفكر، وجاء الذُّروة التي تتقطَّع دونها الأعناق! فانَّما القرآن هو المعجز في بلاغته، وأسلوبه، ولفظه، وحلاوة فواصله، وسوق معانيه، لا كلام في هذه العربيَّة يبلغ مبالغه في ذلك كلِّه. وهذا في رأينا هو سبب إعجازه، لا شرف الأغراض، كما في رأي جماعة، ولا الإخبار بالغيب، كما في رأي جماعة آخرين. فلا يحقُّ لنا في كتاب يُدار على إجادات النَّثر في العربيَّة أن نخرجه للقرَّاء دون أن يحمل قبساً من نور القرآن! لذلك رأينا ان نصدِّر هذا الباب بُسوْرة[2] «الرَّحمان»، وهي الَّتي يقول لها بعض الحَفَظة[3]: «عروس

---

(1) المُصحف (قيل بضمِّ أوَّله، وقيل بالضمِّ والكسر، وقيل بالتثليث. وفي [المصباح]: [والمصحف بضمِّ الميم أشهر من كسرها]، فكأنَّه يرى الفتح ليس بشيء): في الأصل ما جُمع من الصُّحف بين دفَّتين. وقد غلب على القرآن حتى أصبح كالعلَم له.

(2) السُّورة (بضمِّ الأوَّل): القطعة من القرآن.

(3) حَفَظَة القرآن (ويقال أيضاً: حُفَّاظه): هم الَّذين يعونه عن ظهر قلب.

القرآن » ، و « أمّ الفواصل »[1] ، و « أمّ المثاني »[2] . وقد جاء في « مجمع البيان » انّ النّبيّ قال : « لكلّ شيءٍ عروس ، وعروس القرآن سورة الرّحمن » . ثمّ نأتي بعد سورة الرّحمان بسورة « الضّحى » ، وبآيات[3] من سُوَر أخرى ، معلّقاً على ذلك شروح موجزة ممّا يكاد يجمع عليه الرّأي عند أكابر المفسّرين . فانّ من الآيات ، كما لا يخفى ، ما يحتمل وجهين - وقد جاء في « الأساس » : « القرآن حمّال ، ذو وجوه » . ثمّ انّنا لم نجرِ هنا في كتابة طائفة من الكلمات على الكتابة المخصوصة بالقرآن اتّباعاً للصّورة الّتي رُسمت بها تلك الكلمات في « نسخة عثمان » ، بل على الأصل الّذي تُكتب به .

ولله ما ألطف أن يُذكر في هذا المقام قول كشاجم في قصيدته التي على الهمزة ، يصف أجزاء القرآن :

من يتبْ خشية العقاب ، فانّي
تُبتُ أنساً بهذه الأجزاءِ !
بعثتني على القراءَة والنُّسك ،
وما خلتُني من « القرّاءِ » . . .

وقد قال الباقلاّني في كتابه « إعجاز القرآن » يذكر فصاحة

---

(1) الفواصل : أواخر الآيات .

(2) المثاني : آيات القرآن كلُّها . وهو رأي ابن خلدون . قال : «وأطلق اسم المثاني على آيات القرآن كلّها على العموم لما ذكرناه ، واختصّت بأمّ القرآن للغلبة فيها ، كالنّجم للثريا ، ولهذا سُمّيت السّبع المثاني . وانظر هذا مع ما قاله المفسّرون في تعليل تسميتها بالمثاني يشهد لك الحقّ برجحان ما قلناه» .

(3) الآية من القرآن : جملة أثِر الوقف في نهايتها .

المصحف : « إنَّ نظْم القرآن على تصرُّف وجوهه ، واختلاف مذاهبه ، خارج عن العهود من نظام كلام العرب ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم . وله أسلوب يختصُّ به ، ويتميَّز في تصرُّفه عن أساليب الكلام المعتاد » إلى أن يقول : « ليس للعرب كلام يشتمل على هذه الفصاحة ، والغرابة ، والتَّصرُّف البديع ، والمعاني اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكمة الكثيرة ، والتَّناسب في البلاغة على هذا الطُّول ، وعلى هذا القدر » إلى أن يقول : « وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسباً في الفصاحة » إلى أن يقول : « ذلك إلى ما تراه من أنَّ عجيب نظمه ، وبديع تأليفه ، لا يتفاوت ، ولا يتباين ، على ما يتصرَّف اليه من ضمن الوجوه التي يتصرَّف اليها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام ، وإعذار وإنذار ، ووعد ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وأوصاف ، وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها » إلى أن يقول : « وقد تأمَّلنا نظم القرآن ، فوجدنا جميع ما يتصرَّف فيه من الوجوه التي ذكرناها على حدّ واحد في حسن النَّظم ، وبديع التأليف . لا تفاوت فيه ، ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا إسفاف فيه إلى الرُّتبة الدُّنيا » إلى أن يقول : « وللقرآن مزيَّة أخرى ، غير ما تقدَّم . وهي أنه من المقرَّر المعروف أنَّ الكلام يبين فضله ، ورجحان فصاحته بأن تُذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام ، أو تُقذف ما بين شعر ، فتأخذه الأسماع ، وتتشوَّف إليه النفوس ، ويُرى وجه رونقه بادياً ، غامراً سائر ما يقرن به كالدُّرَّة التي تُرى في سلك من خرزٍ ، وكالياقوتة وسط العقد ، وأن تُرى الكلمة من القرآن يُتمثَّل بها في

تضاعيف كلام كثير ، فاذا هي غرّة جميعه وواسطة عقده ، والمنادي على نفسه بتميّزه وتخصُّصه برونقه وجماله وإنفراده » .

وقال القاضي عياض في كتابه « الشِّفاء » من كلام له على إعجاز القرآن : « إنَّ كتاب الله العزيز منطوٍ على وجوه من الإعجاز كثيرة ، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه . أوّلها حسن تأليفه ، والتئام كلمه ، وفصاحته ، ووجوه إيجازه ، وبلاغته الخارقة عادة العرب » .

وقال الأمير شكيب أرسلان في كتابه « السيِّد رشيد رضا » : « لا جرم انَّ القرآن يعلو في بلاغته وأسلوبه وشدَّة تأثيره علوّاً كبيراً عن جميع كلام العالمين » .

وقال أيضاً في مجلة « الزَّهراء » : « نعم يقدر العربي أن لا يكون صحيح العقيدة ولا مسلماً ، ويكون نصاب اللُّغة عنده القرآن والحديث وكلام السَّلف ، لأنَّها هي الطَّبقة العليا التي تصحُّ أن تكون مثلاً » .

وقال مصطفى صادق الرَّافعي في كتابه « تحت راية القرآن » يذكر القرآن : « وقد أجمع الأوّلون والآخرون على إعجازه بفصاحته إلاَّ من لا حَفْل به من زنديق يتجاهل أو جاهل يتزندق » .

سورة « الرَّحمان »

﴿الرَّحمان[1] . علَّم القرآن . خلق الانسان . علَّمه البيان . الشمسُ والقمرُ بحُسبان[2] . والنَّجمُ[3] . والشَّجرُ يسجُدان . والسَّماء رفعها ووضع الميزان . ألاَّ تطغوا[4] في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تُخسروا الميزان[5] والأرض وضَعها للأنام . فيها فاكهة والنخل ذات الأَكمام[6] . والحبُّ ذو العَصْف[7] والرَّيحان[8] . وفبأيِّ آلاء ربِّكما تكذِّبان[9] . خلق الانسان من صلصال[10] كالفخَّار . وخلق الجانَّ من مارجٍ[11] من نار . فبأيِّ آلاء ربِّكما تكذِّبان . ربُّ المشرقين

---

(1) قال الإمام الزَّمخشريُّ يعلِّق على ما هنا في المتن: «الرحمان مبتدأ وهذه الأفعال مع ضمائرها أخبار مترادفة، وإخلاؤها من العاطف لمجيئها على نمط التعديد، كما تقول: زيدٌ أغناك بعد فقر، أعزَّك بعد ذلّ، كثَّرك بعد قلَّة، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد، فما تنكر من إحسانه؟!».

(2) الحسبان، هنا: التَّدبير الدَّقيق.

(3) النَّبات الذي لا ساق له.

(4) لئلاَّ تطغوا، أو هي «أن» المفسِّرة.

(5) ولا تنقصوه.

(6) الأكمام، هنا: كلُّ ما يكتم، أي يُغطي. وقيل: أيضاً، في التعليق على الآية: الأكمام: أوعية الثَّمر.

(7) ورق الزَّرع: وفي تعليق على الآية: «حُطام التِّبن ودُقاقه».

(8) في «الكشَّاف»: «الرَّيحان: الرِّزق، وهو اللُّبُّ. أراد فيها ما يُتلذَّذ به من الفواكه». ومن معاني الرِّزق (بالكسر): ما يُنتفع به مما يؤكل.

(9) الخطاب، هنا، للثَّقلين، وهما الانس والجان.

(10) الطِّين اليابس.

(11) المارج: الشعلة السَّاطعة ذات اللَّهب الشديد.

وربُّ المغربين . فبأيِّ آلاء ربِّكما تكذِّبان . مرجَ البحرين يلتقيان[1] . بينهما برزخ[2] لا يبغيان[3] . فبأيِّ آلاء ربِّكما تكذِّبان . يَخرُج منهما اللُّؤلؤُ والمَرْجان . فبأيِّ آلاء ربِّكما تكذِّبان . وله الجواري[4] المنشآت[5] في البحر كالأعلام[6] . فبأيِّ آلاء ربِّكما تكذِّبان . كلٌّ من عليها فانٍ . ويبقى وجه ربِّك ذو الجلال والإكرام[7] . فبأيِّ آلاء ربِّكما تكذِّبان . يسئله من في السموات والأرض كلَّ يومٍ هو في شانٍ . فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان . سنَفْرُغ لكم[8] أيُّها الثَّقلان[9] . فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان . يا معشر الجنِّ والإنس ان استطعتم أن تَنْفُذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون الاَّ بسلطان[10] فبأيِّ آلاء ربِّكما تكذِّبان . يُرسَل عليكما شُواظٌ[11] من نارٍ ونحاسٌ[12] فلا تنتصران . فبأيِّ

---

(1) مرج الشيء، في الأصل: خلطه. والمعنى في الآية: خلط البحر الملْح والبحر العذب حتى التقيا. وقيل: خلاّهما لا يلتبس أحدهما بالآخر.

(2) البرزخ: الحاجز بين شيئين.

(3) لا يتجاوزان حدَّيهما.

(4) السُّفُن.

(5) المرفوعات الشُّرُع.

(6) الأعلام، هنا: الجبال الطويلة.

(7) في «الكشاف»: «ذو الجلال والإكرام: صفة الوجه». وفي بعض القرآات: [ذي]، «على صفة ربِّك».

(8) مستعار من قولك لمن تتهدَّده: سأفرغ لك. تريد التَّجرُّد للإيقاع به من كل ما يشغلك عنه.

(9) راجعْ ما مرَّ من التعليق على الآية ﴿فبأيِّ آلاء ربكما تكذِّبان﴾.

(10) أي بقوَّة. والمعنى: كيف لكم ذلك.

(11) الشُّواظُ: (وتكسر)، هنا، اللَّهب لا دخان له.

(12) النُّحاس: الدُّخان. وقيل الصُّفر المذاب.

آلاءِ ربكما تكذِّبان . فاذا انشقَّت السماء فكانت وردة[1] كالدُّهان[2] فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان . فيومئذٍ لا يُسأل عن ذنبه إنسٌ ولا جانٌّ . فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان . يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنَّواصي والأقدام . فبأيِّ آلاء ربِّكما تكذِّبان . هذه جهنَّم الَّتي يُكذِّب بها المجرمون . يطوفون بينها وبين حميمٍ آن[3] . فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان . ولمن خاف مقام ربِّه[4] جنَّتان . فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان . ذواتا أفنان[5] . فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان . فيهما عينان تجريان . فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان فيهما من كلِّ فاكهةٍ زوجان[6] . فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان . متكئين[7] على فُرُشٍ بطائنها من استبرق[8] وجنى الجنَّتين دانٍ[9] . فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان . فيهنَّ[10] قاصرات الطَّرف[11] لم يطمثْهنَّ إنس قبلهم ولا جانٌّ . فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان . كأنهنَّ

---

(1) وردة: حمراء.

(2) كالدِّهان: كدهن الزَّيت. وقيل: الدِّهان، الأديم الأحمر.

(3) حميم آن: ماء حارّ.

(4) قيل: مقام، هنا، مُقحم كما تقول أخاف جانب فلان، وفعلتُ هذا لمكانك.

(5) هي الأغصان المستقيمة من الشجرة.

(6) صنفان.

(7) نُصب على المدح للخائفين، أو هو حال منهم. قال في «الكشّاف»: «لأنَّ [من خاف] في معنى الجمع». يريد ما جاء في الآية التي مرَّت بها القراءة (ولمن خاف مقام ربِّه جنَّتان).

(8) ديباج غليظ. والدِّيباج، في الأصل: ضرب من الثياب سَداه ولُحمته الحرير.

(9) قريب.

(10) أي في هذه الآلاء المعدودة.

(11) أي نساء قصرن أبصارهنَّ على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم. وقيل: من امرأة قاصرة الطرف، أي خجلة حييَّة.

الياقوت والمرجان . فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان . هل جزاء الإحسان إلاَّ الإحسان . فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان . ومن دونهما جنَّتان . فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان . مدهامَّتان[1] . فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان . فيهما عينان نضَّاختان[2] . فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان . فيهما فاكهة ونخل ورمَّان . فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان . فيهنَّ خَيْراتٌ[3] حِسان . فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان . حورٌ مقصوراتٌ[4] في الخيام . فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان . لم يطمثهنَّ إنسٌ قبلهم[5] ولا جانٌّ . فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان . متَّكئين[6] على رفرفٍ[7] خُضْرٍ وعبقريٍّ حِسانٍ[8] فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان . تبارك اسم ربِّك ذي الجلال والإكرام ﴾ .

---

(1) أي : سوداوان من شدَّة الخضرة . يقال : ادهامَّ الزَّرع ، أي علاه السَّواد رِيّاً ، فإنَّ ادهامَّ معناه : اسوادَّ .

(2) من نضخ الماء ، إذا اشتدَّ فورانُه من يَنبوعه . والنَّضخ (بالمعجمة) أكثر من النَّضح (بغير المعجمة) ، لأن الثَّاني مثل الرَّشِّ .

(3) هي خيِّرات (بالتَّشديد) مخفَّفة . والمعنى : فاضلات الأخلاق .

(4) أي : قصرن في خدورهنَّ . يقال : امرأة مقصورة ، مخدَّرة .

(5) أي : قبل أصحاب الجنتين .

(6) نصب على الاختصاص .

(7) الرَّفرف ، هنا : الوسائد والنَّمارق ، وقيل : ضرب من البسط . وقيل : البسط . (على أنه جمع) .

(8) منسوب إلى عبقر ، الوادي (وقيل : البلد) الذي تزعم العرب أنَّه وادي الجنّ ، فينسبون إليه كلَّ شيء عجيب .

سورة «الضُّحى»

﴿والضُّحى[1]. واللَّيل إذا سجى[2]. ما ودَّعك[3] ربُّك وما قلى. وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربُّك فترضى. ألم يجدْك يتيماً فآوى. ووجدك ضالاً فهدى. ووجدك عائلاً[4] فأغنى. فأمَّا اليتيمَ فلا تقهر[5] وأمَّا السائلَ فلا تنهر. وأمَّا بنعمة ربِّك فحدِّثْ﴾.

من وصف الطوفان[6]

﴿وهي[7] تجري بهم في موجٍ كالجبال ونادى نوحُ ابنه وكان في معزلٍ يا بُنيَّ آركبْ معنا ولا تكن مَع الكافرين. قال سآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلاَّ من رَحِمَ[8] وحالَ بينهما الموج فكان من المُغْرَقين. وقيل يا أرضُ إبلعي[9] ماءَك ويا سماء أقلعي[10] وغِيضَ الماء[11] وقُضي الأمر واستوت[12] على

---

(1) المراد بالضُّحى: وقت الضُّحى، وهو صدر النُّهار.

(2) أي: إذا سكن، وركد ظلامه.

(3) أي: ما قطعك قطع المودِّع.

(4) يريد: فقيراً.

(5) أي: لا تغلبه على ماله وحقِّه لضعفه.

(6) من سورة «هُوْد».

(7) أي: فلك نوح.

(8) «إلاَّ من رَحِمَ»: إلاَّ الرَّاحم: وهو الله. وقُرىء على البناء للمفعول.

(9) البَلْع عبارة عن النشف.

(10) الأقلاع: الامساك. يقال مثلاً: أقلعت الحمَّى.

(11) غيض الماء: من غاضه، إذا نقصه.

(12) أي: استقرَّت وثبتت. والضمير يرجع إلى الفلك.

الجُـودِيِّ[1] وقيل بُعْداً للقوم الظالمين﴾.

نزول جبريل[2]

﴿والنَّجم إذا هوى. ما ضلَّ صاحبكم[3] وما غوى. وما ينطِقُ عن الهوىَ. إنْ هو إلَّا وحيٌ يُوحى. علَّمه شديدُ القُوى. ذو مِرَّةٍ[4] فاستوى[5]. وهو بالأُفُقِ الأعلى. ثمَّ دنا فتدلَّى. فكان قاب[6] قوسينِ أو أدنى. فـأوحى إلى عبـده[7] مـا أوحى. مـا كَـذَبَ الفؤادُ مـا رأى. أفتـمارونه[8] عـلى ما يـري. ولقد رآه نَـزْلَةً أُخـرى[9]. عند سِـدرة المنتهى[10]. عندها جنَّة المأوى. إذ يغشى السِّـدرة ما يغشى. مـا زاغ البصر وما طغى. لقد رأى من آيات ربِّه الكبرى﴾.

---

(1) قال ياقوت في «معجم البلدان»: «ياؤه مشدَّدة، هو جبل مطلٌّ على جزيرة ابن عمر في الجانب الشَّرقيّ من دجلة من أعمال الموصـل [إلى أن يقول] وقـرأ الأعمش: واستقرت عـلى الجوديِ، بتخفيف الياء».

(2) من سورة «النَّجم».

(3) يعني النبيَّ، والخطاب لقريش.

(4) من معانيها: العقل، والأصالة، والإحكام، والقوَّة. والضمير في «ذو مرَّةٍ» يرجع إلى جبريل.

(5) في «الكشَّاف»: «فاستوى: فاستقام على صورة نفسه الحقيقيَّة دون الصورة التي كان يتمثل بها كلَّما هبط بالوحي. وكان ينزل في صورة «حيَة».

(6) القاب: المقدار.

(7) أي: إلى عبد الله. وهو، هنا، النبيُّ.

(8) ما رآه: ناظره، وجادله.

(9) أي: مرَّة أُخرى. (وهي من النزول).

(10) قيل: شجرة من أقصى الجنُّة.

حسن يوسُف[1]

﴿وقال نسوةٌ[2] في المدينة آمرأة العزيـز[3] تُراود[4] فتـاها[5] عن نفسه قد شغفها حِبّاً إنّا لنراها في ضلال مبين. فلَما سمعت بمَكرِهِنَّ أرسلت إليهنَّ[6] وأعتدت[7] لهنَّ متكّأً وآتت[8] كلَّ واحدةٍ منهنَّ سكّيناً وقالت اخرُجْ عليهنَّ فلَما رأيته أكبرنه[9] وقطَّعنَ أيديَهنَّ[10] وقلنَ حاشا لله ما هذا بشراً[11] إنْ هذا إلاّ مَلَكٌ كريم﴾.

---

(1) من سورة «يوسف».

(2) النِّسوة اسمٌ مفرد لجمع المرأة، وتأنيثه غير حقيقيّ، فلم تلحق بفعله، هنا، تاء التَّأنيث.

(3) العزيز، عند العرب: الملك.

(4) راوَد المرأة عن نفسها: طلب أن يَفجر بها. وقد تكون المُراوِدة من المرأة.

(5) أي: غلامها.

(6) أي: دعتهنَّ.

(7) أعتَدَ الشيء: هيَّأه، وأعدَّه.

(8) آتى فلاناً الشيء: أتى به إليه. وأعطاه إيّاه.

(9) يقال: أكبر فلاناً: أعظمه.

(10) قال الإمام الزَّمخشريُّ في تفسير هذه الآية: «وقطَّعن أيديهنَّ: جرحنها، كما تقول: كنت أقطع اللَّحم فقطعت يدي. تريد: جرحتها». وهو من أعلى ما جاء في تفسير الآية.

(11) قد يكون الخبر بعد «ما» النافية منصوباً، كما في الآية. وفي قراءة «ابن مسعود»: بشر، بالرَّفع. وإعمال «ما» عمل «ليس» لغة حجازية قديمة.

من «الحديث»

(وُلد النَّبيُّ سنة 571، وتُوفِّيَ سنة 633 م.)

كما ارتفع النَّثر بالقرآن إلى ما وراء الفكر، هكذا بلغ نهايات الإجادة في «الحديث»، وهو كلام النَّبيِّ العربيِّ. فلقد تناهى «الحديث» في البلاغة، والرَّونق، وإشراق البيان، حتى لقد حُقَّ لابن عبد الله، وأيم الحقِّ، أن يباهي بقوله: «أنا أفصح العرب»(*)، وبقوله: «أُوتيت جوامع الكلم».

قال الجاحظ في «البيان والتَّبيين»، من كلام له على فصاحة النَّبيِّ: «استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر. وهجر الغريب الوحشيَّ، ورغب عن الهجين السُّوقيِّ» إلى أن يقول: «وما سُمع كلام قطُّ أعمَّ نفعاً، ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً من كلامه».

(*) «الحديث»: «أنا أفصح العرب بَيْدَ أنّي من قريش، وأنّي نشأتُ في بني سعد بن بكر». وبَيْدَ، هنا: بمعنى من أجْل. وبنو سعد بن بكر استرضع النَّبيُّ فيهم. وهم من عليا هوازن. قال أبو عمرو بن العلاء: «أفصح العرب: عليا هوازن، وسُفلى تميم».

ويعجبنا جدّاً، في الكلام على الفصاحة المحمّديّة، هذا الّذي ذكره مصطفى صادق الرافعيّ في كتابه «تحت راية القرآن»، من كلام للأمير شكيب أرسلان في ما يتعلّق «بالحديث»، قال:

«قد يجوز أنّ إنساناً لا يعتقد بتنزيل القرآن، ولكن لا يوجد عربيٌّ سليم الذّوق لا يعتقد ببلاغة القرآن، وحديث الرّسول، صلّى الله عليه وسلّم. ولعمري أنّ الأمر لكما قال ذلك الّذي سأله سائل: هل يقال [فأذاقها الله لباسَ الجوع؟]، فأجابه: ويحك! هبك نتّهم محمداً بأنّه لم يكن نبيّاً، أنتّهمه بأنه لم يكن عربيّاً!!!» إلى أن يقول: «نعم، يقدر العربيُّ أن لا يكون صحيح العقيدة، ولا مسلماً، ويكون نصاب اللّغة عنده القرآن والحديث وكلام السّلف، لأنّها هي الطبقة العليا الّتي تصحُّ أن تكون مثلاً».

ومن الحديث النّبويّ ما هذا بعضه[1]:

آفة العلم النّسيان.

إتّقوا النّار ولو بشقّ تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيّبة.

أَحببْ حبيبك هوناً مّا، عسى أن يكون بغيضك يوماً مّا، وأبغض

(1) من أولى ما يجب ذكره في هذا المقام «حديث الموافقة»: (إذا حُدِّثتم عنّي بحديث يوافق الحقّ فصدِّقوه، وخُذوا به، حدَّثتُ به أو لم أُحدِّث به). ذلك وإن قيل فيه أنّه حديث «مُنْكَر»، وأن ليس له «إسناد صحيح». (والمُنكَر في مَصطلح الحديث: الذي لا يُعرف متنه من غير جهة راويه، فلا تابع له ولا شاهد. والإسناد الصحيح: ما اتّصل بعدول ضابطين، بلا شذوذ، ولا علّة خفيّة).

بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما[1].

أحبُّ الطَّعام إلى الله ما كثرت عليه الأيدي.

أحبُّوا العرب لثلاث: لأنِّي عربيّ، والقرآن عربيّ، وكلام أهل الجنَّة عربيّ:

إدرؤا[2] الحدود بالشُّبهات.

إذا أراد الله بعبدٍ خيراً صيَّر حوائج النَّاس إليه.

إذا لم تستح فاصنع ما شئتَ.

إرحموا من النَّاس ثلاثة: عزيز قوم ذَلَّ، وغنيّ قوم افتقر، وعالماً بين جهَّال.

إستعنْ بيمينك[*].

إستعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإنَّ كل ذي نعمة محسود.

إستنزلوا الرِّزق بالصَّدقة.

إشتدِّي أزمة تنفرجي.

أطلبوا الخير عند حسان الوجوه.

---

(1) وقد أورد هذا «الحديث» في «نهج البلاغة»، في «باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام».

(2) دراه: دفعه دفعاً شديداً.

(*) أي: اكتب ما تخشى نسيانه. قاله لمن شكا له سوء حفظة.

أطلبوا العلم ولو بالصِّين.

أفضل الجهاد كلمة حقٍّ عند سلطان جائر.

أُمرنا أن نكلِّم النَّاس على قدر عقولهم.

إنَّ الله جعل لذَّة الأغنياء في طعام الفقراء.

إنَّ الله جميل يُحبُّ الجمال[1].

إنَّ الله ليملي للظَّالم حتى إذا أخذه لم يفلته[2].

إنَّ الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغرْ[3].

إنَّ في المعاريض لمندوحة عن الكذب[4].

إنَّ من الشعْر لحكمة.

إنَّما يرحم الله من عباده الرُّحماء.

إنَّما الأعمال بالنِّيَّات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى.

إن حُدِّثتَ أنَّ جبلاً زال عن مكانه فصدِّق، وإن حُدِّثتَ إنَّ رجلاً زال عن خليقته فلا تصدِّق.

إيَّاكم وخضراء الدِّمَن[5].

---

(1) قيل في سبب قوله: إنَّ النبيَّ قال: «لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقال ذرَّة من كبر». فقال رجل: إنَّ الرَّجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً، فقال النبيّ ما هنا في المتن.

(2) أي أنَّه يمهل الظالم، ويطيل له في المدَّة زيادة في استدراجه، فيكثر ظلمه، فيزداد عقابه.

(3) غرغر المريض: تردَّد روحه في حلقه عند الموت.

(4) ويُروى بلا لام الابتداء.

(5) المعنى: احذروا المرأة الحسناء ومنبتها سوء، كالشجرة الخضراء من كثرة الزِّبل على أصلها.

إيّاكم والطَّمع فإنَّه الفقر الحاضر.

إياكم والظَّنّ فإنَّ الظَّنّ أكذب الحديث.

البلآء موكَّل بالقول[1].

تبصر القَذاة[2] في عين أخيك وتنسى الجذع[3] في عينك[4].

تدرون من شرُّ النَّاس؟ ذو الوجهين، يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه.

تمعددوا واخشوشنوا[5].

تهادوا تحابُّوا.

الجار أحقُّ بصَقَبه[6].

الجزاء من جنس العمل.

الجنَّة تحت أقدام الأُمهات.

الأَجر على قدر النَّصَب[*].

الأَرواح جنود مجنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف.

---

(1) وفي رواية: «بالمنطق».

(2) القذاة: ما يقع في الشراب من القشّ والغبار.

(3) الجذع: ساق النخلة.

(4) ويروى بلفظ «يُبصر أحدكم القذاة في عين أخيه وينسى الجذع في عينه».

(5) معناه: تشبَّهوا بمعدّ بن عدنان، وهو الذي كان لا يبالي بأكل ولا لباس.

(6) بصَقَبه (محرَّكة بصاد وبسين): أي بسبب قربه من غيره.

(*) ويُروى: «على قدر المشقَّة».

الاقتصاد في النَّفقة نصف المعيشة، والتَّودُّد إلى النَّاس نصف العقل، وحسن السُّؤال نصف العلم.

الأقربون أولى بالمعروف.

الإيمان بالقَدَر يذهب الهمَّ والحزن.

بشِّر القاتل بالقتل.

بُلُّوا أرحامكم ولو بالسَّلام.

بئس مطيَّة الرَّجل «زعموا».

حُبُّك الشيء يعمي ويصمُّ[1].

حُبُّ الوطن من الإيمان.

حُسْن العهد من الإيمان.

حين تَقْلي تدري[2].

الحياء من الإيمان.

خُلقت المرأة من ضِلع[3].

---

(1) وفي رواية: «حبُّ الثَّناء من النَّاس يعمي ويصمُّ».

(2) قلى الرَّجل صاحبه: أبغضه، وكرهه. وفي المثل القديم: «وجدتُ النَّاس: أُخْبرْ تَقِلْهْ» (الهاء فيه للسَّكت). ومعناه: وجدتُ النَّاس مقولاً فيهم هذا القول.

(3) وفي رواية: «واستوصوا بالنِّساء خيراً، فإنهنَّ خُلقن من ضلع وإن اعوجَّ أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنِّساء خيراً».

خيار البِرِّ عاجِلُهُ[1] .

الخلق عيال الله ، وأحبُّ الخلق إلى الله من أحسن إلى عياله

سألتُ الله أن لا يقبل دعاء حبيب على حبيبه .

الدَّالُّ على الخير كفاعله[2] .

رأس الحكمة مخافة الله .

رحم الله من قال خيراً أو صمت .

روِّحوا القلوب ساعةً ساعةً[3] .

زُرْ غِبّاً تزدَدْ حُبّاً[4] .

سيِّد القوم خادمهم[5] .

السَّخيُّ قريب من الله ، قريب من النَّاس ، قريب من الجنَّة ، بعيد من النار[6] .

السَّفَر قطعة من العذاب .

شبه الشَّيء منجذب إليه .

الشَّاهد يرى ما لا يرى الغائب .

صاحب الحاجة أعمى .

ضعيفان يغلبان قويّاً .

---

(1) وفي رواية : « لا يتمُّ البرُّ الاّ بتعجيله » .

(2) وفي رواية هذه الزِّيادة : « والله يحبُّ اغاثة اللُّهفان » .

(3) وفي رواية : « ساعةً وساعةً » . ومعناه : أريحوا القلوب بعض الأوقات لئلاّ تملُّ .

(4) « زرْ غبّاً » أي وقتاً بعد وقت .

(5) وفي رواية هذه الزِّيادة : « وساقيهم آخرهم شرباً » . وفي رواية أخرى : « سيِّد القوم في السَّفر خادمهم » .

(6) في « أسنى المطالب » للحوت (طبعة سنة 1346هـ - ص120) : « وذُكر في البخيل ضدُّه » .

طلب الحقّ غُرابة[1] .

الظَّالم عدلُ الله في الأرض ينتقم به ثمَّ ينتقم منه .

العِدَة دَيْن[2]

برُّوا آباءَكم تبرُّكم أبناؤكم .

الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها .

قِلَّةُ العيال أحد اليسارين ، وكثرتهم أحد الفقرين .

قيِّدوا العلم بالكتابة .

القضاة ثلاثة : قاضيان في النَّار ، وقاضٍ في الجنَّة[3] .

كاد الحليم أن يكون نبيّاً .

كاد الفقر أن يكون كفراً .

كفَّارة الذَّنب النَّدامة .

كفَّارة من اغتبتَهُ أن تستغفر له .

كلُّ شيء ينقص الاَّ الشرّ ، فانَّه يُزاد فيه .

كلُّ معروف صدقة ،والدالُّ على الخير كفاعله ،والله يحبُّ اغاثة اللَّهفان .

كما تدين تُدان .

كما تكونوا يُولّى عليكم .

الكريم إذا قدر عفا .

---

(1) أي . إذا طلبتَ الخلق للحقّ لم تجد عليه نصيراً ، بل تكون كالغريب .

(2) العِدَةُ : الوعد ، وقوله « دَيْن » أي هي كالدَّين في تأكُّد الوفاء .

(3) هذا الحديث في رواية أخرى : « قاضٍ في الجنة ،وقاضيان في النار » . وهو فيهـا هكذا مجرَّداً من اللَّفظين اللَّذين في أوَّله .

الكلمة الطَّيِّبة صدقة .

لَعملُ العادل في رعيَّته يوماً واحداً أفضل من عمل العابد ستّين عاماً .

لَعن الله الرَّاشي والمرتشي والرَّائش الّذي يمشي بينهما[1] .

لن يغلب عسر يسرين ، فإنَّ مع العسر يسراً ، إنَّ مع العسر يسراً .

لو أنّكم دُلّيتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله[2] .

لو بغى جبل على جبل لدُكَّ الباغي .

لو كان الصبر رجلاً لكان رجلاً كريماً .

لو كنتُ آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها .

ليس لك من مالك إلاَّ ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليت .

ليس منَّا من لم يوقِّر كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقَّه .

ليس الشَّديد بالصُّرَعة ، إنَّما الشَّديد الَّذي يملك نفسه عند الغضب[3] .

---

(1) اللَّعن : الطَّرد والإبعاد من رحمة الله . والرَّائش : الواسطة بين الرَّاشي والمرتشي ، يستزيد هذا وينقص هذا .

(2) المراد : انّه يهبط على قَدَر الله .

(3) الصُّرَعة (بضمِّ الصَّاد المهملة وفتح الرَّاء) : من يصرع غيره بقوَّته . والمعنى : لا يستحقُّ أن يُسمَّى بالشديد الاَّ من ملك نفسه عند الغضب .

ما أُضيف شيء إلى شيء أفضل من حلم إلى علم .
ما أَعزَّ الله بجهل قطُّ ، ولا أذَلَّ بعلم قطُّ .
ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننتُ انَّه سيورِّثه .
ما ضاق مجلس بمتحابّين .
ما عظمت نعمة الله على عبد الاَّ عظمت مؤنة النَّاس عليه(*)
محبَّة الآباء متَّصلة في الأبناء .
من أَبطأ به عمله لم يُسرع به نسبه .
من أَحبَّك لشيء ملَّك عند انقضائه .
من بدا جفا[1] .
من جهل شيئاً عاداه .
من حفر لأَخيه قليباً وقع فيه[2] .
من دلَّ على خير فله مثل أَجر فاعله .
من كان له صبيٌّ فليتصابَ له[3] .
من نصح جاهلاً فقد عاداه .
من فتنة العالِم أَن يكون الكلام أَحبَّ اليه من السُّكوت .
منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب دنيا .

(*) وفي رواية : « الاَّ اشتدّت عليه مؤنة النّاس » بدل « الاَّ عظمت مؤنة النّاس عليه ».
(1) المعنى : من سكن البادية غلظ طبعه . وذلك لانفراده عن النّاس .
(2) القليب : البئر .
(3) أي : فليفعل معه فعل الصبيّ مع الصبيّ ملاطفةً وتفريحاً له .

المجالس بالأمانات[1] .

المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل .

المرء كثير بأخيه .

المستبَّان ما قالا ، فعلى البادىء حتى يتعدَّى المظلوُم[2] .

المهلكات ثلاث : اعجاب المرء بنفسه ، وشحٌّ مطاع ، وهوىً متَّبع .

نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من النَّاس : الصحَّة والفراغ .

الناس معادن ، والعرق دسَّاس[3] .

النِّيَّة الصَّادقة معلَّقة بالعرش .

هما جنَّتك ونارك[4] .

الهمُّ نصف الهرم .

الوالد أوسط أبواب الجنَّة[5] .

الوحدة خيرٌ من جليس السُّوء .

الولَد مَبْخَلةٌ مَجْبنة[6] .

لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلْق .

---

(1) وفي رواية : « بالأمانة » .

(2) المستبَّان : اللَّذان يسبُّ كلٌّ منهما الآخر . وقوله « ما قالا » : أي إثم ما قالاه على البادىء منهما ، الاَّ أن يتجاوز الثَّاني قدر الانتصار .

(3) المراد بالعرق هنا : الأصل ، وهو الأب والجدُّ .

(4) قاله لرجل سأله : « ما حقُّ الوالدين على ولدهما ؟ » .

(5) أي انَّ طاعته تؤدِّي إلى دخول الجنَّة من أوسط أبوابها .

(6) أي انَّه سبب للبخل والجبن .

لا صغيرة مع الأحرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار .

لا يتعلَّمُ العلم مستحيٍ ، ولا متكبِّر .

لا يُغني حَذَر من قَدَر .

لا يُلدغ المؤمن من جُحرٍ واحدٍ مرَّتين[1] .

يُوزن دم الشهداء ومداد العلماء فيرجح مداد العلماء .

من رأى منكم مُنكراً فليغيِّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان .

احتجَّت الجنَّة والنَّار ، فقالت النَّار : فيّ الجبارُون والمتكبِّرون ، وقالت الجنّة : فيَّ ضعفاء النَّاس ومساكينهم[2] .

إنَّ أبَرَّ البرّ أن يصل الرّجل ودَّ أبيه .

اليد العُليا خير من اليد السُّفلى . واليد العليا هي المنفِقة والسُّفلى هي السائلة[3] .

لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرَّ ازاره بَطَراً .

يسِّروا ولا تعسِّروا ، وبشِّروا ولا تنفِّروا .

ألا أُخبركم بمن يُحرم على النَّار ؟ أو بمن تُحرم عليه النَّار ؟ تُحرم على كل قريبٍ هيِّنٍ ، ليِّنٍ ، سَهْلٍ .

إنَّ المقسطين[4] عند الله على منابر من نور ، الَّذين يعدلون في

---

(1) الجُحر : كلُّ مكان تحتفره الهوامُّ والسِّباع لأنفسها .

(2) « لحديث الضعفة » هذا بقيَّة لم نجدها مذكورة في الكتب المعتمدة .

(3) قاله على ذكر الصَّدقة والتَّعفُّف عن المسألة .

(4) أقسط الوالي : كان عادلاً .

حكمهم ، وأهليهم ، وما وُلُّوا .

إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتَّى تختلطوا بالنَّاس من أجل أن ذلك يحزنه .

إذا حكم الحاكم فاجتهدَ ثمَّ أَصاب فله أَجران ، وإذا حكم واجتهد فأَخطأ فله أجر .

المستشار مؤْتَمَن .

المرءُ مع من أحبَّ .

من عاد مريضاً خاض في الرَّحمة حتى يجلس ، فإذا جَلس غمرته الرَّحمة .

الظُّلم ظلمات يوم القيامة .

أَنَّكم لن تسعوا النَّاس بأَموالكم فسعوهم بأَخلاقكم .

النَّاس كلُّهم سواسية كأَسنان المشط .

رويدك ! رفقاً بالقوارير(*) .

أُطلُبوا العلم ولو بالصِّين .

النَّاس معادن كمعادن الذَّهب والفضَّة .

المستشير مُعان ، والمستشار مؤْتمن .

المرءُ كثير بأَخيه .

(*) قاله لحادي النِّساء . والقوارير : جمع قارورة ، وهي الإناء من زجاج ، وحدقة العين . وكلٌّ من المعنين موافق لهذا المقام .

المرء مرآة أخيه .

إبنك ريحانتك سبعاً ، ثم خادمك سبعاً ، ثمَّ عدوٌّ أو صديق .

أعجل الأَشياء : عقوبة البغْي .

إعمل لدنياك كأنَّك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنّك تموت غداً .

ما عال(*) من اقتصد .

لا خير في صحبة من لا يرى لكَ ما يرى لنفسه .

وانَّما لك من مالك ما أكلتَ فافنيتَ أو لبستَ فأبليتَ أو وهبتَ فأمضيتَ .

لو انَّ لابن آدم واديين من ذهبٍ لَسأَلَ إليهما ثالثاً .

النَّاس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم .

فضل لسانك تعبِّر به عن أخيك الَّذي لا لسان له صدقة منك عليه .

•

(*) عال : افتقر .

من الخطَب النّبويّـة

من خطبته في يوم فتح مكّة

لا إله إلاّ الله ، وحدَه لا شريك له . صدق الله وعدَه ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كلُّ مأثرةٍ أو دمٍ أو مالٍ يُدَّعى فهو تحت قدميَّ هاتين ، إلاّ سدانة البيت[1] ، وسقاية الحاج[2] .

(إلى أن يقول :) يا معشر قريش : إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهليَّة ، وتعظُّمها بالآباء . النَّاس من آدم ، وآدم من تُراب !

من خطبته
في حِجَّة الوَدَاع

أيُّها النَّاس : اسمعوا منِّي حتَّى أُبيِّن لكم . فإنِّي لا أدري لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا ! أيُّها النَّاس : إنَّ دماءَكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تَلقوا ربَّكم ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ! ألا هل بَلَّغتُ ؟ اللَّهمَّ اشهدْ ! فمن كانت عنده أمانة فليؤدِّها إلى من ائتمنه عليها . وإنَّ رِبا الجاهليَّة موضوع

(1) السّدانة : خدمة « الكعبة » .

(2) السُّقاية ، هنا : سقي الحجيج الماء .

(إلى أن يقول :) وإنَّ دماء الجاهليَّة موضوعة (إلى أن يقول) أيُّها النَّاس : إنَّ الشيطان قد يئس أن يُعْبَدَ في أرضكم هذه ، ولكنَّه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالهمَ ! (إلى أن يقول) : أيها الناس : إنَّ ربَّكم واحد ، وأنَّ أباكم واحد . كلُّكم لآدم ، وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربيّ على عجميّ فضل إلاَّ بالتَّقوى . ألا هل بلَّغت ؟ اللَّهم اشهدْ ! فليبلِّغ الشَّاهدُ الغائب ، والسَّلام عليكم ، ورحمة الله .

الامام علي (رض)

(وُلد سنة 600[1] ، واغتيل سنة 661 م .)

يكاد يجمع الرَّأي في قديم وحديث على انَّ الإمام في الجزالة والفخامة ورصانة التَّعبير ، ووضوح الأسلوب ، وامتلاك ناصية المعنى امتلاك قوَّة وجلاء ومعرفة ، إنَّما هو طبقة ليس فوقها طبقة .

قال الشَّريف الرَّضيُّ : « أمير المؤمنين عليه السلام مَشرَع الفصاحة[2] وموردها ، ومنشأ البلاغة ومولدها . ومنه ، عليه السلام ، ظهر مكنونها ، وعنه أُخذت قوانينها ، وعلى أمثلته حذا كلُّ قائل خطيب ، وبكلامه استعان كلُّ واعظ بليغ . ومع ذلك فقد سبق وقصَّروا ، وتقدَّم وتأخَّروا » .

وقال الشيخ محمد عبده ، وهو من جلَّة شُرَّاح « النَّهج » في العصر الحديث ، وذلك في مقدمته « للنهج » « إنَّ للبلاغة دولة ، وللفصاحة صولة » [الى أن يقول :] وإن مدبر تلك الدَّولة ، وباسل تلك الصَّولة هو حامل لوائها الغالب ، أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب [الى أن يقول في الكلام على النَّهج] ولا أعلم اسماً أليَق بالدلالة على

---

(1) وقيل : سنة 601 م .

(2) المشرع : تذكير المشرعة ، مورد الشَّارب كالشَّريعة .

معناه منه ، وليس في وسعي أن أصف هذا الكتاب بأزيد مّما دلّ عليه اسمه » .

وقال خليل مطران في « المجلة المصريّة » : « بلغ النثر إلى حدّ الإعجاز في مواعظ الإمام عليّ » .

وقال محمد كرد علي في مجلّة « المقتبس » : « انَّ كلام أمير المؤمنين ، رضي الله عنه ، لا تبلى ديباجته ، وكلّما كُرّر حلا ، ومهما تأمّلته علا . ففي كلامه عبقة من النُّور الإلهيّ ، ونفحة من الرُّوح النَّبويّ . ولو لم يكن للسان العرب غير خطب الخليفة الرَّابع ، لكان كافياً في شرفه وبيانه ، وأن يجرَّ على لغات الشرق والغرب ذيول الفخر والمباهاة » .

وقال أيضاً في « مجلّة المجمع العلميّ العربيّ » يذكر الإمام عليّاً : « سيِّد البلغاء على الإطلاق ، وواضع بنيان البيان العربيّ . وكلامه ، كما قال العارفون ، بعد كلام الله وكلام رسوله ، عليه الصَّلاة والسَّلام ، أبلغ كلام ، و[نهج البلاغة] كتاب الدَّهر الخالد » .

وقال أحمد حسن الزَّيَّات في كتابه « تأْريخ الأدب العربيّ » : « لا نعلم بعد رسول الله فيمن سلف وخلف أفصح من عليّ في المنطق ، ولا أبلّ ريقاً في الخطابة » (إلى أن يقول) ، وقد أتى على ذكر طائفة من إجادات الإمام) تُعدُّ من معجزات اللسَّان العربيّ ، وبدائع العقل البشريّ » .

وقد جمع الشَّريف الرَّضيّ خطب الإمام عليّ ورسائله وأقواله في « نهج البلاغة » . ولجماعة من الباحثين شكٌّ في نسبة « النَّهج » إلى الإمام .

ومن ألطف ما ورد من كلام في قضيَّة نسبة « النَّهج » ، هذا الذي جاءَ للسيِّد محسن الأمين في كتاب « ذكرى الأمير شكيب أرسلان » ، قال :

« اتَّصل بي عن ثقة من أصحابي انَّ ثلَّة من أعضاء المجمع العلميّ العربيّ ، وفيهم الأستاذ كرد علي والشيخ المغربيّ ، كانوا يحدقون بالأمير [يريد الأمير شكيب] يوم كان رئيساً للمجمع ، فجيء على ذكر [نهج البلاغة] ، وأنكر الرَّئيس السَّابق [يريد الأستاذ كرد علي] ، ومعه زميله الأستاذ المغربيّ أن يكون كتاب النَّهج من كلام أمير المؤمنين عليّ ، عليه السَّلام . فلم يشأ أمير البيان [يريد الأمير شكيب] أن يشاركهم الرَّأي ، ولا أن يعارضهم فيه . ولكنَّه ظلَّ صامتاً . فاستجوبه بعض منهم ، وألحَّ في طلب الرَّأي منه ، فقال ما مضمونه : قد تزعمون أنَّ الشَّريف الرَّضيّ ، وهو جامع الكتاب ، هو واضعه ؟ فقالوا : أجل ، قال : إذن تريدون أن تنزعوا صفة أبلغ الخلق وأفصحهم ، بعد الرَّسول عن الإمام ، ثمَّ تثبتونها للشَّريف الموسويّ ! » .

من خطبه
في الحثّ على الجهاد

قال من خطبة له[1] :

فيا عجباً ! عجباً ، والله ، يميت القلب ، ويجلب الهمَّ من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم ، وتفرُّقكم عن حقِّكم . فقبحاً لكم . وتَرَحاً[2] حين صرتم غرضاً[3] يُرمى : يُغار عليكم ولا تغيرون ، وتغزون ولا تغزون ، ويُعصى الله وترضون ! فاذا أمرتكم بالسَّير اليهم في أيام الصَّيف قلتم : هذه حَمارَّة القيظ[4] ، أمهلنا يُسبَّخ[5] عنَّا الحرُّ . وإذا أمرتكم بالسَّير اليهم في الشِّتاء قلتم : هذه صَبارَّة القرّ[6] أمهلنا ينسلخ عنَّا البرد . كلُّ هذا فراراً من الحرّ والقُرِّ . فإذا كنتم من الحرِّ والبرد تفرُّون فأنتم ، والله ، من السَّيف أفرُّ .

* * *

وله من خطبة أخرى[7] :

أيَّ دارٍ بعد داركم تمنعون ؟ ومع أيِّ إمام بعدي تقاتلون ؟

---

(1) وقد قالها يستنهض بها النَّاس حين ورد خبر غزو الأنبار بجيش معاوية ، ولم ينهضوا .
(2) أي : همَّاً وحزناً ، أو فقراً .
(3) الغرض : ما يُنصب ليرمى بالسُّهام .
(4) حمارَّة القيظ : شدَّة الحرُّ .
(5) التَّسبيخ : التَّخفيف ، والتَّسكين .
(6) صبارَّة الشُّتاء : شدَّة برده . والقرُّ : البرد ، وقيل : هو برد الشُّتاء خاصَّةً .
(7) قالها بعد قصَّة الحكمين ، وفيها يستنهض أصحابه لما حدث في الأطراف .

المغرور ، والله ، من غررتموه ، ومن فاز بكم فاز ، والله ، بالسَّهم الأَخيب[1] . ومن رمى بكم فقد رمى بأفوقَ ناصـل[2] . أصبحتُ ، والله ، لا أُصدِّق قولكم ، ولا أطمع في نصـركم ، ولا أُوعِد العـدوَّ بكم . ما بالكم ! ما دواؤكم ! ما طبُّكم ! . .

* * *

وله من أُخرى[3] :

ما أنتم لي بثقةٍ سجيس[4] اللَّيالي . وما أنتم بركن يُمال بكم[5] ، ولا زوافر[6] عزٍّ يُفتقر اليكم ! ما أنتم إلاَّ كإبلٍ ضلَّ رعاتها ، فكلَّما جُمعت من جانبٍ انتشرت من آخر . لبئس ، لعمر الله ، سُعْرُ[7] نار الحرب .

الحرب أنتم ! تُكادون ولا تكيدون ، وتُنتقص أطرافكم فلا تمتعضون[8] (إلى أن يقول :) والله ! إنَّ امرءاً عدوَّه من نفسه يَعْرُق لحمه[9] ، ويَهْشم عظمه ، ويفري[10] جلده ، لعظيمٌ عجزه ، ضعيفٌ ما ضمَّت

---

(1) السَّهم الأخيب : من سهام الميسر الذي لا حظَّ له .

(2) الأفوق من السِّهام : مكسور الفوق . والفوق : موضع الوتر من السَّهم . والناصل : العاري من النَّصل .

(3) وقد قالها في الاستنفار الى اهل الشَّام ، بعد فراغه من أمر الخوارج .

(4) كلمة تقال بمعنى « أبداً » .

(5) أي يمُال على العدوّ بعزّكم وقوّتكم .

(6) الزَّافرة من البناء : ركنه ، ومن الرَّجل : عشيرته ، وأنصاره .

(7) السُّعْر : أصله مصدر سعر النَّار ، أوقدها . وقيل : جمع ساعر ، كركب جمع راكب .

(8) امتعض : غضب .

(9) أي يأكل لحمه ، حتَّى لا يبقى منه شيء .

(10) فراه : مزَّقه .

عليه جوانح صدره . أنت فكن ذاك ، إن شئتَ ، فأمَّا أنا ، فوالله ، دون أن أعطي ذلك ضربٌ بالمشرفيَّة[1] (الى أن يقول) : ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء !

* * *

ومن خطبه[2] :

قد استطعموكم[3] القتال فأقرُّوا على مذلَّة ، وتأخير من روُّوا السُّيوف من الدِّماء تُروَّوا من الماء . فالموت في حياتكم مقهورين ، والحياة في موتكم قاهرين !

ومن خطبه[4] :

هذا جزاء من ترك العقدة[5] ! أما والله لو حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الَّذي يجعل الله فيه خيراً ، فان استقمتم هديتكم ، وان اعوججتم قوَّمتكم ، وان أبيتم تداركتكم ، لكانت الوُثقى ! ولكن بمن ، وإلى من ؟

---

(1) هي السيوف التي تُنسب الى « مشارف » . و « مشارف » قرىً . قيل : انها من بلاد اليمن ، وقيل غير ذلك .

(2) قالها لمَّا غلب أصحاب معاوية أصحابه على مورد الشَّاربة من « الفرات » في « صفِّين » ، ومنعوهم الماء .

(3) يقال « فلان يستطعمني الحديث » ، أي : يستدعيه مني .

(4) قالها بعد ليلة « الهرير » .

(5) يريد : ما حصل عليه التعاقد من حرب الخارجين عن البيعة .

أريد أن أداوي بكم ، وأنتم دائي (إلى أن يقول :) اللّهمّ : قد مَلّت أطباء هذا الدَّوِي[1] (إلى أن يقول :) أين القوم الّذين دُعْوا إلى الإسلام فقبلوه ، وقرأوا القرآن فأحكموه ، وهيجوا إلى القتال فولهوا وله اللِّقاح[2] إلى أولادها ، وسلبوا السُّيوف أغمادها ، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً ، وصفّاً صفّاً ! بعضٌ نجا ، وبعضٌ هلك . لا يبشّرون بالأحياء ، ولا يُعزّون عن الموتى[3] . مُرْه[4] العيون من البكاء . خمص البطون[5] من الصِّيام . ذُبْلُ الشّفاه من الدُّعاء . صُفْرُ الألوان من السّهر . على وجوههم غبرة الخاشعين . أولئك إخواني الذّاهبون . فحقّ لنا أن نظمأ اليهم ، ونعضّ الأيدي على فراقهم !

* * *

ومن خطبه[6] :

إنّ الصّابرين على نزول الحقائق[7] هم الّذين يحفّون براياتهم ، ويكتنفون حِفافَيها[8] ، وراءَها وأمامها ، ولا يتأخّرون عنها فيُسْلموها

---

(1) الدّاء الدّويّ : المؤلم الشّديد .

(2) اللِّقاح : جمع لقوح ، وهي النّاقة .

(3) أي : إذا قيل لهم « نجا فلان ، فبقي حيّاً » لا يفرحون . لأنّ أفضل الحياة عندهم الموت في سبيل الحقّ . وهم لا يحزنون إذا قيل لهم : « مات فلان » فانّ الموت عندهم حياة السعادة الأبديّة .

(4) جمع أمره . من مرهت عينه ، إذا فسدت .

(5) أي : ضوامرها .

(6) قالها في ساحة الحرب ، في « صفّين » .

(7) جمع حاقة ، وهي النّازلة الشّديدة .

(8) جانباها .

(إلى أن يقول :) وايمُ الله ! لئن فررتم من سيف العاجلة لا تسلموا من سيف الآخرة . وأنتم لهاميم[1] العرب ، والسَّنام الأعظم . إنَّ في الفرار موجدة الله[2] ، والذلُّ اللاّزم ، والعار الباقي . وانَّ الفارَّ لغيرُ مزيد في عمره ، ولا محجوزٍ بينه وبين يومه . الرَّائح[3] إلى الله كالظمآن يرد الماء . الجنَّة تحت أطراف العوالي . اليومَ تُبلى الأخبار[4] ! والله لأنا أشوق إلى لقائهم منهم إلى ديارهم (إلى أن يقول :) إنهم لن يزولوا عن مواقفهم دون طعنٍ دراكٍ[5] يخرج منه النسيم[6] !

* * *

ومن خطبة له[7] :

أين المانع للذِّمار ، والغائر عند نزول الحقائق[8] من أهل الحفاظ[9] ؟ العار وراءَكم ، والجنَّة أمامكم .

---

(1) جمع لِهميم : الجواد السَّابق من الانسان والخيل .

(2) أي غضبه .

(3) وفي نسخة : « من رائح » .

(4) أي تمُتحن أخبار كلِّ امرىء عما في قلبه من دعوى الشجاعة .

(5) دراك : متتابع .

(6) أي انَّ ذلك الطَّعن يفتح في أبدانهم جراحاً واسعة نافذة ، حتى ليمّر منها النَّسيم .

(7) قالها لمَّا عزم لقاء القوم في « صفِّين » .

(8) يريد : النَّوازل الشَّديدة .

(9) « من أهل الحفاظ » : بيان للمانع والغائر .

الطّاووس[1]

تخال قَصَبه[2] مداري[3] من فضّة، وما أُنبت عليها من عجيب داراته[4] وشموسه خالص العقيان[5] وفلذ[6] الزّبرجد. فإن شبَّهتَهُ بما أنبتت الأرض قلتَ جَنيٌّ[7] جُنيَ من زهرة كلّ ربيع. وإن ضاهيته بالملابس فهو كموشيِّ الحلل، أو كمونق عصْب[8] اليَمن. وإن شاكلتَهُ بالحليِّ فهو كفصوص ذات ألوان، قد نُطِّقت باللجين[9] المكلَّل[10]. يمشي مشي المرحِ المختال، ويتصفَّح ذنبه وجناحيه فيقهقه ضاحكاً لجمال سرباله[11]، وأصابيغ وشاحه. فإذا رمى ببصره إلى قوائمه زقا[12] معولاً بصوت يكاد يبين عن استغاثته، ويشهد

---

(1) من خطبة له يذكر فيها خلقة الطّاووس.
(2) (جمع قصبة) هي عمود الرِّيش.
(3) (جمع مِدرى، والمدرى والمدراة مصنوع من حديد أو خشب على شكل سنّ من أسنان المشط، وأطول منه، يُسرَّح به الشّعر المتلبِّد.
(4) الدّارات: هالات القمر.
(5) الذّهب الخالص.
(6) جمع فلذة، بمعنى القطعة.
(7) أي مجتنى.
(8) ضرب من البرود منقوش.
(9) أي جُعل اللُّجين، وهو الفضة، منطقةً لها.
(10) المكلَّل: المزيَّن بالجواهر.
(11) اللُّباس مطلقاً، أو هو الدّرع خاصّةً.
(12) صاح، وأعول.

بصادق توجُّعه ، لأن قوائمه حُمشٌ[1] كقوائم الدِّيكة الخلاسيَّة[2] (إلى أن يقول :) وله في موضع العُرف قُنزعة[3] خضراء موشَّاة . ومَخرج عنقه كالإبريق . ومَغرزها إلى حيث بطنُهُ كصبغ الوَسِمة[4] اليمانيَّة ، أو كحريرةٍ مُلْبسةٍ مرآةً ذات صقال . وكأنه متلفِّع بمِعْجر[5] أسحم[6] . إلاَّ انه يخيَّل لكثرة مائه، وشدَّة بريقه أنَّ الخضرة الناضرة ممتزجة به . ومع فتْق سمعه خطٌّ كمستدَقِّ القلم في لون الأُقحوان ، أبيض يَقَقٌ[7] . فهو ببياضه في سواد ما هنالك يأتلق . وقلَّ صبغٌ إلاَّ وقد أَخذ منه بقسط ، وعلاه[8] بكثرة صقاله وبريقه وبصيص[9] ديباجه ورونقه . فهو كالأَزاهير المبثوثة لم تُربِّها[10] أمطار ربيعٍ ، ولا شموس قيظ . وقد يتحسَّر[11] من ريشه ، ويعرى من لباسه ، فيسقط تترى[12] ، وينبت تباعاً ، فينحتُّ من[13] قصبه انحتات أوراق الأَغصان ، ثمَّ

---

(1) جمع أحمش ، أي دقيق .

(2) الدِّيك الخلاسيّ : هو المتولِّد بين دجاجتين هنديَّة وفارسيَّة .

(3) القُنزعة : الخصلة من الشَّعر تُترك على رأس الصَّبيِّ .

(4) هي نبات يُخضب به .

(5) ثوب كالعصابة تلفُّه المرأة على استدارة رأسها .

(6) الأسحم : الأسود .

(7) اليقق : شديد البياض .

(8) أي : فاق اللَّون الَّذي أخذ نصيباً منه بكثرة جلائه .

(9) البصيص : اللّمعان .

(10) لم تربِّها : فعلٌ من التَّربية .

(11) تحسَّر الطائر : تبدَّل من ريشه .

(12) وتترى أي : شيئاً بعد شيء .

(13) يسقط ، وينقشر .

يتلاحق نامياً حتّى يعود كهيئته قبل سقوطه . لا يخالف سالف ألوانه ، ولا يقع لون في غير مكانه . واذا تصفّحتَ شعرةً من شعرات قصبه أرتك حمرة ورديّةً ، وتارةً خضرةً زبرجديّةً ، وأحياناً صفرةً عسجديّةً[1] . فكيف نصل إلى صفة هذا عمائق[2] الفطن ، أو تبلغه قرائح العقول ، أو تستنظم وصفه أقوال الواصفين ، وأقلُّ أجزائه قد أعجز الأوهام أن تدركه ، والألسنة أن تصفه !

* * *

الجرادة[3]

وإن شئتَ قلتُ في الجرادة ، إذ خلق لها عينين حمراوين ، وأسرج لها حدقتين قمراوين[4] ، وجعل لها السَّمع الخفيَّ ، وفتح لها الفم السَّويَّ ، وجعل لها الحسَّ القويَّ ، ونابين بهما تقرض ، ومنجلين بهما تقبض . يرهبها الزُّرَّاع في زرعهم ، ولا يستطيعون ذبَّها[5] ولو أجلبوا بجمعهم ، حتى تردَ الحرث في نزواتها ، وتقضي منه شهواتها ، وخَلقُها كلُّه لا يكون إصبعاً مستدقّةً[6] .

---

(1) ذهبيّة .

(2) جمع عميقة .

(3) من خطبة له يصف فيها أصنافاً من الحيوان .

(4) قمراوين : أي مضيئين ، كانَّ كلاً منهما ليلة أضاءها القمر .

(5) أي : دفعها .

(6) أي : لا يكون في حجم الإصبع الصغيرة .

الخفاش[1]

ومن لطائف صنعته ، وعجائب خلقته ، ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضِّياء الباسط لكلِّ شيء ، ويبسطها الظلام القابض لكلِّ حيٍّ ، وكيف عشيت أَعينها عن أَن تستمدَّ من الشَّمس المضيئة نوراً تهتدي به في مذاهبها ، وتتَّصل بعلانية برهان الشَّمس إلى معارفها ، وردعها ، بتلألُؤِ ضيائها عن المضيِّ في سُبُحات إِشراقها ، (إلى أن يقول) : فسبحان من جعل اللَّيل لها نهاراً ومعاشاً ، والنَّهار سكناً وقراراً ، وجعل لها أَجنحةً من لحمها تعرُج بها عند الحاجة إلى الطَّيران كأَنها شظايا[2] الآذان ، غير ذوات ريشٍ ، ولا قَصَب[3] . إلاَّ أَنك ترى مواضع العروق بيِّنةً أعلاماً[4] . لها جناحان لمَّا يَرِقَّا[5] فينشقَّا ، ولم يغلظا فيثقلا . تطير وولدها لاحقٌ بها ، لاجىءٌ إليها ، يقع إذا وقعت ، ويرتفع إذا ارتفعت ، لا يفارقها حتَّى تشتدَّ أَركانه ، ويحمله للنُّهوض جناحه ، ويعرف مذاهب عيشه .

---

(1) من خطبة له يذكر فيها خلقة الخفاش .

(2) الشُّظايا : جمع شظيَّة . وهي الفلقة من الشيء . أي كأَنها مؤلَّفة من شقق الآذان .

(3) القصبة : عمود الرِّيشة ، أو أسفلها المتصل بالجناح .

(4) أي رسوماً ظاهرة .

(5) عبَّر بلمَّا إشارة إلى أنَّهما ما رقَّا في الماضي ، ولاهما رقيقان . فهو نفي مستمر إلى وقت الكلام في أيِّ زمن كان .

الجنَّة[1]

فلو رميتَ ببصر قلبك نحو ما يوصف لك منها لعزفت[2] نفسك عن بدائع ما أُخرج إلى الدُّنيا من شهواتها ولذّاتها ، وزخارف مناظرها ، ولذهلتَ بالفكر في اصطفاق أشجارٍ غُيِّبت عروقها في كثبان[3] المسك على سواحل أنهارها ، وفي تعليق كبائس[4] اللُّؤلؤ الرَّطب في عساليجها[5] وأفنانها ، وطلوع تلك الثِّمار مختلفةً في غُلُف[6] أكمامها . تُجنى من غير تكلُّف ، فتأْتي على منية مجتنيها . ويطاف على نُزَّالها في أفنية قصورها بالأعسال المصفَّقة[7] ، والخمور المروَّقة . قومٌ لم تزل الكرامة تتمادى بهم حتَّى حلُّوا دار القرار ، وأَمنوا نُقلة الأسفار .

فلو شغلتَ قلبك ، أَيُّها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونقة لزهقت نفسك شوقاً إليها ، ولتحمَّلت من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالاً بها !

عند دفن ابنته

وهو من كلام له عند دفن فاطمة الزَّهراء .

السَّلام عليك ، يا رسول الله ، عنّي وعن ابنتك النَّازلة في

---

(1) من الخطبة التي ذكر فيها خلقة الطَّاووس .

(2) عزفت نفسه عن الشَّيء : زهدت فيه وملَّته .

(3) جمع كثيب ، وهو التَّلُّ .

(4) الكُباسة : العِذق . والعذق للنخلة كالعنقود للعنب .

(5) العساليج : الغصون .

(6) جمع غلاف .

(7) المصفَّاة .

جوارك ، والسَّريعة اللَّحاق بك . قلَّ ، يا رسول الله ، عن صفيَّتك[1] صبري ، ورقَّ[2] عنها تجلُّدي . إلاَّ أنَّ لي في التَّأسِّي بعظيم فرقتك ، وفادح مصيبتك ، موضع تعزٍ . فلقد وسَّدتك في ملحودة قبرك[3] ، وفاضت بين نحري وصدري نفسك . إنَّا لله وإنَّا اليه راجعون . فلقد استُرجعت الوديعة ، وأُخذت الرَّهينة ! أمَّا حزني فسرمد ، وأمَّا ليلي فمسهَّد إلى أن يختار الله لي دارك الَّتي أنت بها مقيم ، وستنبئك ابنتك بتضافر أُمَّتك على هضمها[4] . فأحفها السُّؤال[5] ، واستخبرها الحال . هذا ولم يطلِ العهد ، ولم يخلُ منك الذِّكر . والسَّلام عليكما سلام مودِّعٍ لا قالٍ[6] ولا سئم[7] . فإن أنصرف فلا عن ملالة ، وإن أُقمْ فلا عن سوء ظنٍّ بما وعد الله الصَّابرين !

في ذمّ الدُّنيا[8]

أُحذِّركم الدُّنيا فانَّها حلوةٌ خَضِرة ، حُفَّت بالشَّهوات ، وتحبَّبت بالعاجلة ، وراقت بالقليل (إلى أن يقول :) غرَّارة ضرَّارة ، حائلة[9]

---

(1) الصَّفية : المستصفاة دون غيرها .
(2) أي : ضعف .
(3) ملحودة القبر : الجهة المشقوقة منه .
(4) المضم الذي يشير اليه هنا : هو ما يتعلّق بقصّة « فدك » المعروفة ، وما كان الامام يراه حقّاً له من الخلافة .
(5) احفاء السؤال : الاستقصاء فيه .
(6) القالي : المبغض .
(7) السّئم : من السّامة .
(8) من خطبة له في ذمّ الدُّنيا .
(9) حائلة : زائلة .

من رسائله
إلى الأَشتر النَّخَعِي[1]

قال من كتاب له إلى الأَشتر النَّخَعِي لمَّا ولاَّه مصر[2] :

ثمَّ اعلم ، يا مالك ، أنيِّ قد وجَّهتُك إلى بلادٍ قد جرت عليها دولٌ قبلك من عدلٍ وجور ، وأنَّ النَّاس ينظرون من أُمورك في مثل ما كنتَ تنظر فيه من أُمور الولاة قبْلك ، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم (إلى أن يقول) : وأَشعرْ قلبك الرَّحمة للرَّعيَّة ، والمحبَّة لهم ، واللُّطف بهم . ولا تكوننَّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم ، أكلهم ، فانَّهم صنفان : إمَّا أَخٌ لك في الدِّين ، أو نظير لك في الخَلْق ، يفرط[3] منهم الزَّلل ، وتعرض العلل ، ويُؤْتى على أيديهم في العمْد والخطإ . فأَعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحبُّ أن يعطيك الله من عفوه وصفحه . فانَّك فوقهم ، ووالي الأَمر عليك فوقك ، والله فوق من ولاَّك ! (إلى أن يقول :) وإذا أَحدث لك ما أَنت فيه من سلطانك أُبَّهةً[4] ، أو مخِيْلة[5] ، فانظرْ إلى عظم ملك الله فوقك ، وقدرته منك على ما لا

---

(1) هو مالك بن الحارث النَّخَعِي ، المعروف بالأشتر . (توفي سنة 657 . ولا تاريخ لميلاده) من كبار الشُّجعان ، ويُعدُّ من العلماء ومن الفصحاء . وكان ممَّن ألَّب على عثمان ، وشهد يوم « الجمل » ، وأيَّام « صفِّين » مع الإمام . ولأه الإمام مصر ، فقصدها ، فمات في الطَّريق .

(2) قال الشَّريف الرَّضي في تعليق له على هذا الكتاب : « هو أطول عهد ، وأجمع كتبه للمحاسن » .

(3) يفرط : يسبق .

(4) الأُبَّهَة : العظمة والكبرياء .

(5) المخيلة : الخيلاء والعجب .

زائلة ، نافدة[1] بائدة[2] (إلى أن يقول :) أفهذه تؤثرون ؟ أم إليها تطمئنُّون ؟ أم عليها تحرصون ؟ (إلى أن يقول :) فاعلموا ، وأنتم تعلمون ، بأنَّكم تاركوها ، وظاعنون عنها . واتَّعظوا فيها بالذين قالوا : « من أشدُّ منَّا قوَّةً » . حُملوا إلى قبورهم فلا يُدعون رُكباناً[3] ، وأنزلوا الأجداث فلا يُدعون ضيفاناً ، وجُعل لهم من الصَّفيح[4] أجنان[5] ، ومن التُّراب أكفان ، ومن الرُّفات جيران . فهم جيرة لا يجيبون داعياً ولا يمنعون ضيماً ، ولا يبالون مندبةً . إن جِيدوا[6] لم يفرحوا وان قُحِطوا لم يقنطوا ، جميعٌ وهم آحاد ، وجيرة وهم أبعاد متدنون لا يتزاورون وقريبون ، لا يتقاربون . حلماء قد ذهبت أضغانهم ، وجهلاء قد ماتت أحقادهم . لا يُخشى فجعُهم[7] ، ولا يُرجى دفعهم . استبدلوا بظهر الأرض بطناً ، وبالسَّعة ضيقاً ، وبالأهل غربة ، وبالنُّور ظلمةً . فجاءُوها كما فارقوها . حُفاة ، عُراة .

---

(1) نافدة : فانية .

(2) أي هالكة .

(3) ركبان : جمع راكب .

(4) الصفيح : وجه كلّ شيء عريض . والمراد هنا : وجه الأرض .

(5) الأجنان : جمع جنن ، وهو القبر .

(6) مُطروا . (من جاده الغيث) .

(7) أي : لا يُخاف منهم أن يفجعوا بضرر .

تقدر عليه من نفسك ، فانَّ ذلك يطامن[1] إليك من طماحك[2] . (إلى أن يقول :)

وانَّ سُخط الخاصَّة يُفتقر مع رضا العامَّة . وليس أحد من الرَّعيَّة أثقل على الوالي مؤونة في الرَّخاء ، وأقلَّ معونةً له في البلاء ، وأكره للإنصاف ، وأسأل بالإلحاف[3] ، وأقلَّ شكراً عند الإعطاء ، وأبطأ عذراً عند المنع ، وأضعف صبراً عند ملمَّات الدَّهر من أهل الخاصَّة (إلى أن يقول :)

إنَّ شرَّ وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً . ومن شركهم في الآثام فلا يكوننَّ لك بطانةً ، فانَّهم أعوان الأثمة ، وإخوان الظَّلمة . وأنت واجد منهم خير الخلَف ممَّن له مثل آرائهم ونفاذهم ، وليس عليه مثل آصارهم[4] وأوزارهم ممَّن لم يعاون ظالماً على ظلمه ، ولا آثماً على إثمه (إلى أن يقول :)

ولا يكوننَّ المحسن والمسيءُ عندك بمنزلةٍ سواءٍ ، فانَّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءَة على الإساءَة ! وألزم كلاًّ منهم ما ألزم نفسه (إلى أن يقول :)

ثمَّ اعرفْ لكلِّ امرىء منهم ما أبلى ، ولا تضيفنَّ بلاء امريء إلى غيره ، ولا تُقَصِّرنَّ به دون غاية بلائه ، ولا يدعونَّك شرف امرىءٍ إلى

---

(1) يطامن : يخفض .

(2) الطماح : النّشوز والجماح .

(3) الإلحاف : الإلحاح ، والشدَّة في السُّؤال .

(4) الآصار : الذُّنوب والآثام .

أن تُعْظم من بلائه ما كان فقيراً ، ولا ضعة امرىءٍ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً (إلى أن يقول :)

ثمّ اختر للحكم[1] بين الناس أفضل رعيّتك ممّن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه[2] الخصوم ، ولا يتمادى في الزَّلَّة ، ولا يحصر[3] من الفيءِ إلى الحقّ إذا عرفه ، ولا تُشرف نفسه على طمعٍ ، ولا يكتفي بأدنى فهمٍ دون أقصاه . وأوقفهُمْ في الشبهات[4] ، وآخذَهُم بالحجج ، وأقلَّهم تبرُّماً بمراجعة الخصم ، وأصبرَهم على تكشُّف الأمور ، وأصرمَهُم عند اتّضاح الحكْم ، ممّن لا يزدهيه إطراء ، ولا يستميله إغراء ،وأولئك قليلٌ ! ثمّ أكثر تعاهد قضائه ، وافسح له في البذل[5] ما يزيل علّته، وتقلُّ معه حاجته إلى النَّاس ، واعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصّتك ، ليأمن بذلك اغتيال الرِّجال له عندك . فانظر في ذلك نظراً بليغاً (إلى أن يقول :)

وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لأنَّ ذلك لا يُدرك الاَّ بالعمارة . ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد ، وأهلك العباد . ولم يستقم أمره إلاَّ قليلاً . فان

---

(1) يريد بالحكم هنا : القضاء .

(2) أمحكه : جعله عسر الخُلق ، أو أغضبه .

(3) حصر : ضاق صدره .

(4) هذا ، وما بعده : إتباع لقوله : « أفضل رعيّتك » .

(5) البذل : العطاء .

شكوا ثقلاً[1] ، أو علّةً[2] ، أو انقطاع شِرْبٍ أو بالّةٍ[3] ، أو إحالة أرضٍ[4] ، اغتمرها[5] غرق ، أو أجحف بها عطش[6] ، خفّفت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم . ولا يثقلنّ عليك شيء خفّفت به المؤونة عنهم ، فانّه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك ، وتزيين ولايتك ، مع استجلابك حسن ثنائهم ، وتبجُّحك باستفاضة العدل فيهم . معتمداً فضل قوّتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم ، والثّقة منهم بما عوّدتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم . فربّما حدث من الأمور ما اذا عوّلت فيه عليهم من بعدُ احتملوه طيّبةً أنفسُهم به . فانّ العمران محتمِلٌ ما حَمّلته . وإنّما يُؤْتى خراب الأرض من إعواز أهلها . وإنّما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجَمْع[7] ، وسوء ظنّهم بالبقاء ، وقلّة انتفاعهم بالعِبَر (إلى أن يقول :)

ثمَّ استوصِ بالتُّجار وذوي الصّناعات ، وأوصِ بهم خيراً : المقيم منهم ، والمضطرب[8] بماله ، والمترفّق[9] ببدنه . فانّهم موادّ المنافع ، وأسباب المرافق[10] وجلاّبها من المباعد والمطارح ، في برّك

---

(1) أي : ثقل المضروب من مال الخراج .

(2) أي : علّة سماويّة تنزل بأرضهم .

(3) أي : ما يبلُّ الأرض من مطر .

(4) « إحالة أرضٍ » : أي تحويلها البذر إلى فساد بالتعفّن لما عمّها من الغرق .

(5) اغتمرها أي : عمّها من الغرق .

(6) « أجحف بها العطش » : أي ذهب بمادّة الغذاء منها فلم ينبت .

(7) يريد : جمع المال .

(8) المضطرب : المتردّد بأمواله بين البلدان .

(9) المترفّق : المكتسب .

(10) ما به يتمُّ الانتفاع ، كالآنية والأدوات ، وما يشبه ذلك .

وبحرك وسهلك وجبلك (إلى أن يقول :) وتفقَّدْ أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك . واعلمْ ، مع ذلك ، أنَّ في كثيرٍ منهم ضيقاً فاحشاً ، وشحّاً قبيحاً ، واحتكاراً للمنافع ، وتحكّماً في البياعات ، وذلك باب مضرَّةٍ للعامَّة ، وعيبٌ على الولاة ، فامنع من الاحتكار (إلى أن يقول :) وليكن البيع بيعاً سمحاً : بموازين عدلٍ ، وأسعارٍ لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع . فمن قارف[1] حُكْرَةً[2] بعد نهيك إيّاه فنكِّل به ، وعاقبه في غير إسراف .

ثمَّ اللهَ اللهَ في الطَّبقة السُّفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين ، وأهل البؤسى[3] والزَّمْنى[4] ، فان في هذه الطَّبقة قانعاً[5] ومُعْتَرّاً[6] (إلى أن يقول :) فلا تُشخص همَّك[7] عنهم ولا تصعِّر خدَّك لهم[8] ، وتفقَّدْ أمور من لا يصل إليك منهم ، ممَّن تقتحمه العيون ، وتحْقِره الرِّجال (إلى أن يقول :) فانَّ هولاء من بين الرَّعيَّة أحوج إلى الإنصاف من غيرهم (الى أن يقول :) وتعهَّدْ أهل اليتم وذوي الرِّقة في السنِّ[9] ممَّن لا حيلة له ، ولا ينصب للمسألة نفسه .

---

(1) أي : خالط .

(2) الحكرة : الاحتكار .

(3) البؤسى : شدَّة الفقر .

(4) جمع زمين ، وهو المصاب بالزَّمانة ، أي : العاهات . يريد أصحاب العاهات المانعة لهم عن الاكتساب .

(5) القانع : السَّائل .

(6) المعترّ : المتعرِّض للعطاء بلا سؤال .

(7) أي : لا تصرف همَّك عن ملاحظة شؤونهم .

(8) صعَّر خدَّه : أماله اعجاباً وكبراً .

(9) أي المتقدِّمون فيها .

وذلك على الولاة ثقيل . والحق كلّه ثقيل ! (إلى أن يقول) :

واجعلْ لذوي الحاجات منك قسْماً ، تفرِّغ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مجلساً عامّاً ، فتتواضع فيه لله الذي خلقك ، وتُقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرُطك ، حتّى يكلِّمك متكلِّمهم غير متتعتِع[1] ، فانّي سمعت رسول الله ، صلّى الله عليه وآله وسلّم ، يقول في غير موطن[2] : لن تقدَّس[3] أمّة لا يؤخذ للضّعيف فيها حقّة من القويّ غير متتعتِع » (إلى أن يقول :)

أمّا بعدُ ، فلا تطوّلنَّ احتجابك عن رعيّتك ، فانَّ احتجاب الولاة عن الرَّعيَّة شعبة من الضّيق ، وقلَّة علم بالأمور . والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه ، فيصغر عندهم الكبير ، ويعظم الصَّغير ، ويقبح الحَسَن ، ويحسن القبيح ، ويُشاب الحقّ بالباطل . وانّما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه النَّاس به من الأُمور . وليست على الحقِّ سمات[4] تُعرف بها ضروب الصِّدق من الكذب . وانَّما أنت أحد رجلين : إمَّا امرؤٌ سنحت نفسك بالبذل في الحقّ ، ففيما احتجابك من واجب حقٍّ تعطيه ، أو فعل كريم تسديه ! أو مبتلىً بالمنع ، فما أسرع كفَّ النَّاس عن مسألتك إذا أيسوا من بذْلك ! مع أنَّ أكثر حاجات النَّاس إليك ممَّا لا مؤونة فيه عليك ، من شكاة[5]

---

(1) التَّعتعة في الكلام : التَّردُّد فيه من عجزٍ وعيٍّ .

(2) أي : في مواطن كثيرة .

(3) التَّقديس : التَّطهير .

(4) جمع سمة ، وهي العلامة .

(5) الشُّكاة : الشكاية .

مظلمةٍ ، أو طلب إنصاف في معاملة (إلى أن يقول :)

ثمّ إنّ للوالي خاصّةً وبطانةً فيهم استئثار ، وتطاول ، وقلّة إنصاف في معاملة ، فاحسم مادّة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال (إلى أن يقول :)

إيّاك والدِّماءَ وسفكها بغير حلِّها . فانّه ليس شيء أدنى لنقمة ، ولا أعظم لتبعة ، ولا أحرى بزوال نعمة ، وانقطاع مدّة ، من سفك الدِّماء بغير حقِّها (إلى أن يقول :)

وإيّاك والاستئثار بما النّاس فيه أسوة ، والتّغابي عمّا تُعنى به ممّا قد وضح للعيون ، فانّه مأخوذ منك لغيرك . وعمّا قليل تنكشف عنك أغطية الأمور، ويُنتصف منك. املكْ حميَّة أنفك وسورة[1] حدِّك[2] ، وسطوة يدك ، وغرب[3] لسانك . واحترس من كلّ ذلك بكفِّ البادرة[4] ، وتأخير السَّطوة (إلى أن يقول :)

والواجب عليك أن تتذكّر ما مضى لمن تقدّمك من حكومةٍ عادلة ، أو سنَّة فاضلة ، أو أثر عن نبيِّنا ، صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، أو فريضة في كتاب الله ، فتقتدي بما شاهدتَ ممّا عملنا به فيها ، وتجتهد لنفسك في اتِّباع ما عهدتُ اليه في عهدي هذا ، واستوثقتُ به من الحجَّة لنفسي عليك .

---

(1) السورة : الحدَّة .

(2) الحدُّ : البأس .

(3) الغَرْب : الحدُّ .

(4) البادرة : ما يبدر من اللِّسان عند الغضب من سباب ونحوه .

تعزية عن ميت

وقال يعزّي قوماً عن ميت مات لهم :

هذا الأمر[1] ليس لكم بدأ ، ولا إليكم انتهى . وقد كان صاحبكم هذا يسافر ، فعدُّوه في بعض أسفاره . فإن قَدِم عليكم وإلاَّ قَدِمتم عليه !

تعزية عن ابن

وقال يعزِّي الأشعث بن قيس[2] عن ابنٍ له :

يا أشعث : إن تحزنْ على ابنك ، فقد استحقَّت منك ذلك الرَّحم . وإن تصبر ، ففي الله من كلّ مصيبة خَلَفٌ !

يا أشعث : إن صبرتَ ، جرى عليك القدر وأنت مأجور ، وإن جزعت ، جرى عليك القدر وأنت مأزور[3] !

يا أشعث : ابنك سرّك ، وهو بلاء وفتنة ، وحَزَنَكَ وهو ثواب ورحمة[4] . . .

---

(1) يريد : الموت .

(2) الأشعث بن قيس الكنديّ : أمير كندة في الجاهلية والإسلام . وُلد سنة 600 وتوفي سنة 661 . وكان من ذوي الرّأي والإقدام ، موصوفاً بالهيبة . حضر مع الإمام عليّ يوم صفين ، ووقعة النّهروان .

(3) أي : مقترف للوزر ، وهو الذُنب .

(4) أي : سرّك ، وذلك عند ولادته ، وهو إذ ذاك بلاء بتكاليف تربيته ، وفتنة بشاغل محبّته ، وحزنك ، وذلك عند موته .

من رسائله
إلى مُعاوية[1]

قال من رسالة :

ومتى كنتم ، يا مُعاوية ، ساسة الرَّعيَّة ، وولاة أمر الأمَّة بغير قدم سابق ، ولا شرف باسق ! ونعوذ بالله من لزوم سوابق الشَّقاء (إلى أن يقول :) وقد دعوتَ إلى الحرب ، فدع النَّاس جانباً ، وآخرج اليَّ ، وأعفِ الفريقين من القتال ، ليُعلم أيُّنا المَرين[2] على قلبه ، والمغطَّى على بصره . فأنا أبو حسنٍ قاتل جدِّك وخالك وأخيك شدْخاً[3] يوم « بدر » . وذلك السَّيف معي ، وبذلك القلب ألقى عدوِّي . ما استبدلتُ ديناً ، ولا استحدثتُ نبيّاً . وانِّي لعلى المنهاج[4] الذي تركتموه طائعين ، ودخلتم فيه مكرهين .

وزعمتَ أنكَّ جئت ثائراً بعثمان[5] . ولقد علمتَ حيث وقع دم عثمان ، فاطلبه من هناك إن كنتَ طالباً !

* * *

---

(1) معاوية بن أبي سفيان (وُلد سنة 603 وتوفي سنة 680) مؤسس الدَّولة الأمويَّة في الشَّام ، وأحد دهاة العرب المتميِّزين ، ومن عظماء الفاتحين في الإسلام .
نادى بثأر عثمان ، واتَّهم الإمام بدمه ، ونشبت بينهما حروب طاحنة ، وذلك في خبر طويل .

(2) من ران ذَنْبُه على قلبه : غلب عليه .

(3) أي كسراً . قيل : الشَّدخ هو الكسر في الرَّطب ، وقيل : في اليابس .

(4) يريد بالمنهاج : طريق الدِّين الاسلام ، ولم يدخل فيه معاوية وأبوه الاَّ بعد الفتح كرهاً .

(5) ثأر به : طلب بدمه .

وقال من رسالة أخرى :

فأمَّا طلبُك اليَّ « الشَّام » فانِّي لم أكن لأُعطيك اليوم ما منعتك أمس . وأمَّا قولك إنَّ الحرب قد أكلت العرب إلَّا حشاشات أنفسٍ بقيت ، ألا ومن أكله الحقُّ فإلى الجنَّة ، ومن أكله الباطل فإلى النَّار . وأمَّا استواؤنا في الحرب والرِّجال فلستَ بأمضى على الشَّكِّ منِّي على اليقين . وليس أهل « الشَّام » بأحرص على الدُّنيا من أهل العراق على الآخرة .

وأمَّا قولك إنَّا بنو عبد منافٍ فكذلك نحن ! ولكن ليس أُميَّةُ كهاشم ، ولا حرب كعبد المطَّلب ، ولا أبو سُفيان كأبي طالب ، ولا « المهاجر[1] كالطَّليق[2] ، ولا الصَّريح كاللَّصيق . ولا المحقُّ كالمبطل ، ولا المؤمن كالمُدغل[3] . ولبئس الخلَف خَلفٌ يتبع سلفاً هوى في نار جهنَّم !

* * *

وله من رسالة أخرى[4] :

أمَّا بعد ، فقد أتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء الله محمَّداً ، صلَّى الله عليه وآله ، لدينه ، وتأييده إيَّاه بمن أيَّده من أصحابه ، فلقد خبَّأ لنا

(1) « المهاجر » من آمن بالاسلام في المخافة ، والاسلام في ضعفه ، وهاجر تخلُّصاً منها .

(2) الطَّليق : الَّذي أسر فأطلق بالمنِّ عليه ، أو الفدية . وأبو سفيان ومعاوية كانا من الطلقاء يوم الفتح .

(3) المدغل : المفسد .

(4) قال الشَّريف الرَّضي في تعليق له على هذا الكتاب : « وهو من محاسن الكتب » .

الدّهر منك عجباً . إذ طفقتَ تخْبرنا ببلاء الله عندنا ، ونعمته علينا في نبيّنا . فكنتَ في ذلك كناقل التمر إلى « هَجَرَ »[1] ، أو داعي مسدِّده إلى النِّضال[2] . وزعمتَ أنَّ أفضل النّاس في الإسلام فلانٌ وفلانٌ ، فذكرتَ أمراً إن تمَّ اعتزلكَ[3] كلُّه ، وإن نقص لم تلحقك ثلمتُهُ[4] . وما أنت والفاضل والمفضول ، والسّائس والمسوس ! وما للطُّلقاء وأبناء الطُّلقاء والتَّمييز بين المهاجرين الأوّلين ، وترتيب درجاتهم ، وتعريف طبقاتهم ! (إلى أن يقول :) ألا تربع ، أيُّها الإنسان على ضلعك[5] ، وتعرف قصور ذَرعك[6] ، وتتأخر حيث أخَّرك القدر ، فما عليك غلبة المغلوب ، ولا ظَفَر الظافر ! (إلى أن يقول :) ألا ترى ، غيرُ مُخْبرٍ لك ولكن بنعمة الله أحدِّث ، أن قوماً استُشهدوا في سبيل الله من المهاجرين ، ولكُلٍّ فضل ، حتى اذا استُشهد شهيدنا[7] قيل سيِّد الشُّهداء ، وخصَّه رسول الله ، صلَّى الله عليه وآله ، بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه ! أولا ترى أن قوماً قُطعت أيديهم في سبيل الله ، ولكُلٍّ فضل ، حتى إذا فُعل بواحدنا[8] ما فُعل بواحدهم ، قيل الطَّيّار في الجنَّة وذو الجناحين ! ولولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء

---

(1) وهو مثل . وهجر : مدينة في البحرين كثيرة النَّخل .
(2) وهو مثل . والمسدِّد : معلم رمي السهام . والنِّضال : المراماة .
(3) يريد : كنت عنه بمعزله .
(4) أي : عيبه .
(5) يقال : « اربع على ظلعك : » أي : قفْ عند حدِّك .
(6) الذَّرع : بسط اليد ، ويقال للمقدار .
(7) يريد : حمزة بن عبد المطَّلب ، وقد استُشهد في « بدر » .
(8) يريد : جعفر بن أبي طالب . وهو أخو الإمام .

نفسه لذكر ذاكرٍ[1] فضائل جمّة تعرفها قلوب المؤمنين (إلى أن يقول) فإنّا صنائع ربّنا ، والنّاس بعدُ صنائعُ لنا[2] . لم يمنعنا قديم عزّنا ، ولا عاديّ طَوْلنا[3] على قومك أن خلطناكم بأنفسنا ، فنَكَحنا وأنكحنا ، فِعْلَ الأكفاء ، ولستم هناك ! وأنّى يكون ذلك ومنّا النّبيُّ ومنكم المكذّب[4] ، ومنّا أسد الله[5] ومنكم أسد الأحلاف[6] ، ومنّا سيّد شباب أهل الجنّة[7] ومنكم صبية النّار[8] ، ومنّا خير نساء العالمين[9] ، ومنكم حمّالة الحَطَب[10] ، في كثيرٍ ممّا لنا وعليكم (إلى أن يقول :)

وذكرتَ أنه ليس لي ولأصحابي الاّ السّيف . فلقد أضحكتَ بعد استعبار[11] ! (إلى أن يقول :) فسيطلبك من تطلب ، ويقرُب منك

---

(1) « ذاكر » هنا : هو الإمام نفسه .

(2) يريد : انّ آل النّبيّ أسراء إحسان الله عليهم ، والنّاس أسراء فضلهم ، بعد ذلك . وأصل الصّنيع من تصنعه لنفسك بالاحسان ، حتى خصصته بك كأنّه عمل يدك .

(3) أي : قديم طولنا (ينسب إلى قوم عاد) . وقيل : العاديّ ، هنا : الاعتياديّ المعروف ، وهذا ، في رأينا ، بعيد .

(4) يريد : أبا جهل .

(5) يريد : حمزة .

(6) يريد : أبا سفيان ، وهو الّذي حزّب الأحزاب ، وحالفهم على قتال النّبيّ في غزوة الخندق .

(7) يريد : الحسن والحسين (وذلك بنصّ قول النّبيّ) .

(8) قيل : هم أولاد مروان بن الحكم . وقد أخبر النّبيُّ عنهم وهم صبيان أنّهم من أهل النّار . وفي كبرهم مرقوا عن الإسلام .

(9) يريد : فاطمة الزّهراء .

(10) يريد : عمّة معاوية ، وهي زوجة أبي لهب .

(11) الاستعبار : البكاء . يريد أن قول معاوية يبكي من كونه اصراراً على غير الحقّ ، ويضحك من كونه تهديداً لمن لا يُهدّد .

ما تستبعد . وأنا مرقلٌ[1] نحوك في جحفلٍ من المهاجرين والأنصار والتَّابعين لهم بإحسانٍ ، شديدٍ زحامهم[2] ، (إلى أن يقول :) أحبُّ اللِّقاءَ اليهم لقاء ربِّهم . قد صحبتهم ذُرِّية بدريَّة[3] ، وسيوف هاشميَّة ، قد عرفْتَ مواقع نصالها في أخيك وخالك وجدِّك وأهلك[4] .

* * *

وله من رسالة :

وقد ابتلاني الله بك وابتلاك بي ! فجعل أَحدنا حجة على الآخر . فعدوتَ[5] على الدُّنيا بتأْويلِ القرآن[6] ، فطلبتني بما لم تجنِ يدي ولا لساني ، وعَصَبْتَهُ أُنتَ وأَهل الشَّام بي[7] ، وأَلَّب[8] عالمكم[9] جاهلكم ، وقائمكم[10] قاعدكم ! (إلى أن يقول :) وأحذر أن يصيبك الله منه بعاجلِ قارعةٍ[11] تمسُّ الأَصل ، وتقطع الدَّابر[12] .

---

(1) مرقل : مسرع .

(2) ما هنا : صفة لجحفل .

(3) أي : من ذراري أهل « بدر » .

(4) يريد : حنظلة أخا معاوية ، وخاله الوليد بن عتبة ، وجدَّه عتبة بن ربيعة .

(5) عدا : وثب . ويُروى : « فغدوتَ » .

(6) يريد : انَّ معاوية أقنع أهل الشَّام بكون نصّ الآيتين : « يا أَيُّها الَّذين آمنوا كُتب عليكم القصاص » و « لكم في القصاص حياة » يخوّلهم الحقّ في الطلب بدم عثمان .

(7) أي : انَّ معاوية وأهل الشام قد ربطوا دم عثمان بالإمام ، وألزموه ثأره .

(8) ألَّب : حرَّض .

(9) قيل : أراد بالعالم أبا هريرة .

(10) قيل : أراد بالقائم عمرو بن العاص .

(11) القارعة : البليَّة .

(12) الدَّابر : التابع وآخر كلّ شيء . يقال : قطع الله دابرهم ، أي آخر من تبقَّى منهم .

فانّي أولي لك بالله[1] أليَّةً غير فاجرة[2] : لئن جمعتني وإيّاك جوامعُ الأقدار ، لا أزال بباحتك[3] حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين !

* * *

وله من رسالة :

أمّا بعد : فانّا كنّا نحن وأنتم على ما ذكرتَ من الألفة والجماعة ، ففرَّق بيننا وبينكم أمس أنّا آمنّا وكفرتم ، واليوم أنّا استقمنا وفُتنتم . وما أسلم مسلمكم إلاّ كرهاً[4] ، وبعد أن كان أنف الإسلام[5] كلُّه لرسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، حزباً ! (إلى أن يقول :) وذكرتَ أنّك زائري في المهاجرين والأنصار ، وقد انقطعت الهجرة يوم أُسر أخوك (إلى أن يقول :) وعندي السَّيف الّذي أعضضتُهُ[6] بجدِّك وخالك وأخيك في مقام واحد ! (إلى أن يقول :) وقريبٌ ما أشبهتَ من أعمامٍ وأخوالٍ حملتهم الشّقاوة وتمنّي الباطل على الجحود بمحمّدٍ ، صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فصُرعوا مصارعهم حيث علمتَ . لم يدفعوا عظيماً ، ولم يمنعوا حريماً ، بوقع سيوف ما خلا منها الوغى[7] ، ولم تماشها الهوينا[8] .

---

(1) آلى : أقسم ، وحلف .

(2) أليّة غير فاجرة : أي غير حانثة .

(3) الباحة : السّاحة .

(4) أسلم أبو سفيان قبل فتح مكّة بليلة ، وذلك خوف القتل ، وخشية من جيش النّبيّ .

(5) يريد بأنف الإسلام : أشراف العرب الّذين دخلوا في الإسلام قبل الفتح .

(6) أعضضتُه به : جعلته يعضُّه ، والباء هنا زائدة .

(7) الوغى : الحرب .

(8) « لم تماشها الهوينا » أي : لم تفارقها المساهلة .

من كلماته الموجزة

وهي من كلامه القصير الخارج في أغراض مختلفة . وقد جاءَ في « الحدائق الورديَّة » (ينقل من جلاء الأبصار) : انَّ الجاحظ كان يقول : « لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب مائة كلمة ، كلُّ كلمة منها تفي بألف كلمة من محاسن كلام العرب ! » :

وقال في « التَّفضيل » : « قال ابن أبي أحمد يحكي عن أبيه قال : سمعت عمرو بن بحر الجاحظ يقول : إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه قال : ستٌّ كلمات ما سبقه إليها أحد ، توزن كلُّ كلمة منها بألف كلمة . قال : فكنت أسأله عنها كثيراً ، فقال لي بعد مدّة . الأولى قوله : قيمة كلِّ امرىءٍ ما يحسنه . الثانية : النَّاس أعداء ما جهلوا . الثالثة : لسانك يقتضيك ما عوَّدتَهُ . الرَّابعة : رحم الله امرءاً عرف قدره . الخامسة : لا رأي لمن لا يُطاع . السادسة : المرء مخبوءٌ تحت لسانه » .

الاحتمال قبرُ العيوب .

البشاشة حِبالة المودَّة .

إذا أقبلت الدُّنيا على أحد أعارته محاسن غيره ، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه .

قُرنت الهيبة بالخيبة ، والحياء بِالحرمان[*] .

الكلام كالشَّاردة ينقُفُها هذا ويُخطئها هذا[1] .

أما انَّه ليس بين الباطل والحقِّ الاَّ أربع أصابع[2] .
قطع العلم غدر المتعلِّلين .

ماء وجهك جامد يقطره السؤال فانظر عند من تقطره .
الحلْم عشيرة .

ما مزح امرؤٌ مزحةً الاَّ مجَّ من عقله مجَّةً .
من ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق .
انّما سُمِّيت الشّبهة شبهةً لأنَّها تشبه الحقَّ .
انَّ الوفاء توأم[3] الصِّدق .

قلب الأحمق في فيه ولسان العاقل في قلبه[4] .
احذروا صولة الكريم إذا جاع واللَّئيم إذا شبع .

(*) أي من تهيَّب أمراً خاب من إدراكه ، ومن أفرط به الخجل من طلب شيء حُرم منه .

(1) (نقفه : ضربه) أي يصيبها واحد فيصيدها ، ويخطئها الأخر فتفلت منه .

(2) قال الشريف الرضيّ : « فسئل عن معنى قوله عليه السلام هذا فجمع اصابعه ، ووضع بين أذنيه وعينه ، ثم قال : الباطل أن تقول : سمعتُ ، والحقُّ أن تقول : رايتُ .

(3) التَّوام : الَّذي يُولد مع الأخر في حمل واحد .

(4) وفي رواية الجاحظ : « لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه » . وقد قال في التعليق على هذه الكلمة : « معناه انَّ العاقل لا يطلق لسانه إلاّ بعد مراجعة فكره ، ومفاحصة رأيه ، فكان لسان العاقل تابعاً لقلبه ، وكان قلب الأحمق وراء لسانه » .

السَّخاء ما كان ابتداءً ، فأمّا ما كان عن مسألة فحياء وتذمُّم[1] .
بقيَّة السَّيف أبقى عدداً وأكثر ولداً[2] .
الصَّبر صبران : صبر على ما تكره ، وصبر عمَّا تحبُّ .
اللِّسان سبع ، إن خُلِّي عنه عقر .
فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها .
إنَّ الأمور إذا اشتبهت اعتُبر آخرها بأوَّلها .
أوضع العلم ما وقف على اللِّسان[3] .
جهاد المرأة حسن التَّبعُّل[4] .
الهمُّ نصف الهرم .
المرء مخبوءٌ تحت لسانه .
من شاور الرِّجال شاركها في عقولها .
النَّاس اعداءُ ما جهلوا .
إذا هبتَ أمراً فقعْ فيه ، فانَّ شدَّة توقِّيه أعظم ممَّا تخاف منه .
آلة الرِّئاسة سعة الصَّدر .
للظالم البادىء غدًا بكفِّه عضَّة .
أزْجُر المسيءَ بثواب المحسن .
اللَّجاجة تسُلُّ الرأْي[5] .

---

(1) التَّذمُّم : الفرار من الذَّمّ .
(2) بقيَّة السَّيف : هم الذَّين يبقون بعد الَّذين قُتلوا في حفظ شرفهم ، ودفع الضَّيم عنهم .
(3) أوضع العلم : أي أدناه . ووقف على اللِّسان : أي لم يظهر أثره في الأخلاق والأعمال .
(4) التَّبعل : اطاعة الزَّوج .
(5) اللجَّاجة : شدَّة الخصام .

متى أشفي غيظي إذا غضبت ؟ أحين أعجز عن الانتقام ، فيقال لي : لو صبرت ، أم حين أقدر عليه فيقال لي : لو عفوت !

الغوغاء : هم الَّذي إذا اجتمعوا غَلَبوا ، واذا تفرَّقوا لم يُعْرفوا[1] .

أوَّل عوض الحليم من حلمه أنَّ النَّاس أنصاره على الجاهل .

حسدُ الصَّديق من سقم المودَّة .

من نال استطال[2] .

الحجر الغصيب في الدَّار رهنٌ على خرابها[3] .

قال الشَّريف الرَّضيّ : قيل له ، عليه السَّلام : صف لنا العاقل ، فقال : هو الَّذي يضع الشَّيء مواضعه . فقيل له : فصف لنا الجاهل ، فقال : قد فعلتُ !

أصدقاؤك ثلاثة ، وأعداؤك ثلاثة . فأصدقاؤك : صديقك ، وصديق صديقك ، وعدوُّ عدُوِّك . وأعداؤك : عدوُّك ، وعدوُّ صديقك ، وصديق عدوِّك .

العلم علمان : مطبوع ، ومسموع . ولا ينفع المسموع إذا لم يكن المطبوع(*) .

---

(1) واتي بجان ، ومعه غوغاء ، فقال : « لا مرحباً بوجوه لا تُرى إلاَّ عند كلّ سَوْأة ! » .

(2) نال (هنا) : أعطى .

(3) الغصيب : أي المغصوب . والمعنى : انَّ الاغتصاب قاضٍ بالخراب ، كما يقتضي الرَّهن باداء الدَّين المرهون عليه . .

(*) المراد بالمطبوع ، هنا : ما رسخ في النَّفس ، وظهر أثره في أعمالها ، وبالمسموع : منقول العلم ومحفوظه .

الـكلام في وثاقـك ما لم تتكلّـم به ، فاذا تكلّمت به صرتَ في وثاقه .

من صارع الحقّ صَرَعه .

القلب مصحف البصر[1] .

إذا كان في رجلٍ خَلَّة رائقة فانتظروا أخواتها[2] .

الولايات مضامير الرِّجال[3] .

منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب دنيا .

الغيبة جهد العاجز .

خيار خصال النِّساء شرار خصال الرِّجـال : الزَّهـو ، والجبـن ، والبخل . فإذا كانت المرأة مزهوَّة لم تمكِّن من نفسهـا ، وإذا كانـت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها ، وإذا كانت جبانة فَرِقت من كلِّ شيءٍ يعرض لها[4] .

أولى النَّاس بالعفو أقدرهم على العقوبة .

قيمةُ كلِّ امرىءٍ ما يُحْسنه[5] .

الطَّامع في وثاق الذُّلّ .

---

(1) أي : ما يتناوله البصر تُحفظ في القلب كأنَّه يُكتب فيه .

(2) الخلة (بالفتح) : الخصلة . أي : إذا أعجبك خلق من شخص فلا تعجل بالرُّكون إليه ، وانتظر سائر الخلال .

(3) المضامير : جمع مضمار ، وهو المكان الذي تضمَّر فيه الخيل للسُّباق .

(4) فرقت : أي فزعت .

(5) قال الشريف الرَّضيّ يعلّق على ما هنا : «وهي الكلمة الَّتي لا تُصاب لها قيمة، ولا تُوزن بها حكمة ، ولا تُقرن إليها كلمة ! » .

الاستغناء عن العُذر أعزُّ من الصِّدق به .

لكلِّ امرىءٍ في ماله شريكان : الوارث ، والحوادث .

المسؤول حرٌّ حتى يَعِدَ .

وبنى رجل من عمَّاله بناءاً فخماً ، فقال : أطلعت الوَرِقُ رؤوسَها[2] .

كفاكَ أدباً لنفسك : اجتناب ما تكرهه من غيرك .

وقال لغالب بن صعصعة أبي الفرزدق ، في كلامٍ دار بينهما : ما فعلت إِبلُك الكثيرة ؟ قال : ذعذعتها الحقوق ، يا أمير المؤمنين . فقال : ذلك أَحمد سُبُلها ! [*] .

لا تقسروا[1] أَولادكم على آدابكم فأنَّهم مخلوقون لزمان غير زمانكم .

لا تطلب سرعة العملِ واطلب تجويده ، فانَّ النَّاس لا يسأَلون فيم فرغ من العمل ، انمَّا يسأَلون عن جودة صنعته .

إِحسانك إِلى الحرّ يحرّكه على المكافأة ، وإِحسانك إِلى النَّذل يبعثه على معاودة المسأَلة .

من أَراد أَن ينظر ما له عند الله فلينظرْ ما لله عنده .

إِذا أَردت أَن تعرف طبع الرَّجل فاستشره ، فأَنك تقف من مشورته على عدله وجوره ، وخيره وشرّه .

---

(1) الورق (بفتح فكسر) : الفضّة .

(*) ذعذعَ المالَ : فرّقه ، وبدّده .

من سامح نفسه فيما يُحبُّ أتعبها فيما لا يُحبُّ .

ووقف على قوم أُصيبوا بمصيبة ، فقال لهم : إن تجزعوا فحقٌّ الرَّحم ، وإن تصبروا فحقٌّ الله أَدَّيتم .

أربع القليل منهنَّ كثير : النَّار ، والعداوة ، والمرض ، والفقر .

الرَّاحة مع اليأس .

الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له .

اليأس حرٌّ ، والرَّجاء عبد(*) .

العداوة شُغل .

من كَثُر فكره في العواقب لم يشجعْ .

لا وفاء لمَلُول .

لا يغرَّنك المرتقى السَّهل إذا كان المنحدر وعراً .

اذا كان اللّسان آلة لترجمة ما يخطر في النَّفس فليس ينبغي أَن تستعمله فيما لم يخطرْ فيها .

سوء الظنِّ يدوي القلوب ، ويتَّهم المأْمون ، ويوحش المستأْنس ، ويغيِّر مودَّة الإخوان .

تعطَّروا بالاستغفار لا تفضحكم رائحة الذُّنوب .

لا يرضى عنك الحاسد حتَّى يموت أحدكما .

ونظر إلى رجل يغتاب آخر عند ابنه الحسن ، فقال : يا بنيَّ نزِّه سمعك عنه ، فانَّه نظر إلى أخبث ما في وعائه فأفرغه في وعائك .

(*) وقد جاءَت بنصِّها في شعرٍ لمهيار .

أقتل الأشياء لعدوٌ : أن لا تُعرِّفه انّك اتّخذته عدوًّا .
غضب العاقل في فعله ، وغضب الجاهل في قوله .

ورأى رجلاً يحدِّث منكر الحديث ، فقال له : يا هذا ، انصف أذنيك من فمك ! فانما جُعل الأذنان أذنين والفم واحداً ليسمع أكثر ممّا يقول .

المعروف كنز ، فانظرْ عند مَن تودعه .
إذا أردت أن تصادق رجلاً ، فانظر مَن عدوُّه .
أمران لا ينفكّان من الكذب : كثرة المواعيد ، وشدّة الاعتذار .

ليت شعري ! أيّ شيء أدرك من فاته العلم ، بل أيّ شيء فات من أدرك العلم .

ثلاث لا يُستصلح فسادهنّ بحيلة أصلاً : العداوة بين الأقارب ، وتحاسد الأكفاء ، وركاكة الملوك .

السَّخيُّ شجاع القلب ، والبخيل شجاع الوجه .

أجلُّ ما ينزل من السَّماء : التَّوفيق ، وأجلُّ ما يصعد من الأرض الشُّكران(*) .

ما وضع أحد يده في طعام أحد إلاّ ذلّ له .
إن لم تعلم من أين جئتَ ، لم تعلم إلى أين تذهب .
أصاب متأمِّل أو كاد ، وأخطأ مستعجل أو كاد .

(*) وفي رواية : « الإخلاص » .

ستَّة لا تخطئهم الكآبة : فقير حديث عهد بغنىً ، ومكثر يخاف على ماله ، وطالب مرتبة فوق قدره ، والحسود ، والحقود ، ومخالط أهل الأدب وليس بأديب .

أوَّل رأي العاقل آخر رأي الجاهل .

الحرُّ عبدٌ ما طمع ، والعبد حرٌّ ما قنع .

إذا تناهى الغمُّ انقطع الدَّمع .

أعجب الأشياء بديهة أمن وردت في مقام خوف .

عذابان لا يأبه النَّاس لهما : السَّفر البعيد ، والبناء الكثير .

أشدّ المشاقّ وعدُ كذَّاب لحريص .

التَّكبرُ على المتكبِّرين هو التَّواضع بعينه .

إذا رفعتَ أحداً فوق قدره ، فتوقّع منه أن يحطّ منك بقدر ما رفعت منه .

إذا كان الرّاعي ذئباً فالشَّاة من يحفظها !

خرج العزُّ والغنى يجولان ، فلقيا القناعة ، فاستقرَّا .

الصدِّيق نسيب الرُّوح ، والأخ نسيب الجسم .

ثلاثة أشياء لا دوام لها : المال في يد المبذِّر ، وسحابة الصّيف ، وغضب العاشق .

أبعد النَّاس سفراً من كان في طلب صديقٍ يرضاه .

التَّجني وافد القطيعة .

الضغائن تورَّث كما تورّث الأموال .

غيظ البخيل على الجواد أعجب من بخله .

تحتاج القرابة إلى مودَّة ، ولا تحتاج المودَّة إلى قرابة .

الغيبة ربيع اللِّئام .

ما أقبح بالصَّبيح الوجه أن يكون جاهلاً . كدارٍ حسنة البناء وساكنها شرٌّ ، وكجنَّة يعمرها بوم .

من أيقظ فتنة فهو آكلها .

من أمَّل أحداً هابه ، ومن جهل شيئاً عابه .

من وطئته الأعين وطئته الأرجل .

كأنَّك بالدُّنيا لم تكن ، وكأنَّك بالآخرة لم تزل .

إذا شئت أن تُطاع ، فسلْ ما يُستطاع .

عامِلُوا الأحرار بالكرامة المحضة ، والأوساط بالرّغبة والرّهبة ، والسَّفلة بالهوان .

لا تكنْ ممَّن تغلبه نفسه على ما يظنُّ ، ولا يغلبها على ما يستيقن .

العقل يقع على العقل .

الصلاة صابون الخطايا .

إذا قال أحدهم « والله » ، فلينظرْ ما يضيف إليها .

من لم ينشطْ لحديثك فارفع عنه مؤونة الاستماع منك .

أيُّها المستكثر من الذُّنوب : إنَّ أباك أُخرج من الجنّة بذنب واحد !

ليس الحلم ما كان حال الرّضا ، بل الحلم ما كان حال الغضب .

يا ابن آدم : انمّا أنت أيّام مجموعة ، فاذا مضى يوم مضى بعضك .

لا تطلبن إلى أحدٍ حاجة ليلاً ، فان الحياء في العينين .

لا تألفِ المسألة فيألفك المنع .

إذا شككتَ في مودَّة انسان فاسأل قلبك عنه .

بَلَغَ من خداع النَّاس أن جعلوا شكر الموتى تجارةً عند الأحياء ، والثّناء على الغائب استمالةً للشَّاهد .

من طَلَبَ عظيماً خاطر بعظيمته(*) .

لو تميَّزت الأشياء كان الكذب مع الجبن ، والصّدق مع الشَّجاعة ، والرَّاحة مع اليأس ، والتَّعب مع الطَّمع ، والحرمان مع الحرص ، والذّل مع الدَّين .

المعروف غلٌّ ، لا يفكُّه إلاَّ شكر ، أو مكافأة .

عار النَّصيحة يكدِّر لذَّتها .

الميت يقلُّ الحسد له ، ويكثر الكذب عليه .

كأن الحاسد خُلق ليغتاظ .

من عاتب ووبَّخ فقد استوفى حقَّه .

إذا سمعت الكلمة تؤذيك فطأطىء لها فانَّها تتخطَّاك .

العفو عن المُقرِّ لا عن المُصرِّ .

ممَّا تكتسب به المحبة أن تكون عالماً كجاهل ، وواعظاً كموعوظ .

(*) أي خاطر برأسه .

العقل الاصابة بالظَّنِّ ، ومعرفة ما لم يكن بما كان .

سلوا القلوب عن المودَّات فانَّها شهود لا تقبل الرّشا .

أجهل الجهَّال من عثر بحجر مرَّتين .

الشَّيء الَّذي لا يستغني عنه أحد هو التَّوفيق .

من عمل عملَ أبيه كُفي نصف التَّعب .

قلَّ أن ترى أحداً تكبَّر على من دونه ، إلاَّ وبذلك المقدار يجود بالذّل لمن فوقه .

من ضاق به أمر ، فليذكر القبر فانه يتَّسع .

لا تخدمنَّ رئيساً كنت تعرفه بالخمول ، وسمت به الحال ، ويعرف منك انَّك تعرف قديمه ، فانَّه وإن سرَّ بمكانتك من خدمته إلاَّ انَّه يعلم العين الَّتي تراه بها ، فينقبض عنك بحسب ذلك .

تحريك السَّاكن أسهل من تسكين المتحرِّك .

لا يقوم عزُّ الغضب بذلَّة الاعتذار .

الأمل رفيق مؤنس ، إن لم يبلِّغك فقد استمتعت به .

لكلِّ ساقطة لاقطة .

العجز نائم والحزم يقظان .

النَّاس رجلان : واجدٌ لا يكتفي ، وطالب لا يجد .

كثرة الآراء مفسدة ، كالقدر لا تطيب إذا كَثُرَ طبَّاخوها .

وَلدُك ريحانتك سبعاً ، وخادمك سبعاً ، ثمَّ هو عدوُّك أو صديقك .

إلى الله أشكو بلادة الأمين ، ويقظة الخائن .

جزعك في مصيبة صديقك أحسن من صبرك ، وصبرك في مصيبتك أحسن من جزعك .

لا تكاد الظُّنون تزدحم على أمر مستور إلاَّ كشفته .

المشورة راحة لك ، وتعب على غيرك .

إخوان هذا الزَّمان جواسيس العيوب .

خفِ الله تأمنْ غيره .

خلُو القلب خيرٌ من ملءِ الكيس .

دينار الشحيح حَجَر .

راعِ أباك يراعك ابنك .

سلاح الضُّعفاء الشكاية .

ضربُ الحبيب أوجع .

ضاق صدر من ضاقت يده .

ضاقت الدُّنيا على متباغضَين .

فسدت نعمةٌ من كفرها .

كمال الجود : الاعتذار معه .

نمْ آمناً تكن في أمهد الفُرش .

هيهات من نصيحة العدوّ .

الغنى في الغربة وطن .

تفضَّل تُخدم ، واحلم تُقدَّم .

رأس السَّخاء تعجيل العطاء .

زلَّة العالم كانكسار السَّفينة ، تغرق معها غيرها .

زينُ المصاحبة : الاحتمال .
ضالَّة الجاهل غير موجودة .
ظنُّ العاقل أصحُّ من يقين الجاهل .
غائب الموت أقرب قادم .
من ضاق عليه العدل فالجور أضيق .
كلُّ يوم يسوق إلى غده .
من ندم فقد تاب .
نصحُك بين الملأ تقريع .
لا يسترِقُّك الطَّمع ، فقد جعلك الله حرّاً .
يُستدلُّ على إدبار الدُّول بأربع : تضييع الأُصول ، والتَّمسُّك بالفروع ، وتقديم الأراذل ، وتأخير الأفاضل .

حقٌّ وباطل ، ولكلٍّ أهل . ولئن أَمِرَ الباطل فَلَقديماً فعل [*] .

كفى بالعلم شرفاً أنَّه يدَّعيه من لا يحسنه ، ويفرح إذا نُسب إليه مَن ليس من أهله ، وكفى بالجهل خُمولاً أنه يتبرأُ منه مَن هو فيه ، ويغضب إذا نُسب إليه .

كلُّ شيء يَعزُّ إذا نَزُر ما خلا العلم ، فإنَّه يَعزُّ إذا غَزُر .

من رضي عن نفسه كثر الساخط عليه .
احذرْ صولة الكريم إذا جاع ، واللَّيئم إذا شبع .

(*) أمِرَ : بمعنى كثرَ .

عبد الحميد الكاتب

(لا تأريخ لمولده، وقد قُتل سنة 750 م.)

عبد الحميد بْن يحيى ابْن اسعد العامريّ بالولاء(*)، المعروف بالكاتب، و « بالكاتب الأكبر » ، كما جاء للجاحظ في « البيان والتَّبيين » ، و « بعبد الحميد الأكبر » ، كما جاء لابن عبد ربّه في « العقد الفريد » ، نشأ في بلاد الشَّام (ولا يُعرف البلد الذي وُلد فيه) من سلالة غير عربيَّة ، وكتب لمروان بنْ الحكم ، آخر الخلفاء الأمويِّين ، وقُتل معه في مصر ، على رواية المسعوديّ في « مروج الذَّهب » .

قال أبو هلال العسكريّ في « الصِّناعتين » انَّ عبد الحميد هو أوَّل من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربيَّة ، وانَّه كان يحسن الفارسيَّة . وذكر الدكتور طَه حسين في رسالة قدَّمها إلى مؤتمر المستشرقين انَّ عبد الحميد كان يعرف اليونانيَّة . إلاَّ انَّ محمد كرد علي يقول في كتابه

(*) في « أمراء البيان » ما هذا ملخَّصه : المولى عند العرب ، دون الحر الصريح ، وفوق العبد الرقيق في المرتبة ، ويكون المولى مولى عَتاقة ، أو مولى تَباعة . فمولى العتاقة هو الذي يكون عبداً أو أسيراً فيعتقه صاحبه ، ومولى التَّباعة هو من يُصطنع أو يهادَن ، أي يُستتبع . ومن الولآء أيضاً : مولى الرَّحم ، وهو من يتزوَّج في قوم فيُنسب إليهم .

« أمراء البيان » ، في ترجمة عبد الحميد : « لم يثبت أنّه كان يعرف اليونانيَّة ، كما وهم بعض أساتذة العصر . وربمّا شدا شيئاً من الأرمنيّة مدَّة مقامه في إرمينية كاتباً لمروان » .

عبد الحميد في التَّرسُّل أبو البراعة في الإسهاب والإيجاز . يوجز ، فكأنَّه جمع في اللَّفظة جناحي المعنى . ويسهب ، فكأنَّه أطار الألفاظ تنطلق انطلاقها بالمعاني في المدى المنفسح . هذا مضافاً إلى أروع ما يكون الرَّونق في الفصاحة . ولقد بلغ في ذلك الغاية ، حتى قيل في كلام قديم : « فُتحت الرسائل بعبد الحميد » ، كما ذكر ابن خلِّكان في « الوفيات » . فانَّ الكتابة في الدَّواوين كانت قبله أحاديث مفرعة لا رابط لها ، فأصبحت على يده فنّاً يرجع إلى أصول وقواعد .

وفي بلاغة عبد الحميد جاء مدح كثير ، وبها ضُرب المثل . فقد قال ابن خلِّكان في « الوفيات » : « وبه يُضرب المثل في البلاغة (إلى أن يقول :) وكان في الكتابة ، وفي كلِّ فنٍّ من العلم والأدب إماماً (إلى أن يقول :) وعنه أخذ المترسِّلون ، ولطريقته لزموا ، ولآثاره اقتفوا . وهو الذي سهَّل سبيل البلاغة في التَّرسُّل » .

وقال الثعالبيُّ في « المضاف والمنسوب » ، ينقل عن الميدانيِّ : « بلغ من البلاغة مبلغاً يُضرب به المثل ، كما قال البحتريُّ لمحمد بْن عبد الملك :

وتفنَّنتَ في البلاغة حتَّى
عطَّل الناس فنَّ عبد الحميدِ .

وقال ابن الرُّوميّ لأبي الصَّقر :

لو انَّ عبد الحميد اليوم شاهده،

لكان بين يديه مذعنـاً وَسِنا .

وقال عمرو بْن عثمان بْن اسفنديار الكاتب :

وهو في الحذْق والبلاغة في التَّطفيل[1]

عبـد الحميد في الكتَّابِ .

وقال أبو اسحاق الصَّابىء :

أنسيتـمُ كتبـاً شحنتُ فصولها

بنصـول درٍّ عنـكم منضودِ ،

ورسائـلاً نفذت الى أطرافكم ،

عبد الحميد بهنَّ غير حميد ؟!

ويقال : إنَّ عبد الحميد أوَّل من نهج طُرُق الكتابة ، وبسط من باع البلاغـة ، وشـنَّف[2] الرسائـل وقرَّطهـا[3] ، ولخَّص فصولهـا وخلَّصها »[1] .

وفي « زهر الآداب » أورد الحصريُّ رسالة لأبي الخطَّاب الصابىء جاءَ في صدرها : « وصلت رقعتك ففضضتها عن خطٍّ مشرق ، ولفظ مونق ، وعبارة مصيبة ، ومعانٍ غريبة ، واتِّساعٍ في البلاغة يعجز عنه عبد الحميد في كتابته » .

وفي « رسالة ابن زيدون » ، علـى لسـان ولأَّدة ، تتهـكَّم بابـن عبدوس : « وانَّ صناعة الألحان اختراعك ، وتأليف الأوتار والأنقار توليدك وابتداعك ، وانَّ عبد الحميد بن يحيى باري أقلامك ! » .

---

(1) طفَّل الكلام : تدبَّره.

(2) شنَّف المرأة : جعل لها شنْفاً ، وهو ما يُعلَّق في الأذن ، أو أعلاها من الحَلْي .

(3) قرَّط المرأة : ألبسها القُرط ، وهو ما يُعلَّق في شحمة الأذن من درَّة ونحوها .

وقال ابن بناتة المصريُّ في « سرح العيون »، يذكر عبد الحميد: « هو البالغ إلى أعلى المراتب في الكتابة البليغة » .

وفي « الوفيات » : « قال ابراهيم بْن العبَّاس الصّوليّ ، وقد ذُكر عبد الحميد عنده : كان ، والله ، الكلام معاناً له . ما تمنَّيتُ كلام أحد من الكتَّاب قطُّ أن يكون لي مثل كلامه ! » .

وقال ابن عبد ربِّه في « العقد الفريد » ، من كلام له على عبد الحميد : « أوَّل من فتق أكمام البلاغة ، وسهَّل طُرُقها » .

هذا ، وللمعاصرين أيضاً في عبد الحميد آراء عالية. ومن ذلك ما جاءَ للزَّيَّات في كتابه « تأْريخ الأدب العربيِّ » ، يصف أُسلوب عبد الحميد : « عذب المورد ، صافي الدِّيباجة ، يسبي المشاعر ويفعل بالألباب فعل السِّحر » .

وقال الكرد علي في « أُمراء البيان » : جاء عبد الحميد بطريقة جديدة في الكتابة العربيَّة ، شرعها لكلٍّ من يحمل العلم بعده (إلى أن يقول :)

فهو مخترع طريقة ، وكاتب وصَّاف على الحقيقة . استجمع شروط البلاغة ، فعُدَّ أَمير المنشئين غير مدافَع . واستطاب النَّاس إلى يومنا هذا أُسلوبه المعجب المطرب ، وأَين من يشاكله فيه ، أَو تسمو قريحته إلى مستواه في فنون الكتابة ، وحسن التَّصرُّف على ما يشاء ؟! » .

وقال الدكتور زكي مبارك في كتابه « النَّثر الفنِّي في القرن الرَّابع »

من كلام له : « لا نفكر أنَّ عبد الحميد كان إماماً لأهل عصره ، وأنّه أدخل في الكتابة أساليب وتعابير وتقاليد لم يكن يعرفها الأوَّلون » .

أمَّا الذي سلم من آثار عبد الحميد على الضَّياع ، فرسالتان ضافيتان : الأولى إلى كتَّاب الدَّواوين ، والثَّانية كبتها على لسان مروان إلى ابنه ووليِّ عهده عبد الله ، يوم وجَّهه إلى قتال الضَّحَّاك بن قيس الشَّيبانيِّ الخارجيِّ . ثمَّ قطع مبثوثة في طائفة من كتب الأدب والتَّراجم . وقد قال ابن النَّديم في « الفهرست » :

« رسائل عبد الحميد في نحو ألف ورقة » .

وقال جرجي زيدان في كتابه « آداب اللغة العربيَّة » : « في الكتبخانة الخديويَّة رسالة خطِّيَّة تُنسب لعبد الحميد » . ولم يذكر تعريفاً شافياً بهذه الرِّسالة .

كتاب توصية[1]

حقُّ موصل كتابي عليك كحقِّه عليَّ ، إذا جعلك موضعاً لأمله ، ورآني أهلاً لحاجته . وقد أنجزتُ حاجته ، فصدِّق أمله .

كتاب عن مروان[2]

إلى هشام بن عبد الملك يعزِّيه بامرأة من حظاياه .

إنَّ الله تعالى أمتع أمير المؤمنين من أنيسته وقرينته متاعاً مدَّه إلى أجل مسمَّى ، فلمَّا تمَّت له مواهب الله وعاريَّتُهُ[3] قبض إليه العاريَّة . ثمَّ أعطى أمير المؤمنين من الشُّكر عند بقائها ، والصَّبر عند ذهابها ، أنفس منها في المنقلَب ، وأرجح في الميزان ، وأسنى في العِوَض !

فالحمد لله ربِّ العالمين .

كتاب إلى أهله[4]

وقد انهزم من فِلسطين مع مروان .

أمَّا بعد ، فانَّ الله جعل الدُّنيا محفوفة بالكُره والسُّرور ، وجعل

---

(1) من « وفيات الأعيان » .

(2) من « سرح العيون » .

(3) الإعارة ، وما تعطيه غيرك على شرط أن يعيده لك .

(4) من « الوزراء والكتَّاب » للجهشياري .

فيها أقساماً مختلفة بين أهلها . فمن درَّت لـه بحلاوتهـا ، وساعده الحظُّ فيها ، سكن إليها ، ورضي بها ، وأقام عليهـا . ومـن قرصتـه أظفارها ، وعضَّته بأنيابها ، وتوطَّأته[1] بثَقَلها ، قلاهـا نافـراً عنهـا ، وذمَّها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً منها . وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها ، وأرضعتنا من دَرِّها أفاويق[2] استحببناها ، ثمَّ شمست[3] منَّا نافرةً ، وأعرضت عنَّا متنكِّرةً ، ورمحتنا[4] مولِّيةً ، فملح عذبها ، وأمرَّ حلوها ، وخشن لينها ، فمرَّقتنـا[5] عن الأوطـان ، وقطَّعتنـا عن الإخـوان . فدارنـا نازحـة ، وطيرنـا بارحـة[6] ، قد أخـذت كلَّ ما أعطت ، وتباعدت مثل ما تقرَّبت . واعقبت بالرَّاحة نَصَباً ، وبالجَذَل همَّاً ، وبالأمن خوفاً ، وبالعـزِّ ذلّاً ، وبالجِـدَة[7] حاجـةً ، وبالسـَّرَّاء ضرَّاء ، وبالحياة موتاً . لا ترحم من استرحمها .سالكة بنا سبيل من لا لا أوبة له ،منفيِّين عن الأولياء ، مقطـوعين عن الأحياء ! (إلـى أن يقول :) وكتبتُ اليكم ، والأيَّام تزيدنا منكم بُعداً ، وإليكم صبابـةً ووجداً . فإن تتمّ البليَّة إلى أقصى مدَّتها يكُن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظُفر جارح من أظفار من يليكم نرجع إليكم بذلِّ الإسار[8]

---

(1) توطَّأ فلاناً برجله : داسه .

(2) الأفاويق : ما يتجمَّع في الضَّرع من اللَّبن بعد الحلب .

(3) يقال ، شمست الدَّابَّة : أي جمحت ونفرت .

(4) رمحتنا : رفستنا .

(5) مرقتنا : أي أخرجتنا .

(6) الطَّير بارحة : كناية عن سوء الحال .

(7) الجدة : الميسرة .

(8) الإسار : القيد .

والصَّغار . والذُّلُّ شرُّ دار ، وألأم جار ، يائسين من رَوْح الطَّمع وفسحة الرَّجاء .

نسأل الَّذي يُعزُّ من يشاء ، ويُذلُّ من يشاء ، أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة في دار آمنة تجمع سلامة الأديان والأبدان ، فانَّه ربُّ العالمين ، وأرحم الرَّاحمين .

كتاب إلى عامل[1]

يذمُّ فعله ، وقد أهدى لمروان غلاماً أسود .

لو وجدتَ لوناً شرّاً من السَّواد ، وعدداً أقلَّ من الواحد ، لأهديتَه !

من كتاب عن مروان[2]

إلى فرق العرب حين فاض العجم من خراسان بشعار السَّواد قائمين بالدَّولة العبَّاسيَّة :

لا تمكِّنوا يد الفئة العجميَّة من ناحية الدَّولة العربيَّة ، واثبتوا ريثما تنجلي هذه الغمرة ، ونصحوا من هذه السَّكرة . فسينضب السَّيل ، وتمُحى آية اللَّيل . والله مع الصَّابرين ، والعاقبة للمتَّقين !

من كتاب في العطف الأَبويّ[3]

كتبه في أوَّل مولود كان له .

فاذا نظرتُ إلى شخصه تحرَّك به وجدي ، وظهر به سروري ،

---

(1) من « المضاف والمنسوب » .

(2) من « عنوان المرقصات والمطربات » لابن سعيد المغربيّ .

(3) من « المنثور والمنظوم » لابن أبي طاهر طيفور .

وتعطَّفت عليه منِّي أنَسة الولد ، وتولَّت عنِّي وحشة الوحـدة . فأنا به جذل في مغيبي ومشهري . أحاول مسَّ جسده بيدي في الظُّلم ، وتارةً أعانقه وأرشفه !

وصف الصَّيد[1]

من رسالة بعث بها إلى مروان

ثمَّ برزت الشَّمس طالعةً ، وانكشفت السَّحاب مسفرةً ، فتلألأت الأشجار ، وضحك النُّوار ، وانجلت الأبصار . فلم نر منظراً أحسن حسناً ، ولا مرموقاً أشبه شكلاً من ابتسام نور الشَّـمس عن اخضـرار زهرة الرِّياض . والخيل تمرح بنا نشاطاً ، وتجذبنا أعنَّتها انبساطاً . ثمَّ لم نلبث أن علتنا ضبابة تقصر طرف النَّاظر ، وتخفي سبيل السَّلام . تغشانا تارةً ، وتنكشف أخرى . ونحن بأرض دَمِثَة التراب[2] ، أشِبَة[3] الأطراف ، مغدقة الفِجـاج[4] ، مملـوءَة صيداً من الظِّبـاء والثعالـب والأرانب . فأدنانا المسير إلـى غابـة دونهـا مألف الصَّيد ، ومجتمـع الوحش ، ونهاية الطَّلب . قد جاوزناهـا ونحـن علـى سبيل الطَّلـب ممعنون ، وبكلِّ حَرَّةٍ[5] جَوْنةٍ[6] متفرِّقـون . فرجـع بنـا العـود علـى

---

(1) من « المنثور والمنظوم » لطيفور .

(2) أي سهلة ليِّنة .

(3) أشبة : ملتفَّة .

(4) الفِجاج : جمع الفجّ ، وهو الطَّريق الواسع الواضح بين جبلين .

(5) الحَرَّة : أرض ذات حجارة سوداء .

(6) مؤنَّث الجَوْن ، والجَوْن : الأسود .

البدء ، وقد انجلت الضَّبابة ، وامتدَّ النَّظر ، فاذا نحن برَعلة[1] من ظباء وخِلْفة[2] آرام[3] يرتعن آنسات ، قد أحالتهنَّ الضَّبابة عن شخصنا ، وأذهلهنَّ أنيق الرِّياض عن استماع حسِّنا . فلم نعج إلاَّ والضَّواري لائحة لهنَّ من بعد الغاية ، ومنتهى نظر الشاخص . ثمَّ مدَّت الجوارح أجنحتها ، واجتذبت الضَّواري مقاودها ، فأُمرت بإرسالها على الثِّقة بمحضرها ، وسرعة الجوارح في طلبها . فمرَّت تحفُّ حفيف الرِّيح عند هبوبها ، تسفُّ[4] الأرض سفَّاً ، كاشفة عن آثارها ، طالبة لخيارها ، حارشةً[5] بأظفارها ، قد مزَّقتها تمزيق الرِّيح الجرار . فمن صائح بها وناعر[6] ، وهاتف بها وناعق . يدعو الكلب باسمه ، ويفديه بأبيه وأُمِّه . وراكض تحت مفرِّه ، وخافق يطلب الرُّمح ، وطامح يمنعه ، وسانح قد عارضه بارح . حيرَّتنا الكثرة ، وألهجتنا القدرة . حتَّى امتلأت أيدينا من صفوف الصَّيد ـ والله المنعم الوهَّاب !

ثمَّ ملنا ، يا أمير المؤمنين ، بهداية دليل قد أحكمته التَّجارب ، وخبر أعلام[7] المذانب[8] إلى غدير أفيح ، وروضة خَضِرة ،

---

(1) الرَّعلة : القطعة من الخيل ، وقد تكون من البقر .

(2) إختلاف الوحوش مقبلة ومدبرة .

(3) جمع رِئم ، وهو الظَّبي الخالص البياض .

(4) السَّفيف : المرور على وجه الأرض .

(5) أي : صائدةً .

(6) نعر : صاح وصوَّت بخيشومه .

(7) الأعلام جمع عَلَم ، وهو منصوب في الطُّريق . يُهتدى به .

(8) المذانب : مسايل الماء .

مستأجمة[1] بتلاوِيين[2] الشَّجر ، ملتفَّة بصنوف الخَمَر[3] ، مملوءة من أنواع الطَّير ، لم يذعرهنَّ صائد ، ولا اقتنصهنَّ قانص . فخُفق لها بالطُّبول ، وصُفِّر بنفير الحتْف . فثار منها ما ملأ الأُفق كثرتها ، وراعت الجوارح خفقات أجنحتها . ثمَّ انبرت البزاة لها صائدة ، والصُّقور كاسرة ، والشَّواهين ضارية . يرفعن الطَّالب لها ، ويخفضن الظَّافر بها ، حتَّى سئمنا من الذَّبح ، وامتلأنا من النَّضْح[4] ، كأنَّا كتيبة ظفرت ببغيتها ، وسريَّة نُصرت على عدوِّها ، وألحقت ضعيفها بقويِّها ، وغلبت محسنها بمسيئها ، لا نملك أنفسنا مرحاً ، ولا نستفيق من الجذل بها فرحاً ، بقيَّة يومنا ـ والله المنعم الوهَّاب !

ثمَّ غدونا ، يا أمير المؤمنين ، إلى أرض وُصف لنا صيدها بالكثرة ، ورياضها بالنُّزهة . فزلَّ واصفها عن الطَّريقة ، واعتمد بنا على غير الحقيقة . فأتيناها فلم نرَ صيداً ولا عشباً ، ولا نزهةً ولا حسناً : فجعلنا نسلك منها حُزوناً[5] ووعوراً ، وجدوباً وقفوراً[6] ، حتى قصَّر بنا اليأس عن الطَّلب ، وقطع بنا عن الطَّمع النَّصَب . فبينما نحن كذلك ، إذا بدا لنا جأب[7] قد أوفى بنا على حائل[8] دلَّ على غابة

---

(1) مستأجمة : كثيرة الشَّجر الملتفّ .

(2) التّلاوين : من لوَّن البُسْرُ (وهو التَّمْر اذا لوّن ولم ينضَج) ، بدا فيه أثر النَّضج .

(3) الخَمَر : الشَّجر المتكاثف .

(4) النَّضْح : البَلَل .

(5) جمع حَزْن ، وهو ما غلظ من الأرض ، وقلَّما يكون إلاَّ مرتفعاً .

(6) جمع قَفْر ، وهو الخلاء من الأرض ، لا ماء فيه ، ولا ناس ، ولا كلأ .

(7) الجأب : الحمار الغليظ من حُمُر الوحش .

(8) من حال الشَّخصُ ، أي تحرَّك .

من ورائها حمير وحش كثيرة ، فأممناها ، فلماً تطرَّفنا مشياً وتقريباً إلى عاناته[1] توالى نهيقه وكثر شهيقه . فالتفتن إليه ، فرمقن بأعينهنَّ منَّا ما استكثرت شخصه ، واستهولن أمره . حتَّى إذا كنَّا بمرأى ومسمع انجذبن مولِّيات وهربن منثنيات . فأَجهَدنا الرَّكض في طلبهنَّ ، نتبع آثارهنَّ ، ونستشفُّ بلاءً بين أحفار ودكادك[2] وأخاديد[3] أشفى[4] بنا الطَّلب لها على وادٍ هائل سائل ، بجنبتيه غابة أَشِبة قد سبقن إليها ، واستخفين فيها ، فنظمناها نظم الخرز . ثمَّ أوغلت عدَّة فرسان في نفضها ، ومعرفة أحوالها ، والطُّبول خافقة ، والأحداث شاهقة . فكان وكان ـ والحمد لله على كلِّ حال .

من رسالته
إلى كتَّاب الدَّواوين[5]

وإن نبا الزَّمان برجلٍ منكم ، فاعطفوا عليه وواسوه ، حتَّى ترجع إليه حاله . وإن أقعد الكِبَرُ أحدكم عن مكسبه ولقاء إخوانه ، فزوروه ، وعظِّموه وشاوروه ، واستظهروا بفضل رأيه وتجربته وقديم معرفته . وليكن الرَّجل منكم على من اصطنعه ، واستظهر به ليوم حاجته إليه ، أحدبَ وأحوط منه على أخيه ووَلده . فان عرضت مذمَّة فليحملها من دونِهِ ، وليحذر السَّقطة والذِّلَّة والملال عند تغيُّر الحال .

(1) العانة : الإتان والقطيع من حُمُر الوحش .
(2) جمع دكدك ، وهي الأرض فيها غلظ .
(3) جمع أخدود ، وهو حفرة مستطيلة في الأرض .
(4) أشفى عليه : أشرف .
(5) من « صبح الأعشى » للقلقشندي .

فانَّ العيب إليكم ، معشرَ الكتَّاب ، أسرع منه إلى المرأة . وهو لكم أشدّ منه لها . فقد علمتم أنَّ الرَّجل منكم قد يصفي الرَّجل[1] ، إذا صحبه في بدءِ أمره ، من وفائه وشكره ، واحتماله وصبره ، ونصيحته وكتمان سرِّه ، وعفافه وتدبيره ، بما هو حريٌّ أن يحقّقه بفعاله ، في غير حين الحاجة إلى ذلك منه . فابذلوا ، وفَّقكم الله ، ذلك من أنفسكم في حال الرَّخاء والشِّدَّة ، والحرمان والمواساة ، والاحسان والإساءة ، والغضب والرِّضا ، والسَّرَّاء والضَّرَّاء . فنعمت السِّمة[2] هذه لمن وُسم بها من أهل هذه الصِّناعة الشريفة (إلى أن يقول :)

ولا يقلْ أحد منكم إنَّه آدب وأعقل وأحمد لعبءِ التَّدبير والعمل من أخيه في صناعته . فإنَّ أعقل الرَّجلين عند ذوي الألباب ، القائل : إنَّ صاحبه أعقل منه ، وأحمقهما الَّذي يرى أنَّه أعقل من صاحبه ، لعُجْب هذا بنفسه ، ونبذِ ذاك العجبَ وراء ظهره ، إذ كان الآفةَ العظمى من آفات عقله . ولكن قد يلزم الرَّجلَ أن يعرف فضل نعمة الله عليه من غير عُجْب برأيه ، ولا تزكية لنفسه ، ولا تكابُر على أخيه وكُفْئه ، ويشكر الله ويحمده بالتَّواضع لعظمته . وأنا أقول في آخر كتابي هذا ما سبق به المثلُ : من يلزم الصِّحَّة يلزمه العمل . وهو جوهر هذا الكتاب ، وغرَّة كلامه ، بعد الذي فيه من ذكر الله ، عزَّ وجلَّ ، فلذلك جعلتُه آخره ، وختمتُه به !

---

(1) أصفى فلاناً الودَّ ، وأصفى له الودَّ : أخلص له .

(2) السِّمة : العلامة .

البَابُ الثَّالِث

العصر العباسي

ابن المقفع

(ولد، على الرَّاجح الأكثريّ، سنة 724، وقُتل سنة 759 م.)

عبد الله بْن المقفَّع من أصل فارسيّ ، وُلد في مدينة « جُوْر » ، على مقربة من مدينة شيراز ، في بيت يسار ونعمة ، ونشأ في البصرة مجوسيّاً (مزدكيّاً) ، ثمَّ أسلم ، وولي كتابة ديوان الرَّسائل للمنصور العبَّاسيّ ، الَّذي أمر بعد ذلك أمير البصرة ، سفيان بنْ معاوية المهلَّبي ، بقتله ، ففعل في خبرٍ طويل . أمَّا المقفَّع أبوه ، فاسمه المبارك . قال البغداديُّ في « خزانة الأدب » : « قال الصَّغانيُّ في [العباب] : [لُقِّبَ بالمقفَّع لأنَّ الحجَّاج ضربه فتقفَّعت يده ، أي تشنَّجت . وقيل المقفِّع ، بكسر الفاء ، لعمله القَفعة ، وهي شبيهة بالزَّنبيل بلا عروة ، وتُعمل من الخوص] » . وفي « وفيات الأعيان » : « والقول الأوَّل هو المشهور بين العلماء » .

هو في الكتابة ، أبو المرسَل الرَّشيق ، والمُطمع الممتنع . وقد وقع الإجماع من قديم على انَّ أُسلوبه خير الأساليب في الطَّلاقة

والإتقان . يجيءُ بالمعنى وضيءَ الطَّلعة ، تامَّ الجسم ، معتدله ، ثمَّ يفصِّل اللَّفظ على قدِّ المعنى . وهو لا يقصد إلى السَّجع ، بل تقع له الأساجيع ، في بعض مقامات القول ، حلوة التَّقفية والفواصل ، من غير رمية . فتأتي براعات سجعه شقائق لبراعات مرسله . وإنَّ شأنه في ما يضعه في العربيَّة ، وشأنه في ما ينقله إليها ، سواء بسواء في الإحكام والرَّونق ونصوع البيان .

وبابن المقفَّع هتف قدماء ومعاصرون ، وأطنبوا في بلاغته . وممَّا جاء للقدماء من ذلك قول الجاحظ في « البيان والتَّبيين » : « كان مقدَّماً في بلاغة اللِّسان والقلم والتَّرجمة واختراع المعاني والسِّير » ، وقول الخليل بن أحمد ، يشير إلى ابن المقفَّع : « ما شئت من علم وأدب ! » ، وقول المعريَّ في « عبث الوليد » : « كان المتقدِّمون من أهل العلم ينكرون إدخال الألف واللاَّم على [كلّ] و [بعض] . ورُوي عن الأصمعيِّ أنَّه قال كلاماً معناه : قرأتُ آداب ابن المقفَّع فلم أرَ فيها لحناً إلاَّ في موضع واحد ، وهو قوله : العلم أكبر من أن يُحاط به ، فخذوا البعض » ، وقول أبي العيناء : « كأنَّ بيانه لؤلؤٌ منثور ، ووشي منشور ، وروض ممطور » .

وممَّا جاء للمعاصرين في ابن المقفَّع قول الشَّيخ ابراهيم اليازجيّ في مجلَّة « البيان » ، من كلام له على « اليتيمة » : « وكيف لا وهو معرِّب كتاب [كليلة ودمنة] المشهور ، الَّذي لو لم يكن له فيه إلاَّ أنَّه كساه من ديباجة لفظه ، ووشي بيانه ، ما كان به نسيج وحده في التَّصانيف العربيّة، فضلاً عن المعرَّبة ، وما لا يزال به على الدَّهر جديداً ، لا تبليه اللَّيالي ، ولا تغيِّره الأيَّام ، لكفاه دليلاً على غزارة

فضله، ورآسته بين أرباب البلاغة، وأُمراء الانشاء! (إلى أن يقول:)
« انَّ كتاب [كليلة ودمنة] قد رُزق من الشُّهرة ، والاستحسان ، وإجماع العقول على إيثاره ما لم يُرزقْه كتاب في بابه . وهو إلى اليوم أشهر من نارٍ على علم ! ولا تكاد ترى متأدِّباً إلاَّ وقد اطّلع عليه ، وشغف به » .

وقال من كلام له ، أيضاً ، في مجلَّة « الطَّبيب » ، على « كليلة ودمنة » : « فضلاً عمَّا أُودع الكتاب برمَّته من الفصاحة ، والسَّبك ، وحسن اختيار الألفاظ والأساليب ، حتَّى لا يُتبيَّن فيه أثر للتَّعريب . ومع كثرة ما تغلَّب عليه من التَّبديل والتَّحويل ، وما اعتوره من تحريف النُّسَّاخ طوراً بعد طور ، لا يزال آية الفصاحة . ينادي بلسان حاله :
[يبلى القميص وفيه عَرْف المندلِ . . .] » .

وقال الشَّيخ خليل اليازجيّ في مقدّمته « لكليلة ودمنة » : « وقد وجدتُ كتاب [كليلة ودمنة] (إلى أن يقول :) « أليق كتاب لهذه الغايات (إلى أن يقول :) لما هو معروف به من فصاحة العبارة ، ورشاقة اللّفظ ، وعلوِّ الطَّبقة في أساليب الإنشاء بحيث يصحُّ أن يكون دستوراً يُنسج على منواله ، ويُجرى على مثاله » .

وقال الأمير شكيب أرسلان في مقدَّمته « للدُّرَّة اليتيمة » : « مع صغر حجمها [يريد اليتيمة] قد جمعت بين أعلى طبقات البلاغة ، وأسمى درجات الحكمة ، وتضمَّنت من الحكم البوالغ ، والحجج الدَّوافع ، ما لم يتضمَّنه كتاب قبلها ، ولا بعدها ! فكانت حريَّةً بأن

يتَّخذها الكاتب منتجع لبِّه ، وحَماطة[*] قلبه ، وأن يجعلها دستور إنشائه ، ومثال احتذآئه (إلى أن يقول :) « وما أنا محدِّثٌ عن ابن المقفَّع ، وهو ربُّ هذا الأمر ، وواسطة هذا العقد . وفي شهرته ما يغني عن الافاضة والاشادة ، وفي الاطِّلاع على هذه الرِّسالة ما يكفي الشَّاهدَ مؤونة الشهادة . ولعمري ! لو استفرغ مجتهد وُسعه في اهداءِ أرباب الأقلام طُرفةً تعجبهم ، فقصاراه نشر كلام مثل ابن المقفَّع » .

وقال السِّيد المنفلوطيّ في « المختارات » ، في تعليق له على كلام لابنِ المقفَّع : « أكتب كتَّاب العربيَّة في الأدب ، والحكمة - يريد ابن المقفَّع - . ومذهبه في الكتابة أعدل المذاهب وأقومها ، لطلاوته وسلاسته ، وبُعده عن الأسجاع والتَّكاليف . ولا يوجد له نظير في طريقته إلاَّ الجاحظ وعبد الحميد وسهل بن هارون ، وقليل من أمثالهم » .

وقال جرجي زيدان في كتابه « تأريخ آداب اللُّغة العربية » يذكر « كليلة ودمنة » : « ونظراً لما يمتاز به الكتاب المذكور من السُّهولة والرَّشاقة عن سائر ما كُتب في عصره ، أو ما بعده من كتب الأدب ، يغلب على ظنِّنا انه اكتسب ذلك من تأثير أساليب اللغات الأخرى الَّتي كان يعرفها ابن المقفَّع مع اقتدار خاصّ فيه على مثل ذلك الأسلوب . وقد قلَّ من جاء بمثله بعده . ولم يأت أحد بأحسن منه في بابه مع ما بلغ إليه العلم من الرُّقيِّ في العصر العبَّاسيِّ (إلى أن يقول في موضع آخر :) « وهو لا يزال إلى الآن من خيرة الكتب في الإنشاء . وقد

(*) حَماطة القلب : المراد بها هنا : حبَّته ، وصميمه .

شغف العرب بمعانيه فنقلوها إلى الشِّعر » .

وقال خليل مردم بك في كتابه « ابن المقفَّع » : « أما بلاغته فانَّه أحد بلغاء النَّاس العشرة ، بل هو معدود في طليعتهم . وهاك أسماءَهم كما رتَّبها ابن النَّديم عبد الله بن المقفَّع ، وعمارة بن حمزة ، وحجر ابن محمَّد ، ومحمَّد بن حجر ، وأنس بن أبي شيخ ، وسالم ، ومسعدة ، والهرير ، وعبد الجبَّار بن عديّ ، وأحمد بن يوسف . وسواء أكان بلغاء النَّاس عشرة أم أكثر أم أقلّ ، فابن المقفَّع في السابقين منهم (إلى أن يقول :) « ترك ابن المقفَّع ثروة عظيمة للأدب العربيِّ ، وأمثلة رفيعة يطبع على غرارها بلغاء هذه الأُمَّة (إلى أن يقول) : « على انَّ له من بنات أفكاره ما يستهوي العقول ، ويسحر الألباب ، حتَّى زعم بعضهم انَّه عارض القرآن في كتاب [الدرَّة اليتيمة] (إلى أن يقول :) أظهر ما في أسلوبه الوضوح والسُّهولة والجري مع الطَّبع وعدم التَّعقيد والإغراب (إلى أن يقول :) ولا أعرف بليغاً ، كاتباً كان أو شاعراً ، تفهمه العامَّة ، وتأنس به ، وتكبره الخاصَّة ، بل تعجز عن مجاراته الاَّ ابن المقفَّع ! (إلى أن يقول :) يقصد إلى المعنى - يريد ابن المقفَّع - بعناية بالغة فاذا تمَّ له تصوُّره قدَّر له من اللَّفظ ثوباً ليس بالفضفاض ، ولا بالضيِّق مع زهد بالسَّجع ، إلاَّ ما جاء عفواً ، من غير تعمُّل . فأسلوبه أسلوب المساواة بين اللَّفظ والمعنى (إلى أن يقول :) أمَّا أثره في الإنشاء العربيِّ فعظيم جدّاً . يدلُّنا على ذلك إقبال النَّاس على آثاره بالقراءَة والحفظ والنَّظم والمعارضة منذ القرن الذي عاش فيه . ولا تزال آثاره الباقية حتَّى الآن حيَّةً تُقرأ وتُدرس وتُستظهر بشوق ولذَّة مع قدم عهدها . وستبقى خالدةً

ما بقيت العربيَّة ، ولا يزال أسلوبه مثالاً عالياً في الإنشاء يحتذيه كثير من الأدباء ، ويدعو إليه . وهذه مزيَّة لم تُتح لغيره من كتَّاب العربيَّة ، وأكاد أقول : من كتَّاب سائر اللُّغات » .

وقال الكرد علي في كتابه « أمراء البيان » : « لم يدانِ ابن المقفَّع في الكتابة المرسَلة مدانٍ ، فهو فيها المفرد العَلَم ! اللَّهمَّ إلاَّ بضعة من الرِّجال ، ومنهم سهل بن هارون وعمرو بن مسعدة ، أتى الدَّهر على ما أنشأته أقلامهم إلاَّ قليلاً . وعلى ذلك أجمع العارفون من القدماء (إلى أن يقول :) « ولم يُعرف لمتقدِّم ، ولا لمتأخِّر ، أن نقل إلى اللِّسان العربيِّ شيئاً في الأدب والعلم لا تحسُّ فيه أثر اللُّغة المنقول عنها إلاَّ ابن المقفَّع (إلى أن يقول :) « سرُّ تأثير ابن المقفَّع في مختلف العصور : سلاسته ، وجزالته (إلى أن يقول :) « فكأنَّ ألفاظ ابن المقفَّع منخولة في منخل دقيق نُفي الزؤان ممَّا يحمل ! أمَّا التَّراكيب فهي موضع العجب في رصف بعضها إلى جانب بعض على غاية الإحكام . ثمَّ هو ليس في ألفاظه بالبخيل ، ولا بالمسرف . يعطي منها بمقدار ما يلبس معانيه حلَّة قشيبة . فيجمع بين الجزالة ، والوضوح ، والإيجاز . ومعانيه كلُّها ناصعة ، وألفاظه كلُّها فصيحة » .

وقال ، أيضاً في كتابه « كنوز الاجداد » ، في كلامه على ابن المقفَّع : « وهو في البيان والكتابة آية من الآيات (إلى ان يقول) : بذَّ البلغاء في التَّرجمة والتَّأليف » .

وقال أحمد حسن الزَّيَّات في كتابه « تأريخ الأدب العربيِّ » من

كلام له على طريقة ابن المقفّع : « وطريقته تنويع العبارة ، وتقطيع الجملة ، والمزاوجة بين الكلمات ، وتوخّي السُّهولة ، والعناية بالمعنى ، والزُّهد في السَّجع » .

وقال في موضع آخر من كتابه المذكور : « ابن المقفّع إمام الطَّبقة الأولى من الكتَّاب . وقد استخلص من الأسلوب الفارسيِّ والعربيِّ طريقة في الكتابة عُرفت به ، وأُخذت عنه (إلى أن يقول :) ابن المقفّع مترجم قدير لا تلمح في ترجمته أثر العجمة ، وتكاد لا تفرِّق بين نقله ووضعه » .

له من الكتب الَّتي مُثلّت بالطَّبع : « كليلة ودمنة » ، ترجمه عن الفارسيَّة ، وهو أشهر كتبه . قيل : إنَّ « كليلة ودمنة » مترجم كلُّه ، وقيل : أكثره تأليف ، وبعضه محتذىً . وله : « اليتيمة » ، و « الأدب الصغير » ، و « الأدب الكبير » و « رسالة الصحابة » ، ورسالة صغيرة اسمها أيضاً « اليتيمة » .

و « اليتيمة » غاية في الابداع . قال الأصمعيُّ في « الوفيات » : « لم يُصنف في فنِّها مثلها » . وقال « ابن طيفور » في كتابه « المنثور والمنظوم » : « انها من الرسائل المفردات اللَّواتي لا نظير لها ، ولا أشباه . وهي أركان البلاغة ، ومنها استقى البلغاء لأنها نهاية في المختار من الكلام » إلى أن يقول : « فانَّ النَّاس جميعاً مجمعون انَّه لم يعبِّر أحد عن مثلها ، ولا تقدَّمها من الكلام شيءٌ قبلها » . وقال ابن النديم في « الفهرست » : « انَّ اليتيمة وكليلة ودمنة من الكتب المجمع على جودتها » . و « باليتيمة » ضرُب المثل في البلاغة . ومن ذلك قول أبي تمّام في مدح الحسن بنْ وهب :

ولقد شهدتك ، والكلام لآلىءٌ

تُـوْم[1] ، فبكرٌ في الكلام، وثيِّبُ[2]

فكأنَّ «قُسَّـاً» في عُكاظٍ يخطبُ ،

وكأنَّ «لـيلى الأخيليَّة» تندبُ ،

و«كثير» «عَزَّةَ» يوم بينٍ ينسبُ ،

وابن المقفع في «اليتيمة» يُسهبُ

ولقد طُبع «الأَدب الكبير» بعنوان «الـدُّرَّة اليتيمـة» . ويغلـب على الظَّنِّ انَّه غيرها ، وانَّ «اليتيمة» لا تزال مكنونةً ، وذلك لأَسباب كثيرة . وليس ما هنا محلَّها .

(1) توائم النّجوم ، واللّؤلؤ : ما تشابك منها .

(2) الثَّيِّب : نقيض البكْر .

الرَّجل الكامل[1]

إنِّي مخبرك عن صاحب كان أعظم النَّاس في عيني . وكان رأْس ما أَعظمه عندي صغر الدُّنيا في عينه . كان خارجاً من سلطان بطنه : فلا يشتهي ما لا يجد ، ولا يُكثر إذا وجد . وكان خارجاً من سلطان فرجه : فلا تدعوه اليه مؤونة ، ولا يستخفُّ له رأْياً ولا بدناً. وكان خارجاً من سلطان الجهالة : فلا يُقدم إلاَّ على ثقة ، أو منفعة . وكان أكثر دهره صامتاً ، فإذا قال بذَّ[2] القائلين . وكان يُرى مُتضعَّفاً[3] مستضعفاً ، فاذا جدَّ الجدُّ فهو اللَّيث عادياً . وكان لا يدخل في دعوى ، ولا يَشْرك في مراء[4] ، ولا يدلي بحجَّة حتَّى يجد قاضياً فهِماً وشهوداً عدولاً . وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذر في مثله حتَّى يعلم ما اعتذاره . وكان لا يشكو وجعاً إلاَّ إلى من يرجو عنده

---

(1) وهي خاتمة « اليتيمة » وقد وردت بتحريف وزيادات في « نهج البلاغة » ، معزوَّةً إلى الإمام عليّ ، ووردت في « عيون الأخبار » مقتضبةً من كلام ابن المقفَّع مع تحريف كثير ، معزوَّةً إلى الحسن بن عليّ . والَّذي عندنا : أنَّها بكلام ابن المقفَّع أشبه .

(2) بذَّهم : سبقهم ، وغلبهم .

(3) استضعفه ، وتضعَّفه : عدَّه ضعيفاً ، كضعَّفه .

(4) المراء : الجدال .

البرء ، ولا يصحب إلاَّ من يرجو عنده النَّصيحة . وكان لا يتبَّرم[1] ، ولا يتسخَّط[2] ، ولا يتشهَّى ، ولا يتشكَّى ، ولا ينتقم من الوليِّ ، ولا يغفل عن العدوِّ ، ولا يخصُّ نفسه دون إخوانه بشيءٍ من اهتمامه وحيلته وقوته . فعليك بهذه الأخلاق إن أطقت ، ولن تطيق ، ولكن أخذ القليل خيرٌ من ترك الجميع[3] .

من رسائله الإخوانيَّة

من رسالة إلى صديق وُلد له أنثى[4]

بارك الله لكم في الابنة المستفادة ، وجعلها لكم زَيْناً ، وأجرى لكم بها خيراً . فلا تكرهها ، فإنهنَّ الأمهات ، والأخوات ، والعمَّات والخالات .

من رسالة إلى صديق ، وقد بعث بها وهو في سفرٍ له[5]

إنَّك واضع المؤُنات عن إخوانك ، حمَّال عنهم أثقال الأُمور (إلى أن يقول :) كان من خبري بَعدك أنِّي قدمتُ بلد كذا ، فتهيَّأ لي بعض ما شخصتُ له . والمحمود على ذلك الله ، عزَّ وجلَّ . وأنا على أن يأْتيني خبرك ، محتاج . فأمَّا جملة خَبَري في فراقك : فقلبي « مكّة » ، كل ما سواك حرام فيها !

---

(1) تبرَّم : تضجَّر .

(2) التَّسخُّط : الكراهة ، وعدم الرِّضى .

(3) وقد زيد هنا في بعض النُّسخ : « وبالله التَّوفيق » .

(4) من « زهر الآداب » للحصريِّ .

(5) من « اختيار المنثور والمنظوم » لابن طيفور .

من « كليلة ودمنة »

1

فقلتُ في نفسي : ما الإخوان ، ولا الأعوان ، ولا الأصدقاء إلاّ بالمال ! ووجدتُ من لا مال له إذا أراد أمراً قعد به العُدْم عمّا يريده ، كالماء الّذي يبقى في الأودية من مطر الشتاء ، لا يمرُّ إلى نهرٍ ، ولا يجري إلى مكان ، فتشربه أرضه . ووجدت من لا إخوان له لا أهل له ، ومن لا ولد له لا ذكْر له ، ومن لا مال له لا عقل له ولا دنيا ولا آخرة . لأنَّ الرَّجل اذا افتقر قطعه أقاربه وإخوانه . فانَّ الشَّجرة النَّابتة في السِّباخ[1] ، المأكولة من كلّ جانب ، كحال الفقير المحتاج إلى ما في أيدي النَّاس . ووجدتُ الفقر رأس كلِّ بلاء وجالباً إلى صاحبه كلَّ مقت ، ومعدن النَّميمة . ووجدتُ الرَّجل إذا افتقر اتَّهمه من كان له مؤتمناً ، وأساء به الظَّنَّ من كان يظنُّ به حسناً . فإن أذنب غيره كان هو للتُّهمة موضعاً . وليس من خَلَّةٍ[2] هي للغنى مدح إلاّ وهي للفقير ذمٌّ . فإن كان شجاعاً قيل : أهوج ، وإن كان جواداً سُمّي : مبذراً وإن كان حليماً سُمّي ضعيفاً . وإن كان وقوراً سُمّي بليداً . فالموت أهون من الحاجة التي تحوج صاحبها إلى المسألة ، ولا سيّما مسألة الأشحّاء واللِّئام . فانَّ الكريم لو كُلِّف أن يدخل يده في فم الأفعى فيُخرجَ منه سمّاً ، فيبتلعه ، كان ذلك أهون عليه ، وأحبَّ إليه ، من مسألة البخيل اللئيم !

---

(1) السِّباخ من الأرض : ما لم يُحرث ولم يُعمر .

(2) الخلَّة : الخصلة .

2

ووجدتُ صرعة اللِّين والرِّفق أسرع وأشدَّ استئصالاً للعدوِّ من صرعة المكابرة . فإنَّ النَّار لا تزيد بحدَّتها وحرِّها إذا أصابت الشجرة على أن تحرق ما فوق الأَرض منها . والمآء بلينه وبَرْده يستأْصل ما تحت الأَرض منها (إلى أن يقول :) فانَّ رأْي الرَّجل الواحد العاقل الحازم أبلغ في هلاك العدوِّ من الجنود الكثيرة ، من ذوي البأْس ، والنَّجدة ، والعَدَد ، والعُدَّة .

3

ينبغي للعاقل أن لا يغفل عن التماس ما في نفس أهله ، وولده ، وإخوانه ، وصديقه ، عند كلِّ أمر ، وفي كلِّ لحظة ، وعند القيام والقعود ، وعلى كلِّ حال . فإنَّ ذلك كلَّه يشهد على ما في القلوب . وقد قالت العلمآء : إذا دخل قلبَ الصَّديق من صديقه ريبة ، فليأْخذ بالحزم في التَّحفُّظ منه ، وليتفقَّد ذلك في لحظاته وحالاته . فإن كان ما يظنُّ حقَّاً ظفر بالسَّلامة ، وإن كان باطلاً ظفر بالحزم ، ولم يضرَّه ذلك .

4

وانَّما ضربتُ لك هذا المثل لتعلم أنَّك إذا غدرتَ بصاحبك فأَنت ، لا شكَّ ، بمن سواه أغدر ، وأنَّه إذا صاحب أحد صاحباً وغدر بمن سواه فقد علم صاحبه أنَّه ليس عنده للمودَّة موضع . فلا شيءَ

أَضيع من مودَّةٍ تُمنح من لا وفاء له ، وحِباءٍ[1] يُصطنع عند من لا شكر له .

5

وقد قيل في أشياء ليس لها ثبات ، ولا بقـاء : ظلُّ الغمامـة في الصَّيف ، وخِلَّة[2] الأَشرار ، والبناء على غير أساس ، والنَّبأ الكاذب ، والمال الكثير .

6

ومن لا يُقدِّر لطاقته طعامه ، وشرابه ، وحمَّل نفسه ما لا تطيق ، ولا تحمل ، فقد قتل نفسه . ومن لم يُقدِّر لقمته ، وعظَّمهـا فوق ما يسع فوه ، فربَّما غصَّ بها ومات (إلى أن يقول :) والعاقل لا يثـق بأحد ما استطاع ، ولا يقيم على خوف ، وهو يجد عنه مذهباً . وأنا كثير المذاهب ، وأرجو أن لا أذهب وجهاً إلاَّ أصبتُ فيه ما يغنيني (إلى أن يقول :) وإذا خافى الإنسان على نفسه شيئاً طابت نفسه عن المال والأهل والولد والوطن ، فإنَّه يرجو الخلَف من ذلك كلِّه ، ولا يرجو عن النّفس خلَفاً . وشرُّ المال : ما لا إنفاق منه ، وشرُّ الأَزواج : الَّتي لا تؤاتي بعلها ، وشرُّ الولد : العاصي العاقُّ والديه ، وشـرُّ الإخـوان : الخاذل لأَخيه عند النَّكبات والشَّدائد (إلى أَن يقول :) وشرُّ البلاد : بلادٌ لا خِصْب فيها ، ولا أَمن .

---

(1) الحباء : العطيَّة .

(2) الخِلَّة : المصادقة والاخاء .

7

الرَّجل ذو المروءَة يُكرم على غير مال كالأسد يُهاب ، وإن كان رابضاً ، والرَّجل الذي لا مروءَة له يُهان ، وان كان غنيّاً ، كالكلب يهون على النَّاس وإن عسَّ (*) ، وطوَّف .

المودَّة بين الصالحين سريع اتِّصالها ، بطيءٌ انقطاعها ، كآنية الذَّهب التي هي بطيئة الانكسار ، هيِّنة الإِعادة . والمودَّة بين الأَشرار سريع انقطاعها ، بطيءٌ اتِّصالها ، كآنية الفخَّار يكسرها أَدنى شيءٍ ، ولا وصل لها .

نوعا الصَّبر[1]

إِنَّ الصَّبر صبران : صبر الرَّجل على ما يكره ، وصبره عمَّا يحبُّ . فالصَّبر على المكروه أَكثرهما وأَشبههما أَن يكون صاحبه مضطرّاً . وآعلم أَنَّ اللِّئام أَصبر أَجساداً ، والكرام أَصبر نفوساً . وليس الصبر الممدوح بأن يكون جلْد الرَّجل وَقاحاً[2] ، أَو رجْله قويَّة على المشي ، أَو يده قويَّة على العمل ، فانَّما هذا من صفات الحمير !

النِّساء[3]

ومن البلاء على المغرم بهنَّ أَنَّه لا ينفكُّ يأْجم[4] ما عنده ، وتطمح « مكَّة » ، كلُّ ما سواك حرام فيها !

(*) عسَّ : طاف في اللَّيل .

(1) من « اليتيمة » .

(2) وقاح ، هنا : صلْب .

(3) من « اليتيمة » .

(4) أجم الطعام ، وغيره : كرهه ، وملَّه .

عيناه إلى ما ليس عنده منهنَّ . وانَّما النِّساء أشباه ، وما يُرى في العيون والقلوب من فضل مجهولاتهنَّ على معروفاتهنَّ باطل وخُدعة . بل ما يرغب عنه الرَّاغب ممَّا عنده أفضل ممَّا تتوق إليه نفسه . وانَّما المترغِّب عمَّا في رحْله منهنَّ إلى ما في رحال النَّاس كالمترغِّب عن طعام بيته إلى ما في بيوت النَّاس . بل النِّساء بالنِّساء أشبه من الطَّعام بالطَّعام (إلى أن يقول :) ولا يزال مشغوفاً بما لم يذقْ حتَّى لو لم يبقَ في الأرض غير امرأة واحدة لظنَّ أنَّ لها شأناً غير شأن ما ذاق .

الأخبار الرَّائعة ونقلها[1]

إيَّاك والأخبار الرَّائعة[2] ، وتحفَّظ منها . فإنَّ الإنسان من شأنه الحرص على الأخبار ، لا سيَّما ما راع منها . فأكثر النَّاس من يحدِّث بما سمع ، ولا يبالي ممَّن سمع . وذلك مفسدة للصِّدق ، ومَرْزِئة[3] بالرَّأي . فإن استطعت ألاَّ تُخبِر بشيءٍ إلاَّ وأنت به مصدِّق ، وألاَّ يكون تصديقك إلاَّ ببرهان فافعلْ . ولا تقل كما يقول السُّفهاء : « أُخبرُ بما سمعت ! » ، فإنَّ الكذب أكثر ما أنت سامع ، وإنَّ السُّفهاء أكثر من هو قائل ، وإنَّك إن صرت للأحاديث واعياً وحاملاً كان ما تعي وتحمل عن العامَّة أكثر ممَّا يخترع المخترع بأضعاف !

---

(1) من « اليتيمة » .
(2) يقال ، راعني كلامه : أي أفزعني ، فهو رائع .
(3) المَرْزِئة : المصيبة . وفي بعض النُّسخ : « مَزْراة » .

النِّساء أيضاً[1]

ولا تملِّكَنَّ امرأة من الأمر ما جاوز نفسها ، فانَّ ذلك أنعم لحالها ، وأرخى لبالها ، وأدوم لجمالها . وانَّما المرأة ريحانة وليست بقَهرَمانة[2] ! (إلى أن يقول :) وإياك والتغاير في غير موضع غيرة ، فانَّ ذلك يدعو الصَّحيحة منهنَّ إلى السّقم .

في نظام العمل[3]

إذا تراكمت الأعمال عليك ، فلا تلتمس الرَّوح[4] في مدافعتها بالرَّوغان[5] منها . فانَّه لا راحة لك إلاَّ في إصدارها ، وإنَّ الصَّبر عليها هو يخفِّفها ، وانَّ الضَّجر منها هو يراكمها عليك . فتعهَّد من ذلك في نفسك خَصلةً قد رأيتُها تعتري بعض أصحاب الأعمال : إنَّ الرَّجل يكون في أمر من أموره ، فيرِدُ عليه شغل آخر ، ويأتيه شاغل من النَّاس يكره تأخيره ، فيكدِّر ذلك بنفسه تكديراً يفسد ما كان فيه ، وما ورد عليه ، حتى لا يُحكم واحداً منهما . فإن ورد عليك مثل ذلك ، فليكن معك رأيك الَّذي تختار به الأمور ، ثمَّ اختر أولى الأمرين بشغلك ، فاشتغل به حتى تفرغ منه . ولا يَعْظمن عليك فوت ما فات ، وتأخير ما تأخَّر ، إذا أعملتَ الرَّأي مَعْمَله ، وجعلتَ شغلك في حقِّه .

---

(1) من « اليتيمة » .

(2) القَهرَمانة : مدبِّرة البيت ومتولِّية شؤونه .

(3) من « اليتيمة » .

(4) الرَّوح : الرَّاحة .

(5) الرَّوغان : الميل والحيد عن الشَّيء .

غالبة الحديث

إعلم انَّه تكاد تكون لكلِّ رجل غالبة حديث ، إمَّا عن بلد من البلدان ، أو ضرب من ضروب العلم ، أو صنف من صنوف النَّاس ، أو وجه من وجوه الرَّأي . وعند ما يُغْرم به الرَّجل من ذلك يبدو منه السّخف ، ويُعرف منه الهوى . فاجتنبْ ذلك في كلِّ موطن ، ثمَّ عند أولي الأمر خاصَّةً .

الجمال !

إن استطعتَ أن تُنْزِل نفسك دون غايتك في كل مجلسٍ ومقامٍ ورأيٍ وفعلٍ ، فافعل . فان رفْع النَّاس إيَّاك فوق المنزلة الَّتي تحطُّ إليها نفسك ، وتقريبَهم إيَّاك في المجلس الَّذي تباعدتَ عنه ، وتعظيمَهم من أمرك ما لم تعظِّم ، وتزيينهم من كلامك ما لم تزيِّن ، هو الجمال !

أحمد بن يوسف الكاتب

(لا تأريخ لمولده، وقد توفي سنة 828 م.)

هو أحمد بْن يوسف بْن القاسم بْن صبيح ، المعروف بالكاتب . (وضبط صُبيح في [معجم الأُدباء] لياقوت : بضمّ الصّاد وفتح الباء وإسكان الياء ، وفي [الأعلام] لخير الدِّين الزِّركلي : بفتح الصّاد وخفض الباء) من قرية من قرى الكوفة . وجملة ما نُقل من أخبار أحمد في مستهلّ أمره أنّ أباه يوسف ، وجدّه القاسم ، كانا محبّين للأدب والشِّعر ، فنشأ هو على ذلك .

قال محمد كرد علي في كتابه « أُمراء البيان » : « وعرفنا انّ أحمد بْن يوسف ورث عن أبيه وجدّه حبّ الأدب والشِّعر ، وما عرفنا بمن تخرّج لأوّل أمره ، ولا سنة مولده . ولنا أن نقول في أصل أحمد ونشأته إنّه عربيّ النّشأة ، بغداديّ الدّار ، مصريّ الأصل والنّبعة » . وذكر الصّوليّ انّ صبيح كان قبطيّاً .

وقال الخطيب البغداديّ في كتابه « تاريخ بغداد » يذكر أحمد : « وكان جيِّد الكلام ، فصيح اللِّسان ، حسن اللّفظ » . ويقول كرد علي في كتابه المذكور : « وعُرف بحبّ المرح ، وبتعاطي الشّراب ، والأنس إلى القينات ، والافتتان بالجمال . واشتُهر باستهتاره في شهواته ، وأنّه

مستَرَقٌ بلذَّاته » .

إستوزره المأمون ، وولاّه ديوان الرَّسائل[*] وقد توفيَ أحمد في بغداد .

كان أحمد في كتاباته الخاصَّة يؤثر البلاغة ، والمرسَل من الكلام ، على التَّطويل والتَّسجيع . فيجيءُ من وراء الرَّونق ونضارة الطَّبع بالمعاني الكثيرة في اللَّفظ القليل . أمَّا في كتاباته الدِّيوانيَّة ، وقد كان السَّجع والإسهاب في زمنه هما طريقة الدَّواوين ، ولا مفرَّ له من طريقتها ، فانَّه يطيل اطالة المقتدر على الإسهاب ، ويضع السَّجعة موضعها الأنسب .

لم يخلف أحمد تأليفاً ما ، على انَّ ابن النَّديم ذكر له في « الفهرست » رسالة أسمها « رسالة الحسْن » ، وقال عنها إنَّها من الرَّسائل التي أجمع الرَّأي على جودتها . وليس بين يدينا من إجادات أحمد إلَّا مقطَعات من رسائل في بعض المجاميع الأدبية ، وبعض كتب التَّراجم ، وهي بين ديوانيَّة وخاصَّة .

كتاب عزل وتولية[1]

عن المأمون إلى عبد الله بن طاهر ، يعزله فيه عن مصر ، ويولِّي اسحق بْن ابراهيم :

(*) قال حسن السندوبي في كتابه « أدب الجاحظ » : « كان ديوان الرَّسائل في المالك الإسلاميَّة من أهمّ ما يدور عليه محور السّياسة العامَّة للدَّولة . وكان لا يُعهد فيه الاَّ لذوي الشَّرف والنَّباهة من الثقات الكُفاة » .

(1) من « أمراء البيان » المذكور : وكذلك ما بعده من المقتطفات من كلام أحمد .

أمَّا بعد ، فانَّ أمير المؤمنين قد رأى تولية اسحق ابن ابراهيم ما يتولاَّه من أعمال المعاون بديار مصر . وإنَّما هو عملك نُقل منك إليك ، فسلِّمه من يدك إلى يدك ، والسَّلام .

دعوة صديق

وكتب يستدعي بعض إخوانه ، وقد زاره ابراهيم بن المهديّ :

عندي من أنا عنده ! وحجَّتنا عليك إعلامنا لك والسَّلام .

في هديَّة مستَقَلَّة

إلى إبراهيم بنْ المهديّ في هديَّة استقلَّها :

بلغني استقلالك لما ألطفتُ (*) ، والَّذي نحن عليه من الأُنس سهَّل علينا قلَّة الحشد لك في البرِّ . فأهدينا هديَّة من لا يحتشم إلى من لا يغتنم !

يوم التلاقي

إلى صديق له يستدعيه

يوم التَّلاقي قصير ، فأعن عليه بالبكور . . .

(*) ألطفه بكذا : برَّه .

معرفة الشّعر قبل قوله
إلى أخيه وقد سمع له شعراً

وفقك الله ، يا أخي للسَّداد . قرأتُ لك شعراً أنفذتَه إلى من تخطب مودّته ، وتستدعي عشرته . فسرّني شغفك بالأدب ، وساءني اضطرابك في الشّعر ! وليس مثلك من أخرج من يده شيئاً يعود بعيب عليه . وأُعيذك بالله أن تلج لجّة الشّعر بلا عوم ينجيك منها ، وسباحة تصدرك عنها ، فتُنسب إلى قبيح أمر هويت النُّسبة إلى حسنه . فاعرف الشّعر قبل قوله ، واستعنْ على عمله بأهله . ثمَّ قلْ منه ما أحببتَ ، إذا عرفتَ ما أوردتَ وأصدرت .

كتاب عتاب
إلى بعض الرُّؤساء

لولا حسن الظّنّ بك ، أعزّك الله ، لكان في إغضائك عنّي ما يقبضني عن الطّلبة إليك . ولكن أمسك برمقٍ من الرَّجاء علمي برأيك في رعاية الحقّ ، وبسط يدك إلى الّذي لو قبضتها عنه ، لم يكن له إلاّ كرمك مذكّراً ، وسؤْددك شافعاً .

سهل بن هارون

(لا تأريخ لمولده، أمَّا وفاته ففي سنة 830 م.)

سَهْل بن هارون بن راهبون (وقيل : راهيون ، أي بالياء التي هي آخر الحروف . وفي [البيان والتَّبيين] : بن راهِيُون . وما هنا ضبط [البيان والتَّبيين] . وفي [الفهرست] : (بن رامنوي) ، فارسيّ الأصل ، وُلد في « مَيْسان » ، بين واسط والبصرة ، وفي رواية : في « دَسْتُمَيْسان » ، كورة بين الأهواز واسط والبصرة ، وانتقل إلى البصرة ، ثمَّ إلى بغداد وأصبح صاحب دواوين الرَّشيد فيها ، ثمَّ ناظراً « لخزانة الحكمة » (وقيل : بيت الحكمة ، لا خزانة الحكمة) في زمن المأمون(*) .

هو في أعلى الأساليب في الكتابة رابع ثلاثة : عبد الحميد الكاتب وابن المقفَّع والجاحظ . أمَّا الصِّفة الغالبة في كتابته : فهي الرَّزانة التي لا تتكلَّف الوقار ، وانَّما تلوح من وراء الفصاحة بألطف ما يرقُّ الطَّبع ، وتلين السَّجيَّة . لا يجنح إلى السَّجع ، إلاَّ إذا جاءت السَّجعة عفو الخاطر ، رشيقةً ، نازلةً منزلها الأنسب . وهو لا يتعمَّل

(*) قال ابن نباتة للمصريّ في « سرح العيون » : « خزانة الحكمة هي كتب الفلاسفة التي نُقلت للمأمون من جزيرة قبرس »، يريد فلاسفة اليونان .

لمعنىً ، ولا لمبنىً ، على كلفه الشَّديد بهما في آنٍ معاً . وله في سياق العبارة ذلك النَّغم الحبيب الذَّي يظلُّ يتهادى بين المفردات والمقاطع صافياً سائغاً حتى يوافي قراره آخر الجملة .

وكان الجاحظ « يفضِّله ، ويصف براعته وفصاحته ، ويحكي عنه في كتبه » ، على ما ذكر صاحب « الفهرست » في كتابه ، بل كان ينحل سهلاً طائفة من كتبه . قال في « رسالة فصل ما بين العداوة والحسد » : « وإنِّي ربَّما أَلَّفتُ الكتاب المحكم المتقن (إلى أن يقول :) وأنسبه إلى نفسي ، فيتواطأ على الطَّعن فيه جماعة من أهل العلم ، بالحسد المركَّب فيهم (إلى أن يقول :) وربَّما أَلَّفتُ الكتاب الَّذي هو دونه في معانيه وألفاظه ، فأُترجمه باسم غيري ، وأُحيله على من تقدَّمني عصره ، مثل ابن المقفَّع والخليل وسهل صاحب بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتَّابي ومن أشبه هؤلاء من مؤلِّفي الكتب ، فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكم من هذا الكتاب لاستنساخ هذا الكتاب وقراءَته عليَّ ، ويكتبونه بخطوطهم ، ويصيِّرونه إماماً يقتدون به ، ويتدارسونه بينهم ، ويتأدَّبون به ، ويستعملون أَلفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم » إلى آخر ما قال هناك . وقد ساق في « البيان والتَّبيين » هذه الصُّورة في وصف سهل ، قال : « وكان سهل سهلاً في نفسه ، عشيق الوجه[1] ، حسن الشَّارة[2] بعيداً من الفدامة[3] ، معتدل القامة ، مقبول

---

(1) أي معشوقه .

(2) الشَّارة هنا : الزِّينة واللِّباس .

(3) الفدامة : العيّ .

الصُّورة ، يُقضى له بالحكمة قبل الخبرة ، وبرقَّة الذِّهن قبل المخاطبة ، وبدقَّة المذهب قبل الامتحان ، وبالنُّبل قبل التَّكشُّف[1] .

وفي « زهر الآداب » ، من كلام للحصريِّ على سهل : « وله كتب ظريفة صنَّفها معارضاً للأوائل في كتبهم بما لايستصوبه منهم ، حتَّى قيل له : « بزر جمهر الإسلام » .

وقال ابن نباتة المصريّ في « سرح العيون » : « انفرد سهل في زمانه بالبلاغة والحكمة » .

وقال ابن أبي الإصبع في « تحرير التَّجير » : « قد كان المتقدِّمون لا يحفلون بالسَّجع جملةً ، ولا يقصدونه بتَّةً ، إلَّا ما أتت به الفصاحة في أثناء الكلام ، واتَّفق من غير قصد ، ولا اكتساب (إلى أن يقول :) وتلك طريقة الإمام ، عليِّ عليه السَّلام ، ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام كابن المقفَّع وسهل بن هارون والجاحظ ، وغير هؤلاء من العلماء والبلغاء » .

وقد عدَّ الزَّيَّات في « تاريخ الأدب العربيّ » سهلاً من رجال الطَّريقة الَّتي إمامها ابن المقفَّع ، قال : « وطريقته : تنويع العبارة ، وتقطيع الجملة ، والمزاوجة بين الكلمات ، وتوخِّي السُّهولة ، والعناية بالمعنى ، والزُّهد في السَّجع » .

وقال المنفلوطي في كتابه « المختارات » ، من كلام له على ابن

---

(1) التَّكشُّف : الظُّهور .

المقفّع : « ولا يوجد له نظير في طريقته [يريد الطّلاوة والسّلاسة والبعد عن الأسجاع والتّكاليف في كتابة ابن المقفّع] إلاّ الجاحظ وعبد الحميد وسهل بن هارون وقليل من أمثالهم » .

وقال الكرد علي في « أمراء البيان » : « وطريقة سهل في كتابته لا تكلُّف فيها ، ولا يشاهد فيها النّاقد أثر التّعمُّل . فهو وابن المقفّع والجاحظ من غرار واحد . وقيل انّ سهلاً كاتب سلاطين ، والجاحظ مؤلّف دواوين . وكأنّ كلامه نغمة موسيقيّة ، تعرف انتهاء جملته من رنّتها ، بعد ان ملكت عليك مشاعرك ، وأدخلت السُّرور على نفسك . لا يحفل بالأسجاع إلاّ إذا جاءت عفو الخاطر ، ولا يتعمّد الجزالة إلاّ إذا اقتضى الموضوع ذلك . وكأنّك في إنشاء سهل تقرأ المعنى قبل اللّفظ (إلى أن يقول :) وفي كلمه الطّيّب تقع على إشباع المعاني ، وتقطيع الجمل ، والإبلاغ في المزاوجة بين الكلمات ليتأثر السّامع وتفعل البلاغة في نفسك من طريق الاقناع والبرهان ، لا من مجرى التّقفية والزُّخرف ، وبتوازن الكلمات ورنّة الفقرات (إلى أن يقول :) يبالغ في تنوّق كرائم ألفاظه ، ويسلكها في سلكه ، ويرصّعها في عقوده ، فتجيء جزالة من دون تعمُّل ، وسلاسة من غير ما تبذُّل ، ونمطاً عالياً من السّهل الممتنع يتدفّق حكمةً ، ويسيل بياناً (إلى أن يقول :) وكلامه في بابه لباب البلاغة ، ومثال الفصاحة ، لا تبلى جدّته على الأيّام » .

أمّا تآليفه التي لم يسلم منها على الضّياع والبدد الاّ « رسالة في البخل » فكثيرة . منها : مجموع رسائله ، و « النّمر والثّعلب » ،

« واتِّخاذ [وقيل إتِّحاد] الإخوان » ، و « أسد بن أسد » و « سحرة العقل » ، و « تدبير الملك والسياسة » ، « والرِّياض » ، و « ثعلة وعفراء » [وقيل : ثعلة وعفرة] ، وهو في أبوابه وأمثاله على نسق « كليلة ودمنة » ، وقد قال المسعوديّ : « يزيد عليه [أي على كليلة ودمنة] في حسن نظمه » . و « القضاء » ، وجَّه به إلى عيسى بن أبان .

وأمَّا رسالته في البخل فهي ما كتبه إلى بني عمِّه من آل راهبون حين ذمُّوا مذهبه في البخل ، وتتبَّعوا كلامه في الكسب . وقد صدَّر الجاحظ بهذه الرِّسالة الرَّائعة كتابه « البخلاء » . وقال الحصريّ في « زهر الآداب » : « ألَّف سهل كتاباً [يريد هذه الرِّسالة] . يمدح فيه البخل ويذمُّ الجود ليظهر قدرته على البلاغة » . ويرى الكرد علي في « أمراء البيان » انَّ اتِّهام سهل بالبخل « يُراد به النُّكتة والنَّادرة » .

إلى صديق له

« قال الزِّياديُّ البصريُّ : وجدتُ على سهل بن هارون في بعض الأمر ، فهجوتُه ، فكتب إليَّ »[1] :

أمَّا بعد ، فالسَّلام على عهدك وداعَ ذي ضنٍّ بك ، في غير مَقْلِيَة[2] لك ، ولا سلوة عنك ! بل استسلام للبلوى في أمرك ، وإقرار

---

(1) من « زهر الآداب » للحصريّ .

(2) المقْلية : البغض .

بالمعجزة عن استعطافك ، إلى أوان فيأتك[1] . أو يجعل الله لنا دولة من رجعتك ، والسَّلام .

من « ثعلة وعفرة »[2]

أجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدَّماً قبل الَّذي تجودون به من تفضُّلكم ، فانَّ تقديم النَّافلة مع الابطاء عن الفريضة شاهد على وهْن العقيدة ، وتقصير الرَّوية ، ومضٌّر بالتَّدبير ، مخلٌّ بالاختبار . وليس في نفع تُحمد به عوض من فساد المروءَة ولزوم النَّقيصة .

وصف البلاغة[3]

الكلام المتحدِّر عن الغريزة على رسل ، تحدُّر الدُّرِّ أسلمته كفٌّ جارية إلى حجرْها ، لا يُجعل فيه اللِّسان على غير مذهب السَّجيَّة ، فيظهر فيه قبحُ التَّكلُّف .

كتاب تعزية[4]

إنَّه لن تبعد مصيبة أن تحلَّ محلَّ نِعمة إذا سُلِّم لأمر الله فيها ، ولن تبعد نِعمة أن تحلَّ محلَّ مصيبة إذا ضُيِّع شكر الله عليها !

تعظيم الغريب واستطراف البعيد[5]

النَّاس موكلون بتعظيم الغريب واستطراف البعيد ، وليس لهم في

---

(1) الفيئة : الرُّجوع .

(2) من « سرح العيون » لابن نباتة للصريّ .

(3) من « البصائر والذَّخائر » لأبي حيَّان التَّوحيديّ .

(4) من « للصون في الأدب » للعسكريّ .

(5) من « البيان والتَّبيين » .

الموجود الرّاهن المقيم ، وفيما تحت قدرتهم من الرَّأي والهوى ، مثل الَّذي معهم في الغريب القليل ، وفي النَّادر الشَّاذّ ، وكلّ ما كان في ملك غيرهم . وعلى ذلك زهد الجيران في عالمهم ، والأصحاب في الفائدة من صاحبهم ، وعلى هذه السَّبيل يستطرفون القادم عليهم ، ويرحلون إلى النَّازح عنهم ، ويتركون من هو أعظم نفعاً ، وأكثر في وجوه العلم تصرُّفاً ، وأخفُّ مؤنةً ، وأكثر فائدةً .

إلى صديق له أبَلّ من ضعف[1]

بلغني خبر الفترة في إلمامها وانحسارها ، والشكاة في حلولها وارتحالها ، فكاد يشغل القلق بأوّله عن سكون لآخره ، وتُذهل الحيرة في ابتدائه عن المسرَّة في انتهائه . وكان تغيُّري في الحالين بقدرهما ارتياعاً للأولى وارتياحاً للأخرى .

من رسالته في البخل[2]

أصلح الله أمركم ، وجمع شملكم ، وعلّمكم الخير ، وجعلكم من أهله (إلى أن يقول :) وما أردنا بما قلنا إلاّ هدايتكم وتقويمكم ، وإلاّ اصلاح فسادكم ، وإبقاء النعمة عليكم . ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم ، فما إخطأنا سبيل حسن النِّيَّة فيما بيننا وبينكم . ثمَّ قد تعلمون أنَّا ما أوصيناكم إلاَّ بما قد اخترناه لكم ولأنفسنا قبلكم ، وشهُرنا به في الآفاق دونكم (إلى أن يقول :) فما كان أحقّكم في تقديم حرمتنا بكم ، أن ترعوا حقَّ قصدنا بذلك إليكم على ما رعيناه من واجب

---

(1) من « سرح العيون » لابن نباتة المصري .

(2) من « البخلاء » .

حقّكم . فلا العذر المبسوط بلغتم ، ولا بواجب الحرمة قمتم . ولو كان ذكر العيوب برّاً وفضلاً لرأينا في أنفسنا عن ذلك شغلاً . وإنّ من أعظم الشّقوة ، وأبعدها من السّعادة ، ألاّ يزال يُتذكّر زلل المعلّمين ، يُتناسى سوءُ استماع المتعلّمين ، ويُستعظم غلط العاذلين ، ولا يحفل بتعمّد المعذولين .

عبتموني بقولي لخادمي : أجيدي عجنه خميراً ، كما أجدتِهِ فطيراً ، ليكون أطيب لطعمه ، وأزيد في ريعه[1] ، وقد قال عمر بن الخطّاب ، رضي الله عنه ورحمه ، لأهله : « املكوا العجين[2] ، فانّه أحد الرّيعين » .

وعبتم عليّ قولي : من لم يعرف مواقع السّرف[3] في الموجود الرّخيص ، لم يعرف مواقع الاقتصاد في الممتنع الغالي . فلقد أُتيتُ من ماء الوضوء بكيلةٍ يدلّ حجمها على مبلغ الكفاية ، وأشفّ من الكفاية ، فلما صرتُ إلى تفريق أجزائه على الاعضاء ، وإلى التّوفير عليها من وظيفة الماء ، وجدتُ في الأعضاء فضلاً على الماء ، فعلمتُ أن لو كنتُ مكّنتُ الاقتصاد في أوائله ، ورغبتُ عن التّهاون به في ابتدائه ، لخرج آخره على كفاية أوّله ، ولكان نصيب العضو الأوّل كنصيب الآخر . فعبتموني بذلك ، وشنّعتموه بجهدكم ، وقبّحتموه . وقد قال الحسن ، عند ذكر السّرف : « إنّه ليكون في الماعونين الماء والكلإ » . فلم يرضَ بذكر الماء ، حتى أردفه بالكلإ .

---

(1) الرّيع هنا : فضل العجين .

(2) مَلْكُ العجين : أنعم عجنه .

(3) السّرف هنا : تجاوز الحدّ والاعتدال .

وعبتموني حين ختمتُ على سلٍّ عظيم ، وفيه شيء ثمين ، من فاكهة نفسية ، ومن رطبة[1] غريبة ، على عبدٍ نهم ، وصبيٍّ جشع[2] ، وأمة[3] لكعاء[4] ، وزوجة خرقاء[5] . وليس من أصل الأدب ، ولا في ترتيب الحكم ، ولا في عادات القادة ، ولا في تدبير السَّادة ، أن يستوي في نفيس المأكول ، وغريب المشروب ، وثمين الملبوس ، وخطير المركوب ، والنَّاعم من كل فن ، واللُّباب من كلِّ شكل ، التَّابع والمتبوع ، والسَّيِّد والمسود ، كما لا تستوي مواضعهم في المجلس ، ومواقع أسمائهم في العنوانات ، وما يُستقبلون به من التَّحيَّات . وكيف ، وهم لا يفقدون من ذلك ما يفقد القادر ، ولا يكترثون له اكتراث العارف ! ومن شاء أطعم كلبه الدَّجاج المسمَّن ، وأعلف حماره السِّمسم المقشَّر . فعبتموني بالختم وقد ختم بعض الأئمَّة على مزود[6] سويق[7] ، وختم على كيسٍ فارغ ، وقال : طينة خير من ظِنَّة[8] . فأمسكتم عمَّن ختم على لا شيء وعبتم من ختم على شيء !

وعبتموني حين قلت للغلام : إذا زدتَ في المرق فزد في

(1) الرُّطبة : واحدة الرُّطب ، وهو ما نضج من التمر قبل أن يصير تمراً .
(2) الجشِع هنا : الطَّامع أسوأ الطَّمع .
(3) الأمة : الجارية .
(4) اللَّكعاء : اللَّئيمة .
(5) الخرقاء : الحمقاء .
(6) المزود : ما يوضع فيه الزَّاد .
(7) السَّويق ، هنا : النَّاعم من دقيق الحنطة والشَّعير .
(8) يريد : لأن تختم عليه بالطِّين ، خيرٌ من أن تهمله وتتَّهم الناس فيه .

الإنضاج ، لتجمع بين التَّأَدُّم باللَّحم والمرق ، ولتجمع مع اللَّحم الارتفاق بالمرق الطَّيِّب . وقد قال النبي ، صلَّى الله عليه وسلَّم : « إذا طبختم لحماً فزيدوا في الماء ، فإن لم يصبْ أحدكم لحماً أصاب مرقاً » .

وعبتموني بخصف النَّعل[1] ، وبتصدير[2] القميص ، وحين زعمتُ أنَّ المخصوفة من النَّعل أبقى وأوطأ ، وأوقى ، وأنفى للكبر وأشبه بالنّسك ، وأنَّ التَّرقيع من الحزم ، وأنَّ الاجتماع مع الحفظ ، وأنَّ التَّفرُّق مع التَّضييع . وقد كان النبيُّ ، صلَّى الله عليه وسلَّم ، يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ويلطع[3] إصبعه ، ويقول : « لو أتيتُ بذراع لأكلتُ ، ولو دُعيت الى كُراع[4] لأجبتُ » . ولقد لفقت سُعدى بنت عوف ازار طلحة ، وهو جواد قريش ، وهو « طلحة الفيَّاض » ! وكان في ثوب عمر رقاع أُدُم[5] . وقال ، عليه الصَّلاة والسَّلام : « من لم يشبع من الحلال خفَّت مؤنته وقلَّ كِبْره » . وقالوا : « لا جديد لمن لم يلبس الخَلَق[6] . وبعث زياد رجلاً يرتاد له محدِّثاً[7] ، واشترط على الرَّائد أن يكون المحدِّث عاقلاً مسدَّداً[8] ،

---

(1) خصف النَّعل : أطبق عليها مثلها وخرزها بالمِخْصف .

(2) شدَّ البعير بالتَّصدير : هو حبل يشدُّ في صدره .

(3) لَطَعَ الشَّيء بلسانه : لحسه .

(4) الكُراع من البقر والغنم : بمنزلة الوظيف من الفرس ، وهو مستدَقُّ السَّاق .

(5) الأُدُم ، هنا : جمع الأديم ، وهو الجِلد المدبوغ .

(6) الخَلق : البالي .

(7) المحدِّث ، هنا ، بمعنى النَّديم .

(8) من سدَّد فلان فلاناً ، أي أرشده الى الصَّواب .

فأتاه به موافقاً ، فقال له : أكنتَ ذا معرفةٍ به ؟ قال : لا ، ولا رأيتُه قبل ساعته . قال : أفناقلته الكلام[1] ، وفاتحته الأُمور ، قبل أن توصلـه اليَّ ؟ قال : لا . قال : فلِمَ اخترتَه على جميع من رأيتَه ؟ قال : يومنا يوم قائظ[2] ، ولم أزلْ أتعرَّف عقول النَّاس بطعامهم ولباسهم في مثل هذا اليوم . ورأيتُ ثياب النَّـاس جُدُداً وثيابـه لُبُسـاً[3] ، فظننـتُ به الحزم . وقد علمنا أنَّ الجديد في موضعه دون الخلق .

وقد جعل الله ، عزَّ وجلَّ ، لكلِّ شيءٍ قدراً ، وبوَّأ له موضعاً ، كما جعل لكلِّ دهرٍ رجالاً ولكلِّ مقامٍ مقالاً ، وقد أحيا الله بالسُّمِّ ، وأمات بالغذاء ، وأغصَّ بالماء ، وقتل بالدَّواء . فترقيع الثَّوب يجمع مع الإصلاح التَّواضع ، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التَّكبُّـر . وقد زعموا أنَّ الإصلاح أحد الكسبين ، كما زعموا أنَّ قلة العيال أحد اليسارين . وقد جَبَرَ الأحنف بن قيس يد عنز ، وأمر بذلك النُّعمان . وقال عمر بن الخطَّاب : « من أكل بيضةً فقد أكل دجاجة » . ولبس سالم بن عبد الله جلد أُضحيَّة[4] . وقال رجل لبعض السَّادة : أُهدي اليك دجاجة ؟ فقال : ان كان لا بدَّ فاجعلهـا بيَّاضـةً[5] . وعـدَّ أبو الدَّرداء العُراق[6] جَزَر[7] البهيمة .

---

(1) ناقلتُهُ الحديث : حدَّثتُه وحدَّثني . أي : نقلتُ اليه ما عندي ونقل إليَّ ما عنده .

(2) يومٌ قائظ : حرُّه شديد .

(3) جمعُ لبيس . وهو الثَّوب قد كثر لبسه فأخلق .

(4) الأضحيَّة : الشَّاة يُضحَّى بها ، أي تُذبح في أيَّام الأضحى أي عيد (النَّحر) .

(5) البيَّاضة : الكثيرة البيض .

(6) العُراق : العظم أكل لحمه .

(7) الجزر : أرومة توكل (والأرومة : الأصل) .

وعبتموني حين قلت : لا يغترَّنَّ أحد بطول عمره ، وتقوُّس ظهره، ورقَّة عظمه ، ووهن قوته ، أن يرى أكرومته[1] . ولا يحرجه ذلك إلى إخراج ماله من يديه وتحويله الى مالك غيره ، وإلى تحكيم السَّرف فيه ، وتسليط الشَّهوات عليه . فلعلَّه أن يكون مُعَمَّراً وهو لا يدري ، وممدوداً له في السِّنّ وهو لا يشعر . ولعلَّه أن يُرزق الولد اليأس ، أو يحدث عليه بعض مخبّآت الدُّهور ، ممَّا لا يخطر على البال ، ولا تدركه العقول ، فيستردُّه ممّن لا يردُّه ويظهر الشَّكوى إلى من لا يرحمه ، أضعف ما كان عن الطلب ، وأقبح ما يكون به الكسب ، فعبتموني بذلك . وقد قال عمرو بن العاص : « اعمل لدنياك عمل من يعيش أبداً ، واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً » .

وعبتموني حين زعمتُ أنَّ التَّبذير إلى مال القمار ومال الميراث وإلى مال الالتقاط وحباء[2] الملوك أسرع ، وأنَّ الحفظ إلى المال المكتسب والغنى المجتلب ، وإلى ما يعرض فيه لذهاب الدِّين ، واهتضام العرض ، ونَصَب البدن . واهتمام القلب ، أسرع ، وأنَّ من لم يحسب ذهاب نفقته ، لم يحسب دخله ، ومن لم يحسب الدخل ، فقد أضاع الأصل ، وأنَّ من لم يعرف للغنى قدره فقد أذن بالفقر ، وطاب نفساً بالذُّلّ .

وعبتموني بأن قلتُ إنَّ كسب الحلال مضمَّن بالإنفاق في الحلال ، وإنَّ الخبيث ينزع الى الخبيث ، وإنَّ الطيِّب يدعو الى

(1) الأكرومة : فعلُ الكَرَم .

(2) الحباء ، هنا : العطيَّة .

الطَّيِّب ، وإن الإنفاق في الهوى حجاب دون الحقوق ، وإنَّ الإنفاق في الحقوق حجاز دون الهوى . فعبتم عليَّ هذا القول ، وقد قال معاوية : « لم أرَ تبذيراً قطُّ إلاَّ وإلى جانبه حقٌّ مضيَّع » . وقد قال الحسن : « إذا أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرَّجل ماله ، فانظروا في أيِّ شيءٍ ينفقه ، فانَّ الخبيث إنَّما يُنفق في السَّرف » . وقلتُ لكم ، يا بني عمِّي ، بالشَّفقة منِّي عليكم ، وبحسن النَّظر منِّي لكم ، وبحفظكم لآبائكم ولما يجب في جواركم ، وفي ممالحتكم وملابستكم ، وأنتم في دار الآفات ، والجوائح[1] غير مأمونات . فان أحاطت بمال أحدكم آفة ، لم يرجع إلى بقيَّة . فأَحرزوا النّعمة باختلاف الأمكنة . فانَّ البليَّة لا تجري في الجميع إلاَّ مع موت الجميع . وقد قال عمر بن الخطَّاب ، رضي الله عنه ، في العبد والأمة ، وفي ملك الشَّاة والبعير ، وفي الشَّيء الحقير اليسير : « فرِّقوا بين المنايا ، واجعلوا الرأس رأسين » . وقال ابن سيرين لبعض البحريِّين : « كيف تصنعون بأموالكم ؟ قالوا : نفرِّقها في السُّفن ، فإن عَطِب بعض ، سلم بعض ، ولولا أنَّ السَّلامة أكثر لما حملنا خزائننا في البحر ! » . قال ابن سيرين : « تحسبها خرقاء وهي صناع[2] » .

وعبتموني بأن قلت لكم ، عند إشفاقي عليكم : إنَّ للغنى لسكراً ، وإنَّ للمال لنزوةٍ . فمن لم يحفظ الغنى من سكر الغنى ،

---

(1) الجوائح : للمصائب والأمور المكروهة .

(2) صَناع : حاذقة .

فقد أضاعه ، ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر ، فقد أهمله .
فعبتموني بذلك (إلى أن يقول) :

وعبتموني حين زعمتُ أنِّي أُقدِّم المال على العلم ، لأنَّ المال به يُغاث العالم ، وبه تُقوَّم النُّفوس ، قبل أن تعرف فضيلة العلم ، فهو أصل ، وأنَّ الأَصل أحقُّ بالتَّفضيل من الفرع . وأنِّي قلتُ : وإن كنَّا نستبين الأُمور بالنُّفوس ، فإنَّا بالكفاية نستبين ، وبالخَلَّة[1] نعمى . وقلتم : وكيف تقول هذا ، وقد قيل لرئيس الحكماء ، ومقدَّم الأَدباء : العلماء أفضل أم الأَغنياء ؟ قال : بل العلماء . قيل : فما بال العلماء يأْتون أبواب الأَغنياء ، أَكثر ممَّا يأْتي الأَغنياء أَبواب العلماء ؟ قال : لمعرفة العلماء بفضل الغنى ، ولجهل الأَغنياء بفضل العلم . فقلت : حالهما هي القاضية بينهما . وكيف يستوي شيء ترى حاجة الجميع إليه ، وشيء يغني بعضهم فيه عن بعض ؟!

وعبتموني حين قلتُ : إن فضل الغنى على الفقر ، إنَّما هو كفضل الآلة تكون في الدَّار ، إن احتيج اليها استُعملت ، وإن استُغني عنها كانت عُدَّةً . وقد قال الحصين بن المنذر : ودِدتُ أن لي مثل « أُحُدٍ »[2] ذهباً لا أَنتفع منه بشيء . قيل : فما ينفعك من ذلك ؟ قال : لكثرة من يخدمني عليه ، لأَنَّ المال مخدوم . وقال أَيضاً : عليك بطلب الغنى ، فلو لم يكن لك فيه إلاَّ أَنَّه عزٌّ في قلبك ، وذلٌّ في قلب عدوِّك لكان الحظ فيه جسيماً ، والنفع فيه عظيماً .

---

(1) الخَلَّة ، هنا : الحاجة والفقر .

(2) جبل « المدينة » المعروف .

ولسنا ندع سيرة الأنبياء ، وتعليم الخلفاء وتأديب الحكماء لأصحاب الأهواء . كان رسول الله ، صلّى عليه وسلّم ، يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم ، والفقراء باتخاذ الدّجاج . وقال : « درهمك لمعاشك ودِينك لمعادك . فقسّموا الأمور كلّها على الدِّين والدُّنيا ، ثمّ اجعلوا أحد قسمي الجميع الدِّرهم » . وقال أبو بكر الصدِّيق ، رضي الله عنه : « إنّي لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيَّام في اليوم الواحد » . وكانوا يبغضون أهل البيت اللَّحِمين[1] . وكان هشام يقول : « ضع الدِّرهم على الدِّرهم يكونان مالاً » . ونهى أبو الأسود الدُّؤليّ ، وكان حكيماً أديباً ، وداهياً أريباً ، عن جودكم هذا المولَّد ، وعن كرمكم هذا المستحدَث ، فقال لابنه : « إذا بسط الله لك في الرِّزق فابسط ، وإذا قَبَضَ فاقبضْ ، ولا تجاود[*] الله ، فانّ الله أجود منك » . (إلى أن يقول :) . فلستم عليَّ تردُّون ، ولا رأي تفنِّدون . فقدّموا النَّظر قبل العزم ، وتذكَّروا ما عليكم ، قبل أن تذكروا ما لكم ، والسَّلام .

---

(1) اللَّحِم : الأكول اللَّحم القَرِم إليه .

(*) جاوَدَهُ : فاخَرَهُ في الجود .

الجاحظ

(وُلد سنة 780، وتُوفِّي سنة 869 م.)

هو عمرو بْن بحر بْن محبوب ، الكنانيّ بالولاء ، اللَّيثي ، أبو عثمان الشَّهير بالجاحظ ، لجحوظ عينيه ، والجحوظ : النُّتوء ، وفي بعض المصادر : بالحَدَقيّ ، لذلك . كان مولده ووفاته في البصرة . وقد قطع أهل التَّحقيق ، كأبي القاسم البَلْخيّ ، وابن حزم ، بكونه عريق الأصل في العرب . أخذ عن علماء البصرة في العربيَّة ، وفي العلوم والآداب المعروفة لعهده ، وطوَّف للاستطلاع والكشف في العراق وجزيرة العرب ، وفي بلاد الشَّام ، وبلاد فارس والرُّوم . وقيل إنَّه هبط وادي النِّيل أيضاً . وذكر القلقشنديُّ في « صبح الأعشى » انَّ للجاحظ رسالة في مدح مصر . ويرى جماعة من الباحثين في أيَّامنا انَّه كان يجيد اللُّغة الفارسيَّة . قال الكرد علي في كتابه « أمراء البيان » : « ولا تبعد كثيراً عن محجَّة الصَّواب إذا حكمت بعد ذلك أنَّ الجاحظ كان يترجم إلى لغته عن لغة أخرى في الأحايين . والأرجح أنَّ هذه اللُّغة هي الفارسيَّة . وفي ذلك إشارات في [البيان والتَّبيين] » .

وقال حسن السَّندوبيّ في كتابه « أدب الجاحظ » : « ويؤخذ من مجمل حاله انَّه كان يجيد الفارسية (إلى أن يقول :) فمسألة عرفان الجاحظ باللُّغة الفارسيَّة تُستنبط من خلال السُّطور في كتبه ، ولا تؤخذ

بالنَّصِّ » . وقد جالس الجاحظ خلفاء زمانه ، وخالط أمراء ووزراء وأصحاب مكانات عالية .

يطالعك الجاحظ بأسلوب نهاية في الفصاحة ، نهاية في ملاحة الجمل والفرائد ! إلاَّ انَّ الإسهاب هو شأنه الَّذي يظلُّ عليه بين استطراد واستشهاد ، وسوق تجربة ، أو مشاهدة ، أو لطيفة تفرِّج عن الخاطر ، في مختلف ما يقصد للكلام فيه من أنواع الأغراض، حتَّى يبلغ آخر ما يبلغ في الإحاطة ، بينا أنت تحسب انَّه لا انتهى ، ولا قرَّ قراره !

وفي الأُسلوب الجاحظيِّ ، من جهة الإسهاب ، يختلف عند المعاصرين آراء وأذواق . فمنهم من يستحسن ، ومنهم من يهجِّن . ومن ذلك قول خليل مردم بك في كتابه « ابن العميد » : يقابل بين أسلوب ابن العميد وأسلوب الجاحظ : « يميل ابن العميد إلى الإسهاب ، أخذاً بطريقة الجاحظ . ولكنَّ الجاحظ في إسهابه يمتح من قَلِيْب(*) ذهنه ، ويستمدُّ صوب عقله ، ويلمُّ بأطراف المعنى من كلِّ ناحية . وإسهاب ابن العميد نوع من الذَّهاب بالنَّفس ، والإدلال بسعة المعرفة من طريق التَّرادف والاقتباس والإشارة والتَّعريض » . وقول الدكتور زكي مبارك في كتابه « النَّثر الفنِّيِّ في القرن الرَّابع » : « وفي رأيي انَّ الجاحظ وصل إلى درجة الغلوِّ والإملال . ولو لا أنَّه كان يخلط في كتابته بين الجدِّ والهزل ، والحلو والمرِّ ، لانصرف النَّاس عنه . ولكنَّه كان رجلاً عالماً بطباع النَّاس وغرائزهم ، فاستطاع بذلك أن

(*) القَلِيْب: البئر.

يتملَّق أهواءهم وأذواقهم ، وأن ينسيهم برقَّة دعابته ، وحلاوة استطراده إسرافَه في أسلوبه ، وتطويلَه الَّذي عُرف به ، واضطُر للدِّفاع عنه في مقدِّمة كتاب الحيوان » .

ولقد قيل في بلاغة الجاحظ ، وعلوِّ بيانه ، وإمتاع كتبه ، قديماً وحديثاً ، شيء كثير . وممَّا جاء للقدماء من ذلك قول ابن العميد ، كما في « الوفيات » ، وهي كلمة له مشهورة : « كتب الجاحظ تعلِّم العقل أوَّلاً والأدب ثانياً » ، وقول أبي حيَّان التَّوحيديِّ في كتابه « البصائر والذَّخائر » (وهو الَّذي كتب في مدح الجاحظ ، والتَّنويه ببلاغته كتاباً برأسه ، اسمه [تقريظ الجاحظ] : « وكتُبه - يريد كتب الجاحظ - هي الدُّرُّ النَّثير واللُّؤلؤُ المطير . وكلامه الخمر الصِّرف ، والسِّحر الحلال (إلى أن يقول :) وكان شيخ لنا يحدِّث أنَّ ثابت بنْ قرَّة الحَرَّانيّ الصَّابي الفيلسوف كان يقول : فُضِّلَتْ أُمَّة النَّبيِّ العربيِّ على جميع الأُمم الخالية بثلاثة لا يوجد فيمن مضى مثلهم : بعمر بنْ الخطَّاب (إلى أن يقول :) والحسن البصريّ (إلى أن يقول :) وأبي عثمان الجاحظ . فانَّك لا تجد مثله . وإن رأيت ، ما رأيت رجلاً أسبق منه في ميدان البيان ، ولا أبعد شوطاً ، ولا أمدَّ نَفَساً ، ولا أقوى منه . إذا جآء بيانه خجل وجه البليغ المشهور ، وكلَّ لسان المستحضر الصَّبور ، وانتفخ سَحْرُ[1] العارِم[2] الجسور . ومتى رأيتَ ديباجة كلامه ، رأيتَ حَوكاً كثير الوشي ، قليل الصَّنعة ، بعيد التَّكلُّف ، حلو

(1) السَّحْر : الرِّئة . يقال : انتفخ سَحْره ، أي جبن ، كأنَّ الخوف ملأ جوفَه ، فانتفخ سَحْره .
(2) عرمَ : اشتدَّ وخرج عن الحدِّ ، فهو عارم .

الحلْي ، مليح العَطَل[1] ، له سلاسة كسلاسة الماء ، ورقّة كرقّة الهواء . وحلاوة كحلاوة النّاطل[2] ، وعزّة كعزّة كلَيْب وائل[3] . فسبحان من سخّر له البيان وعلّمه ، وسلّم في يديه قصب الرّهان وقدّمه ، مع الاتّساع العجيب ، والاستعارة الصّائبة ، والكناية الثّابتة ، والتّصريح المغْني ، والتّعريض المنْبي ، والمعنى الجيِّد ، واللّفظ الفخم ، والطلاوة الظّاهرة ، والحلاوة الحاضرة . إن جَدَّ لم يُسبق ، وإن هزل لم يُلحق ، وإن قال لم يُعارَض ، وإن سكت لم يُعرض له » . وقول ابن نباتة في « سرح العيون » يذكر الجاحظ : « إمام الفصحاء الّذي ملأت الآفاق أخباره وفوائده ، حتى قيل ممّا فضّل الله تعالى به أُمّة محمد ، صلّى الله عليه وسلّم ، على غيرها من الأُمم : عمر بنْ الخطّاب ، رضي الله عنه ، بسياسته ، والحسن البصريّ بعلمه ، والجاحظ ببيانه » . وقول ابن العميد في « معجم الأُدباء » : « ومن كتاب هلال : قال أبو الفضل بنْ العميد : ثلاثة علومٍ ، النّاس كلُّهم عيال فيها على ثلاثة أنفس : أمّا الفقه فعلى أبي حنيفة ، لأنّه دوّن وخلّد ما جعل من يتكلّم فيه بعدَه مشيراً إليه ، ومخبراً عنه . وأمّا الكلام فعلى أبي الهُذَيْل . وأمّا البلاغة والفصاحة واللّسن والعارضة[4] فعلى أبي عثمان الجاحظ » . وقول المسعوديّ في « النّبيه والإشراف » : « وكتب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنّه

---

(1) من : عطلت المرأة ، أي لم يكن عليها حَلْيٌ .

(2) النّاطل : الجرعة من النّبيذ . وقيل : النّاطل : الخمر عامّةً .

(3) هو كلَيْب بنْ ربيعة ، سيِّد ربيعة ، والّذي ضُرب بعزّته المثل ، فقيل : أعزُّ من كليب وائل .

(4) العارضة : البيان واللّسن وقوّة البديهة .

نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ . وقول القاضي الفاضل[1] : « ما منَّا ، معاشر الكتَّاب ، إلاَّ من دخل من كتب الجاحظ الحارة ، وشنَّ عليها الغارة ، وخرج وعلى كتفه منها كارة ! » . وقول أبي القاسم الاسكافيِّ : « استظهاري على البلاغة بثلاثة : القرآن وكلام الجاحظ وشعر البحتريِّ » . وقول ابن دريد ، وقد ذُكرت متنزَّهات بين يديه : « هذه متنزَّهات العيون ، فأين أنتم من متنزَّهات القلوب ؟ قالوا : وما هي ؟ قال : كتب الجاحظ ، وأشعار المحدَثين ، ونوادر أبي العيناء » . وقول أبي محمد الأندلسيِّ : « رضيت في الجنَّة بكتب الجاحظ عن نعيمها » .

ومن كلام المعاصرين في الجاحظ قول المنفلوطيِّ في « المختارات » : « له على جميع الكتَّاب قاطبةً مزيَّة الإحسان والعلوِّ في كلِّ موضوع يطرقه ، حتَّى في المواضيع الَّتي لم يألف أُدباء الكتَّاب الكتابة فيها » .

وقول البشري في كتاب « عبد العزيز البشري » : « إنَّ أسلوب الجاحظ قد أربى على الغاية ، جودةً وأناقةً ورشاقةً وجمال توقيع . وهو الأسلوب الجزل السَّهل الَّذي ينشده لنفسه كلُّ كاتب يريد الكمال لقلمه ، والابداع في انتاجه » . وقول أحمد أمين في مقدَّمة له على كتاب « البخلاء » : « فهو - يريد الجاحظ - يؤلِّف في اللُّصوص وحيل لصوص النَّهار وحيل سُرَّاق اللَّيل ، ويؤلِّف في التُّجار وفي العبيد والإماء ، وما إلى ذلك من موضوعات لا تخطر على بال أديب في

(1) هذا القول، والأقوال الثّلاثة الّتي بعده في المتن ، هي من « أدب الجاحظ » للسّندوبيّ .

عصره . وإنَّما عُدَّ ذلك من مبتكرات الأدب الأوربيّ الحديث . فاذا قال الأوربِّيون اليوم انَّ موضـوع الأدب هو نقـد الحياة بأشكالهـا وألوانها ، فقد سبقهم الجاحظ فوسِعَتْ معرفته دقائق عصره واتَّخذها موضوعاً لأدبه . لقد كان أكثر الأدب قبل الجاحظ أدباً لا موضوع له ، فاستطاع الجاحظ أن يجعل للأدب موضوعـاً ، وجعـل موضوعـه كلَّ شيء في الحياة » . وقـول الدكتـور محمـد المبـارك في كتابـه « الجاحظ » : « إنَّ من أعظم الميزات التي تطبع أدب الجاحظ بطابع شخصيّ خاصّ أُسلوبه المبتكر (إلى أن يقول :) فألفاظه ألفاظ حيَّة ، هي بنت الحياة لا بنت الكتب . فهو يستعمل الألفاظ الَّتي كانت شائعة معروفة في عهده (إلى أن يقول :) رأينا في الجاحـظ مصـوِّراً قويَّ البصر في الدَّقائق ، وخبيراً نافذ البصيرة في معرفة النُّفوس . وهاتان الخصلتـان تقابلهمـا في الأُسلـوب دقَّـة التَّعبير عن المعانـي الحسِّيَّة والنَّفسيَّة في الألفاظ والتَّراكيب . فهو يستعمل الألفاظ الَّتي تتخصَّص مدلولاتها بها ، ولا تتناول سواها بقدر ما تسمح له اللُّغة بذلك » .

وقول جرجي زيدان في كتابه « تـأريخ آداب اللُّغـة العـربيّة » : « وهو إمام الأُدباء في العصر العبَّاسيِّ الثَّاني ، وله أساليب ومذاهـب وآراء في الأَدب واللُّغة خاصَّةً به . واشتهر بطريقة في الإنشاء تُنسب إليه تحدَّاه بها النَّاس ، وعُرفت باسمه . فهو قدوة المنشئين وإمامهم في هذا العصر (إلى أن يقول :) وضع أُسلوباً في الإنشاء تحدّوه فيه . وذلك انَّه جعل الجملة قطعاً صغيرة كالشِّعر ، لكن بدون ، ولا قافية . أو هو سجع لا تُشترط فيه القافية (إلى أن يقول :) وقد أدخل الدُّعاء حشواً معترضاً يوجَّه إلى المخاطَب بصيغة المفرد (إلى أن يقول :)

وهذا الأسلوب في الإنشاء يُنسب إلى الجاحظ وقد توخّاه معاصروه ، فنسجوا على منواله (إلى أن يقول :) وهم يرون النُّزوع إلى التّكرار أكثر ابلاغاً للمعنى وأشدَّ تأثيراً في النَّفس » . وقول الكرد علي في كتابه « أمراء البيان » : « **إن أدب الجاحظ قطعة من نفسه ، تتجلّ فيه** لأوَّل نظرة طريقته . ولو انَّك ألقيتَ قطعة من قلمه بين عشر قطع أدبيّة لغيره ، لما صعب عليك أن تميِّز كلامه من كلام غيره ، إن كنتَ ممَّن تأدَّب بكلامه ، لما تحسُّ من أفكار سديدة ما خان اللَّفظ ، ولا السَّبك كاتبها (إلى أن يقول :) وأسلوبه خاصٌّ به ، لا ينازع فيه منازع (إلى أن يقول :) ضُرب المثل بأدب الجاحظ وبيانه وسعة عبارته ، حتَّى كان يقال : من دليل إعجاز القرآن إيمان الجاحظ به ! ومن الخير لطلاَّب البلاغة إذاً أن يمعنوا النَّظر بكلام الجاحظ ، ليتبيَّنوا بأنفسهم طريقته ، ويتواصفوا في الجملة طراز إملائه دروس البلاغة ، ويتعرَّفوا ميزانه الدَّقيق في فقه اللُّغة (إلى أن يقول :) يقدِّر اللَّفظة بجرسها[1] ورنَّتها ، وما يتوقَّع من تأثير توقيعها وتلحينها إذا قُرنت إلى أختها . ويميِّز الثَّقيلة والخفيفة ، والمأنوسة من الوحشيَّة . فيختار ما يؤدِّي جملته حقَّ الأداء . فإبداعه في فنِّه يرجع أوَّلاً إلى ما يختار من الألفاظ . كان نحَّاتاً وبنَّاءً في آنٍ واحد : يجوِّد نحت أحجاره ، ويحسن رصفها في البناء . والمهارة ، كلُّ المهارة في إبراز المتماثل من الموادِّ إلى جانب ما يوائمها . وقد يستجيد الباني أجمل الأحجار لبنائه ، فاذا لم يحسن الهندسة ، فقد البناء روعته المشعرة بأنَّ الباني

---

(1) الجِرس ، والجَرس : الصَّوت ، أو خفيُّه .

عليم بالجمال (إلى أن يقول :) هو لم يستعمل إلاّ ما عذب في المذاق ، وحلا في السَّمع . وما تحذلق قطُّ فأكره خشن الألفاظ على أداء ضعيف المعاني . وما عمد إلى سهل اللَّفظ للإفصاح عن سهل المعنى ، وهواه أبداً أن يتخيَّر ألفاظاً لمعانيه ، لا معاني لألفاظه . يسير مع الطَّبع ، ولا يتكلَّف السَّجع ، ويكتفي منه بما جاء عفواً في الأحايين ، متجافياً عن خشونة التَّعمُّل ، ووعوثة[1] التَّعقيد . وآية صنعته ولوعه بتصوير المعاني ، وتقريبها من الأذهان ليخرج التَّالي بشيءٍ يبقى في نفسه . إذا عرفنا كلَّ هذا كُشف لنا بعض الغطاء عن تناهيه في إبداعه وفنِّه » . وقول الزَّيَّات في كتابه « تأريخ الأدب العربيِّ » ، بعد ان ذكر انَّ كتَّاب العصر العبَّاسيِّ أربع طبقات : الطَّبقة الأولى إمامها ابن المقفَّع : « والطَّبقة الثَّانية إمامها الجاحظ . وطريقته أشبه بالطَّريقة الأولى في سهولة العبارة وجزالتها . وإنَّما تمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقفَّاة أو مرسلة ، وزيادة الإطناب في الألفاظ والجمل ، والاستطراد ، ومزج الجدّ بالهزل لدفع سآمة القارىء ، وتحليل المعنى واستقصائه ، وتحكيم العقل والمنطق ، والاعتراض بالجمل الدّعائية (إلى أن يقول :) ليس في مقدور هذا القلم الموجز أن يصف للقارىء ما لنابغة العرب و [ڤلتير] الشَّرق من الأثر في الأدب ! وبحسبنا أن نقول إنَّه تميَّز من أنداده بغزارة العلم ، وقوَّة الحجَّة ، واستقصاء البحث ، وشدَّة العارضة ، وبلاغة القول . وإنَّه تبحَّر في علم الكلام[2] ، وخلطه بفلسفة يونان ، وانفرد دون

---

(1) من وعث الطَّريق ، إذا تعسَّر سلوكه .

(2) هو علم التَّوحيد .

المتكلِّمين بمذهب في التَّوحيد شايعه عليه كثير منهم فسمُّوا بالجاحظيَّة . وشارك في سائر العلوم ، وكتب فيها كتابة محقِّق ضليع . وهو أوَّل عالم عربيٍّ جمع بين الجدّ والهزل ، وتوسَّع في المحاضرات ، وأكثر من التَّصنيف وكتب الحيوان والنَّبات والأخلاق والاجتماع » . وقول السّندوبيّ في كتابه « أدب الجاحظ » يذكر لقب الجاحظ : « أصبح هذا اللَّقب شعار مدرسة جامعة ، ودليلاً على التبحر في العلوم ، والتَّوسُّع في الآداب ، والتَّفوُّق في فنون البلاغة وصنوف البيان . فهذا أبو زيد أحمد بنْ سهل البلخيّ ، وناهيك به من فيلسوف حكيم ، كان يُنعت [بجاحظ خراسان] . وهذا أبو الفضل ابن العميد ، وشَرْعَكَ من وزير عليم ، كان يرتاح إلى من يصفه [بالجاحظ الثَّاني] . وهذا أبو حيَّان التَّوحيديُّ ، وهَمَّك من كاتب بليغ ، كان ينازع ابن العميد صفة [الجاحظ الثَّاني] . وهذا محمود بن عزيز ، وحَسْبك من عالم جليل ، كان يُنعت [بالجاحظ الثَّاني] ، وهذا أبو محمد الحسن بن خلاد القاضي الرَّامهرمزيّ، قال عنه ابن النَّديم انَّه كان حسن التَّأليف ، مليح التَّصنيف ، يسلك طريقة الجاحظ ، وذكر له عدَّة مؤلَّفات . وهذا أبو القاسم الحسن بنْ بشر الآمديّ ، قال عنه ابن النَّديم : انَّه مليح التَّصنيف ، جيِّد التَّأليف ، يتعاطى مذهب الجاحظ فيما يعمله من الكتب ، وذكر له عدَّة مصنَّفات . وهناك غير هؤلاء ممَّن لم تسع الذَّاكرة أسماءهم كلُّهم كان يودُّ بجدع الأنف الانتساب في المعارف والآداب والبلاغة والبيان إلى الجاحظيَّة الأدبيَّة . فاسم الجاحظ عنوان على مدرسة جامعة في فنون العلوم ، وصنوف الآداب ، وألوان البلاغات » .

أمَّا كتبُه ، فهي تربى على مائتي كتاب . أشهرها « كتاب البيان

والتَّبيين » ، و « كتاب الحيوان » ، و « كتاب البخلاء » ، و « رسائل الجاحظ». قال الشيخ عبد القادر المغربيّ في «مجلَّة المجمع العلميّ العربيّ » : « والمطوَّلات من مصنَّفات الجاحظ إن كادت تُعدُّ وتُحصى ، فانَّ رسائله ، وهي القصار من آثاره ، لا تكاد تُعدُّ » .

حرِّيَّة الكلام

كتب إلى محمد بن عبد الملك الزَّيَّات الوزير ، وقد انتهت إليه رقاع فيها ذمٌّ له ، وتشنيع على بعض أعماله :

سمعت بأَنَّ شعراً قد رُفع إليك ، فيه عيب لك ، ونقد لبعض عملك ، فغضبتَ له ، وضقتَ به ، وأمرتَ بالبحث عن قائله ، لتذيقه غضبك ، وتصبَّ عليه عذابك ، وتعلِّمه عاقبة طيشه ، ومغبَّة استخفافه بالسلطان ، واجترائه على الحكَّام . ثمَّ لم يكْفك ذلك ، ولم يقنعك . فأَمرتَ أعوانك من الكتَّاب والعمَّال أن يتقدَّموا إلى أصحاب الشِّعر المنظوم ، والكلام المنثور ، وإلى ذوي الأقلام المشرعة ، والأَلسنة المنطلقة ، ألاَّ يذكروك فيما ينظمون من شعر ، أو يكتبون من نثر ، أو يديرون من حديث ، إلاَّ بالخير ! وإن جنح منهم عن ذلك جانح ، وانحرف منهم منحرف ، فإنَّ السِّجن له مهيَّأً ، والعقاب له مُرصد ، والعذاب عليه محتوم (إلى أن يقول :) وأَنت ، بعد ذلك لا تستطيع أن تعقل الأَلسنة المنطلقة ، ولا أن تحطِّم الأَقلام المشرعة ، ولا أن تمنع القلوب من الشعور ، والعقول من التَّفكير . فدع النَّاس وما يشاءُون أن يقولوا فيك من الخير والشَّرِّ ، ومن الحمد

والذّمّ . وانتفعْ من ذلك كلّه في إصلاح نفسك ، وفي تجنُّب ما يشينك إلى ما يزينك .

النَّحو

من فصل « رياضة الصَّبيّ »(*)

وأمَّا النَّحو ، فلا تشغل قلبه منه إلاَّ بقدر ما يؤدِّيه إلى السَّلامة من فاحش اللَّحن ، ومن مقدار جهل العوامّ في كتاب كتبه ، وشعرٍ إن أنشده ، وشيءٍ إن وصفه . وما زاد على ذلك ، فهو مشغلة عمّا هو أولى به ، ومذهل عمّا هو أردُّ عليه منه ، من رواية المثل الشّاهد ، والخبر الصَّادق ، والتَّعبير البارع (إلى أن يقول :) ثمَّ خذه بتعريف حجج الكتَّاب ، وتخلّصهم باللَّفظ السَّهل القريب المأخذ الى المعنى الغامض وإذاقة حلاوة الاختصار وراحة الكفاية وحذِّره التكلف واستكراه العبارة فإن أكرم ذلك كله ما كان إفهاماً للسامع ولا يحوج الى التأويل والتعقب ويكون مقصوراً على معناه لا مقصراً عنه ولا فاضلاً عليه فاختر من المعاني ما لم يكن مستوراً باللفظ المنعقد مغرقاً في الإكثار والتكلُّف مما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع براعة اللفظ وغموضه على السامع بعد أن يتسق له القول وما زال المعنى محجوباً لم تكشف عنه العبارة . فالمعنى بعد مقيم على استخفائه وصارت العبارة لغواً وظرفاً خالياً . وشر البلغاء من هيَّأ رسم المعنى قبل أن يهيىء المعنى عشقاً لذلك اللفظ وشغفاً بذلك الاسم حتى صار يجر اليه المعنى جراً ويلزقه به إلزاقاً حتى كان الله مراده تعالى لم يخلف لذلك المعنى اسماً غيره ومنعه

(*) من رسالة « مدح التّجار وذمّ عمل السلطان » .

الافصاح عنه الا به . والآفة الكبرى أن يكون رديَّ الطبع بطيء اللفظ كليل الجد شديد العجب ويكون مع ذلك حريصاً على أن يعد في البلغاء شديد الكلف بانتحال اسم الأدباء . فإذا كان كذلك خفي عليه فرق ما بين إجابة الألفاظ واستكراهه لها . وبالجملة ان كل معنى شريف أو وضيع هزل أو جدّ أو حزم أو صناعة ضرباً من اللفظ هو حقه وحظه ونصيبه الذي لا ينبغي أن يجاوزه أو يقصر دونه . ومن قرأ كتب البلغاء وتصفح دواوين الحكماء ليستفيد المعاني فهو على سبيل صواب . ومن نظر فيها ليستفيد الألفاظ فهو على سبيل الخطأ والخسران ها هنا في وزن الربح هناك لأن من كانت غايته انتزاع الألفاظ حمله الحرص عليها والاستهتار بها إلى أن يستعملها قبل وقتها وبعضها في غير مكانها .

عدوى الجيِّد وعدوى الرَّديء[1]

إنَّ المعنى الحقير الفاسد ، واللَّفظ السَّاقط يعشِّش في القلب ، ثمَّ يبيض ، ثمَّ يفرِّخ ، ثمَّ يستفحل[2] الفساد ، لأنَّ اللفظ الهجين[3] الرَّديء أعلق باللِّسان ، وآلف للسَّمع ، وأشدُّ التحاماً بالقلب من اللَّفظ النَّبيه الشَّريف ، والمعنى الرفيع الكريم . ولو جالستَ الجهَّال والحمقى والسُّفهاء شهراً فقط لكسبتَ من أوضار كلامهم[4] وخبال[5] معانيهم ما

---

(1) من « البيان والتبيين » .

(2) استفحل : قوي .

(3) الهجين : غير الكريم .

(4) الأوضار : جمع وضر ، وهو الخبيث .

(5) الخبال : الفساد .

لم تكسبه من مجالسة أهل البيان دهراً . لأنَّ الفساد أسرع الى الناس وأشدُّ إلتحاماً بالطبائع . والإنسانُ بالتعلُّم والتكلُّف[1] وبطول الاختلاف[2] إلى العلماء ، ومدارسة كتب الحكماء يجود لفظُه ، ويحسن أدبه . وهو لا يحتاج في الجهل الى أكثر من ترك التعلّم ، وفي فساد البيان الى أكثر من ترك التَّخيرُّ[3] !

الطَّرسوسيُّ والغالية[4]

ولم أرَ مثل أبي جعفر الطرسوسيِّ : زار قوماً فأكرموه وطيَّبوه ، وجعلوا في شاربه وسَبَلته[5] غالية[6] ، فحكَّ بها شفته العليا ، فأدخل إصبعه فحكَّها من باطن الشَّفة ، مخافة أن يأخذ إصبعه من الغالية شيئاً إذا حكَّها من فوق .

وهذا وشبهه إنَّما يطيب جدّاً إذا رأيت الحكاية بعينك ، لأنَّ الكتاب لا يصوِّر لك كلَّ شيء ، ولا يأتي لك على كُنْهه[7] ، وعلى حدوده وحقائقه .

---

(1) التكلُّف : تحمُّل الأمر على مشقَّة وعسرة ، وعلى خلاف العادة .

(2) الاختلاف الى العلماء : التَّردُّد عليهم .

(3) التَّخيرُّ : أخذُ خير الشَّيء .

(4) من كتاب « البخلاء » .

(5) السَّبَلة ، هنا : الدَّائرة في وسط الشفَّة العليا .

(6) الغالية : أخلاط من الطِّيب .

(7) كُنْهُ الشَّيء : جوهره وقدره وحقيقته وغايته .

الكتاب [1]

الكتاب نعم الذخر والعقدة ، والجليس والعمدة ، ونعم النشوة ، ونعم النزهة ، ونعم المستغلّ والحرفة ، ونعم الأنيس ساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل والزميل ، ونعم الوزير والنزيل . والكتاب وعاءٌ مليءَ علماً ، وظَرف حشي ظَرفاً ، وإناءٌ شحن مزاحاً . إن شئت كان أعيى من باقل ، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل ، وإن شئت سرّتك نوادره ، وشَجَتك مواعظه . ومن لك بواعظ مثله ، وبناسك فاتك ، وناطق أخرس ؛ ومن لك بطبيب أعرابي ورومي وهندي وفارسي ويوناني ، ونديم مولّد ، وحبيب ممتع ؛ ومن لك بشيء يجمع لك الأول والآخر ، والناقص والوافر ، والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والغث والسمين ، والشكل وخلافه ، والجنس وضده ؟

« وبعد فما رأيت بستاناً يحمل في رُدن ، وروضة تنقل في حِجر ، ينطق عن الموتى ، ويترجم عن الأحياء ؛ ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ، ولا ينطق إلا بما تهوى ، آمن من الأرض ، وأكتم للسر من صاحب السر ، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة ؛ ولا أعلم جاراً آمن ، ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية وعناية ، ولا أقل إملالاً ولا إبراماً ، ولا أبعد عن مراءٍ ، ولا أترك لشَغَب ، ولا أزهد في جدال ، ولا أكفَّ عن قتال ـ من كتاب ؛ ولا أعمَّ بياناً ، ولا أحسن مؤاتاة ، ولا أعجل مكافأة ؛ ولا شجرة أطول عمراً ، ولا أطيب ثمراً ، ولا أقرب مجتنى ، ولا أسرع

---

(1) من كتاب « الحيوان » .

إدراكا ، ولا أوجد في كل إبان ـ من كتاب ؛ ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده ، يجمع من السير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، وآثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القديمة ، والتجارب الحكيمة ، والأخبار عن القرون الماضية ، والبلاد النازحة ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ، ما يجمعه كتاب .

« ومن لك بزائر إن شئت كانت زيارته غبّاً ، وورده خمساً[1] ، وإن شئت لزمك لزوم ظلك ، وكان منك كبعضك ؛ والكتاب هو الجليس الذي لا يُطريك ، والصديق الذي لا يَقليك ، والرفيق الذي لا يَملّكَ ، والمستمع الذي لا يستزيدك والجار الذي لا يُساطيك ، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالمَلَق . ولا يعاملك بالمكر ، ولا يخدعك بالنفاق . والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك ، وشحذ طباعك ، وبسط لسانك ، وجوّد بيانك ، وفخّم ألفاظك ، وبجّحَ[2] نفسك ، وعَمَّر صدرك ، ومنحك تعظيم العوام ، وصداقة الملوك ؛ يطيعك بالليل طاعته بالنهار ، وفي السفر طاعته في الحضر ؛ وهو المعلم الذي إن افتقرت إليه لم يحقرك ، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة ، وإن عُزلت لم يدع طاعتك ، وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك . ومتى كنت متعلقاً منه بأدنى حبل ، لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء .

---

(1) الغب (بالكسر) في الزيارة أن تكون كل أسبوع ، والخمس (بالكسر) من إظماء الإبل وهي أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع وهي إبل خوامس .

(2) بجّحته تبجيحاً فتبجح : أي افرحته ففرح .

« وإن أمثل ما يقطع به الفُرَّاغ نهارهم ، وأصحاب الكفايات ساعات ليلهم ، نظر في كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد في تجربة ، وعقل ومروءة ، وصون عرض ، وإصلاح دين ، وتثمير مال وربّ[1] صنيعة ، وابتداء إنعام . ولو لم يكن من فضله عليك ، وإحسانه إليك ، إلا منعه لك من الجلوس على بابك ، والنظر إلى المارّة بك ، مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم ، ومن فضول النظر ، وملابسة صغار الناس ، ومن حضور ألفاظهم الساقطة ، ومعانيهم الفاسدة ، وأخلاقهم الردية ، وجهالتهم المذمومة ، لكان في ذلك السلامة والغنيمة ، وإحراز الأصل مع استفادة الفرع . ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يشغلك عن سخف المنى ، واعتياد الراحة ، وعن اللعب ، وكل ما تشتهيه ، لقد كان له في ذلك على صاحبه أسبغ النعم ، وأعظم المنة . وجملة الكتاب وإن كثر ورقة فليس مما يملُّ ، لأنه وإن كان كتاباً واحداً ، فإنه كتب كثيرة في خطابه ، والعلم بالشريعة والأحكام ، والمعرفة بالسياسة والتدبير .

« والكتاب هو الذي يؤدي إلى الناس كتب الدين ، وحساب الدواوين ، مع خفة نقله ، وصغر حجمه ، صامت ما أسكتّه ، وبليغ ما استنطقته ، ومن لك بمسامر لا يبتديك في حال شغلك ، ويدعوك في أوقات نشاطك ، ولا يحوجك إلى التجمل له والتذمم منه .

« والكتاب قد يفضل صاحبه ، ويتقدم مؤلفه ، ويرجح قلمه على

---

(1) رب : جمع وزاد ولزم .

لسانه بأمور : منها أن الكتاب يقرأ بكل مكان ، ويظهر ما فيه على كل لسان ، ويوجد مع كل زمان ، على تفاوت ما بين الأعصار ، وتباعد ما بين الأمصار ، وذلك أمر مستحيل في واضع الكتاب ، والمتنازع في المسألة والجواب ، ومناقلة اللسان وهدايته ، لا تجوزان مجلس صاحبه ، ومبلغ صوته ، وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ، ويذهب العقل ويبقى أثره ، ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها ، وخَلّدت من عجيب حكمتها ، ودونت من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا ، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم ، لما حسن حظنا من الحكمة ، ولضعف سببنا إلى المعرفة ، ولو لجأنا الى قدر قوتنا ، ومبلغ خواطرنا ومنتهى تجاربنا ، لما تدركه حواسنا ، وتشاهده نفوسنا ، لقلت المعرفة ، وسقطت الهمة وارتفعت العزيمة ، وعاد الرأي عقيماً ، والخاطر فاسداً ، ولكلَّ الحد وتبلّد .

« ولولا جياد الكتب وحَسَنها ، وبَيّنها ومختصرها ، لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم ، ونزعت إلى حب الأدب ، وأنفت من حال الجهل ، وأن تكون في غمار الحشو ، ولدخل على هؤلاء من الخلل ، والمضرة من الجهل وسوء الحال ، ما عسى أن لا يمكن الإخبار عن مقداره إلا بالكلام الكثير . ولذلك قال عمر رضي الله عنه : تفقهوا قبل أن تُسَوَّدوا . وقد نجد الرجل يطلب الآثار ، وتأويل القرآن ، يجالس الفقهاء خمسين عاماً ، وهو لا يعدُّ فقيهاً ، ولا يجعل قاضياً ؛ فما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة ، ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمرَّ ببابه ، فتظن أنه

من بعض العمـال ، وبالحريّ أن لا يمر عليه من الأيام إلا اليسير ، حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار ، أو بلد من البلدان . ومما يدل على نفع الكتاب أنه لولا الكتاب لم يجز أن يعلم أهل الرَّقة والموصل وبغداد وواسط ما كان بالبصرة ، وما يحدث بالكوفة في بياض يوم ، حتى تكون الحادثة بالكوفة غُدوة ، فتعلم بها أهل البصرة قبل المساء » .

الحسد(*)

« لِمَ صار في العلماء أكثر منه في الجهلاء ، ولم كَثُر في الأقرباء ، وقلَّ في البعداء ، وكيف دبَّ في الصالحين ، أكثر منه في الفاسقين ، وكيف خص به الجيران من جميع الأوطان » فقال : « الحسد أبقاك الله داء ينهك الجسد ، ويفسد الأود ، علاجه عَسِر ، وصاحبه ضَجِر ، وهو باب غامض ، وأمر متعذر ، فما ظهر منه فلا يداوى . وما بطن منه فمداريه في عناد ، ولذلك قال النبي (ﷺ) :

(دب إليكم داءُ الأمم من قبلكم الحسدُ والبغضاء . . . فمنه تتولد العداوة ، وهو سبب كل قطيعة ، ومنتج كل وحشة ، ومفرّق كل جماعة ، وقاطع كل رحم بين الأقرباء ، ومحدث التفرق بين القرناء ، وملقح الشرَّ بين الخلطاء ، يكمن في الصدور ، كمون النار في الحجر . ولو لم يدخل ، رحمك الله ، على الحاسد بعد تراكم الهموم على قلبه ، واستمكان الحزن في جوفه ، وكثرة مضضه ، ووسواس

(*) هذه القطعة والقطع التي تليها مأخوذة من كتاب « أمراء البيان » لمحمد كرد علي . ص. (334-337) و(380-381) و(387-389) و(454-456) . [المحقِّق] .

ضميره ، وتنغيص عمره وكدر نفسه ، ونكَد لذاذة معاشه ، إلا استصغاره لنعمة الله تعالى عنده ، وسخطه على سيده ، بما أفاده الله عبده ، وتمنيه عليه أن يرجع في هبته إياه ، وأن لا يرزق أحداً سواه ، لكان عند ذوى القول مرحوماً ، وكان عندهم في القياس مظلوما » .

وبعد أن سار على هذا النحو ينقل الشاهد والمثل والقصة قال :

« فمن شأن الحاسد إن كان المحسود غنيّاً ، توبيخه على المال وقوله إنه جمعه حراما ، ومنعه أثاما ، وألّب عليه محاويج أقاربه ، وتركهم له خصماء ، وأعانهم في الباطن ، وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر ، وقال له : كفروا معروفك ، وأظهروا في الناس ذمك ، فليس أمثالهم يوصلون ، فإنهم لا يَشكرون . وإن وَجَد له خصماً ، أعانه عليه ظلماً ، فإن كان ممن يعاشره فاستشاره غَشّه ، أو تفضل عليه بمعروف كفره ، أو دعاه إلى نصره خذله ، أو حضر مدحه ذمه ، وإن سُئل عنه هَمَزه ، أو كانت عنده شهادة كتمها ، وإن كانت منه إليه زلة عظمها ، وقال : إنه يجب أن يعاد ولا يعود ، ويرى عليه القعود » . «ان كان المحسود عالماً ، قال : مبتدع ، ولرأيه متبع ، حاطب ليل ، ومتبع نَيْل ، ما يدرى ما حمل ، قد ترك العمل ، وأقبل على الحيل ، وقد أقبل بوجوه الناس إليه ، وما أحمقهم إذ مالوا إليه ، فقبحه الله من عالم ، ما أعظم بليته ، وأقل رعيته ، وأسوأ طِعْمته » .

ووصفه للعالم المحسود وصفه لنفسه مع بعض حساد زمانه ، ممن لم تدرك أنفسهم شأوه في علمه وفنه ، ولذلك نراه عرف داءَهم وعرف دواءهم ، فكان الإعراض عنهم في حياته ، ومداراة الشياطين

منهم من جملة ما يعد في باب عقل الجاحظ . وقال : « لو ملكت عقوبة الحاسد لم أعاقبه بأكثر مما عاقبه الله به ، بإلزامه الهموم قلبه ، وتسليطها عليه ، فزاده الله حسداً ، وأقامه عليه أبداً » وأبان عما ارتآه لمداواة داء الحاسد بقوله : « فإذا أحسست ، رحمك الله ، من صديقك بالحسد فأقلل ما استطعت من مخالطته ، فإنه أعون الأشياء لك على مسالمته ، وحصّن سرّك منه تسلم من شذى[1] شره ، وعوائق ضره ، وإياك والرغبة في مشاورته ، فتمكن نفسك من سهام مشاررته » .

« ومتى رأيت حاسداً يصوب لك رأياً ، وإن كنت مصيباً ، أو يرشدك إلى الصواب ، وإن كنت مخطئاً ، أو نصح لك في غيبته عنك ، أو قصر من عيبه لك ؟ هو الكلب الكلِب ، والنمر الحرِب ، والسم القشب ، والفحل القَطِم[2] ، والسيل العرِم . إن مَلك قتل وسبى ، وإن مُلك عصى وبغى ؛ حياتك موته وثبوره ، وموتك عرسه وسروره ؛ يصدّق عليك كل شاهد زور ، ويكذّب فيك كل عَدْل مرضى ؛ لا يحب من الناس إلا من يبغضك ، ولا يبغض من الناس إلا من يحبك ؛ عدوّك بطانته ، وصديقك علاوته . . . . أَحسن ما تكون عنده حالاً ، أقلّ ما يراك مالاً ، وأكثر ما تكون عيالاً ، وأعظم ما تكون ضلالاً ؛ وأفرح ما يكون بك أقرب ما تكون بالمصيبة عهداً ، وأبعد ما تكون من الناس حمداً ؛ فإذا كان الأمر على هذا فمجاورةُ الأموات ، ومخالطة الزَّمْني ، والاكتنان بالجدران ، ومصّ المصران ، وأكل

---

(1) الشذى : كالأذى وزناً ومعنى .

(2) القطم : ككتف ، الكثير العض ، والقشب : الخلط وسقى السم .

القردان ، أهون من معاشرة مثله ، والاتصال بحبله . . . . وما أرى السلامة إلا في قطع الحاسد ، ولا السرور إلا في افتقاد وجهه ، ولا الراحة إلا في صرم مداراته ، ولا الربح إلا في ترك مصافاته . . . »

قال : « وما لقيت حاسداً قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه ، وتخوّص عينه ، وإخفاءِ سلامه ، والإقبال على غيرك ، والإعراض عنك ، والاستثقال لحديثك ، والخلاف لرأيك » ، « من شأن الحاسد تهجين ما يَحسْد عليه ، ومن خلق المحروم تقبيح ما حُرِم وتصغيره والطعن على أهله » ، « والذي يحسد فعلى ما لا حدَّ له يكون حسده ، فحسده متسع بقدر تغير اتساع ما حسد عليه » ، « ما خالط الحسد قلباً إلا لم يمكنه ضبطه ، ولا قدر على تشحينه[1] وكتمانه ، حتى يتمرد عليه في ظهوره وإعلانه ، فيصده ويستعمله ، ويستعطفه لقهره عليه ، ولهو أغلب على صاحبه من السيد على جنده ، ومن السلطان على رعيته ، ومن الرجل على زوجته ، ومن الآسر على أسيره » .

النبيذ

كتبت رسالة النبيذ الى صديقه الحسن بن وهب ، ومما قال في مدح النبيذ انه « إذا تمشى في عظامك ، والتبس بأجزائك ، ودب في جنانك ، مَنَحك صدق الحس ، وفراغ النفس ، وجعلك رخي البال ، خليَّ الذرع ، قليل الشواغل ، قرير العين ، واسع الصدر ، فسيح الهمّ ، حسن الظن ، ثم سد عليك أبواب التهم ، وحسن دونك الظن وخواطر الفهم ، وكفاك مؤونة الحراسة ، وألم الشفقة ، وخوف

---

(1) أشحن السيف : أغمده وسلّه (ضد) .

الحدثان ، وذل الطمع ، وكد الطلب ، وكل ما اعترض السرور وأفسد اللذة ، وقاسم الشهوة ، وأخل بالنعمة ، وهـو الـذي يرد الشيوخ في طبائع الشبان ، ويرد الشبان في نشاط الصبيان ، وليس يخاف شارب به إلا مجاوزة السرور إلى الأشر ، ومجاوزة الأشر الى البطر ، ولو لم يكن من أياديه ومننه ، ومن جميل لآئه ونعمه . إلا أنك ما دمت تمزجه بروحك ، وتزاوج بينه وبين دمك ، فقد أعفاك من الجد ونصبه ، وحبب إليك المزاح والفكاهة ، وبغّض إليك الاستقصاء والمحاولة ، وأزال عنك تعقد الحشمة ، وكد المروءة ، وصار يومه جَماماً لأيام الفكرة ، وتسهيلاً لمعاودة الروية ، لكان في ذلك ما يوجب الشكر ويطنب الذكر » ، وبالفن الذي حواه هذا الكلام حبب تعاطى النبيذ حتى لمن لا يتعاطاه !

قاضي البصرة

قال : « كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار . لم ير الناس حاكما زميتاً[1] ركيناً ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته مثل الذي ضبط وملك . كان يصلى الغداة في منزله ، وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه فيحتبى ولا يتكىء ، فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ولا يَحَلُّ حبوته ، ولا يُحُلُّ[2] رجلا أخرى ، ولا يعتمد على أحد شقيه ، حتى كأنه بناء مبنى ، أو صخرة منصوبة . فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة العصر

---

(1) الزميت : الوقور وكالسكيت أوقر منه .

(2) في رواية ولا يحول رجلا عن رجل ، والحبوة بالفتح والضم ، اسم من احتبى بالثوب اشتمل أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى مجلسه ، بل كثيراً ما كان يكون ذلك ، إذا بقي عليه شيء من قراءَة العهود والشروط[1] والوثائق ، ثم يصلي العشاء الآخرة وينصرف . فالحق يقال لم يقم في طول تلك المدة والولاية مرة واحدة الى الوضوء ، ولا احتاج إليه ، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب ، كذلك كان شأنه في طوال الأيام وفي قصارها ، وفي صيفها وفي شتائها . وكان مع ذلك لا يحرك يداً ولا عضواً ، ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم ثم يوجز ، ويبلغ باليسير من الكلام إلى المعاني الكثيرة .

« فبينا هو كذلك ذات يوم (في مجلسه) وأصحابه حواليه ، وفي السماطين بين[2] يديه . سقط على أنفه ذباب فأطال المكث ، ثم تحول إلى موق عينه ، فرام الصبر في سقوطه على الموق ، وصبر على عضته ، ونفاذ خرطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه ، من غير أن يحرك أرنبته ، أو يغضّن وجهه ، أو يذب بإصبعه ، فلما طال ذلك عليه من الذباب ، وشغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل ، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض ، فدعاه ذلك إلى أن يوالي بين الإطباق والفتح ، فتنحى ريثما سكن جفنه ، ثم عاد الى موقه بأشد من مرته الأولى ، فغمس خرطومه في مكان ، كان قد آذاه فيه قبل ذلك ، فكان احتماله أقل ، وعجزه عن الصبر عليه في الثانية أقوى ، فحرك أجفانه ، وزاد في شدة الحركة ، وألحَّ في

---

(1) في رواية من قراءة السجلات .

(2) في رواية والسماط بين يديه ، وسماط القوم بالكسر صفهم .

فتح العين ، وفي تتابع الفتح والإطباق ، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يلحُّ عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بداً من أن يذبَّ عن عينه بيده ففعل ، وعيون القوم ترمقه ، وكأنهم لا يرونه ، فتنحى عنه بقدر ما ردّ يده ، وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذب عن وجهه بطرف كمه ، ثم ألجأه إلى أن تابع ذلك ، وعلم أن فعله كله بعين مَن حضره من أمنائه وجلسائه ، فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألجُّ من الخنفساء ، وأزهى من الغراب ، قال : واستغفر الله ، فما أكثر من أعجبته نفسه ، فأراد الله عزَّ وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً ، وقد علمتم أني ، عند نفسي وعند الناس ، من أرزن الناس ، فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه ، ثم تلا قوله تعالى : (وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) ، وكان بيّن اللسان ، قليل فضول الكلام ، وكان مهيباً في أصحابه ، وكان أحد من لم يطعن عليه في نفسه ، ولا في تعريض أصحابه للمنالة » .

الهزل والجد

« إن الكلام قد يكون في لفظ الجدّ ومعناه معنى الهزل ، كما يكون في لفظ الهزل ومعناه معنى الجد ، ولو استعمل الناس الدعابة في كل حال ، والجد في كل مقال ، وتركوا التسميح والتسهيل ، وعَقَّدوا في كل دقيق وجليل ، لكان السفه صراحاً خيراً لهم ، والباطل محضاً أردّ عليهم ، ولكن لكل شيء قدر ، ولكل حال شكل ،

فالضحك في موضعه ، كالبكاء في موضعه ، والتبسم في موضعه كالقطوب في موضعه ، وكذلك المنع والبذل ، والعقاب والعفو ، وجميع القبض والبسط ، فإن ذممنا المزاح ، ففيه لعمري ما يذمّ ، وإن حمدناه ، ففيه ما يحمد ، وفصل ما بينه وبين الجد أن الخطأ إلى المزاح أسرع ، وحاله بحال السخف أشبه ، فأما أن يذم حتى يكون كالظلم ، وينعى حتى يكون كالغدر فلا . لأن المزاح مما يكون مرة قبيحاً ومرة حسناً ، والظلم لا يكون مرة قبيحاً ومرة حسناً » .

« والمزاح باب ليس المخوف فيه التقصير ، ولا يكون الخطأ فيه من جهة النقصان . وهو باب متى فتحه فاتح ، وطرَّق له مطرّق ، لم يملك من سده مثل الذي يملك من فتحه . ولا يخرج منه بقدر ما كان قدم من نفسه ، لأنه باب أصل بنائه على الخطأ ، ولا يخالطه من الأخلاق إلا ما سَخُف ، ومن شأنه التزيد ، وأن يكون صاحبه قليل التحفظ ، ولم نر شيئاً أبعد من شر ، ولا أطول له صحبة ولا أشد خلافاً ، ولا أكثر خلطاً ، من الجد والمزاح ، والمناظرة والمراء » .

هذا قوله في رسالته التربيع والتدوير ، وهي الرسالة التي عبث فيها بأحمد ابن عبد الوهاب الكاتب ، وقد أبدع فيها ما شاء إبداعه ، وعاد بعد حين فقال : « وقد ذهب الناس في المزاح إلى معان متضادة ، وسلكوا منه في طرق مختلفة ، فزعم بعضهم أن جميع المزاح خير من جميع الجد ، وزعم آخرون أن الخير والشر عليهما مقسومان ، وأن الحمد والذم بينهما نصفان . فأما المحامى على الهزل والمفضِّل للمزح ، فإنه قال : أول ما أذكر من خصال الهزل ومن

فضائل المزح أنه دليل على حسن الحال وفراغ البال ، وأن الجد لا يكون إلا من فضل حاجة ، والمزح لا يكون إلا من فضل غنى ، وأن الجدَّ غضب ، والمزح جَمام ، والجدَّ مَبْغضة ، والمزح محبة . وصاحب الجد في بلاءٍ ما كان فيه ، وصاحب المزح في رخاءٍ إلى أن يخرج منه . والجد مؤلم ، وربما عَرّضك لأشدّ منه ، والمزح ملذٌ ، وربما عَرّضك لألذَّ منه . فقد شاركه في التعريض للخير والشر ، وباينه بتعجيل الخير دون الشر ، وإنما تشاغل الناس ليفرغوا ، وجَدُّوا ليهزلوا ، كما تذللوا ليعزّوا ، وكدّوا ليستريحوا ، وإن كان المزح إنما صار معيباً ، والهزل إنما صار مذموماً ، لأن صاحبه لا يكون إلا معرَّضاً لمجاوزة القدر ، ومخاطراً بمودة الصديق ، فالجد داعية إلى الإفراط ، كما أن المزاح داعية إلى مجاوزة القدر ، وتجاوز الحد قاطع بين القرينين في جميع النوعين ، فقد ساواه المزاح فيما هو له وبايَنه فيما ليس له ، وإن كان المزح قبيحاً لأنه يورث الجد ، فأقبح من المزح ما صَيَّر المزح قبيحاً وإذا صار المزح قبيحاً ، لأن الذي يكون بعده الجد ، ولم يصير الجد قبيحاً ، لأن الذي بعده المزح ، كان الجد في هذا الوزن أقبح من المزح ، وكان المزح على هذا التقدير أحسن من الجد ، لأن ما جعل الشىء قبيحاً أقبح من الشىء ، كما أن ما جعل الشىء حسناً أحسن من الشىء » .

« وأما الذي عدل بينهما ، فإنه زعم أن المزح في موضعه كالجد في موضعه ، كما أن المنع في حقه كالبذل في حقه » . قال : « ولكل شىء موضع ، وليس شىء يصلح في كل موضع . وقد قسم الله الخيرة على المعدلة ، وأجرى جميع الأمور إلى غاية المصلحة ، وقسط

أجزاء المثوبة على العزيمة والرخصة ، وعلى الإعلان والتقية ، فأمر بالمداراة ، كما أمر بالمباداة ، وجوّز المعاريض ، كما أمر بالإفصاح ، وسوَّغ في المباح ، كما شدد في المفروض ، وجعل المباح جَماماً للقلوب ، وراحة للأبدان ، وعوناً على معاودة الأعمال ، فصار الإطلاق كالحظر ، والصبر كالشكر ، وليس للإنسان من الخيرة في الذكر شيء إلا وله في النسيان مثله ، ولا في الفطنة شيء إلا وله في الغفلة مثله ، ولا في السراءِ شيء إلا وله في الضرّاء مثله ، ولو لم يرزق الله العباد إلا بالصواب محضاً ، وبالصدق صرفاً ، وبمرّ الحق صفحاً ، لهلكَ العوام ، وانتقض أمر الخواص ، ولو ذكر الإنسان كل ما أُنسيه لَشَقى ، ولو جدّ في كل شيء لانتكث ، وقد يكون الذكر إلى الهلكة سلماً ، كما يكون النسيان للسلامة سبباً . وسبيل المزاح والجد كسبيل المنع والبذل ، وعلى ذلك مجرى جميع القبض والبسط . فهذا وما قبله جمل أقاويل القوم » .

أبو الفرج الأصبهاني

(وُلد سنة 897، وتوفِّي سنة 967 م.)

هو عليّ بْن الحسين ، الأمويّ القرشيّ . وُلد في أصبهان ونشأ وتوفِّي في بغداد ، وقد خُولط قبل موته . قال ابن خلّكان في « الوفيات » من كلام له على أبي الفرج : « جدُّه مروان بْن محمد آخر خلفاء بني أميَّة . وهو أصبهانيٌّ الأصل بغداديٌّ المنشإ » إلى أن يقول : « وكان منقطعاً إلى الوزير المهلَّبيّ (*) » إلى أن يقول : « وله فيه مدائح » . وقال جرجي زيدان في كتابه « تاريخ آداب اللُّغة العربيَّة » يذكر أبا الفرج : « قد يُفهم من لقبه انَّه فارسيُّ الأصل ، وهو عربيٌّ أمويٌّ يتَّصل نسبه بمروان بْن الحَكَم » إلى أن يقول : « وإنَّما لُقِّب الأَصبهانيّ لأنه ولد في أصبهان » .

وقال ياقوت في « معجم الأُدباء » ، في ترجمته لأبي الفرج ، نقلاً عن الصَّابىء : « وكان وسِخاً قذِراً لم يَغسل له ثوباً منذ فصَّله إلى أن قطَّعه » .

(*) هو الحسن بن محمد . من كبار الوزراء الأدباء الشُّعراء . وقد لُقِّب « بذي الوزارتين » لاجتماع وزارة معزّ الدولة ابن بُويه ووزارة المطيع العبَّاسيُّ له . وُلد سنة 903 وتوفِّي سنة 963 م.

وقال محمد كرد علي في كتابه « كنوز الأجداد » : « رموا أبا الفرج بأنَّه كان مستهتراً في سيرته ، شأن بعض النُّدماء في العصر العبَّاسيِّ . وكيف يمتنع النَّديم عن أشياء حظَّرها العرف والشَّرع وهي معروضة عليه كلَّ ساعة ، وبها ينفق على مخدومه (إلى أن يقول) ساقته المنادمة إلى ارتكاب أمور كان يعفُّ عنها لو لم يصل إلى تلك المجالس والملاهي » .

إذا جاء الكلام في الكتابة إلى رواية الأخبار رأيتَ عند أبي الفرج في « الأغاني » ليان طبع ، وسلاسة تعبير ، ودقَّة وصف ، وتفقهاً في اللُّغة ، وإيجازاً في القول إلاَّ انَّه إيجاز يأخذ بدقائق الغرض من كلِّ جانب !

أمَّا الشِّعر فانَّ أبا الفرج لم يكن له فيه ما يصل إلى الطَّبقات العلى . قال الثَّعالبيّ في « اليتيمة » ، في ترجمة أبي الفرج : « وله شعر يجمع إتقان العلماء وإحسان ظرفاء الكتَّاب » . ثم أورد طائفة من شعر أبي الفرج في مدح الوزير المهلَّبيِّ ، ليس فيها كبير أمر .

قال شفيق جبري في كتابه « دراسة الأغاني » : « إذا خلد كاتب لفطنته إلى روح الألفاظ وأسرارها ، ولصبِّه هذه الألفاظ في قوالبها ، ولخفَّة لغته على القلوب والأفهام ، ولإرسال قلمه على سجيَّته وطبعه ، دون شيءٍ من التَّصنُّع ، واصفاً ما يذكره من الأشخاص والأشياء بحقائق الصِّفات ، وازناً كلَّ صفة من هذه الصِّفات بموازينها دون شطط ، ولا سرف ، إذا خلد كاتب لهذه الخصائص كلِّها فأبو الفرج الأصبهانيِّ على رأس الخالدين ! » . وقال أيضاً : « التَّفقُّه في اللُّغة

إنّما هو العنصر الأوّل من عناصر لغة أبي الفرج . وإذا أردنا أن نبحث عن عنصرٍ ثانٍ من هذه العناصر فانّا نجده في سهولة لغته » .

وآية أبي الفرج كتابه « الأغاني » المشهور ، وهو في واحد وعشرين جزءاً . قال ابن خلدون في «المقدمة» يذكر « الأغاني » : « ولعمري انّه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن الّتي سلفت لهم في كلّ فنّ من فنون الشّعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال . ولا يُعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه . وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ، ويقف عندها ، وأنّى له بها ! » . وقال الأستاذ محمد كرد علي في كتابه المذكور : « فالأغاني مفخرة لغة العرب ، لو اقتصر متأدّب عليه لجاء منه أوّل أديب ! (إلى أن يقول) وكتاب الأغاني ، على أيّ حال ، معلمة أدب ، أو أكبر معلمة في أدب العرب ، لا يستغني عنه كاتب ، ولا مؤلّف ، ولا تلميذ ، ولا أستاذ . (إلى أن يقول :) ومثل هذا التّأليف ، إذا أرادت أمّة عظيمة من أمم الحضارة الحديثة أن تخرجه للنّاس ، لا يعمل فيه أقلّ من خمسين عالماً إخصائيّاً في فنّه ! وأبو الفرج عمله وحده ! » . وقال أحمد حسن الزّيّات في كتابه « تاريخ الأدب العربيّ » يذكر أبا الفرج : « وحسبه ميزةً وشرفاً كتابه المسمّى بالأغاني (إلى أن يقول في الكلام على [الأغاني]) « أجمع المؤرّخون على انّه لم يُصنّف في بابه مثله ، وانّ كلّ كتاب في الأدب كلٌّ عليه ! » . وقال الدكتور أحمد كمال زكي في كتابه « مختارات من كتاب الأغاني » : « حتّى انّ كتاباً ، قديماً أو حديثاً ، لم يطلع على النّاس إلاّ فيه عن الأغاني شيء ، وإلاّ كانت فيه إحالة على أبي الفرج » .

ولأبي الفرج كتاب مُثِّل بالطبع أيضاً ، كما مُثِّل « الأغاني » ، وهو « مقاتل الطَّالبيين » . وله من الكتب التي نالتها يد الضَّياع : « القيان » ، و« الإماء الشَّواعر » ، و« الدِّيارات » ، و« الحانات » ، و« الغلمان المغنُّون » ، و« أيَّام العرب » ، و« جمهرة النَّسب » ، و«نسب بني عبد شمس » ، و « التَّعديل والإنصاف » في مآثر العرب ومثالبها ، و « مجرَّد الأغاني » ، و « آداب الغرباء » ، و « الخمَّارون والخمَّارات » . قال خير الدِّين الزركليّ في كتابه « الأعلام » : « كتب لي السَّيد أحمد عبيد ، من دمشق ، انَّه وقعت له سبع ورقات مخطوطة من أوَّل كتاب [الخمَّارين والخمَّارات] لأبي الفرج » .

أبو تمَّام(*)

شاعر مطبوع ، لطيف الفطنة ، دقيق المعاني ، غوَّاص على ما يُستصعب منها ، ويعسر تناوله على غيره (إلى أن يقول) والسَّليم من شعره النَّادر شيء لا يتعلَّق به أحد . وله أشياء متوسِّطة ورديئة رذلة جدّاً .

وفي عصرنا هذا من يتعصَّب له ، فيفرط حتَّى يفضِّله على كلّ سالف وخالف . وأقوام يتعمَّدون الرَّديءَ من شعره فينشرونه ، ويطوون محاسنه ، ويستعملون القحة والمكابرة في ذلك ليقول الجاهل بهم انَّهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزه إلاَّ بأدب فاضل وعلم

(*) من « الأغاني » ، وكذلك الفصل الذي بعده .

ثاقب . وهذا ممَّا يتكسَّب به كثير من أَهل هذا الدَّهر ، ويجعلونه ، وما جرى مجراه من ثلب النَّاس وطلب معايبهم ، سبباً للتَّرفُّع وطلب الرِّياسة .

وليست إساءَة من أساء في القليل ، وأَحسن في الكثير ، مسقطة إحسانه . ولو كثرت إساءته أيضاً ثمَّ أَحسن ، لم يُقَلْ له عند الإحسان أَسأتَ ، ولا عند الصَّواب اخطأتَ . والتَّوسُّط في كلِّ شيء أَجمل ، والحقُّ أَحقُّ أن يُتبع .

وقد رُوي عن بعض الشُّعراء أَنَّ أَبا تمَّام أَنشده قصيدة له أَحسن في جميعها إلاَّ في بيت واحد ، فقال له : يا أَبا تمَّام ، لو أَلقيت هذا البيت ، ما كان في قصيدتك عيب ! فقال له : أَنا ، والله ، أَعلم منه مثل ما تعلم . ولكن مثل شعر الرَّجل عنده مثل أَولاده : فيهم الجميل والقبيح ، وفيهم الرَّشيد والسَّاقط ، ولكن كلُّهم حلو في نفسه !

(قصة الأمير أَبان والأعرابي)(*)

(اخبرني) محمد ابن مزيد قال حدثنا عمر بن شبة قال حدثنا ابن زبالة قال حدثنا ابن زنبج راوية ابن هرمة عن ابيه قال كان ابان بن عثمان من اهزل الناس واعبثهم وبلغ من عبثه انه كان يجيء بالليل الى

(*) الأغاني ج17 : 102 . [المحقّق] .

منزل رجل في اعلى المدينة له لقب يغضب منه فيقول له انا فلان بن فلان ثم يهتف بلقبه فيشتمه اقبح شتم وابان يضحك. فبينا نحن ذات يوم عنده وعنده اشعب اذ اقبل اعرابي ومعه جمل له والاعرابي اشقر ازرق ازعر غضوب يتلظى كانه افعى وتبين الشر في وجهه ما يدنو منه احد الا شتمه ونهره. فقال اشعب لابان هذا والله من البادية ادعوه. فدعى. وقيل له ان الامير ابان بن عثمان يدعوك. فاتاه فسلم عليه فسأله ابان عن نفسه فانتسب له فقال حياك الله يا خالي حبيب. إزداد حبا فجلس فقال له إني في طلب جمل مثل جملك هذا منذ زمان فلم اجده كما اشتهي بهذه الصفة وهذه القامة واللون والصدر والورك والاخفاف فالحمد لله الذي جعل ظفري به من عند من احبه اتبيعه ؟ فقال نعم ايها الامير فقال فاني قد بذلت لك به مائة دينار وكان الجمل يساوي عشرة دنانير فطمع الاعرابي وسر وانتفخ وبان السرور والطمع في وجهه فاقبل ابان على اشعب ثم قال له ويلك يا اشعب ان خالي هذا من اهلك واقاربك يعني الطمع فأوسع له مما عندك فقال له نعم بأبي انت وزيادة فقال له ابان يا خالي انما زدتك في الثمن على بصيرة وإنما الجمل يساوي ستين ديناراً ولكن بذلت لك مائة لقلة النقد عندنا واني اعطيك به عروضاً تساوى مائة فزاد طمع الاعرابي وقال قد قبلت ذلك ايها الامير فأسرَّ الى اشعب فأخرج شيئا مغطى فقال له اخرج ما جئت به. فأخرج جرد عمامة خز خلق تساوي اربعة دراهم فقال له قومها يا اشعب فقال له عمامة الامير تعرف به ويشهد فيها الاعياد والجمع ويلقى فيها الخلفاء خمسون دينارا فقال ضعها بين يديه وقال لابن زبنج اثبت قيمتها فكتب ذلك ووضعت العمامة بين يدي الاعرابي فكاد يدخل بعضه في بعض غيظاً

ولم يقدر على الكلام ثم قال هات قلنسوتي . فأخرج قلنوسة طويلة خلقة قد علاها الوسخ والدهن وتخرقت تساوى نصف درهم فقال قوّم فقال قلنسوة الأمير تعلو هامته ويصلي فيها الصلوات الخمس ويجلس للحكم ثلاثون ديناراً قال أثبت فأثبت ذلك . ووضعت القلنسوة بين يدي الأعرابي فتربد وجهه وجحظت عيناه وهمَّ بالوثوب ثم تماسك وهو متقلقل ثم قال لأشعب هات ما عندك فأخرج خفين خلقين قد نقبا وتقشراً وتفتقا فقال له : قوّم خفًا الأمير يطأ بهما الروضة ويعلو بهما منبر النبي صلى الله عليه وسلم أربعون ديناراً . فقال ضعهما بين يديه فوضعهما ثم قال للأعرابي اضمم اليك متاعك وقال لبعض الأعوان اذهب فخذ الجمل وقال لآخر امض مع الأعرابي قابض منه ما بقي لنا عليه من ثمن المتاع وهو عشرون ديناراً فوثب الأعرابي فأخذ القماش فضرب به وجوه القوم لا يألوا في شدة الرمي به ثم قال له أتدري أصلحك الله من أي شيء أموت ؟ قال لا . قال لم أدرك أباك عثمان فاشترك والله في دمه إذ ولد مثلك . ثم نهض مثل المجنون حتى أخذ برأس بعيره وضحك أبان حتى سقط . وضحك كل من كان معه وكان الأعرابي بعد ذلك اذا لقي أشعب يقول له هلم الي يا ابن الخبيثة حتى أكافئك على تقويمك المتاع يوم قُوِّم فيهرب أشعب منه .

البديع الهمذاني

(وُلد سنة 969، وتوفِّي سنة 1008 م.)

هو أحمد بْن الحسين بْن يحيى . وُلد في هَمَذان ، فنُسب إليها ، ولُقِّب ببديع الزَّمان . وقد توفِّي في هراة (من أعمال خُراسان) مسموماً ، وفي « وفيات الأعيان » عن الحاكم ابن دوست : انَّه مات بالسَّكتة . وفي « معجم الأدباء » انَّه زاد على أربعين سنة . أمَّا نسبه فعربيٌّ مُضريٌّ ، كما صرَّح بذلك هو نفسه في بعض رسائله ، قال : « اسمي أحمد ، وهمذان المولد ، وتغلب المورد ، ومُضر المحتد » . كان كثير التَّرحال ، كثير الوفود على ملوك وقته وأمرائه ، وكان قويَّ الحافظة إلى ما لا يكاد يُصدَّق . فقد قال ذكر الثعالبيّ عنه في « اليتيمة » : « ينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ، ولم يره ، نظرةً واحدة خفيفة ، ثم يهذُّها(*) عن ظهر قلبه هذّاً ، ويسردها سرداً » ! وله « المقامات » المشهورة الَّتي عارض بها ابن دريد ، كما يقول الحُصْريّ في « زهر الآداب » ، والتي أخذ الحريريُّ أسلوب مقاماته عنها .

إنَّ البديع هو صاحب أرشق كلام بين الاسترسال والتَّعمُّل . ترى

(*) هذَّ الحديث : سرده وأسرع فيه .

له المقطع من مسجَّع أو مرسل ، فترى طبعاً دافقاً ، وسجيّةً حاضرة ، ريًا من الفصاحة والظُّرف وحلاوة الرُّوح ، إلى تضلُّع عجيب من أسرار المفردات . وهو يؤثر المبنى على المعنى ، ويأتي له بأنواع التَّزيين . فأمَّا إذا انصرف في بعض المواضع إلى المعنى ، فانَّه يبلغ النِّهايات في مرامه منه !

قال الثَّعالبيّ في « اليتيمة » يذكر البديع : « من لم يُلقَ نظيره في ذكاء القريحة وسرعة الخاطر ، وشرف الطَّبع ، وصفاء الذِّهن ، وقوَّة النَّفس . ومن لم يُدركْ قرينه في ظرف النَّثر وملحه وغرره » .

وقال الحُصْريّ في « زهر الآداب » يذكره : « كلامه غضُّ المكاسر [1] ، أنيق الجواهر . يكاد الهواء يسرقه لطفاً ، والهوى يعشه ظَرفاً » .

وقال الشَّيخ محمد عبده في مقدّمة شرحه لمقامات البديع ، يفصِّل ما امتاز به كلام البديع : « ومن أَشرف ما امتاز به كلامه انَّه يباهي كلام أهل الوبر رصانةً ورفعة . ويمتزج بطباع أَهل الحضر رقَّةً ورواء صنعة . فبينما يخيِّل لسامعه انَّه بين الأخبية والخيام ، إذ يتراءى له انَّه بين الأَبنية والآطام [2] » .

وقال الأُستاذ محمد كرد علي في كتابه « كنوز الأَجداد » ، عند كلامه على نثر البديع : « ونثره ذو طابع خاصّ ، يهتزّ اهتزاز الغصن

---

(1) المكاسر : جمع المَكْسِر ، ومَكْسِر الشجرة : أصلها حيث تُكسر منه أغصانها .
(2) جمع الأُطُم ، وهو الحصن .

الوريف ، وتسمع له جميل الحفيف والـرَّفيق . وحفيفـه منبعـث من نفسه ، ورفيقه صادر عن قوىً في حسِّه . وقلَّ في الكتَّاب من أحدث له طريقةً كطريقته ، وأملى بها صورته ، وجسَّم صوته ونُعَرَته[1] » .

وقال الأستـاذ أحمـد حسـن الـزَّيَّات في كتابـه « تـأريخ الأدب العربيّ » : « نثر البديع يستهوي القلوب ، ويملك الشُّعور ، وكلُّه من قبيل الشِّعر المنثور . وللصَّناعة تأْثير فيه ، إلاَّ انَّه مع ذلك جارٍ مجرى الطَّبع ، لم يفسده تكلُّف ، ولم يبهمه[2] تعمُّق . وقد جمع كلامه بين متانة اللَّفظ ورشاقة المعنى وجمال العبارة ودقَّة التَّخيُّل . وقد تصرَّف هذا الكاتب في فنون التَّرسُّل ، وتفنَّن في ضروب الرَّسائل » .

له في النَّثر : « مقامات بديع الزَّمان الهمذانيّ » ، و« رسائل بديع الزَّمان الهمذانيّ » .

من تعزية[3]

الموت خطبٌ قد عظم حتَّى هان ، ومسٌّ قد خشن حتَّـى لان . والدنيا قد تنكَّرت حتَّى صار الموت أَخف خطوبها ، وجنت حتَّى صار أَصغر ذنوبها . فلتنظر يمنةً هل نرى إلاَّ محنةً ، ثمَّ لتعطف يسرةً هل ترى الاَّ حسرةً ؟!

---

(1) النُّعَرَة : الخيشوم .

(2) يقال : أبهم الأمرَ ، أي : لم يجعل له وجهاً يعرِّفه .

(3) من « وفيات الأعيان » .

إلى ابن أخته[1]

أنت ولدي ، ما دمتَ والعلم شانك ، والمدرسة مكانك ، والدَّفتر أليفك وحليفك . فإن قصَّرت ، ولا إخالك ، فغيري خالك !

إلى بعض الرُّؤساء[2]

يعزُّ عليَّ ، أيَّد الله الشَّيخ ، أن ينوب في خدمته قلمي عن قدمي ، ويسعد برؤيته رسولي قبل وصولي ، ويرد مشرع الأُنس به كتابي قبل ركابي ، ولكن ما الحيلة والعوائق جمَّة (إلى أن يقول :) وقد حضرتُ داره وقبَّلتُ جداره . وما بي حبٌّ للحيطان ولكن شغف بالقُطَّان[3] .

---

(1) من « رسائل بديع الزمان الهمذاني » .

(2) من « يتيمة الدَّهر » للثَّعالبي .

(3) قَطن في المكان : أقام فيه وتوطَّنه .

المقامة المضيرية

حدّثنا عيسى بن هشام قال : كنت بالبصرة ، ومعي أبو الفتح الإسكندري ، رجل الفصاحة يدعوها فتجيبهُ ، والبلاغة يأمرها فتطيعهُ ، وحضرنا معه دعوة بعض التجاّر فقُدّمتْ إلينا مَضِيرة[1] تُثْني على الحضارة ، وتترجرجُ في الغَضارة ، وتؤذن بالسلامة ، وتشهد لمعاوية ، رحمه الله ، بالإمامة ، في قصعة يزلّ عنها الطرف ، ويموجُ فيها الظرف ، فلما أخذت من الخوان مكانَها . ومن القلوب أوطانَها ، قام أبو الفتح الإسكندري يلعنُها وصاحبها ، ويمقتها وآكلها ، ويثلبها وطابخهَا ، وظنناه يمزح ، فإذا الأمر بالضد ، وإذا المزاح عين الجد ، وتنحى عن الخوان ، وترك مساعدة الإخوان ، ورفعناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها العيون ، وتحلبت لها الأفواه[2] ، وتلمظَت لها الشفاه ، واتقدت لها الأكباد ، ومضى في إثرها الفؤاد ، ولكنا ساعدناه على هجرها ، وسألناه عن أمرها ، فقال : قصّتي معها أطول من مصيبتي فيها ، ولو حدثتكم بها لم آمن المقت وإضاعة الوقت ، قلنا : هات .

---

(1) لعلها تشبه ما نسميه اليوم كبة أرنبية أو الكبة بلبنية .

(2) سال لعابها .

قال : دعاني بعض التجار إلى مضيرة وأنا ببغداد ، ولزمني ملازمة الغريم ، والكلب لأصحاب الرقيم[1] ، إلى أن أجبته إليها وقمنا ، فجعل طول الطريق يثني على زوجته ، ويفديّها بمهجته ، ويصف حذقَتها في صنعتها ، وتأنقها في طبخها ، ويقول : يا مولاى ، لو رأيتها ، والخرقة في وسطها ، وهى تدور في الدور ، من التنّور إلى القدور ، ومن القدور إلى التنّور ، تنفث بفيها النار ، وتدقّ بيديها الأبزار . ولو رأيت الدخان وقد غبّر في ذلك الوجه الجميل ، وأثّر في ذلك الخدّ الصقيل ، لرأيت منظراً تحار فيه العيون . وأنا أعشقها لأنها تعشقني ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته ، وأن يسعد بظعينته ، ولا سيما إذا كانت من طينته . وهى ابنة عمى لَحّاً . طينتها طينتي ، ومدينتها مدينتي ، وعمومتها عمومتي ، وأرومتها أرومتي . لكنها أوسع مني خُلقاً ، وأحسن خَلقاً . وصدعني بصفات زوجته ، حتى انتهينا إلى محلته . ثم قال : يا مولاى ، ترى هذه المحلة . هي أشرف محالّ بغداد يتنافس الأخيار في نزولها . ويتغاير الكبار في حلولها . ثم لا يسكنها غير التجار . وإنما المرء بالجار . وداري في السِّطّة[2] من قلادتها ، والنقطة من دائرتها . كم تقدّر يا مولاي ، أنفق على كل دار منها ؟ قله تخميناً ، إن لم تعرفه يقيناً . قلت : الكثير . فقال : يا سبحان الله ما أكبر هذا الغلط ، تقول الكثير فقط ! وتنفّس الصُّعداء ، وقال سبحانَ من يعلم الأشياء .

وانتهينا إلى باب داره . فقال : هذه داري كم تقدر يا مولاي ،

(1) أهل الكهف ، وكلبهم مشهور .
(2) الوسط .

أنفقتُ على هذه الطاقـة . أنفقـت والله عليهـا فوق الطاقـة ، ووراء الفاقة . كيف ترى صنعتها وشكلها ؟ أرأيت بالله مثلها ؟! انظر إلـى دقائق الصنعة فيها وتأمل حسن تعريجها فكأنما خُطّ بالبركار . وانظر إلى حذق النجّار في صنعة هذا الباب . اتخذه من كم ؟ قل : ومن أين أعلم . هو ساجٌ من قطعة واحدة لا مأروض[1] ولا عفن . إذا حُرّك أنّ، وإذا نُقر طنّ . من اتخذه يا سيدي ؟ اتخذه أبو إسحق بن محمـد البصـري ، وهـو ، والله ، رجـل نظيف الأثـواب . بصير بصنعـة الأبواب ، خفيف اليد في العمـل . لله درُّ ذلك الرجـل ! بحياتـي لا استعنت إلا به على مثله .

وهذه الحلقة تراهـا ؟ اشتريتهـا في سوق الطـرائف من عمـران الطرائفي بثلاثة دنانير معزيّة ، وكم فيها يا سيدي من الشبه ؟ فيها ستة أرطـال ، وهـي تدور بلولـب في البـاب . بالله دورهـا ، ثم انقرهـا وأبصرها ، وبحياتي عليك لا اشتريت الحَلَق إلا منـه فليس يبيع إلا الأعلاق .

ثم قرع الباب ودخلنا الـدهليز وقـال : عمَّـركَ الله يا دار ، ولا خرّبـك يا جدار ، فمـا أمتـنَ حيطانَـك ، وأوثـق بنيانَـك ، وأقـوى أساسَك ! تأمل بالله معارجها وتبين دواخلهـا وخوارجهـا ، وسلنـي : كيف حصلتها ، وكم من حيلة احتلتها ، حتى عقدتها ؟ كان لي جار يكنى أبا سليمان يسكن هذه المحلة وله من المال ما لا يسعه الخزن ،

(1) المأروض : الذي أكلته الأرضة .

ومن الصامت ما لا يحصره الوزن . مات رحمه الله وخلف خلفاً أتلفه بين الخمر والزمر ، ومزّقه بين النرد والقَمْر ، وأشفقت أن يسوقه قائد الاضطرار ، إلى بيع الدار ، فيبيعها في أثناء الضجر ، أو يجعلها عرضةً للخطر . ثم أراها ، وقد فاتني شراها ، فأتقطع عليها حسرات . إلى يوم الممات ، فعمدت إلى أثواب لا تنضّ[1] تجارتها ، فحملتها إليه وعرضتها عليه ، وساومته على أن يشتريها نسيّة[2] ، والمدبر يحسب النسية عطية ، والمتخلف يعتدّها هدية ، وسألته وثيقةً بأصل المال ففعل وعقدها لى ، ثم تغافلت عن اقتضائه حتى كادت حاشية حاله ترقّ فأتيته فاقتضيته ، واستمهلني فأنظرته ، والتمس غيرها من الثياب فأحضرته ،وسألته أن يجعل داره رهينة لديّ ،ووثيقة في يديّ ، ففعل . ثم رجّته بالمعاملات إلى بيعها حتى حصلت لى بجدّ صاعد ، وبخت مساعد ، وقوة ساعد ، ورب ساع لقاعد ، وأنا بحمد الله مجدود في مثل هذه الأحوال محمود ، وحسبك يا مولاي ، أني كنت منذ ليال نائماً في البيت مع من فيه إذ قرع علينا الباب ، فقلت : من الطارق المنتاب ؟ فإذا امرأة معها عقدُ لآل . في جلده ماء ورقّة آل . تعرضه للبيع ، فأخذته منها إخذة خلْسْ ، واشتريته بثمن بخس ، وسيكون له نفع ظاهر ، وربح وافر ، بعون الله ودولتك . وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جدي في التجارة . والسعادة تنبط الماء من الحجارة ، الله أكبر ! لا ينبئك أصدق من نفسك ، ولا أقرب من أمسك . اشتريت هذا الحصير في

---

(1) كاسدة : غير نافقة .

(2) بيع بثمن مؤجل .

المناداة ، وقد أخرج من دور آل الفُرات ، وقت المصادرات وزمن الغارات . وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطول فلا أجد . والدهر حبلى ليس يدري ما يلد . ثم اتفق أني حضرتُ باب الطاق . وهذا يعرض في الأسواق . فوزنت فيه كذا وكذا ديناراً . تأمل بالله دقته ولينه ، وصنعته ولونه ، فهو عظيم القدر ، لا يقع مثله إلا في الندر . وإن كنت سمعت بأبي عمران الحصيري فهو عمله . وله ابن يخلفه الآن في حانوته لا يوجد أعلاق الحصر إلا عنده . فبحياتي لا اشتريت الحصر إلا من دكانه ، فالمؤمن ناصحٌ لإخوانه ، ولا سيما من تحرّم بخوانه .

ونعود إلى حديث المضيرة ، فقد حان وقت الظهيرة ، يا غلام ، الطستَ والماء ، فقلت : الله أكبر ربما قرب الفرج . وسهل المخرج . وتقدم الغلام ، فقال : ترى هذا الغلام ؟ إنه رومي الأصل عراقي النشء . تقدم يا غلام واحسر عن رأسك ، وشمرّ عن ساقك ، وانفضْ عن ذراعك ، وافترّ عن أسنانك ، وأقبل وأدبر . ففعل الغلام ذلك ، وقال التاجر : بالله من اشتراه ! اشتراه والله ، أبو العباس ، من النخاس . ضع الطست ، وهات الإبريق ، فوضعه الغلام وأخذه التاجر وقلبه وأدار فيه النظر ثم نقره ، فقال : انظر إلى هذا الشبه[1] كأنه جذوة اللهب ، أو قطعة من الذهب ، شَبَهُ الشام ، وصنعة العراق ، ليس من خلقان[2] الأعلاق . قد عرف دور الملوك ودارها . تأمل حسنه وسلني : متى اشتريته ؟! اشتريته والله عام المجاعة ،

---

(1) الشبه : النحاس الأصفر أو البرونز .

(2) الرث البالي .

وادّخرته لهذه الساعة . يا غلام ، الإبريق ، فقدّمه ، وأخذه التاجر فقلبه ، ثم قال : وأنبوبه منه . لا يصلح هذا الإبريق إلا لهذا الطست ، ولا يصلح هذا الطست إلا مع هذا الدست ، ولا يحسن هذا الدست إلا في هذا البيت . ولا يجمل هذا البيت إلا مع هذا الضيف .

أرسل الماء يا غلام ، فقد حان وقت الطعام ، بالله ترى هذا الماء ما أصفاه ! أزرق كعين السنّور ، وصاف كقضيب البلّور ، استُقِي من الفرات واستُعمل بعد البيات ، فجاء كلسان الشمعة ، في صفاء الدمعة ، وليس الشأن في السَّقّاء ، الشأن في الإناء ، لا يدلك على نظافة أسبابه ، أصدق من نظافة شرابه . وهذا المنديل ! سلني عن قصته . فهو نسج جُرْجان ، وعمل أرجّان ، وقع إليّ فاشتريته ، فاتخذت امرأتي بعضه سراويل ، واتخذت بعضه منديلاً ، دخل في سراويلها عشرون ذراعاً ، وانتزعت من يدها هذا القدَر انتزاعاً ، وأسلمته إلى المطرّز حتى صنعه كما تراه وطرزه . ثم رددته من السوق ، وخزنته في الصندوق ، وادخّرته للظراف ، من الأضياف ، لم تذله عرب العامة بأيديها ، ولا النساء لمآقيها ، فلكل علق يوم ، ولكل آلة قوم .

يا غلام ، الخوان ، فقد طال الزمان ، والقصاع ، فقد طال المصاع[1] والطعام ، فقد كثر الكلام ، فأتى الغلام بالخوان ، وقلبه التاجر على المكان ، ونقره بالبنان ، وعجمه بالأسنان ، وقال : عمّر الله بغداد فما أجود متاعها ، وأظرف صنّاعها !

---

(1) المجالدة والمقاتلة .

تأمل بالله هذا الخوان ، وانظر إلى عَرض متنه ، وخفّة وزنـه ، وصلابة عوده وحسن شكله ، فقلت : هذا الشكل ، فمتى الأكل ؟! فقال : الآن . عجّل يا غلامُ ، الطعامَ . لكنّ الخُوان قوائمهُ منه .

قال أبو لفتح : فجاشت نفسي وقلت : لقد بقي الخَبْزُ وآلاته ، والخبز وصفاته ، والحنطة من أين اشتريت أصلا ، وكيف اكترى لها حملا ، وفي أي رحى طَحن ، وإجّانة[1] عَجن ، وأي تنّور سجـر ، وخباز استأجر ، وبقي الحطب من أين احتطب ، ومتى جلب وكيف صفف حتى جفف وحبس ، حتـى يبس . وبقـي الخبّـاز ووصفـه ، والتلميذ ونعتـه ، والـدقيق ومدحـه ، والخمير وشرحـــه ، والملـــح وملاحته ، وبقيت السكُرّجـات[2] من اتخذهـا ، وكيف انتقذهـا[3] ، ومن عملها ، والخَلّ كيف انتقـى عنبـه ، أو اشتـرى رطبـه ، وكيف صُهرجَتْ معصرته واستخلص لبه . وكيف قُيِّرَ حُبه[4] ، وكم يسـاوي دَنّه ؛ وبقي البقل كيف احتيل له حتى قطف ، وفي أي مبقلة رصف ، وكيف تؤنّق حتى نُظّف ، وبقيت المضيرة كيـف اشتـرى لحمـها ، ووفُي شحمها ، ونصبت قدرها ، وأجّجت نارها ، ودُقّت أبزارهـا ، حتى أجيد طبخها وعقُد مرقها ، وهذا خطب يطمّ ، وأمر لا يتم .

فقمتُ ، فقال : أين تريد ؟! فقلت : حاجةً أقضيها ، فقال : يا مولاي تريد كنيفاً يزْري بربيعيّ الأمير ، وخريفيّ الوزير ، قد جُصصّ

(1) المركز الذي يعجن فيه .

(2) آنية الطعام .

(3) كيف اتصلت إليه بالشراء .

(4) الخابية .

أعلاه وصهرج أسفله ، وسُطح سقفه وفرشت بالمرمر أرضه ، يزل عن حائطه الذرّ فلا يعلق ، ويمشي على أرضه الذباب فيزلق ، عليه بابٌ غيرانه[1] من خليطي ساجٍ وعاج ، مزدوجين أحسن ازدواج ، يتمنى الضيف أن يأكل فيه . فقلت : كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف في الحساب .

وخرجت نحو الباب ، وأسرعت في الذهاب ، وجعلت أعدو وهو يتبعني ويصيح يا أبا الفتح ! المضيرة . وظن الصبيان أن المضيرة لقب لي فصاحوا صياحه فرميت أحدهم بحجر ، من فرط الضجر ، فلقي رجلٌ الحجرَ بعمامته فغاص في هامته . فأخذت من النّعال بما قدُم وحدُث ، ومن الصفع بما طاب وخبث ، وحشرت إلى الحبس ، فأقمت عامين في ذلك النحس ، فنذرت أن لا آكلَ مضيرةً ما عشت . فهل أنا في ذا يا آل همدان ظالم ؟!

قال عيسى بن هشام : فقبلنا عذره ونذرنا نذره ، وقلنا : قديماً جنتِ المضيرة على الأحرار ، وقدمت الأراذل على الأخيار .

---

(1) فواصله .

أبو العلاء المعري

(وُلد سنة 973، وتُوفِّي سنة 1057 م.)

أحمد بْن عبد الله بْن سليمان بْن محمَّد التَّنوخيّ المعَرِّيّ، الفيلسوف الشَّاعر الكاتب، وُلد ومات في معرَّة النُّعمان، قرية بين حلب وحمص، من بيت علم كبير، أبوه كان من أُدبائها، وجَدُّهُ تولَّى القضاء فيها. ولقد أُصيب بالجدريِّ صغيراً، فكفَّ بصره في السَّنة الرابعة من عمره.

وفي مستهلِّ أمره رحل في طلب العلم إلى حلب، وأنطاكية، وطرابلس، واللاَّذقيَّة، وغيرها من بلاد الشَّام، يومئذٍ. وأخذ في اللاَّذقيَّة عن بعض الرُّهبان (في دير كان لهم فيها) علوم الفلسفة، وبخاصَّة الفلسفة اليونانيَّة. ثمَّ قصد بغداد، ووقف فيها على فلسفة الهنود والفرس، وسائر العلوم المعروفة في عصره. وعاد من بغداد، بعد مدَّة قصيرة، إلى المعرَّة، حيث لزم بيته، وسمَّى نفسه «رَهين المحبِسَين»(*) «يريد عماه وبيته». فأقام أعزب، يصوم دهره، ولا

(*) قال الأُستاذ الميمنيّ في كتابه «أبو العلاء وما إليه». «رهين المحبسين، كما في عنوان [مُلقى السَّبيل]، وعند كثير ممَّن كتب أخباره، أو [رَهن المحبسين]، كما في مقدِّمة اللُّزوم».

يلبس ناعم الثِّياب ، ولا يأكل اللَّحم رفقاً منه بالحيوان ، وتمنُّعاً عن إيلامه .

أمَّا أمتع إجاداته في النَّثر (فرسالة الغفران) ، الَّتي مزج فيها الفلسفة والأدب بالشَّكِّ والسُّخريَّة ، على ما فيها من تكلُّف في السَّجع ، وإتيان بالغريب والمبهم . وقد أجاب بها على رسالة وجَّهها إليه عليّ بْن منصور الحلبيّ المعروف بابن القارح .

عوَّل أبو العلاء في « رسالة الغفران » على غريب الفرائد وغامض الجمل ، وعلى تكلُّف السَّجع ، للتَّغطية . فجاء بأسلوب تلمح فيه حلاوات السُّخريَّة والنقد ، وغمزات الشَّكّ لمحاً خفيّاً بارعاً . فكأنَّ المعاني تلوِّح من ورآء الألفاظ بالمعاريض ، ولا تصرِّح . ذلك في نهاية ما يكون الظَّرف ، وحلاوة الرُّوح ! قال الدكتور طه حسين في مقدّمة طبعة « لرسالة الغفران » : « رسالة الغفران هي آية الأدَب العربيِّ المنشور (إلى أن يقول .) هي آية الأدب العربيِّ ، كما أنَّ صاحبها آية كتَّاب العرب . تعني آية التَّفكير العربيِّ ، هي آية الخيال العربيِّ ، هي آية السّخريَّة العربيَّة ، هي آية الحريَّة العربيَّة ، هي آية العرب في هذا كلِّه ! » .

وقال الأُستاذ العقاد في كتابه « مطالعات في الكتب والحياة » . « إن رسالة الغفران نمط وحدها في آدابنا العربيَّة وأُسلوب شيِّق ، ونسق طريف في النَّقد والرِّواية » .

وقال الأُستاذ كامل كيلاني في كتابه « رسالة الغفران » يذكر [الرِّسالة] : « فنٌّ من الأدب العالي ، لا يقلُّ عن أجلِّ أثر أخرجه أكبر رأس غربيٍّ مفكِّر » .

ولقد كان يجمع الرَّأي اليوم في شرق وغـرب على أنَّ « دانـت » في « الملهاة الإلَهية » ، و« ملتون » في « الفردوس المفقود » تأثَّـراً « برسالـة الغفران » . قال جرجي زيدان في كتابه « تأريخ آداب اللُّغة العربيَّة » من كلام له على « رسالة الغفران » : « وهي فلسفيَّة خياليَّة كتبهـا في عزلته ، وضمَّنها انتقاد شعـراء الجـاهليَّة والإسـلام وأدبائهـم والـرُّواة والنُّحاة على أسلوب روائي خياليّ ، لم يسبقه إليه أحد . فتخيَّل رجلاً صعد إلى السَّماء ، ووصف ما شاهده هناك ، كما فعـل دانتـي شاعـر الإيطاليان في [الرِّواية الإلهية] ، وما فعله ملتن الإنكليزيّ في [ضياع الفردوس] . لكنَّ أبا العلاء سبقهما ببضعة قرون . لأنَّ دانتـي توفي نحو سنة 720 هـ . وملتن نحو سنة 1084 هـ . وتوفيِّ أبو العلاء سنة 449 هـ . فلا بدع إذا قلنا باقتباس هذا الفكر عنه » . وقـال الأمـير شكيب في كتابـه « الحلل السُّنـدسيَّة » ، في كلام له على تعارفـه مع المستشرق الإسباني المشهور القسِّيس آسين بلاسيوس : « وسألناه عن سبب ذهابه إلى أنَّ رواية دانتي ، الشَّاعر الإيطـاليّ الأكبر ، المسمَّـاة بالمهزلة الإلَهية ، هي فكرة مسروقة من رسالـة الغفـران ، لأبـي العـلاء المعريّ ، فأدلى إلينا بآرائه في الموضوع ، وبيَّـن لنا أنَّ التَّـشابه الواقع في عدَّة من النُّقط لا يمكن أن يكون من قبيل وقع الحافر على الحافر . وقال أيضاً : إنَّ رسالة الغفران كانت مترجمة إلى اللاَّتينيَّة ، ككثير من الكتب العربيَّة ، فيترجَّـح أن يكون دانتي قد اطَّلع عليها » . وقال الدكتور طه حسين في مقدّمته المذكورة لإحدى طبعات « رسالة الغفـران » ، يذكر مسألة دانت « شبَّهها قوم [يريد رسالـة الغفـران] بحـديث دانـت ، وربَّـما وُفِّقوا في هذا التَّشبيه . وزعم قوم أنَّ دانت تأثَّـر بها في حديثه ، ولعلَّـهم قاربوا الصَّواب في هذا الزَّعم » . وقال في مقدّمـة طبعة أُخرى

« للرِّسالة : « إنَّ من الأوروبيِّين الآن من يزعم أنَّ شاعر فلورنسا [يريد دانت] قد تأثَّر بشاعر المعرَّة قليلاً أو كثيراً » . وقال الأستاذ عبد العزيز الميمني الرَّاجكوتيّ في كتابه « أبو العلاء وما إليه » : « رسالة الملائكة للمعرِّيّ اخت رسالتي الغفران والطَّير في التَّمثيل ، الذي لم يسبقه فيه عديل له أو مثيل . فهو إذاً ابن بَجْدته ، وعُيَيْرُ وَحْدِه . وما مِلتون الإنكليزي صاحب الفردوس الغابر إلاَّ من الأتباع » . ثمَّ علَّق الأستاذ الميمنيّ على ما هنا حاشيةً جاء فيها « قوله : « ومثله [يريد مِلْتون] شاعر الطليان دانتي في كتابه جهنَّم . وقد أورد الأب آسن [يريد المستشرق الأب آسين بلاسيوس ، الَّذي سبق ذكره] أدلَّة تاريخيَّة على أنَّ دانتي قد أخذ عن المعرِّيّ في رسالة الغفران ـ مجلَّة المجمع العلميّ بدمشق » .

ولأبي العلاء في النَّثر تآليف كثيرة بين اللُّغة والأدب والفلسفة ، لم يسلمْ منها من الضَّياع إلاَّ « رسالة الغفران » ، و« عبث الوليد » ، شرح به ونقد ديوان البحتريّ ، و« رسالة الملائكة » و« مُلقى السَّبيل » ، والجزء الأوّل من « الفصول والغايات » و« مجموع رسائله » . وقد جاء في « لسان الميزان » لابن حجر : « تصانيف المعرِّيّ في اللُّغة والأدب أكثر من مئتي مجلَّد » .

من رسالة الغفران
في الجنة

فقد غُرسَ لمولايَ الشيخِ الجليلِ . إن شاء الله ، بذلك الثناء ، شجرٌ في الجَنَّة لذيذُ اجتناءٍ ، كلُّ شجرةٍ منه تأخذ ما بين المشرق إلى المغرب بظلٍّ غاطٍ[1] ، ليست في الأعينِ كذاتِ أنواط ، وذاتُ أنواطٍ ، كما يَعلَمُ ، شجرةٌ كانوا يعظمونها في الجاهليّة . وقد رُوي أن بعض الناس قال : « يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواطٍ كما لهم ذاتُ أنواطٍ » ، وقال بعضُ الشعراء :

لنا المُهيمِنُ يكفينا أعادينا، كما رَفضنا إليهِ ذاتَ أنواطِ

والوِلدانُ المخلَّدون في ظِلال تلك الشجر قيامٌ وقعود ، وبالمغفِرة نِيلت السّعودُ ؛ يقولون ، والله القادر على كلّ عزيز : نحنُ وهذه الشجرُ صِلةٌ من الله لعليّ بن منصور[2] ، نُخبأُ لهُ إلى نفخِ الصور .

وتجري في أصول ذلك الشجر ، أنهارٌ تَختَلجُ من ماء الحيوان[3] ، والكوثرُ يمدّها في كلّ أوانٍ ؛ مَن شربَ منها النُّغبةَ[4] فلا موتَ ، قد أمِن

---

(1) غاط : ظليل .

(2) علي بن منصور : هو ابن القارح ، الحلبي ، صاحب الرسالة التي رد عليها أبو العلاء .

(3) تختلج : تنتزع . ماء الحيوان : ماء الحياة .

(4) النغبة : الجرعة .

هنالك الفَوتَ . وسُعُدٌ[1] من اللبنِ متخرّقاتٌ[2] ، لا تُغيِّرُ بأن تطولَ الأوقاتُ . وجعافرُ[3] من الرحيق المختوم ، عَزّ المقتدر على كلّ محتوم . تلك هي الراحُ الدائمةُ ، لا الذميمةُ ولا الذائمةُ[4] ، بل هي كما قال عَلقمةُ[5] مفترياً ، ولم يكن لعفوٍ مقترياً[6] :

تشفي الصُّداعَ ولا يؤذيهِ صالبُها ، ولا يخالطُ منها الرأسَ تدويمُ[7]

ويعمِدُ إليها المغترفُ بكؤوسٍ من العَسجد[8] ، وأباريقَ خُلقت من الزبرجد[9] ، ينظر منها الناظرُ إلى بَديّ ، ما حَلَمَ به أبو الهنديّ ، رحمهُ الله ، فلقد آثَرَ شرابَ الفانيةِ ، ورَغبَ في الدّنيّةِ الدّانيةِ ، ولا ريبَ أنّه يروي ديوانَه ، وهو القائل :

سيُغني أبا الهنديّ عن وَطْبِ سالمٍ أباريقُ لم يَعْلَقْ بها وَضَرُ الزُّبْدِ[10]
مُفَدَّمَةٌ قَزّاً ، كأنّ رقابَها رقابُ بناتِ الماءِ أفزعَها الرعدُ[11]

---

(1) السعد ، الواحد سعيد : مجرى الماء الصغير .

(2) متخرقات : متسعات .

(3) الجعافر : أنهار صغيرة الواحد جعفر .

(4) الذائمة : العائبة .

(5) علقمة : هو علقمة بن عبدة ، من تميم ، الملقب بالفحل ، شاعر جاهلي (ـ598 ؟) .

(6) متقرياً : طالباً .

(7) صالبها : حمياها . التدويم : الدوار .

(8) العسجد : الذهب .

(9) الزبرجد : حجر كريم يشبه الزمرد ، أشهره الأخضر .

(10) الوطب : سقاء اللبن . وقوله أباريق : أراد أباريق خمر . الوضر : الوسخ .

(11) المفدمة : الموضوع عليها الفدام : المصفاة ، وأراد هنا أنها مكسوة قزاً أي حريراً . بنات الماء : الطيور التي تحوم فوق الماء .

هكذا يُنشَدُ على الإقواء ، وبعضهم يُنشِدُ :

رقابُ بناتِ الماء ريعت من الرعدِ

والروايةُ الأولى إنشادُ النحويّين . وأبو الهنديّ إسلاميّ ، واسمهُ عبدُ المؤمن بنِ عبد القدّوس ، وهذان اسمان شرعيان ، وما استُشهِد بهذا البيت إلاّ وقائلُه عند المستشهِد فصيحٌ . فإن كان أبو الهنديّ ممن كتب وعرف حروفَ المعجم فقد أساء في الإقواء ، وإن كان بنى الأبيات على السكون ، فقد صحّ قولُ سعيد بن مَسْعَدَةَ[1] ، في أن الطويل من الشعر له أربعة أضرب[2] .

ولو رأى تلك الأباريقَ أبو زُبَيْدٍ[3] لَعَلمَ أنّه كالعبدِ الماهنِ[4] أو العُبَيد ، وأنّه ما تشبّب بخير ، ورضي بقليلِ المَير[5] ، وهزىء بقوله :

وأباريقُ مثلُ أعناقِ طَيرِ الـ ـماءِ قد جِيبَ فوقهنّ خَنيفُ[6]

هيهات ! هذه أباريقُ ، تحملها أباريق ، كأنّها في الحسن الأباريق . فالأولى هي الأباريقُ المعروفة ، والثانية من قولهم : جارية إبريق ، إذا كانت تبرق من حسنِها ، قال الشاعر :

---

(1) سعيد بن مسعدة : هو أحد أئمة النحويين ، الملقب بالأخفش الأوسط ، مات في صدر القرن الثالث .

(2) يظهر من كلام أبي العلاء أن سعيد بن مسعدة ، الأخفش الأوسط ، كان يجعل ضروب البحر الطويل أربعة فيزيد على ثلاثة أضربه ضرباً مذيلاً وهو فعولان .

(3) أبو زبيد : هو أبو زبيد الطائي ، المنذر بن حرملة ، من شعراء الجاهلية .

(4) الماهن : الخادم .

(5) المير : الطعام .

(6) جيب مجهول جاب الثوب : قطعه أو عمل له جيباً . الخنيف : ثوب غليظ أبيض من الكتان .

وغيداءَ إبـــريقٍ كأنَّ رُضابَهَا جنى النحل ممزوجاً بصهباء تاجرِ[1]

والثالثة ، من قولهم : سيفٌ إبريقٌ ، مأخوذٌ من البريق . قال ابن أحمر[2] :

تقلّـدتَ إبريقـاً ، وعلّقـتَ جَعبةً لتُهلكَ حيّاً ذا زهـاءٍ وجاملِ[3]

ولو نظر إليها علقمةُ لَبرِقَ وفَرِقَ[4] ، وظَنَّ أنّـه قد طُرِقَ[5] ، وأين يراها المسكين علقمةُ ، ولعلّه في نار لا تَغـير ، ماؤ هـا للشـاربِ وغِير[6] ؟ ما ابن عَبَدَة وما فريقُـه ؟ ! خَسرَ وكُسرَ إبريقُـه ! أليس هو القائل ؟ :

كأنَّ إبريقَهـم ظبـيٌ برابيَةٍ مجلَّلٌ ، بسَبَـا الكتّـانِ مَفدومُ[7]
أبيَض أبــرَزَهُ للضِّـحَ راقِبُهُ مُقلَّدٌ قُضُـبَ الرَّيحـانِ ، مفغومُ[8]

نظرةٌ إلى تلك الأباريق ، خيرٌ من بنتِ الكرمةِ العاجليةِ ، ومن كلّ ريقٍ ، ضَمِنَتْهُ هذه الديارُ الخادعةُ ، التي هي لكلّ شَمَمٍ جادعةٌ .

ولو بَصُرَ بها عَدِيٌّ بن زيد[9] ، لشُغِلَ عن المُدامِ والصيد ، واعترَفَ

---

(1) الغيداء : المائلة العنق اللينة الأعطاف . الرضاب : الريق . الصهباء : الخمرة .

(2) ابن أحمر : من بني فراص من باهلة ، شاعر جاهلي .

(3) الزهاء : الكثرة . الجامل : القطيع من الجمال .

(4) برق : دهش . فرق : خاف .

(5) طرق الرجل : ضعف عقله .

(6) لا تغير : لا تسقي . الوغير : المشتد حره .

(7) سبا الكتان : خصله . وهي في الأصل سبائب واحدها سبيب ، رخمها مراعاة للوزن .

(8) الضح : الشمس . مفغوم : طيب الرائحة ، من فغمه الطيب ملأ خياشيمه .

(9) عدي بن زيد من تميم : شاعر جاهلي مشهور .

بأنّ أباريقَ مُدامِه ، وما أدركَ من شرَب[1] الحيرة ونِدامِه ، امرٌ هيّنٌ ، لا يُعْدَلُ بنابتٍ من حَمصيص[2] ، أو ما حقَّرَ من خَرْبصيص[3] .

وكنتُ بمدينة السّلامْ[4]، فشاهدتُ بعضَ الورّاقين يسأل عن قافيةِ عَدِيّ ابن زيد التي أوّلُها :

بَكَرَ العــاذِلاتُ في غَلَسِ الصبــ ـــحِ يُعاتِبنَــهُ أمــا تَستَفِيقُ؟
ودعــا بالصبُّوحِ فجـراً، فجاءتْ قَينَــةٌ في يَمينِهــا إبريقُ[5]

وزعم الـورّاق أن ابـن حاجـبِ النعمان[6] سأل عن هذه القصيدة وطُلبت في نُسَخٍ من ديوان عديّ ، فلم توجد . ثمّ سمعت بعد ذلك رجلاً من أهل أستَراباذ[7] ، يقرأ هذه القافية في ديوان العِباديّ[8] ، ولم تكن في النسخة التي في دار العلم .

فأمّـا الأُقَيشرِ الأسـديّ[9] فإنّـه مُنـي بقـاشر[10] ، وشَقـي إلى يومِ

---

(1) الشرب : القوم يجتمعون على شراب .

(2) الحمصيص : بقلة حامضة تنبت في الرمل .

(3) الخربصيص : هنة في الرمل لها بصيص كأنها عين الجراد ، نبات له حب يتخذ منه طعام ، والمراد هنا التحقير .

(4) مدينة السلام : بغداد .

(5) الصبوح : شرب الصباح . القينة : المغنية .

(6) ابن حاجب النعمان : هو عبد العزيز بن إبراهيم المكنى بأبي الحسين .

(7) استراباذ : مدينة من أعمال طبرستان .

(8) العبادي : هو عدي بن زيد نسبة إلى العباد ، قوم نزلوا الحيرة (ـ587 ؟) .

(9) الأقيشر الأسدي : هو المغيرة بن الأسود ، شاعر أموي ، وماجن من مجان الكوفة .

(10) القاشر من الخيل : الذي يجري في آخر الحلبة .

حاشر[1] ، قال ولعلّه سيندم ، إذا تفرّى الأدَم[2] :

أفنى تِلادي، وما جَمّعتُ من نَشَب   قرعُ القَـوازيزِ أفـواهَ الأباريقِ[3]

ما هو ومـا شرابُـه ؟ تَقضّـتْ في الخائنـة آرابُـه[4] . لو عاينَ تلك الأباريقَ لأيقنَ أنّـهُ فُتِنَ بالغرور ، وسُرّ بغيرِ مُوجبٍ للسرّور . وكذلك إياسُ بنُ الأرَتّ[5] ، إن كان عجـبَ لأبـاريقَ كإوَزّ الـطَّفّ[6] ، فإنّ الحوادثَ بسطتْ لهُ أقبَضَ كفّ . فكأنّه ما قال :

كأنّ أبـاريقَ المُدامــةِ بَينَهمْ   إوَزٌّ بأعلى الـطَّفّ ، عُوجُ الحناجرِ

ورَحِمَ اللهُ العجّاجَ ، فإنّهُ خلَطَ في رَجَزِه العُلَبِطَ والسَّجَاجَ[7] ، أين إبريقه الذي ذكر فقال ؟ :

قَطّفَ من أعنابِهـا ما قَطَفَا   فغَمّهـا حولَـينِ، ثمّ استَوْدَفا[8]

صَهباء، خُرْطوماً،عُقاراً، قَرْقفا،   فَسَنّ في الإبـريقِ منهـا نُزَفا[9]

---

(1) يوم حاشر : يوم الحشر ، القيامة .

(2) تفرى : تشقق . الأدم : الجلد .

(3) القوازيز ، الواحدة قازوزة : قدح الشراب .

(4) أراد بالخائنة : الدنيا . آرابه ، الواحد ارب : الغاية ، الحاجة .

(5) إياس بن الأرت : شاعر من بني طي .

(6) الطف : موضع قرب الكوفة ، والشاطىء .

(7) العجاج : راجز مشهور . العلبط : اللبن الخاثر . السجاج : اللبن المرقق بالماء .

(8) غمها : غطاها . استودف : انتظر .

(9) الصهباء : الخمر التي لونها أحمر أو أشقر . الخرطوم : الخمر السريعة الإسكار. القرقف : الخمر التي تقرقف شاربها أي ترعده . النزف : الماء القليل .

من رَصَفٍ نازَعَ سَيْلاً رَصَفا[1]

ويمرّ رفّ من إوزّ الجنة ، فلا يلبدّ أن ينزل على تلك الرّوضة ويقف وقوف منتظر لأمر ، ومن شأن طير الجنّة أن يتكلّم ، فيقول :

ما شأنكنَّ ؟ فيقلن : أُلهمنا أن نسقط في هذه الروضة فنغنّي لمن فيها من شَرْبٍ . فيقول : على بركة الله القدير . فينتفضنَ ، فيصرنَ جواري كواعب يرفلنَ في وشي الجنّة ، وبأيديهنَّ المَزاهر[2] وأنواع ما يُلتمس به الملاهي . فيعجب ، وحُقَّ له العَجَب ،وليس ذلك ببديع من قدرة الله جَلَّت عظمته ، وعَزَّت كلمته ، وسَبَغَت على العالم نعمته ، ووسعت كلَّ شيء رحمته ، ووقعت بالكافر نقمته .

(الى أن يقول :) فلما صرتُ إلى باب الجنّة ، قال لي رضوان : هل معك من جَوازٍ ؟ فقلتُ : لا . فقال لا سبيل لك لى الدخول إلاّ به . فَبَعِلتُ[3] بالأمر ، وعلى باب الجنّة من داخل شجرة صفصاف ، فقلت : أعطني ورقة من هذه الصفصافة حتى ارجع الى الموقف فآخذَ عليها جَوازاً ، فقال : لا أُخرجُ شيئاً من الجنّة إلا بإذن من العليّ الأعلى ، تقدّس وتبارك . فلمّا دَجرْت[4] بالنازلة ، قلت : إنا لله وإنا إليه راجعون : لو أن للأمير أبي المُرَجّى خازناً مثلك ، لما وصلت أنا ولا

---

(1) الرصف ، الواحدة رصفة : الحجارة المرصوف بعضها ببعض في مسيل الماء . والسيل الرصف : هو الماء المنحدر من الجبال على الصخر فيصفو . نازع : جاذب .

(2) المزاهر : واحدها المزهر بكسر الميم وسكون الزاي : العود الذي يضرب به أو الدفّ المربع .

(3) بعل بامره : دهش وفرق وبرم وثبت مكانه ثبوت النخل فلم يدر ما يصنع .

(4) أي حِرت .

من رَصَفٍ نازَعَ سَيْلاً رَصَفا[1]

ويمرّ رفٌ من إوزّ الجنة ، فلا يلبدّ أن ينزل على تلك الرّوضة ويقف وقوف منتظر لأمر ، ومن شأن طير الجنّة أن يتكلّم ، فيقول :

ما شأنكنّ ؟ فيقلن : أُلهمنا أن نسقط في هذه الروضة فنغنّي لمن فيها من شَرْبٍ . فيقول : على بركة الله القدير . فينتفضنَ ، فيصرنَ جواري كواعب يرفلنَ في وشي الجنّة ، وبأيديهِنَّ المَزاهر[2] وأنواع ما يُلتمس به الملاهي . فيعجب ، وحُقَّ له العَجَب ،وليس ذلك ببديع من قدرة الله جَلّت عظمته ، وعَزّت كلمته ، وسَبغَت على العالم نعمته ، ووسعت كلَّ شيء رحمته ، ووقعت بالكافر نقمته .

(الى أن يقول :) فلما صرتُ إلى باب الجنّة ، قال لي رضوان : هل معك من جَوازٍ ؟ فقلتُ : لا . فقال لا سبيل لك لى الدخول إلاّ به . فَبعِلتُ[3] بالأمر ، وعلى باب الجنّة من داخل شجرة صفصاف ، فقلت : أعطني ورقة من هذه الصفصافة حتى ارجع الى الموقف فآخذَ عليها جَوازاً ، فقال : لا أُخرجُ شيئاً من الجنّة إلا بإذن من العليّ الأعلى ، تقدّس وتبارك . فلماّ دَجِرْت[4] بالنازلة ، قلت : إنا لله وإنا إليه راجعون : لو أن للأمير أبي المُرَجّى خازناً مثلك ، لما وصلت أنا ولا

(1) الرصف ، الواحدة رصفة : الحجارة المرصوف بعضها ببعض في مسيل الماء . والسيل الرصف : هو الماء المنحدر من الجبال على الصخر فيصفو . نازع : جاذب .

(2) المزاهر : واحدها المزهر بكسر الميم وسكون الزاي : العود الذي يضرب به أو الدفّ المربع .

(3) بعل بامره : دهش وفرق وبرم وثبت مكانه ثبوت النخل فلم يدر ما يصنع .

(4) أي حِرت .

غيري إلى قُرْقُوفٍ من خزانته . [والقُرقوف : الدِّرهم] .

(الى أن يقول :) ويبدو له ، أيّد الله مجده بالتأييد ، أن يصنع مأدبة في الجنان ، يجمع فيها مَن أمكن من شعراء الخَضْرَمة والاسلام ، والذين اصّلوا كلام العرب ، وجعلوه محفوظاً في الكتب ، وغيرَهم ممّن يتأنس بقليل الأدب . فيخطر له أن تكون كمآدب الدار العاجلة ، إذ كان الباريءُ، جَلّت عظمته ، لا يُعجزه أن يأتيهم بجميع الأغراض ، من غير كُلفةٍ ولا إبطاء ، فتُنشأ أرْحاءً على الكوثر ، تُجعجعُ لطحنِ بُرٍّ من بُرّ الجنّة .

(الى أن يقول :) فيُنشى أُلله ، تعالت آلاؤه ، سحابة كأحسن ما يكون من السُّحب ، من نظر اليها شهد أنه لم يرَ قطُّ شيئاً أحسن منها ، محلاّة بالبرق في وسطها وأطرافها ، تَمطُر بماءِ وَرْدِ الجنَّة من طَلٍّ وطَشٍّ[1] وتنثر حصى الكافور كأنه صغار البَرَد .

(1) الطش : من المطر : فوق الرذاذ .

ابن خلدون

(وُلد سنة 1332، وتوفِّي سنة 1406 م.)

عبد الرَّحمن بْن محمد، المشهور بابن خلدون، المؤرِّخ، الفيلسوف، الكاتب، أَصله من إِشبيلية، واجداده يُنسبون إلى بعض أقيال العرب في اليمن. وقد وُلد في تونس، في بيت سراوة وعلم، ونشأ فيها. رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، ووفد على مصر، أيَّام الظَّاهر برقوق[1]، وقام بالتَّدريس في الجامع الأزهر، ثم ولاَّه برقوق القضاء المالكيّ. ولقي ابن خلدون في مصر، وفي البلاد الأخرى الَّتي وفد عليها دسائس ووشايات كثيرة، كما لقي أحزاناً وهموماً كثيرة. منها: محنة غرق أسرته وهي مسافرة إليه من تونس إلى مصر. وقد وقع ذلك في ميناء الإِسكندريَّة.

وفي آخر أمره استعفى من القضاء، واعتزل في ضيعة كانت له في بعض أرياف مصر. وقد توفي في القاهرة فجأةً، ودُفن فيها.

إنَّ ابن خلدون في سوق الحوادث، وتعليل النَّوازل، وتقرير طبائع العمران، بين الرَّونق و لأسلوب المرسَل الَّذي لا تعمُّل من بديع وتسجيع في أكثره، بل طلاقة مبنىً إلى طلاقة معنىً، وليس غير،

(1) وُلد سنة 1338 وتوفِّي سنة 1398 م. وهو أوَّل من ملك مصر من الشَّراكسة. قال الزُّركليّ في «الأعلام»: «وقيل اشتهر ببرقوق لجحوظ عينيه».

لا يقلُّ جلالة وعلوّ طبقة عن اساطين الكلام في العربيَّة . وهو في سهولة جمله وطلاوة فرائده يُطمع كلامه بالإتيان بمثله ، إلاَّ أنَّه لا يكاد يُطمع حتى يمتنع ! وهكذا تجد أنَّ ابن خلدون المؤ رِّخ العظيم ، والفيلسوف العظيم ، هو الكاتب العظيم في وقتٍ معاً .

جاء للمقَريّ في « نفح الطِّيب » ، ينقل من ترجمة لسان الدِّين بْن الخطيب في « الإحاطة » لابن خلدون : « وأمَّا نثره وسلطانياته السَّجعيَّة فخُلُج[1] بلاغة ، ورياض فنون ، ومعادن إبداع ، يفرغ عنها يراعه الجريء شبيهة البداآت بالخواتم في نداوة الحروف ، وقرب العهد بجرية المداد ونفوذ أمر القريحة واسترسال الطَّبع » .

وجاء للسَّخاويّ في « الضَّوء اللاَّمع » يقل ما ذكره المقريزيُّ في « العقود » من كلام له على « المقدمة » : « تنبيء عن أصل كلِّ موجود بلفظ أبهى من الدُّرِّ النَّظيم ، وألطف من الماء مرَّ به النَّسيم [إلى أن يقول :] جلت عن محجَّتها ألسنة الفصحاء ، فلا تروم ولا تحوم ! » .

وقال الأمير شكيب في مقدّمة تعليقاته على « تاريخ ابن خلدون » : « ولم يكن إعجابي بما في كلام ابن خلدون من مبادىء سامية ، وأقوال سديدة ، وأنظار(*) فريدة ، يعزُّ وجودها في كتب غيره من أساطين الحكمة ؛ بأقلّ من إعجابي ببلاغة عبارته ، ورصانة أسلوبه ، وجلالة تقريره ، حتَّى كأنه يخطب من فوق منبر [إلى أن يقول] فلو قرأ المتأدِّب مقدّمة ابن خلدون متوخِّياً فيها مجرَّد الانطباع على أسلوبها في الإنشاء

---

(1) الخُلُج . جمع خليج ، وهو قسم من البحر يمتدُّ في البرِّ .

(*) استعمل الأمير شكيب هذه الكلمة أخذاً عن ابن خلدون . فابن خلدون يستعمل الأنظار بمعنى الآراء . والأقوال ، وما تقول له في زماننا النظريَّات .

لعربيٍّ [إلى أن يقول] لكانت مقدّمة ابن خلدون تكفيه عمدة في فنّ الأدب ، وتغنيه عن غيرها من نفائس ما كتب العرب ! » .

وقال الأستاذ أحمد حسن الزَّيَّات في كتابه « تاريخ الأدب العربيِّ » في كلامه على نثر ابن خلدون : « فهداه طبعه إلى الرّجوع بالإنشاء إلى عهده ، والوقوف به عند حدِّه . فرغب عن السَّجع ، وزهد في البديع ، وسار باللّفظ وراء المعنى . وقد صرّح بذلك في كلامه عن كتابته لأبي سالم أحد ملوك الأندلس إذ يقول : [وكان أكثرها يصدر عنِّي بالكلام المرسَل بدون أن يشاركني أحد ممَّن ينتحل الكتابة في الأسجاع ، لضعف انتحالها ، وخفاء المعنى فيها على أكثر النَّاس ، بخلاف المرسَل . فانفردت به يومئذٍ . وكان مستغرَباً عند من هم من أهل هذه الصِّناعة] [إلى أن يذكر الزَّيَّات « المقدَّمة » ، فيقول :] فهي خزانة علم وأدب ، فضلاً عن أسلوبها الرَّشيق المتَّسق » .

ولابن خلدون من الكتب الَّتي مُثِّلت بالطَّبع تأريخه الكبير « العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر » ، أوَّله « المقدّمة » المشهورة ، و« التَّعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً » .

علم البيان(*)

هذا العلم حادث في المِلّة بعد علم العربيّة واللغة وهو من العلوم اللسانيّة لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده ويقصد بها الدلالة عليه من المعاني وذلك أن الأمور التي يقصد بها المتكلّم افادة السامع من كلامه هي اما تصوّر مفردات تسند ويسند اليها ويفضى ببعضها الى بعض والدلالة على هذه هي المفردات من الأسماء والأفعال والحروف . وأما تمييز المسندات من المسند اليها والأزمنة ويدلّ عليها بتغيير الحركات وهو الاعراب وأبنية الكلمات وهذه كلّها هي صناعة النحو . ويبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين والفاعلين وما يقتضيه حال الفعل وهو محتاج الى الدلالة عليه لأنه من تمام الافادة ، واذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الافادة في كلامه ،واذا لم يشتمل منها على شيء فليس من جنس كلام العرب فان كلامهم واسع ولكلّ مقام عندهم مقال يختصّ به بعد كما الاعراب والإبانة . ألا ترى أن قولهم زيد جاءني مغاير لقولهم جاءني زيد ، من قبل أن المتقدّم منهما هو الأهم عند المتكلّم . فمن قال جاءني زيد أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند وكذا التعبير عن اجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول أو مبهم أو معرفة وكذا تأكيد الاسناد في الجملة كقولهم : زيد قائم ، وان زيداً قائم ، وان زيداً لقائم ، متغايرة كلّها في الدلالة وان استوت من طريق الاعراب . فان الأول العاري من التأكيد انّما يُفيد الخالي

(*) من مقدمة ابن خلدون ج 3 . [المحقِّق] .

الذهن . والثاني المؤكَّد بإنَّ يُفيد المتردّد . والثالث يُفيد المنكر . فهي مختلفة وكذلك تقول جاءني الرجل ثم تقول مكانه بعينه جاءني رجل اذا قصدت بذلك التنكير تعظيمه وانه رجل لا يعادله احد من الرجال . ثم الجملة الاسناديّة تكون خبريّة وهي التي لها خارج تطابقه أولاً . وإنشائيّة وهي التي لا خارج لها كالطلب وأنواعه . وقد يتعينّ ترك العاطف بين الجملتين اذا كان للثانية محلّ من الإعراب فيتنزل بذلك منزلة التابع المفرد نعتاً أو توكيداً أو بدلاً فلا عطف أو يتعينّ العطف اذا لم يكن للثانية محلّ من الإعراب . وقد يقتضي المحلّ الإطناب أو الإيجاز فيورد الكلام عليهما . وقد تدلّ باللفظ ولا تريد منطوقه وتريد لازمه ان كان مفرداً كما تقول زيد أسدٌ فلا تريد حقيقة الأسد المنطوقة وانمّا تريد شجاعته اللازمة وتسندها إلى زيد وتسمّى هذه استعارة . وقد تريد باللفظ المركّب الدلالة على ملزومه كما تقول زيد كثير رماد القدور وتريد به ما لزم ذلك عنه من الجود وقِرى الضيوف لأن كثرة الرماد ناشئة عنهما فهي دالّة عليهما فهذه كلّها دلالات زائدة على دلالات الألفاظ المفردة والمركبة وانما هي هيئات وأحوال للواقعات جعلت للدلالة عليها في الألفاظ كل بحسب ما يقتضيه مقامه ، فاشتمل هذا العلم المسمّى بالبيان على البحث عن هذه الدلالة التي للهيئات والأحوال في المقامات وجعل على ثلاثة أصناف : الصنف الأول يبحث فيه عن هذه الهيئات والأحوال حتى يطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ويسمى علم البلاغة . والصنف الثاني يبحث فيه عن الدلالة على لازم اللفظ أو ملزومه وهي الاستعارة والكناية كما قلناه ويسمى علم البيان والحقوا بهما صنفاً آخر وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق إما بسجع يفصله ، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه ، أو ترصيع يقطع أوزانه ، أو تورية عن

المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما ، أو طباق بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك ويسمّى عندهم البديع وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان وهو اسم الصنف الثاني لأن الأقدمين أوّل ما تكلّموا فيه ثم تلاحقت مسائل الفنّ واحدة بعد اخرى . وكتب فيها جعفر بن يحيى ، والجاحظ ، وقُدّامة وأمثالهم املاءات غير وافية بها ثم لم تزل مسائل الفنّ تكمل شيئاً فشيئاً إلى أن مخض السكاكيّ زبدته وهذّب مسائله ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه آنفاً من الترتيب وألّف كتابه المسمّى بالمفتاح في النحو والتصريف والبيان فجعل هذا الفنّ من بعض أجزائه وأخذه المتأخرون من كتابه ولخّصوا منه أمّهات هي المتداولة لهذا العهد كما فعله السكاكيّ في كتاب البيان ، وابن مالك في كتاب المصباح وجلال الدين القزوينيّ في كتاب الإيضاح ، والعناية لهذا العهد به عند أهل المشرق في الشرح والتعليم منه أكثر من غيره . وبالجملة فالمشارقة على هذا الفنّ أقوم من المغاربة وسببه والله أعلم أنه كماليّ في العلوم اللسانيّة والصنائع الكماليّة توجد في وفور العمران . والمشرق أوفر عمراناً من المغرب .

علم الأدب

هذا العلم لا موضوع له . ينظر في اثبات عوارضه أو نفيها وانّما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الإجادة في فنّي المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من حفظ كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالي الطبقة وسجع متساوٍ في الاجادة ، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرّقة يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربيّة مع ذكر بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها . وكذلك ذكر المهمّ من الانساب الشهيرة والأخبار

العامّة . والمقصود بذلك كلّه أن لا يخفى على الناظر فيه شيء من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم اذا تصفّحه لأنه لا تحصل الملكة من حفظه الاّ بعد فهمه فيحتاج الى تقديم جميع ما يتوقّف عليه فهمه ثم أنّهم اذا ارادوا حدّ هذا الفنّ قالوا الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كلّ علم بطرف يريدون من علوم اللسان والعلوم الشرعيّة من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب الا ما ذهب اليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسيلهم بالاصطلاحات العلميّة فاحتاج صاحب هذا الفنّ حينئذ الى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهمها . وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفنّ واركانه اربعة دواوين وهي « أدب الكاتب » لابن قتيبة ، وكتاب « الكامل » للمبرّد ، وكتاب « البيان والتبيين » للجاحظ ، وكتاب « النوادر » لأبي عليّ القالي البغداديّ . وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها . وكتب المحدثين في ذلك كثيرة . وقد كان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفنّ لما هو تابع للشعر ، اذ الغناء إنّما هو تلحينه وقد كان الكتّاب والفضلاء من الخواصّ في الدولة العباسيّة يأخذون أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه فلم يكن انتحاله قادحاً في العدالة والمروءة . وقد ألّف القاضي أبو الفرج الاصفهانيّ ، وهو ما هو ، كتابه في الأغاني جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنّون للرشيد فاستوعب فيه ذلك أتمّ استيعاب واوفاه ، ولعمري إنه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كلّ فنّ من فنون الشعر والتأريخ والغناء وسائر الأحوال ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه ،

وهو الغاية التي يسموا اليها الأديب ويقف عندها وانى له بها ونحن الآن نرجع بالتحقيق على الاجمال فيما تكلّمنا عليه من علوم اللسان والله الهادي للصواب .

البَابُ الرَّابِعُ

عصر النهضة والحديث

الشيخ إبراهيم اليازجي

(وُلد سنة 1847، وتُوفِّي سنة 1906 م.)

هو ابراهيم بْن ناصيف بْن عبد الله بْن ناصيف بْن جنبلاط اليازجي(*) ، وُلد في بيروت ، وتوفِّي في المطريَّة (في مصر) ، في الستِّين من عمره ، عزيباً . ثمَّ نُقل رفاته إلى بيروت ، وأُقيم له فيها سنة 1924 تمثال نصفيّ . خرَّجه أبوه ، الشَّيخ ناصيف ، بأُصول العربيَّة وقواعدها ، ودرس على نفسه بقيَّة العلوم . وعلى نفسه درس الفرنسويَّة والعبريَّة والسِّريانية . كان أوَّل اشتغاله بالصحافة تحرير جريدة « النَّجاح » في بيروت ، سنة 1872 ، ثمَّ حرَّر في جريدتي « الجنان » و « التقدُّم » ، وتولى تدريس العربيَّة في المدرسة البطريركيَّة ، في بيروت ، واشتغل بإصلاح ترجمة التَّوراة العربيَّة للمرسلين اليسوعيِّين ، وإصلاح كتبٍ أخرى لهم ، تسع سنين . قال جرجي زيدان في كتابه « مشاهير الشَّرق » ، في ترجمة اليازجي : « أمَّا العهد الجديد ، فقد أخبرنا رحمه الله ، أنَّهم لم يطلقوا يده في

(*) جاء في « تاريخ المشايخ اليازجيِّين وأصهارهم » لعيسى اسكندر المعلوف ما يأتي ، وهو من رسالة بعث بها إليه الشيخ ابراهيم : « وأمَّا لقب اليازجي فهو من ألقاب حكومة الأتراك . فالظاهر انَّ أحد السَّلف كان كاتباً عند بعض الولاة ، فلزمه هذا اللَّقب ، ثمَّ انتقل إلى خلفه » .

تنقيحه ، كما يشاء » . وبعد أن ترك العمل عند المرسلين اليسوعيِّين ، نشر على عهدته مجلَّة « الطَّبيب » سنة 1884 ، مع صديقيه الدكتور بشارة زلزل والدكتور خليل سعادة ، سنةً ، وعمل على اختصار كتب والده في النَّحو والصَّرف والمعاني والبيان ، وزاد فيها تحقيقات وفوائد كثيرة . وفي سنة 1793 سافر إلى أوروبة ، وزار طائفة من مكتباتها الكبيرة ، وقصد بعد ذلك مصر ، فأنشأ في القاهرة مع الدكتور بشارة زلزل « مطبعة البيان » ، وأصدر فيها مجلَّة « البيان » شهريّة سنة 1897 وعاشت سنة ، ليس غير . وفي سنة 1898 استقلَّ بانشاء مجلَّة « الضِّياء » شهريّةً ، وقد عاشت ثمانية أعوام إلى ان توقفت عن الصُّدور لتفاقم العلَّة الَّتي أودت بحياته . ومن مميِّزاته نبوغه في علم الفلك ، وبراعته في الخطّ والموسيقى والرَّسم ، ونحت آباء الحروف المطبعيَّة ، وإدخاله في الطِّباعة العربيَّة صوراً للحركات الفرنجيَّة التي لا مقابل لها في لغة العرب .

وقد عني بوضع ألفاظ جديدة لطائفة من المسمَّيات الحديثة في العلوم ، وفي الطَّعام والشَّراب واللِّباس والأثاث والماعون ، وما في نحو ذلك ، دار أكثرها في الاستعمال ، لما له من الحلاوة وحسن الوقوع على المسمَّيات . من ذلك : المجلَّة والأربة والبيئَة والجناح والحاكي والحساء والحسر والحوذي والدَّرَّاجة والشبنزي والشّعار والطلاء واللوَّلب والمأساة والمقصف والمقصلة . وقال جرجي زيدان في كتابه المذكور : « وخطر له ـ يريد اليازجي ـ يوماً أن يصطنع روزنامة عربيَّة ، تُعلَّق على الحائط من قبيل الرُّوزنامات الشَّائعة ، ولم

تكن معروفة يومئذٍ بالعربيَّة » إلى أن يقول : فتأنَّق الشَّيخ في رسم حروف الرُّوزنامة وأرقامها حتَّى أتمَّها على أجمل ما يكون . وهي أوَّل روزنامة عربيَّة من هذا النَّوع » .

اليازجيّ واحد الكتَّاب في وقته ، في المتانة وفصاحة الأُسلوب وسلامة التَّركيب ، كما هو في وقته واحد اللُّغويِّين في معرفة أسرار العربيَّة والوقوف على دقائقها . فكأنه آية اثنين في آن معاً : الاتقان في الكتابة ، والتَّقصِّي في اللُّغة وهو في التَّعمُّل يأْتي بالسَّجع حلواً سائغاً ، وفي الاسترسال يأتي بالسَّهل ممتنعاً حقّاً . قال جرجي زيدان أيضاً في كتابه المذكور ، يصف أُسلوب الشيخ ابراهيم : « ومن قرائحه اقتداره الغريب على الانشاء المرسل مع سلامة ذوقه في انتقاء الأَلفاظ . وأُسلوب عبارته جمع بين المتانة والبلاغة والسُّهولة ، يشبه أُسلوب ابن المقفَّع شبهاً إِجماليّاً ، ولكنه من أكثر وجوهه خاصٌّ بالشَّيخ . على انَّ انشآء ابن المقفَّع لم يصل إِلينا كما كتبه صاحبه ، ولكنَّه جاءَنا بعد أن هذَّبته أَقلام المنشئين ، ونقَّحته قرائح اللُّغويِّين زهاء اثني عشر قرناً . أمَّا الشَّيخ فلم يمسّ عبارته سواه . ناهيك بما يعترض الكاتب اليوم من المعاني الجديدة التي لم يعرفها القدماء ، وليس في المعجمات لفظ يدلُّ عليها ، ممَّا يقف عثرةً في طريق المنشئين . أمَّا اليازجي فكان يتخطَّى هذه العقبات على أَهون سبيل . فجاءَت عبارته خالية من غريب اللَّفظ ووحشيِّ التَّركيب . وقد يأْتي باللَّفظ الغريب فيضعه موضعاً يجعله مألوفاً ، فلا يمجُّه السَّمع ، ولا ينكره الفهم . فكان أُسلوبه بليغاً بلا تقعُّر ، أو تعقيد ، سهلاً بلا ضعف ، أو ركاكة متسلسلاً متناسباً متناسقاً » إلى أَن يقول : « حتَّى أَصبح استعماله حجَّةً ،

وإنشاؤه قاعدة ، فلا عجب إذا دعوناه حجّة اللُّغة ، وإمام الانشاء » .

وقال الأمير شكيب في كتابه « شوقي أو صداقة أربعين سنة » :
« وقد كان اليازجي في عصرنا من أبصر جهابذة اللُّغة ، وأفرس فرسان الانشاء . ولم يكن يؤتى من جهة كهذه ، وكان من أمتن من عرفنا تركيباً ، وأجودهم سبكاً (إلى أن يقول :) ولا يُنكر أنَّ اليازجي كان من علماء اللُّغة المعدودين ، ومن كبار الكتَّاب ، وأمتنهم تركيباً ، وأحسنهم نسق عبارة ، كما قلنا » .

وقال عيسى اسكندر المعلوف في ترجمة اليازجي ، في كتابه المذكور في الهامش ، : « كان الفقيد جيِّد القريحة بالانشاء المرسل ، مع سلامة ذوقه في انتقاء الألفاظ ،حتَّى كان أسلوب عبارته ، الذي جمع بين المتانة والبلاغة والسُّهولة ، أشبه بأسلوب عبد الله ابن المقفَّع في كتاب كليلة ودمنة » إلى أن يقول : « وإذا سجَّع ، فلا تجد في كلامه تكلُّفاً ، بل سلاسة قلَّ من يجاريه فيها » إلى أن يقول : « وهكذا كان في كتاباته أمير النَّثر وسيِّد الفصاحة والبلاغة » .

وفي كتاب « خليل مطران » ، للدكتور محمد صبري ، كلام لمطران على اليازجي ، جاء فيه : « كان للشَّيخ مذهب عامٌّ في شعره ونثره ، وسائر ما يتولاَّه من الأعمال ، وهو مذهب الاتقان . لا يخلق جديداً ، ولكنَّه يتقن ما يصنعه ، إلى حدٍّ انَّك تعزوه إليه ، وتعرفه بطابعه . ولهذا لم ينظم مرتجلاً ، ولم يكتب إلاَّ محتفلاً » .

وقال مصطفى لطفي المنفلوطي في كتابه « المختارات » :
« الشيخ ابراهيم اليازجي هو أكبر عالم لغويّ نبغ في العصر الحاضر ،

واتفق له ما لا يتيسرّ إلاّ لقليل من اللُّغويِّين من قوَّة البيان وبراعة الانشاء . فهو فخر سوريا خاصَّةً ، والعرب عامَّةً . ولو انَّ الله أبقاه للُّغة العربيَّة لنالت فوق ما نالت على يده خيراً كثيراً » . وقال أيضاً في كتابه « النَّظرات » يذكر الشيخ : « يضع القالب اللفظي المتين ثمَّ يصبُّ المعنى صبّاً محكماً . ولو انَّه ابتدأ من حيث انتهى، لكان أفضل الكاتبين».

أمَّا مؤلَّفات الشيخ ابراهيم فأهمُّها « الضياء » في ثمانية مجلَّدات ، و« البيان » في مجلَّد ، و« الطبيب » في مجلَّد ايضاً ، و« نجعة الرَّائد في المترادف والمتوارد » في ثلاثة أجزاء طبع منها اثنان . وكان قد شرع في وضع معجم لغويّ يحوي المأنوس من كلام العرب ، وما طرأ من مواصفات المولَّدين والمحدثين ، اسمه « الفرائد الحسان من قلائد اللِّسان » ، ولكنه لم يتمَّه . وقد صحَّح من الكتب طائفة كبيرة ، منها : « رسالة الغفران » ، و« تأريخ بابل وآشور » و« دليل الهائم في صناعة النَّاثر والنَّاظم » و« نفح الأزهار في منتخبات الأشعار » . هذا مضافاً إلى ما صحَّح ، او اختصر ، أو تمَّم ، من كتب والده ، ومن أشهر ذلك « العرف الطَّيِّب في شرح ديوان أبي الطَّيِّب » .

من رقعة إلى بعض اخوانه[1]

قد طال هجرانكم لهذا الرَّقيق . فان كان ذلك من باب مقابلة المثل فنهاية التَّنازل . وإن كان مجرَّد جفاءٍ لتعذيبي ، فقد بلغ الأمر

(1) من « تأريخ المشايخ اليازجيِّين وأصهارهم » المذكور .

حدَّه . وشفيعي ما تعوَّدتُ من حلمكم . والسلام » .

من رثائه للسيِّد جمال الدِّين الأفغاني[1]

قضى ، رحمه الله في التاسع من الشَّهر الغابر بعلَّة السَّرطـان ، وقد تشبَّث منه بين الفكِّ والنَّحر ، ودبَّ في مجرى الفصاحة منه ، ولا عجب أن يدبَّ السَّرطان في البحر . فقبض ذلك اللِّسـان عن تدفُّـق عبابه ، وحبس تلك الدُّرر ، فما يبرز مكنونها من حجابه إلى أن نقله الله إلى جواره » .

رسالة اخوانيَّة[2]

أُقبِّلك ثلاثاً ، ثمَّ إنِّي قد اجتمع في هذه السَّنة عليَّ من الشّواغلِ ما حبس عليه أوقاتي وأقلامي . وعنـدي لك من البرِّ السَّابـق والشَّـوق الغالب ما لا أرى في الذمَّة مساغاً إلى نقضه ، ولا في النَّفس صبراً على مطاله . وفيما تزعم آمالي ، وما أعهد من كرم رأيك انـك أستر علـى قصوري منِّي وأسبق إلى معذرتي من نفسي . وأنت بإحقاق ما اعتقد أحقّ وأولى .

الانتقاد[3]

اما الانتقاد فمأخوذ من انتقاد الدراهم لتمييز جيدّها من رديئها ويراد به في العرُف فحص شيءٍ من المصنوعـات اللسـانية او اليدوية لادراك حسناته وعيوبه . ولم نجد في العرب من تكلم علـى

---

(1) من مجلّة « البيان » اليازجيَّة .

(2) من « رسائل اليازجي » .

(3) من مجلة « الضياء » . [المحقق] .

هذا الفن ولا من افردهُ في كتاب انما جلّ وظيفة الناقد على ما رأينا من صنيع اكثرهم ان يسوّيء على من ينتقد كلامهُ ما استطاع ويزيّف كل حسنةٍ لهُ حتى تنقلب سيئةً وذلك كما فعل الخفاجي فيما سماهُ شرحاً لدرّة الغوّاص او ان يكون على عكس ذلك فيحتال في تخريج كل وهم يسقط عليه في كلامه وتسديد كل هفوةٍ تبدر منهُ كما فعلهُ اكثر شرّاح الكتب العلمية من اقامة انفسهم مقام الخُدَّام للمتن فيأخذون في التوجيه والتأويل وتمحل الاصابة فيما هو ظاهر الغلط . ولا يخفى ان كلاً من هذين الطرفين من دواعي التضليل وستر وجوه الحقائق تحت براقع التمويه وفيهِ من الاضرار بالمستفيد وافساد قواعد العلم والذوق ما لا يخفى على الاريب .

اذا تقرَّر ذلك فمن البديهي ان اوَّل شروط المنتقد ان يكون خبيراً فيما ينتقدهُ بصيراً بحسناتِه وعيوبِه لئلا يرسل الكلام عن مجازفةٍ وخبط ويخلط بين الحسنات والسيئات متمكناً من اقامة البرهان على ما يحكم بهِ او عرضهِ على قياس العقل والذوق الصحيح كما فعل ابن خلدون في انتقاد بعض اقوال المؤرخين وكما فعل الآمديّ في الموازنة بين ابي تمام والبحتري وصاحب المثل السائِر في المفاضلة بين كلٍّ من هذين وأبي الطيب المتنبي والاّ رُدّ انتقادهُ عليهِ وعُدَّ جاهلاً او متحاملاً .

والشرط الثاني ان يكون بعد علمهِ بحقيقة ما ينتقدهُ منصفاً فيما يقولهُ لا يغمط إحساناً ولا يموّهُ اساءةً فلا يدعي للمنتقَد عليهِ اكثر مما لهُ ولا يبخس المحسن اشياءهُ فان ذلك من اعظم مفاسد العلم بما يبعث عليهِ من الاستخفاف بالعلميات واهمال التحريّ والتحرّز او من الانقباض عن العمل والاستسلام للقعود والقنوط وبما يؤدي اليهِ من

خلط الحقائق على من لا أداة عندهُ للحكم فيضيع الحق وراء حجب الهوى وشُبَه الاغراض .

والشرط الثالث ان يتجافى المنتقد عن الغلوّ في المدح والاطراء عند ايراد الحسنة او القدح والازراء عند ايراد السيئة فان ذلك يؤدّي الى الريب في شهادتِه ويبعث على اتهامه بشبهة التشيع او التحامل فيُنبذ كلامهُ وتسقط الفائدة المقصودة من نقدِهِ .

والرابع ان لا يخلط بين ما يرى من صنيع الشخص الذي جعلهُ محلاً لانتقاده وما يعلم او يظن من حالهِ في خاصة نفسه فان وظيفتهُ في تلك الحال ان ينتقد الكلام من حيث هو كلام لا من حيث ان قائلهُ فلان فكم من الناس من تظنهم عند الذكر والسمعة شيئاً وتراهم عند ما تبلو اقوالهم وعقولهم شيئاً آخر .

والخامس ان لا ينظر الى ما بينهُ وبين من ينتقد كلامهُ من السوابق الشخصية من مودّةٍ او موجدة لان انفعال النفس بالشخص يحول دون ادراك البصيرة واصابة حكمها بحيث يصير الانتقاد تعصباً او تعنتاً وهو احد عيوب النقد عندنا بل أعظمها وأشيعها واكثرها إضراراً بالعلم والآداب حتى ترى المنتقد بينا يتكلم في العبارة مثلاً اذ يخرج الى ذكر العيوب الشخصية مما لا دخل لهُ في تلك الحال فيعود الانتقاد ضرباً من الشتم والانتقاص وتضيع الحقيقة المقصودة من هذا الفن الجليل والله أعلم .

القصة (*)

فهي مأخوذة من قصّ الخبر والحديث اذا ساقهُ وأوردهُ

(*) من مجلة « الضياء » . [المحقّق] .

بحسب وقوعه وأصلهُ من قصّ الاثر واقتصَّهُ اذا تتبعهُ شيئاً بعد شيء فالقصة في الاصل بمعنى الخبر ثم نُقلت الى القصة التي تُكتب . هذا محصَّل ما في كتب اللغة ولا يخفى ان المعنى الاخير هو المراد من القصة في الاصطلاح وتعرَّف بأنها سياقة حوادث متصلة ترجع الى شخص او اشخاص يدور ما فيها من الحديث عليهم . وأما قواعد تأليفها فيتُصوّر اوَّلاً موضع النكتة منها وهو الحادث الذي تساق وقائعها اليهِ ثم ينُظَر في ترتيب تلك الوقائع فيوطَّأ لها بذكر الاشخاص الذين تمَّت على ايديهم وتعريف صفاتهم وأخلاقهم ثم يُشرَع في ايراد الوقائع بحسب ترتيبها الطبيعي في التقديم والتأخير الا عند غرضٍ كارادة تزيين بعض الحوادث او قصد تمكينها في الذهن فيقدَّم ما حقهُ التأخير ويُجرَى في الحديث من المسبَّب الى السبب ومن النتائج الى المقدمات . وهذه طريقة اكثر مؤلفي الافرنج فانهم كثيراً ما يبدأون القصة من أثناء حوادثها وربما بدأوها من آخرها ثم ساقوها حتى يأتوا على اوَّلها الا انهم ربما افرطوا في ذلك حتى يخرج عن حدّ القبول وهذا انما يحسن في حشو القصة وفي جزئيات الحوادث لا في مجمل القصة والا استوحشت منها النفس وتعب السامع في ردّ كل واقعٍ منها الى موقعهِ حتى تتحصل لهُ صورتها الطبيعية .

وأما سائر احكامها فلا سبيل الى استيفائها في هذا الموضع لاختلاف ضروب القصص وتباين اغراضها ومناحيها لكن نقول بالاجمال انهُ لا بد ان يراعَى فيها ما يراعَى في سائر ضروب الانشاء من الجري على اصول البلاغة التي هي مراعاة حال المطالع في صوغ العبارة واختيار طبقة الكلام . ومما يُستحَبّ فيها ان لا تكون مفرطة

الطول ولا وقائعها كثير التسلسل والاشتباك ولا تتعدد فيها الاشخاص الى ما يفوت حفظ المطالع او يجهد ذاكرتهُ وأن لا يُذكر فيها شخصٌ او حادث الا ولهُ تعلقٌ بشيءٍ من مقدماتها او نتائجها تفادياً من تشويش ذهن المطالع على غير فائدة . ولا بدَّ فيها من ذكر حادثةٍ يتشوَّق المطالع الى الوقوف على مصيرها من تعرُّض بعض اشخاصها لامرٍ مخوف او مجاذبتهِ لأُمنيَّةٍ خطيرة مما يستوقف النفس بين الخوف والرجاء الى ان تسفر خواتمها عما تنتهي اليهِ .

ومن المحسّنات فيها ان يتنقل الكاتب من حديثٍ الى حديث فلا يتتبع سياقاً واحداً اتقاءً لملل المطالع وان كان السياق طويلاً في نفسهِ حَسُنَ ان يتخللهُ بشيءٍ يصرف الفكر الى غير جهتهِ لكن بشرط ان لا يكون الحديث المعترَض به طويلاً لان النفس تنتقل اليهِ وهي مشغولةٌ بالحديث السابق فاذا طال كثيراً أبطأ عليها الرجوع الى استتمام ما كانت فيهِ فضاع بذلك رونق السياق وأثر في نفس المطالع اشمئزازاً ونفوراً .

وهناك جهاتٌ اخرى يتفطن لها اللبيب اضربنا عن استيفائها لضيق المقام وفي القدر الذي ذكرناهُ كفايةٌ لذي الذوق السليم .

صفة القمر (*)

هو بعد الشمس ، أبهى الأجرام السماوية على العموم ، ونُكْتة الفلك الأرضيّ ، بل أغرب ما يرى الناظر في عالم النجوم ، اذا استقلّ في فلكه ، يسبح فوق الوِهاد والآكام ، ورأيته يتراجع مع النجم ، وهو مُجِدّ في وِجْهته الى الأمام ، فتخطّى الأبراج ، وكأنَّهُ واقفٌ لا يُحسُّ له

(*) من مجلة « البيان » . [المحقق] .

الناظرون انتقالاً ، وظهر بأشكاله ، من الهلال الى البدر ، حتى يعود هلالاً ؛ فكان قَيْد الأبصار ، تراهُ ابداً جديداً ، على تقادُم عهدِهِ ، وتتوهمه على قِيْد اميالٍ منها ، وهو الشاسع في بعدِهِ . على انه ادنى العوالم من الأرض مَقِيلاً ، واعلقهنَّ بها حبلاً واقربهنَّ تمثيلاً ؛ فهو صورة الأرض في السماء ، ورفيق طِيّتها[1] الى حيث لا تدري في اجواز الفضاء[2] ، وشريك بختها فيما أُرصد لها من احكام القضاء ؛ بل هو وليدها وان تقضّى قبلها شبابهُ ، وشابت دونها أترابهُ . وقد دفعته عنها منذ فِصَاله[3] ، فمرَّ الى حيث لا مطمع في ايابه ، ثم عزَّ عليها إلاَّ ان يكون بحيالها ، فأخذت عليه طريق انسيابه ؛ فهو ابداً يدور من حولها مقطَّع النِياط[4] ، ويقطع معها أضعاف ما تقطع من الاشواط .

* * *

بل هو مثال الرونق والجمال ، وآية الأبَّهة والجلال ، اذا برز من الأفق ، فانهزمت من وجهه جيوش الظلماء ، وانفرجت الكواكبُ لمرِّهِ في عُرْض[5] السماء ، فأقبل يتنقّل بينها وهو يسير الهُوَينى عزَّةً وخُيَلاء ، فسَمَت اليه الأبصار اعجاباً وإكباراً ، وانصرفت اليه الوجوه ابتهاجاً واستبشاراً ، وانطلقت له النفوس نشاطاً وارتياحاً ، واتَّسعت به

---

(1) الطية بالكسر : الحاجة ، والمكان المنوي القصود اليه .

(2) الاجواز : جمع الجوز ، وهو وسط الشيء ومعظمه .

(3) الفصال : فصل الوليد عن امه .

(4) النياط : الفؤاد ، وهو عرق غليظ نيط به القلب الى الوتين .

(5) العرض : الوسط .

الصدور انبساطاً وانشراحاً ، وخلا اليه العاشق يتذكر وجه حبيبهِ ، ولها به المحزون فسلا عن حميمه ونسيبه ، وأوَى اليه المسهَّد ، فكان سميرهُ في سُهده ، واتخذه المسافر رفيقاً ، فذَهَل به عن مخاوف سفره ومشقّة جهدهِ ، وجلس اليه الشَرْب يتعاطون مثل الشمس في مثلهِ[1] ، وتسايرَ بازائه المتعاشقان يستبصران بنوره ، ويستتران بظلهِ ، وقد تخلَّل شُعاعُهُ نسجَ النسيم ، حتى اتحدا اتحاد الماء بسُلافة النديم ؛ فكان ألطف ما مرَّ ببَصَر ، في ألين ما التحفَ بَشَر ، فأسْجلَ[2] الشاهد أنَّ لياليهُ أصفى الأوقات ، وانه الجالي لأكدار النهار ، كما تُجلى به كدورة الظلمات .

* * *

لا بل هو مبعث الوَحشة ومحرّك الأشجان ، ومُثير هواجس الصدر ، وبَلابِل الجَنان ؛ اذا طلع في ليله ، وقد سكتت الأصوات ، وسكنت الحركات ، ولم يبقَ الاّ تموُّج الهواء باختلاج الأنفاس الصوامت ، وحفيف الأنسام بين ورق الشجر المتخافت ، فأرسل نوره الضعيف سابحاً في انحاء الفضاء ، مترقرقاً على وجه الغبراء ، تظهر من تحته الوهاد المنبسطة في العَرَاء ، والقِمَم الشاخصة في الهواء ، لا يمشي فيها حيوان ، ولا تُسمع نأمة[3] انسان . فوقف المتأمل امام مشهد ذلك الجمود ، وقد مُلكت عليه مشاعره ، حتى توهَّم نفسه

(1) مثل الشمس : اي الخمرة . في مثله : اي الكأس .
(2) اسجل : بمعنى سجل اي حكم ، او بمعنى اطلق الكلام وارسله .
(3) النأمة : النغمة والصوت .

بمعزلٍ عن الوجود ، فتخيَّل ما حوله من الأرض مجاهل خالية ، او اطلالاً بالية ، بل تخيَّل الأرض كأنها يومَ خُلقت ، فهي أدغالٌ وتَنائِف[1] ، وتصوَّر نفسه آدَمَها ، وقد وقف فيها بين الدَهَش والمخاوف ، فخيَّمت فوقه وَحشة العُزلة ، واحاطت بنفسه هيبة الوَحدة ، وانبعثت الأشجان في صدره ، فتفرَّغ لمناجاتها ، وهاجت الذِكَر في نفسه ، فغاص بين تيَّاراتها ، وتوارد عليه من الخواطر ما حبَّب اليه اللَحاق بعالم الفناء ، ثم استهواهُ ما يرى من جمال الطبيعة ، فثابت[2] اليه الرَغبة في البقاء ، فتمنى لو اتخذ سبباً[3] الى هذا العالم الماثل فوق رأسه ، او تعلَّق بما تدلَّى اليه من أشعَّة نبراسه ؛ فربما تخيَّل أنّ هنالك حدائق غلباء[4] ، ومدائن غنَّاء[5] ، وقصوراً شاهقة ، وانهاراً دافقة ، واقواماً يمرَحون في نعيم ، ويرتعون في خِصْب مقيم . . . وما ثَمّة ، لو يَعلم ، الاّ كونٌ جامد ، وقفرٌ هامد ، وسكوتٌ سائد ، وحُطام خلقٍ بائد ، لا يخطو هنالك غادٍ ولا رائح ، ولا يُسمع صوت باغمٍ ولا صادحْ ، ولا يسبح طائرٌ في السماء ، ولا يدِبّ حيوانٌ على العَراء ، ولا يخضرُّ وادٍ ولا أكمة ، ولا تسحب أذيالهَا نسمة ، ولا ينتشر سحابٌ ولا ضباب ، ولا يترقرق ماء ولا سَراب ، ولكنَّ جملة ما هنالك طللٌ داثر ، وعالَمٌ من عوالم الدهر الغابر ، بل جنازةٌ يُطاف بها

---

(1) التنائف : جمع التنوفة ، وهي الفلاة الواسعة لا ماء بها ولا انيس .

(2) ثابت : رجعت .

(3) سبباً : حبلاً ، وما يتوصل به الى غيره ، اي مرقاة .
التأنيث هنا دلت على الجمع .

(4) الغلباء : الحديقة المتكاثفة ، والف التأنيث هنا دلت على الجمع .

(5) الغناء من المدن : الكثيرة الاهل والبنيان .

حول الأرض ، وان لم تحملها المناكب ، وقد صلَّت عليها السيَّارات ، فترحَّمت عليها الكواكب .

اللغة والعصر(*)

لم يبقَ في ارباب الأقلام ومنتحلي صناعة الانشاء ، من هذه الأمّة ، من لم يشعر بما صارت اليه اللغة ، لعهدنا الحاضر ، من التقصير بخدمة اهلها ، والعُقم بحاجات ذويها ، حتى لقد ضاقت مُعجَماتها بمطالب الكتّاب والمعرّبين ، واصبحت الكتابة في كثيرٍ من الاغراض ضرباً من شاقّ التكليف ، وباباً من ابواب العنت . واللغة لا تزداد الاّ ضيقاً باتّساع مذاهب الحضارة وتشعُّب طرق التفنن في المخترعات والمستحدَثات ، الى ان كادت تُنبَذ في زوايا الاهمال وتلحق بما سبقها من لغات القرون الخوال . ومسّت الضرورة الى تدارك ما طرأ عليها من الثُلَم قبل تمام العفاء ، وقبل ان ينادي عليها مؤذّن العصر : سبحان من تفرّد بالبقاء ، ويُخْتَم على مُعجمَاتها بقصائد التأبين والرثاء .

تلك هي اللغة التي طالما وصفها الواصفون بأنها أغزر الألسنة مادّةً ، وأوسعها تعبيراً ، وأبعدها للأغراض مُتَناوَلاً ، وأطوَعُها للمعاني تصويراً ، قد أفضت اليوم الى حالٍ لو رام الكاتب فيها ان يصف حجرة منامهِ ، لم يكد يجد فيها ما يكفيهِ هذه المؤونة اليسيرة ، فضلاً عما وراء ذلك من وصف قصور الملوك والكبراء ومنازل المُترَفين والأغنياء ، وشوارع المدن الغنّاء ، وما ثَمَّ من آنيةٍ وأثاث وملبوسٍ ومفروش ، وغير ذلك من اصناف الماعون وأَدَوات الزينة ، مما لا

(*) من مجلة « البيان » . [المحقق] .

يجد لشيء منهُ اسماً في هذه اللغة ؛ ولا يكون حظّ العربيّ من وصفهِ الاّ العِيّ والحَصَر[1] ، وطيّ لسانهِ على معانٍ في قلبهِ لا يتسنى لهُ ابرازها بالنطق ؛ ولا يجد سبيلاً الى تمثيلها باللفظ ؛ كأنّ المقاطع التي يعبَّر بها عن هذه المشخَّصات لم يُخْلَق لها موضعٌ بين فكيَّهِ ؛ وليست مما يجري بين لهَاتهِ[2] وشفتيهِ ، فعاد كالأبكم يرى الأشياء ويميّزها ، ولا يستطيع ان يعبّر عنها الاّ بالاشارة ، ولا يصفها الاّ بالايماء .

ويا ليت شعري ، ما يصنع أحدنـا ، لو دخـل أحـد المعـارض الطبيعية أو الصناعية ، ورأى ما ثمَّـة من المسـميَّات العُضـوية وغير العُضوية ، من أنواع الحيوان وضروب النبـات وصنـوف المعـادن ؛ وعاين ما هناك من الآلات والأدَوات وسائر أجناس المصنوعات ، وما تتألف منه من القِطَع والأجـزاء ، بمـا لهـا من الهيئـات المختلفـة ، والمنافع المتباينة ؛ وأراد العبارة عن شيءٍ من هذه المذكورات ؟

ثم ما هو فاعلٌ ، لو أراد الكلام فيمـا يحـدث ، كل يومٍ ، من المخترعات العلمية والصناعية ، والمكتشفات الطبيعية والكيماوية ، والفنـون العقلية واليدوية ، ومـا لكل ذلك من الأوضـاع والحـدود والمصطلحـات التـي لا تغـادر جليلاً ولا دقيقـاً الا تدلّ عليه بلفظِـه المخصوص ؟

لا ريب أن الكثير من ذلك لا يتحرَّك له به لسان ، ولا يعهد له ، بين ألواح معجمات اللغة ، ألفاظاً يعبّر بها عنـه ، ولا يغنيه في هذا

(1) الحصر : العي في النطق .
(2) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق .

الموقف ما عنده من ثمانين اسماً للعسل ، ومئتي اسمٍ للخمر ، وخمس مئةٍ للأسد ، وألف لفظةٍ للسيف ، ومثلها للبعير ، وأربعة آلافٍ للداهية ، وما يفوت الحصر لشيءٍ آخر حرص مؤلِّف القاموس على استقصاء ألفاظه ، حتى لم يكذ يذكر مادَّةً الاَّ وفيها شيءٌ يشير اليه ويدلُّ عليه !

على أن اللغة مرآة أحوال الأمّة ، وصورة تمدّنها ، ورسم مجتمعها ، وتمثال أخلاقها وملَكاتها ، وسجلّ ما لها من علوم وصنائع وآداب . وإنما تضع منها على قدر ما تقتضيه حاجاتها في الخطاب ، وما يتمثل في خواطرها ، أو يقع تحت حسّها من المعاني . ومعلومٌ أن العرب واضعي هذه اللغة ، كانوا قوماً أهل بادية ، بيوتهم الشعر والأديم[1] ، ومفرشهم الباريّ[2] والبَلاس ، ولباسهم الكساء والرداء ، وأثاثهم الرحى والقِدْر ، وآنيتهم القَعْب والجَفنة[3] ، الى ما شاكل ذلك مما لا يكادون يَعْدُونه في حِلٍ ولا ترحال . فأين هم ، وما نحن فيه ، لهذا العهد ، من اتساع مذاهب الحضارة ، والاستبحار في الترَف واليسار ، وكثرة ما بين أيدينا من صنوف المرافق[4] وأنواع الأثاث والزخارف ؛ وما نحن فيه من التفنن في أحوال المجتمع والمعاش ، فضلاً عما بلغ اليه اهل هذا العصر من التبسُّط في مناحي العلم والصناعة ، مما كان اولئك بمعزلٍ عن جميعه ؛ الاَّ ما حدث بعد ذلك

(1) الأديم : الجلد .

(2) الباري : الحصير المنسوج .

(3) القعب : القدح الضخم الجافي . الجفنة : القصعة .

(4) المرافق : الأشياء التي ينتفع بها .

في عهد استفحال الاسلام مما ذهب عنًا أكثره ، وما كان فيه لو بلغ الينا الا غَناءٌ قليل .

ومهما يكن من حال اولئك القوم ، وضيق مُضطرَب الحضارة عندهم ، وما نجد في ألفاظهم من الفاقة والتقصير عن حاجات هذا الزمن ، فلا يتوهمنَّ متوهمٌ ان ذلك واردٌ على اللغة من هرمٍ أدركها ، فقعد بها عن مجاراة الأحوال العصرية ، وأناخ بها في ساقة الألسنة الحاليَّة[1] ، فإن معنى الهرم في اللغة أن يحدث عند المتكلمين بها معانٍ قد خلت الفاظها عنها ؛ ثم تضيق أوضاعها عن احداث الفاظٍ تؤدًى بها تلك المعاني ، فيطرأ على اللغة النَقص ، حيناً بعد حين ، الى أن تعجز عن أداء أغراض أهلها ، ولا تبقى صالحةً للاستعمال ؛ وحينئذٍ فلا يبقى الاَّ أن يُلقى حبلها على غاربها[2] ، أو يستعان بغيرها على سدّ ما عرض فيها من الخلل ، بما يغيِّر من ديباجتها ، وينكرّ اسلوب وضعها حتى تتبدل هيئاتها على الزمن ، وتصير ، على الجملة ، لغة أخرى .

وليس بمنكرٍ أن ما وصفناه من هذه الحال يشبه في بادي الرأي ما نشاهده من حال لغتنا اليوم ، وما لم نزل ننعاه عليها ، منذ حين ، من تقصيرها عن الوفاء بمطالبنا العصرية ، الاَّ أن ذلك اذا استقريتَ أوجهه وأسبابه ، وسَبَرتَ غَوْر اللغة في نفسها ، وقست مبلغ استعدادها ، علمتَ أنه ليس منها في شيء ؛ وأيقنت انها لا تزال في رَيْعان شبابها

---

(1) ساقة الألسنة : أي مؤخرة اللغات .

(2) يلقى حبلها على غاربها : أي تترك وشأنها ، تذهب حيث شاءت .

وطور ترعرعها ، وأن فيها بقيّةً صالحة لأن تجاري أوسع اللغات وأكثرها مادَّة . ولكن ما أدركها من ذلك واردٌ من قِبَل الأمَّة ، وتخلُّفها في حَلْبَة الحضارة والمدنية ؛ اذ اللغة بأهلها تشبّ بشبابهم وتهرم بهرمهم ، وإنما هي عبارة عما يتداولونه بينهم لا تعدُو ألسنتُهم ما في خواطرهم ، ولا تمثّل ألفاظهم الاَّ صوَر ما في أذهانهم . وبديهيّ أن اللغة لم توضع دفعة واحدة ، وانما كان يوضع منها الشيء بعد الشيء ، على قدر ما تدعو اليه حاجة المتكلمين بها ، وقد اختصَّت هذه اللغة بمزيَّةٍ عزَّ أن توجد في غيرها ، وهي أن أكثر ألفاظها مأخوذ بالاشتقاق اللفظيّ أو المعنوي ، بحيث صارت الى ما صارت اليه من الاتساع الذي لا تكاد تضاهيها فيه لغة ، على كونها من أقلّ اللغات اوضاعاً ، الاَّ أنها من أكثرهنَّ صيَغاً وأبنية ؛ وهو السر في قبولها هذا الاتساع العجيب ، فضلاً عما فيها من تشعُّب طرق المجاز .

واعتبرْ ما ذكرناه من ذلك بالرجوع الى ما كانت عليه اللغة زمن الجاهلية وفي صدر الاسلام ، ومقابلتِها بما بلغت اليه على عهد الخلفاء من بني العبَّاس ، بعد سكون الغارات واستتباب الفتوح ، وتنبُّه الأمَّة لطلب العلوم وتبسُّطها في فنون الحضارة ، بحيث خرجوا بها من حال الخشونة البدوية الى أبعد مذاهب المدنية الشائعة لعهدهم ذاك ؛ لم يكادوا يُدخلون فيها لفظاً أعجمياً[1] ، ولا اضطُرُّوا فيها الى وضع جديد ، ولكنها خدمتهم بنفس أوضاعها التي وضعتها العرب ، فاشتَقُّوا منها ما لا عهد به للعرب ، على وجهه الذي نقلوه اليه ، ولم

---

(1) يستثنى من ذلك كتب الطب . (هذا الاستدراك لليازجي) .

تتكلم به أصلاً ؛ حتى أحاطوا بصناعة الفرس وعلوم اليونان ، وأدخلوا كثيراً من مصطلحات الامم التي اجتاحوها شرقاً وغرباً ، وزادوا على ذلك كلِّه ما استنبطوه بأنفسهم . واللغة مشايعةٌ لهم في كلّ ما أخذوا فيه ، لم تنضب مواردها دونهم ، ولا رأينا من شكا منها عجزاً ولا تقصيراً ، الى أن أدركهم من تبدُّل الأطوار ، وغارات الأقدار ، ما وقف بهم عند ذلك الحدّ ، فوقفت اللغة عند ما نراه فيما وصل الينا من كتبهم . وتوالى الاجتياح بعد ذلك على الأمَّة ، وتتابعت دواعي الدمار ، حتى اندرست أعلام حضارتها ، وذهبت علومها أدراج الرياح ؛ فزال أكثر اللغة من ألسنتها بزوال معانيها ، حتى صار الموجود منها اليوم لا يقوم بخدمة أمَّة متمدنةٍ ، ولا هو أهلٌ لأن يُبلغَ به ما منزلته تلك . ولذلك فان كان ثمّة هرمٌ فانما هو في الأمة لا في اللغة ، لأن ما عرض لها من الهجر والاهمال غير لاحقٍ بها ، ولا ملحقٍ بها وهناً ولا عجزاً ، وانما هو عجزٌ في ألسنة الأمَّة ومداركها ، وتأخرٌ في أحوالها واستعدادها . ولو صادفت ، من أهلها ، البقاء على عهد اسلافهم من السعي في سُبُل الحضارة وتوسيع نطاق العلم ، لم تقصرٌ عن مشايعهم في كل ما فاتهم من الأطوار ، حتى تبلغ بهم إلى مجاراة العصر الحاضر .

ولقد أتى على اللغة مئات من السنين بعد ذلك، لم يُزَد فيها حرفٌ ، بل لم يكد يُحفَظ منها ما يزيد على الحوائج البيتية والسوقية ، على تناقص هذه الحوائج وتراجع عددها يوماً بعد يومٍ ، بما طرأ على أهلها من الضغط والفاقة ، وما اتصل بذلك من استيلاء الجهل وتقلّص

العمران وذَهاب الحضارة من بينهم ، حتى عادت حوائج كثيرٍ من أهل المدن الحافلة لا تكاد تتعدَّى حوائج البدويّ والأكَّار[1] . وما دامت المعاني التي يعبَّر عنها باللغة معدومة ، فلا سبيل الى بقاء الألفاظ الدالَّة عليها ، اذ اللفظ انما يُتَّخذ للعبارة عن الخواطر التي في النفس ، فلا يكون الاَّ على قدرها بالضرورة . وزاد على ذلك كله ذهابُ ما كتب المتقدمون : بعضِه بالاحراق كما تمَّ في مكتبة قُرطُبة ؛ وكأنَّ هذا في مقابلة ما وقع من مثلِه بالاسكندرية وفارس . . . وبعضه بالاجتياح والنهب ؛ فلا بقي في مكانه فينتفع به المتأخر ، ولا احتفظ به الذي نهبه لجهله قيمته . وبقي الشيء اليسير نجده اليوم في مكاتب الأعاجم ، وأكثره مما اشتُري من أيدينا بالذهب . . . فلا غرو ان نشأ عن تلك الأحوال كلها ذهابُ هذه اللغة من ألسنة الأعقاب ، حتى لو رام أحدنا اثارة دفائنها وتعهُّدها بالتجديد والاحياء ، لما وجد منها في البلاد الاَّ الشيء النَزر لا يعدو ، في الغالب ، علوم الدين وما يتصل بها مما لم يكد أهل بلادنا يحافظون على سواه .

(1) الأكار : الحراث .

وليّ الدين يكن (*)

(وُلد سنة 1873، وتوفِّي سنة 1921 م.)

هو ابن حسن سرِّي بْن ابراهيم باشا يكن. وُلد في الآستانة، وتُوفِّي في حلوان، في مصر، ودُفن في القاهرة. تركيُّ الأصل، تخرَّج «بمدرسة الأنجال» المشهورة في مصر. وأخذ أُصول الأدب العربيّ وفنونه عن جماعة من ائمَّة ذلك في وقته. وكان يجيد التُّركيَّة والفرنسويَّة ويتكلم بالإنكليزيَّة واليونانيَّة. انصرف منذ شبابه إلى الكتابة في الصُّحف بين الأدب والسّياسة، فكتب في «القاهرة» و«النِّيل» و«المقياس»، وانقطع عن القلم فترةً لتوظُّفه في «النيابة الأهليَّة»، ثمَّ في «المعيَّة الخديويَّة». وسافر سنة 1902 إلى الآستانة، وعاد منها إلى مصر، فأصدر جريدة «الاستقامة»، الَّتي أوقفها عن الصُّدور بعد أن منعت حكومة الآستانة انتشارها في البلاد العثمانيَّة. وعاد ينشر الفصول الضَّافية في «المقطَّم» و«المشير» إلى ان قصد الآستانة للمرَّة الثَّانية، فعيِّن في «الجمعية الرُّسوميَّة الجمركية»، ثمَّ عضواً في «مجلس المعارف الأعلى»، ثمَّ نفاه السُّلطان عبد الحميد العثمانيّ إلى سيواس، من برِّ الأناضول، وظلَّ

(*) جاءَ اسمه في «المقتطف» و«المشرق» و«معجم المطبوعات العربيَّة والمعرَّبة»: محمَّد وليُّ الدِّين.

فيها سبع سنوات . أي إلى أن أعلن الدُّستور العثمانيّ سنة 1908 م . ، فانتقل إلى مصر ، وأخذ يكتب في « الأَهرام » و « المؤيَّد » و « الرَّائد المصريّ » ، وتولّي ردحاً من الزَّمن جريدة « الإقدام » في الإسكندريَّة . ثمَّ عُيِّن في « وزارة الحقَّانيَّة المصريَّة » ، إلى أن عُيِّن امين السِّر العربيّ في ديوان سلطان مصر ، وترك منصبه في الدِّيوان لاشتداد مرضه عليه . فلازم بيته ، لا يخرج منه إلى يوم وفاته .

وليُّ الدِّين كاتب تجد سياق خواطره في معانيه لا في مبانيه . فأسلوبه يعتمد على الفرائد لا على الجمل . فكأَنَّ الجملة عنده تقوم على حدتها ، حتَّى لتظنَّ انَّ هناك انقطاعاً بين خاطر وخاطر ، لولا انَّ الفصاحة هي الَّتي تجمع ذلك كلَّه في أُسلوب فريد من أَرفع أَساليب الكتابة في الشُّعور والخيال وعذوبة الرُّوح .

جاءَ في « معجم المطبوعات العربيَّة والمعرَّبة » ، في ترجمة وليِّ الدِّين ، نقلاً عن مجلَّة « المقتطف » : « أُحد الكتَّاب المجيدين في هذا العصر . له أُسلوب في الانشاء خاصٌّ به . شعره نثر في جلاء معانيه ، ونثره شعر في صوره ومغازيه . يجمع كلّ مألوف في تشابيهه واستعاراته ، ويدخل مخادع النَّفس ، ويستجلي غوامض العقل وآياته » .

وقال أحمد أبي الخضر منسّى في كتابه « وليُّ الدِّين يكن كاتباً وشاعراً » : « إنَّ شخصيَّة وليِّ الدِّين ، من حيث انَّه كاتب ناثر ، قد قامت بأشياء ستَّة » إلى أن يقول : « وهي : ندورة الوصل . البلاغة التَّشابيه . العبارة المجوَّدة المهذَّبة . بلاغة الوصف . اللَّهجة

الخطابيَّة » إلى أن يقول : « سبحان من جمع في لسانه السِّحرين : سحر القوافي ، وسحر المرسلات ! » .

قال أسعد خليل داغر في مجلَّة « الحريَّة » البغداديَّة : « رأيي في ما يكتبه وليُّ الدِّين يكن نثراً وشعراً انَّ نثره شعر ، ولكنَّه مطلق من أغلال الأوزان ، وشعره سحر . ومن بعض معجزاته خوارق البلاغة والبيان . فهو يرسل النَّثر البديع ، كما تنثر الطبيعة زهر الرَّبيع ، وينظم الشِّعر كما تُنظم الدُّرر في الأسلاك ، أو الدَّراري في الأفلاك » إلى أن يقول : « وإنِّي لأرى شجويّاته مقتبسة من لطف أخلاقه ، ورقَّة شعوره ، وشدَّة تقلُّبات دهره » .

وقال أنطون الجميِّل في مقدّمته « لديوان وليِّ الدِّين يكن » : « فهو شاعر في كلا الفنَّين : المنظوم والمنثور . يصوغ كلامه المرسل كأنَّه الشِّعر توقيعاً وانسجاماً وخيالاً وروعة معانٍ ، حتى لتكاد تستقيم لك جملته شعراً موزوناً » .

أمَّا مصطفى لطفي المنفلوطي فقد ذكر في كتابه « النَّظرات » ، في باب « طبقات الكتَّاب » ، وليَّ الدِّين ، بقوله : « تتراءى معانيه اللاَّمعة من خلال تراكيبه المتعاظلة[1] كأنَّها أنوار الحباحب[2] في ظلمة اللَّيل البهيم » .

ولوليِّ الدِّين من المؤلَّفات في النَّثر : « المعلوم والمجهول »

(1) الكلام المتعاظل : المتراكب ، المعقَّد .

(2) دابَّة تطير في اللَّيل ، فيظهر في ذنبها نور ضعيف .

جزآن ، وقد ذكر فيه اخباراً عن نفيه ، وعن آخر العهد بأيَّام السلطان عبد الحميد الثَّاني العثمانيِّ . و « خواطر نيازي » (وهو بطل الحريَّة العثمانيَّة المشهور) ، مترجم عن التُّركيَّة ، و « التَّجاريب » ، و « الصَّحائف السُّود » مجموعان لفصول بين السياسة والاجتماع والاخلاق والانتقاد ، و « دكران ورائف » رواية ، طبع منها الجزء الأول ، و « عفو الخاطر » مجموع فصول في الأدب .

خليج البسفور في احدى ليالي الشتاء(*)

الظلم لهُ يد وليس لهُ فؤاد . يُغمد خنجراً من خناجرهِ في قلب من قلوب الناس فلا يستشعر لذلك الماً . القتيلُ مضّرجاً بدمهِ لديهِ كالحيّ مضمّخاً بطيبه . ظلمات الليالي وظلمات البحار وظلمات القبور ، كلٌّ تستسرُّ في اثنائها ، بدور مطالعها الشباب ومنازلها الآمال . واذا كان لاهل الويل تراث فاللواعج التي تذكيها الذكّر والحسرات التي تستديمها الصروف . اجسامٌ ما زهور الرياض ولا نيّرات الآفاق ولا عُقيان القلائد ولا جواهر التيجان باحسنَ منها منظراً . تُربّى متنقّلة في الدلال من حنو مرضعة الى غناء مربية الى ابتسامة ام الى مواصلة حبيب كل ذلك لمصرع لحظة يتلوها الفناءُ . ما اضيع الامل وما اعدى القضاءَ .

في ليلة من ليالي الشتاء سكنت تحتها الاشياءُ وتحركت الضمائر سوداء الجلباب بيضاء الصقيع . طرقوا باب المظلوم فاطل عليهم . قال :

- من الطارق المنتاب ؟ قالوا
- اجب . شفيق يدعوك .

فقام إلَى ثيابهِ فلبسها ومال الى اهلهِ فودعهم وتوسط رسل البين

(*) من الصحائف السود ص123-128 . [المحقّق] .

وزبانية جهنم فاركبوهُ عربة سارت حتى وقفت بهم امام باب كبير . فمشى الرسل ومشى بينهم المظلـوم . فادخـل بهِ علـى من وجّـه في طلبـهِ . فتقـدّم خطـوات وسلّـم تسـليم غير المشتـاق ووقف ينتظـر الجواب . هذا الموقف مهيع من الحياة الى الموت .

الطالب والمطلوب متواجهان . خصمان هذا سيفهُ سلطان وذاك درعهُ أساهُ . فلما استطال السكوت واستبطأ الشرُّ اسيرهُ رفع شفيق رأسهُ ونظر الى غريمهِ نظرة ملؤها الختل ثم قال :

ـ الآن يذهبـون بك إلـى (القصـر) ولا ادري عمَّ يسألونـك هنالك . فكن رابط الجأش وأحسن الجواب تلقَ خيراً .

ثم امر شفيق اثنين من الشرطة ان يُركبا المظلوم عَربة وان يمضيا معـهُ ففعـلا . فلمـا اوفـوا علـى الشاطـىءِ ألفـوا زورقـاً فيهِ انـاس بانتظارهم . فأركبوا الزورقَ وانطلق حتى رسا بهـم الى جانب سفينة كبيرة فصعدوا اليها . وجـاؤا للمظلـوم بكرسـيّ فجلس عليهِ وناولـوهُ سيكارة جعل يصعّد دخانها وهو صامت . ثم اقبل من البر زورق آخر فصعد منهُ جماعة منهم محمد علي رئيس الهيئـة التحقيقية اذ ذاك . فدنا من المظلوم وقال لهُ :

ـ الآن صدرت الارادة السلطانية بالقائك في البوسفـور . بـذا قضى الله ولا مردَّ لقضائهِ . فان كانت لك وصاةٌ توصي بها من بعدك فهاتها . وان كانت نفسك تشتهي شيئاً مما يؤكل او يشرب فاقترح .

قال ـ لا اريد شيئاً . وانسابت من مقلتي الرجل شآبيب خضّلت

لحيتهُ والناظرون اليهِ لا يبكون . هم يعجبون أن يجزع الناس لفراق الدنيا . شهدوا مصارع كثير من الخلائق وشهدوا جزعهم عند الموت . فاستضحكهم ذلك وقالوا : ما لهؤلاءِ يخافون ما لا بدَّ منهُ . وما تعجيلهُ الاَّ تعجيلُ امر لا ريب فيهِ . يا حكماءَ الموت هذا عجب الخليّ من حال الشجيّ ولعل لكم في ذمة الدهر مواقف مثل التي انتم لها شاهدون . سكت المظلوم سكتةً غلبهُ عليها فؤادهُ . وفي ثنّيات الافق كواكب تنظر ولا تُسعف . والريح بليلة الجناح واليم جائش الغوارب والبّران في بيوتهما المنيرة شاهدان ولكن لا ينطقان . الشعراءُ يبكون بابياتهم والمظلومُ ينشد دموعهُ .

لما جاءوا بالسلاسل فامرّوها على عنق المسكين واثقلوا رجليهِ بقطع الحديد واهووا بهِ الى الماءِ فغاب في عبابهِ عرف هوان الحياة وكيف تجني الوالدات على من ولدنَ والى اية غاية يكون المصير . . . .

قالت جرائد الاستانة الصادرة في . . .

عثر رجال الشرطة على جسد رجلٍ بشاطىءِ البحر قد تشوّه وجههُ وتمزقت ملابسهُ واعضاؤهُ فلم يمكن ان يعرفوا من هو ولكنهم رأوا في ملابسهِ خاتمهُ المنقوش عليهِ اسمهُ فاذا هو اللواءُ (فلان) وظهر ان بعض اعدائهِ الخائنين انفردوا به يوماً فاغرقوهُ . وقد صدرت الارادة السلطانية بالجدّ في طلب الجانين الذين اعتدوا على مثل هذا الفقيد الغالي!!! ووعد من يعثر عليهِ ان يعطى جائزة سنية ويزاد راتبهُ وترفع رتبتهُ .

بين نَوحات النائحات وبكاءِ الشاكلات سكوتٌ يأتي بهِ الاعياءُ وتقطّع الانفاس . ذلك من الفواصل التي ينوب فيها القلب عن العين فتسكت الظواهر وتبكي السرائر . وقد وقع مثل هذا في بيت الفقيد الغالي !! جاءَ رجل من القصر يحمل عطيّة . كلَّم الأيّم من وراءِ ستارها فقال :

- اميرُ المؤمنين في حزن عظيم على المرحوم !!! فقد كان يحبهُ كثيراً : !!! وهو يقول اذا ذهب حاميكم فانا حاميكم . وهذه هديتهُ اليكم .

فانطلقت الالسن بالدعاءِ من قلوب لا يشوبها الرياءُ . . .

كانوا يخدعون الناس فيسرقون منهم الدعواتِ ويريدون ان يخدعوك يا رب ليختلسوا منك الرحمة والرضوان !

مقدّمة المؤلف[1]

الى ملك الالهام

أقمتَ على ودِّي خمسة وعشرين عاماً . لا أركن الى عزلة إلاَّ وتبادر الى مجالستي . فكم انجابت عن جسدك المضطرم طبقات الظلمة . حين فنيت حياة المصباح . وأغمد في ظهر الليل نصله . تحيِّيني بمحيَّاك العجيب . وتتأمَّلني بلحظيك الفاتنين . وكم أجلت لي كؤوس الصفو . مازجاً سلافتها بنفسك . مطلعاً حبابها بانفاسك .

---

(1) المقدّمة التي وضعها وليّ الدين لكتابه « عفو الخاطر » الذي نشره أمين نخلة سنة 1955 . [المحقّق] .

وكم جريت في عروقي مع الدَّم . حاملاً الى رأسي رسائل فؤادي . ملاعباً روحي . متهادياً في خاطري . والآن ماذا يصدُّك عني . وأنت لا يعترضك الصدود ؟ وماذا يمنعك عن موافاتي . وأنت لا يمنعك المنع ؟

ما لك ! طويتَ منازل الدَّهر . لم تشبْ ولم تكتهل . وتخطَّيت رقاب الأجيال . لم تتخاذل ولم نجهد . ولقيتَ صيحات الفازعين منك . وصرخات المكربين بك . ساخراً ضاحكاً . تتلقَّف بيديك حسراتهم . وهي مرتفعة الى المكان الأعلى . وتختطف شكاياتهم وهي منطلقة الى موضع الاستجابة . وأنت جذل تتقلَّب على حواشي الأثير . وترتفع في ارجاء الغيب . وتقتاد الأهواءَ وتصرِّف الآراب . فهل ترى من بأس ان تعود معي الى سابق ما عوَّدتني من الجميل . فنستعجل صحائف الخيالات . نقرأ فيها باقيات الأماني .

عجباً لك ! وثبة واحدة تنقلك من شرق الأرض الى غربها . ومن قرار البحر الى مزدحم الكواكب . إن بين جوانحك لعلماً . ما مرَّت لحظة إلاَّ وازداد . وانت بعد ذلك مقيم على مرقبة . تمرُّ بك الأنباء واردة وصادرة . فما كان ضرَّك لو أتيت الى تلميذك بما لا يتعبك حمله . ولا يضجرك سرده .

ألا تذكر إصباح الربيع . إذ تنحدر أشعة الشمس . وتكمن بين اوراق الأشجار . ثم تتراءى للقماريِّ . وهي في وكناتها . فتهيجها وتسوقها الى الترجيع . ثمَّ تقبل عليَّ وأهدابي تقطر نوماً ، فتجعل يدك على موضع الصبوة من فؤادي . حتى اذا اضطرمت نثرت على رأسي

القوافي . وحيَّيتني بابتسامة منك . وانطلقت تخترم مسالك الجوِّ . بعد ان ملأتَ الخافقين حياةً وطرباً .

تصفَّح وجوه هذا الفاتنات . هنَّ الغواني ام هنَّ الملائكة ؟ بياض الشباب يترقرق عليه احمرار الحياء . وجفون كأن اهدابها اقلام الأرواح . ولحاظ كأنها صيغت من روح القدس . وجمال كأنه ديوان الفتنة . او مختار الآمال . كلٌّ هذه تناغيني وتناجيني . كلُّها تنتظر ما أقول فيها . لا غاليات الجواهر . ولا ظريفات الثياب . تنال من افئدتها ما يناله مصراع أرتجله . خذْ مني ما تشاء . ولا أملك شيئاً . ولكن ردَّ علي بديهتي . وقرِّب ما بيني وبين خواطري . وكم أقف على شطِّ الأبيض المتوسِّط . أتأمَّله واتملَّى بمحاسنه . وانت أعلم بصبوتي اليه . وفتنتي به . ظانًّا أن ستقبل على رؤوس موجه . منتفضاً بين أزباده . متموِّجاً بين نسائِمه . ملتقطاً لآلىء حبابه . ناسجاً أبراد طحلبه . فأرجع غير مظفَّر بنظرة اليك . ولو شئتَ أن تنطقني بالمعجزات لفعلت !

أدعوك . بل أضرع اليك . لا تدعْ صرير يراعي نحيباً . ولا تذرْ قطرات مداده دموعاً . أصاخت الضمائر وأنا أريد أن أقول . . .

من هو البليغ ؟[1]

الكلام البليغ كالقبلة . تقع على الوجنة النضرة . فتهزُّ النفس في مستقرِّها . بل يهزُّ البليغ الأنفس باكثر مما تهزُّها الشفاه . لأن للنفس

---

(1) من « عفو الخاطر » ، وكذلك القطع التي بعدها . [المحقق] .

إذا مرَّت من ثنيَّات الخاطر لمحات . أشعتها حرارة وضوء . تظلم عندها أشعة « رتنجن » . وأشعة « الراديوم » .

انظر الى الشاعر . يتجلّى الله على مرآة روحه . فتنعكس آيات جماله وجلاله على بديهته . فيفيض ثم تفيض . حتى تستغرق الكون . وما وراءه .

الله كلُّ بليغ في الشرق .
إذا رأيتَ ذليلاً حقيراً في الشرق فذلك هو البليغ . . .

أيضاً

هذه اوَّل مرَّة . وهذه آخر مرَّة ! بيني وبينكِ يا « ايضاً » خصام الأبد . لا « حافظ » وإن خاصمك . ولا « مطران » وإن شفع فيك . يخفِّفان من بغضي لك مثقال ذرَّة .

أراكِ فيخيَّل اليَّ أن ليس على وجه البحر « دردنوط » . ولا على وجه الأرض قطار حديديٌّ . يهزَّان منك جانباً .

يا « ايضاً » : لو كنتِ في مدخل طرابلس الغرب . أو « طبروق » . أو جزر « ارتجة » . لتراجعت دونك رميات الأسطول الايتاليِّ (*) .

لفظتُ بك مرَّةً فسقطت من ثناياي خمس . . . وها أنا اخطُّك وقد ورم بك ابهامي . وكلَّت عن رسمك سائر أناملي . لله أنت . كيف

(*) كُتب هذا الفصل ايام الحرب التركية الايتالية .

وسعتك كتب اللغة العربيَّة . ولقد ضاق عنك الكون بأسره . ما استقر بك المقام في قافية . الأَ سدَّ زور الناطق بكِ . وتهدَّم ركن البيت الحامل لكِ . لست ادري . لماذا يحبُّك الكتَّاب ، بل لا أودُّ ان ادري لماذا يكثر منك الشعراء . بل أجزع أن ادري كيف تنطق بك ثغور الغواني . وكيف تستطيعين المرور بين الدرِّ والعقيق . . .

اذا غضبتُ على رجل سمَّيته « أيضاً » . واذا دعوتُ على أحد بشرٍّ قلت : اللهمَّ انزل على رأسه ورقة فيها « أيضاً » . . .

هجرتُكِ ، ولأهجرنَّك ، لا مسترجعاً ولا نادماً ، وإنَّ من أشدّ جنايات ملوك الكلام أن يكون لك مكانة في خزائنهم .

لهفي على هذا المكان من الكتاب . أن يلوح لك فيه اسم . ولكنه للاضطرار الى اعلان الخصومة أثبتُّه . وأنا استحلف رجال القلم بشرفه . أن لا يبعثوا رسالة يكون لكِ ذكر فيها .

اذهبي يا « ايضاً » . على أن لا تعودي ايضاً . . .

زهرة على شطّ نهر

حمراء صافية . ذات أرج يملأُ الرُّوح . كأنها بسمة على ثغر ملك . أو قطرة دم من فؤاد معذَّب . تناولتها بأناملي . وقسوت عليها بالقطف وشممتها . فمازج روحي روحها . . . باعدت ما بين موردها العذب . ومنبتها الطيِّب . حرصاً على جمال ليس لي منه إلا الإعجاب به . فكأنه خُلق لأصفه . وكأني خُلقت لأُعنى به . الله يأبى

ان يبقى فؤاد الشاعر في دعة . ويأبى سبحانه ان يظلَّ خاطره في سكون . . .

يا حسن اوراقها الحمر . من تحتها ورقتان خضراوان . كلُّ واحدة من تلك الأوراق صحيفتان من ديوان الغزل .

الشباب سكر . والجمال فتنة . وتحت هذه السماء الصافية محاسن جمةً . تتمشّى العيون على البدائع . تتبعها البدائه . . .

يا مهبط الإلهام . ومرتقى الولوع . كم نفس وآلهة . وأمل متردِّد . وآهٍ مرنانة . ودمع منظَّم . وصبر منثر .

هذه شجون . لا أدرِي ما أثارها . هبَّت بها نسمة جنوبيَّة . فلتتفرَّق في انحاء الفضاء . ولتقعْ حيث اردتُ أنا أعرف اين أردتُ . . .

رواية الغرام

في بيت واحد

تراءَت له على مستشرف حجرتها صبحاً . حين لم يلق عن أَعطافه ثياب الكرى . والصبح كبسمة الرِّضى على الثغر الألمى . والروض كالأَمل الغضِّ في فؤاد الفتيِّ . فلمَّا اعتدلتْ في نظره جانستْ محاسنها محاسن الوجود . فترامى اللَّحظان . وتناجى القلبان . وطارت رسائل الوجد بين الرُّوحين . على أجنحة الزَّفرات . تبعث حنيناً وأنيناً وهياماً شديداً . فذلك حيث يقول شاعر الشرق شوقي بك .

نظرةٌ . . . .

ثمَّ توالي كرور الإصباح . وكما تكبر الأَجساد تكبر الأَرواح . وكما تكبر الأَرواح تكبر الصَّبابات . واللَّواعج ثمار . تُسقى مغارسها بالدموع . والشباب خصب . تنضج به اللَّواعج . ونسائم السَّحر تغري الأَشواق . ووجه الرَّبيع يزيد الجرأة على الفتنة . وإذ طال تعارضُ الوجهين . وتقابلُ النظرين . جاءَت طمأنينة تمسك الرُّوح ساعة اضطرابها . فتألَّق لها على الشفتين بارق افترَّ عن مثل الدرِّ المنظَّم . فذلك حيث يقول شاعر الجمال :

. . . فابتسامةٌ . . . .

ثمَّ استمرَّ الغرام . وتراضى القلبان . وأذن كلٌّ لصاحبه بما أذن . فكانت حاجة الى الإعلان . فارتفعت يمين كورقة الآس . أُمرَّت على جبين كنفس الطفل . واذا في الوجهة المقابلة رأس ينخفض اجلالاً وخشوعاً . وكذلك يضرع المطيع للمطاع . فذلك حيث يقول شاعر الخيال :

. . . . . . فسلامٌ . . . .

ثمَّ نما الهوى وأرباه التراضي . فاشتاقت الآذان الى مثل حظِّ الأَعين . ولا بدَّ لما يُسَرُّ من الإعلان . فتساجل الشكاية صريعاها . وقام اللِّسانان سفيرين عن القلبين . هنالك حلاوة تمازجها المرارة . وراحة يتخلَّلها التعب . وللوجد بيان لا تركِّبه ألفاظ . ولا تؤدِّيه عبارة . فبهما فاض ماءُ النَّفس من الثغرين المتباعدين . فذلك حيث

يقول شاعر البيان :

... ... فكلامٌ ... ...

ثمَّ تعارضت في الرُّوحين قوَّتان من السلب والإيجاب . وقعت شرارتهما على الحسِّ فاضطرم . غير انَّ الحكمة اطفأت ذاك الأُوار . والصبر في اوائل الصَّبابة يغلب عليها . فتعالج المحبَّان بالأماني . وما زالا يتواصيان بالرأي حتى غلبا عليه . فاستثار الشوق كمين النَّفسين . فاتَّفقا على التداني . فذلك حيث يقول شاعر الحبّ :

... ... فموعدٌ ... ...

فلمَّا بلغ الأمر أقاصيه . وعصفت شرَّة الشباب بالرأي والجلد . فاستطارتهما . ضرب الصبَّان على سلاسل الأُسر . فتساقطت حلقاتها في صلصلة تصمُّ الآذان . وانطلق سهيل يطلب الثريَّا . وضمَّ الرُّوحين عناق . هو خاتمة السعادة والشقآء .

لله انت يا شوقي بك . إذ تقول :

نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ فكلامٌ فموعدٌ فلقاءُ

هذه رواية الغرام في بيت واحد . لو نطق به الدَّهر . لتاهت صروفه . . .

فصل كتب بالدموع

صحيفة من كتاب خواطري

تعوَّدت أن أكتب ما يمرُّ بي من العجائب في كتاب أحفظه .

سميّته كتاب العجائب . وتعوّدت أن أكتب ما يعنُّ لخاطري على كلِّ عجيبة في كتاب آخر . سميّته كتاب الخواطر . أمّا الكتاب الاوّل فلن يُطبع وأنا حيّ . وأمّا الكتاب الثاني فهذه صحيفة منه .

خلوتُ أمس الى كتبي . وأخذت من بينها كتاب خواطري . وجلست أُقلّب صحائفه . وقد تعالاها اصفرار من القدم . واذا صحيفة عليها نقط . هي آثار دموعي . بقيت خالدة كأنها معانٍ تجسّمت . من غير أن تلبس حلل الألفاظ ، قصّرت عن أدائها لغة الضّاد . فأبانت عنها لغة الأرواح . فلثمتُ تلك الدُّرر التي أذابتها اللّواعج . وأشربتها الأوراق . وأخذت أتلوها . هذا نصُّها :

ليلة تضيع في معاقد ظلمائها أنفاس المكربين . كأنها ذوب الحزن . او نسج الأسى . ساكنة مضطربة . حبا تحت رواقها الشرق . ومُحيت من صحيفة أفقها سطور النجوم . اذا هينم النسيم . خلت السماء تسرُّ الى البحر حديثاً . واذا جاش البحر . حسبت موجه يتواثب ليبلغ السماء . تمرُّ أنّات المظلومين . من ثنيّات الفضاء . فتتفاني في نواحيه . وتتساقط أدمع الباكين على ذاك الأديم الأسود . فتستحيل بخاراً في جوفه . جفون مسهّدة . وأخرى ناعسة . ومضاجع حرّى . وأخرى مبتردة . وأهاويل تجري على أعقاب الجدود الموليّة . وأقدار تصرِّفها يد احتكمت في طرفي الأزل والأبد . من ملك الوجود . تتواقع تحت سلطانها الأحوال والحيل .

يا ربِّ . ما هذه المدهشات ؟ عدل تحار في معاليه العقول . وجلال تضيق عن أقلّه سعة الإدراك . انَّ في ظلِّ حكمك لخلقاً لا

ندري لمن استودعته . كلٌّ ينال من كفَّيه . ومن بين جنبيه . ترتفع اليك شكاياته . وتكاد تهزُّ جوانب ملكك ضجَّاته . ألا رحمة تغيث بها الأكباد المتلهِّفة ؟ ألا نصرة تتدارك بها الأرواح المستطارة ؟ انَّ بهذا الرُّكن . من هذا القصر . لنفساً أشقت ثلاثين مليوناً من الأنفس . ما فضل هذه الواحدة على تلك الملايين ؟

وانِّي لكذلك واذا يد تدقُّ عليَّ باب الحجرة . فدعوت الطارق للدخول . وفي الحجرة مصباح كأمل الحرِّ في إصلاح الشرق . يكاد نوره يكون ظلاماً . فجاوز الباب شخص مؤتزر . يجرُّ فضول أزار أسود . كأنَّه كفن محبَّر . أو ظلٌّ يتهادى . فلمَّا بلغ مكاني وقف . ثمَّ ارتفعت يمين كورقة الآس . مشيرة بالسلام رافعة نقاباً . كان يحجب وجهاً تجول فيه مياه الحسن . وترقرق فيه اصفرارُ شاب احمراراً . حتى أصبح كصفحة الأُفق عند الغروب .

هذه سيدة زائرة . فتمثَّلتُ سرّاً بقول جرير :

طرقتكَ صائدة القلوب وليس ذا
وقت الزيارة « فادخلي بسلامِ »

بلغ منِّي التعجُّب أقصاه . هذا كلام المستريب . غانية حسناء . وفي وحدة المجلس . وتحت استار الليل . وفي البلد عيون تطلب فتجد . وأنا كثير الوشاة . جمُّ الأَعادي فما سرى بهذا الطَّيف ؟ ومن أيِّ خدر زُفَّ الى عزلتي ؟ ولا يجمل بمثلي أن يبدأ الحديث بالسؤال . فسكتُّ سكوت إعياء . ولكن فطنة سكنت تلك النفس الطاهرة أدركت ما بي . فلم تُطل أمد حيرتي . ومدَّت بشمالها ورقة .

ثمَّ استأخرت خطوات . الى أن بلغت الباب . فوقفتْ عنده . فكان في الورقة :

أخي

سُدَّت في وجهي الأبواب . أنـا متوسِّـد مضاجـع السقـام . لا أستطيع حراكاً . واصحابي يتجنَّبون داري . لا يلمُّـون بهـا . حذر الوشاة . تركني الخدَّام . وليس عنـدي رسول أُنفذه إلاَّ جؤذر . هذه شقيقتي . عشت أغار عليها من عناصر الطبيعة . وأنا اليوم أُحمِّلهـا كتابي اليك . أدركني عسى أن اودِّعك بنظرة قبل موتي . بادرْ . بل اركضْ . انِّي احسُّ بيد الموت تمرُّ على جسدي .

اخوك : مظلوم

سبحان الله . مظلوم محتضر . ينشدني بجؤذر . أإلى هذا العش ترقَّت يد الظلم . ألم يبقَ في دوح الشباب طائـر يُصـاد غير هذين القمريَّين . وأنساني الوله أن آخـذ طربوشـي . ولـم اكلِّـم العـذراء كلمة . بل تقدَّمت الى الباب مسرعاً . وأشرت اليهـا أن اتبعينـي . وانطلقتُ أطلب منزل مظلوم . وقد طارت عاصفة . أخذت قطرات الغيث تسحُّ على أجنحتها . فلما بلغـتُ الـدار . طال علـى البـاب وقوفـي . لأنَّ جؤذر لم تكن تقـوى علـى الجـري . فلحقـت بي . وصدرها يضيق على أنفاسها . ومدَّت بيمين مرتجفة مفتاح الباب . ففتحتُه ولا أعلم كيف استطعت . فصعدتُ الدرجـات . وجـاوزتُ غرفة الى غرفة . وأنا أكاد أسقط من شدَّة العدْو .

رأيتُ باب حجـرة النـوم مفتوحـاً . ولاح في الحجـرة ضياء

مصباح . كأنه يدعو بي . فولجت الباب . ودنوت من السرير . وطلبت بنظري المريض . فما راعني إلاَّ جسد براه السقم . حتى لا يُمسُّ . وعينان تضاءَلت فيهما أشعَّة الحياة . وخالط لحظيهما نعاس الموت .

قلت : يا مظلوم . فلم يجاوب مظلوم . وطرف جفناه طرفةً . كانت رجع جوابي .

ـ ما بك يا مظلوم ؟
ـ آه .
ـ تجلَّدْ .
ـ آه .

ثمَّ أومأ الى جؤذر . فاقتربتْ حتى وقفتْ عند قدميه . ثمَّ نظر في وجهي مشيراً اليها . فعلمتُ انه يوصيني بها . قلتُ : هي أُختي . لك عهد الاخاء . فاضطرب قليلاً وسكن . . .

ايتها النفس المروَّعة . بلِّغي خالقكِ انَّا مظلومون . افضي اليه بحاجاتنا . هو يعلمها . ولكن لا بدَّ من نوحة لديه .

شغلتْ جؤذر بالنحيب . وشغلتُ أَنا بورقة . يبست عليها يمين مظلوم . فعالجتُها حتى خلَّصتها . واذا فيها :

« بقرية [. . .] بمنزل [. . .] خبِّريها الليلة . لا أُريد الكتاب . لتبقَ عندها . ولكن لا بدَّ أَن تحضر غداً كلاًّ . لا تحضر غداً . قولي لها . . . » .

فالتفتُّ الى جؤذر . وقلت : حاجة الميت . ثمَّ لك في الوقت متَّسع للبكاء . ما هذه الورقة ؟

قالت : هي ماتت . قلت : وماذا نصنع الآن يا جؤذر بأخيك ؟ قالت : ما أنا جؤذر . . . جؤذر ماتت منذ يومين . وهذا الميت لم يميِّزني عن أُخته . أنا جارته . أنا أحمل رسائل الأَحرار بين فروق وسلانيك . هذا ضُرب في يلديز . وعُذِّب شهراً كاملاً . تولَّ تجهيزه . وأنا غداً راحلة . سلاماً ودمعاً على مراقد الشهداء . . .

صلاة عمومية (*)

ربِّ : الوجود ملكُك . والقدرة حكمُك . والقلوب خزائِن محبَّتك . والعقول مستجلى جلالك . راعِ والديَّ كما رعياني . وأنرْ ليالي الحياة لمن علَّموني . ثمَّ اجعلني بارّاً بوطني . محبّاً لعشيرتي . نافعاً لعبادك . مخلصاً لمن عدل . ناصحاً لمن جار . جريئاً بالحقِّ على الباطل . ناصراً للضعيف المظلوم على القويِّ الظالم . وجمِّل أخلاقي بالصِّدق . وهبْني شمائل الوفاء .

ربِّ : ولتكنْ محبَّتي لك على قدرك . ولتكن أعمالي في رضاك . وابثث الخير في الناس على يدي . وخفِّفْ ويلاتهم بما تهبني من معونتك .

(*) كُتبت لمدرسة « المساواة الوطنية » في أنفه . من لبنان .

ربِّ : إيَّاك أُناجي . واليك أسعى . وعليك أتوكَّل . وبك أهتدي . لك حمدي . وفيك ثنائي . منك البداية . واليك النهاية .

* * *

وقد كتب المؤلِّف معها الى طالب الدعاء الأخ صاحب « المساواة الوطنيَّة » كتاباً هذا بعضه :

عندي لطالب الدعاء . أَحسن دعاء . وعند الله أطيب جزاء . حسبه أَن يهب الناس العلم . كما وهبهم الله الرُّوح . ليطمئنّ الشرق . إنَّ فيه رجالاً يطلعون في حوادثه . كما تطلع النجوم في الليَّالي الدَّاجية .

مصطفى لطفي المنفلوطي

(وُلد سنة 1876 ، وتُوفِّي سنة 1924 م .)

مصطفى لطفي بْن محمد لطفي (قاضـي منفلـوط الشَّرعـيّ) بْن محمد حسن لطفي المنفلوطيّ ، وُلد في منفلوط من مدن الوجه القبليّ في جنوب مصر . خرج من المكتب حافظاً للقرآن ، ودخل مدرسة الأزهر سنة 1888 ، وراسل جريدة « المؤيَّد » سنة 1908 ، وعُيِّن في وظائف كتابيَّة في وزارة المعارف المصريَّة ، وفي « وزارة الحقَّانيَّة » ، وفي « الجمعيَّة التشريعيَّة » ، وإخيراً في « أمانة سرِّ مجلس النَّواب » حيث بقي إلى آخر أيَّامه .

اتَّصل المنفلوطي بالإمام الشيخ محمد عبده المشهور اتِّصالاً وثيقاً . قال محمد حافظ عوض في مقدّمته لكتاب « النَّظرات » يذكر هذا الاتِّصال : « ثمَّ لحق بالمرحوم الشيخ محمد عبده ولصق به لصوق الولد بأبيه ، وأكثر من مصاحبته له في درسه ومنزله ومقدمه ومنصرفه عشر سنين كاملة ، فكمل من علمه ما كان ناقصاً ، ونضج من أدبه ما كان غير ناضج » .

قال سعد زغلول في المقدِّمة المذكورة يخاطب المنفلوطي : « إنِّي لأرى لك في كتابتك شخصيَّة اتمنَّى أن أجدها كثيراً في أقلام الكاتبين » .

وفي المقدِّمة المذكورة قال محمد حافظ عوض : « إن كان صحيحاً ما يقولون من أنَّ الكتَّاب المجيدين في هذا العصر انَّما يستمدُّون روح كتاباتهم من اللغات الأجنبيَّة ، ويستنزلون من سمآء قرائح شعراء الإفرنج وحي خيالاتهم الشِّعريَّة ، فالسِّيد المنفلوطي الذي لا يعرف لغة غير اللُّغة العربيَّة ، ولا يلجأ إلى وحي غير وحي الخواطر النَّفسيَّة ، نادرة كتَّاب العربيَّة في هذا العصر » .

وللمنفلوطي من المؤلَّفات : « النَّظرات » ، و « العبرات » ، و « في سبيل التَّاج » ، و « الشَّاعر أو سيرانو دي برجراك » ، و « مجدولين » ، و « مختارات المنفلوطي » .

وقال الزركلي في كتابه « الأعلام » ، في ترجمة المنفلوطي : « نابغة في الانشاء والأدب . انفرد بأسلوب نقيّ في مقالاته وكتبه » إلى أن يقول : « وبين كتبه ما هو مترجم عن الفرنسيَّة ، ولم يكن يحسنها ، وانَّما كان بعض العارفين بها يترجم له القصَّة إلى العربيَّة ، فيتولَّى هو وضعها بقالبه الإنشائيّ » .

وقال أحمد شاكر الكرمي في « مجلَّة الرَّابطة الأدبيَّة » : « امتاز بسلاسة أسلوبه ، ولطف تعبيره . وتفرد في إيراد المعاني الجميلة بأسلوب محبَّب شفَّاف ، ينساب في النُّفوس ، كما ينساب الزُّلال ، فهو نسيج وحده في نصوع أسلوبه ، وسحر بيانه » .

للمنفولطي أُسلوب صافٍ يسيل عذوبةً . وهو إن لم يكن له في المعاني وثبات تصل إلى النِّهايات القصيَّة ، فانَّ له مسلسلات في لمعان الصِّياغة واتقاد الفرائد تفيض طلاوتها من كلِّ جانب .

الغد(*)

عرفتُ أنى فكرت ليلة أمس فيما أكتب اليوم ، وعرفتُ أني آخذُ الساعة بقلمي بين أناملي ، وأن بين يديَّ صحيفة بيضاء تسودّ قليلا قليلاً كلما أجريت القلم فيها ، ولكني لا أعلم هل يبلغ القلم مداه ، أو يكبو[1] دون غايته ، وهل أستطيع ان أتمم رسالتي هذه ، أو يعترضَ عارض من عوارض الدهر في سبيلها ، لأني لا أعرف من شؤون الغد شيئاً ، ولأن المستقبل بيد الله .

عرفتُ أني لبست أثوابي في الصباح ، وأني لا أزال ألبسها حتى الآن ، ولكني لا أعلم هل أخلعها بيدي او تخلعها يد الغاسل .

الغد شبح مبهم يتراءى للناظر من مكان بعيد ، فربما كان ملكا رحيما ، وربما كان شيطاناً رجيما ، بل ربما كان سحابة سوداء اذا هبت عليها ريح باردة حَللت اجزاءَها ، وبعثرت ذراتها ، فأصبحت كأنما هي عدم من الاعدام التي لم يسبقها وجود .

الغد بحر خِضمٌّ زاخر يَعُبُّ عُبابه[2] ، وتصطخب أمواجه ، فما يدريك إن كان يحمل في جوفه الدر والجوهر ، أو الموت الاحمر .

(*) من كتاب « النظرات » . (ص 65-69) . [المحقق] .

(1) كبا : سقط على وجهه .

(2) يعب عبابه :

لقد غَمُض الغد عن العقول ، ودق شخصه عن الانظار ، حتى لو أن إنساناً رفع قدمه ليضعها في خروجه من باب قصره لا يدري أيضعها على عتبة القصر ، أم على حافة القبر .

الغد صدر مملوء بالأسرار الغِزار ، تحوم حوله البصائر ، وتَسقَّطه[1] العقول ، وتستدرجه الأنظار ، فلا يبوح بسر من أسراره إلا إذا جادت الصخرة بالماء الزلال .

كأني بالغد وهو كامن في مَكمنه رابض في مَجثمه[2] متلفع بفضل إزاره ، ينظر إلى آمالنا وأمانينا نظرات الهزْء والسُخرية ، ويبتسم ابتسامات الاستخفاف والازدراء ، يقول في نفسه لو علم هذا الجامع أنه يجمع للوارث ، وهذا الباني أنه يبني للخراب ، وهذا الوالد أنه يلد للموت ، ما جَمع الجامع ، ولا بني الباني ، ولا وَلد الوالد .

ذلل الانسان كل عقبة في هذا العالم ، فاتخذ نَفقاً في الارض ، وصعد بسلم إلى السماء ، وعقد ما بين المشرق والمغرب بأسباب[3] من حديد ، وخيوط من نُحاس ، وانتقل بعقله إلى العالم العُلوي فعاش في كواكبه ، وعرف أغوارها وأنجادها ، وسهولها وبطاحها ، وعامرها وغامرها ، ورطبها ويابسها ، ووضع المقاييس لمعرفة أبعاد النجوم ، ومسافات الأشعة ، والموازينَ لوزن كرة الأرض اجمالا وتفصيلا ، وغاص في البحار فعرف أعماقها ، وفحص تربتها وأزعج

---

(1) تسقط الخبر : اخذه شيئاً فشيئاً .

(2) مجثم الطائر : موضع جثومه أي تلبده بالأرض .

(3) الأسباب : الحبال وكل ما يوصل بين الشيئين .

سكانها ، ونبش دفائنها ، وسلبها كنوزَها ، وغلبها على لآلئها وجواهرها ، ونفذ من بين الأحجار والآكام الى القرون الخالية ، فرأى أصحابها وعَرَف كيف يعيشون ، وأين يسكنون ، وماذا يأكلون ويشربون ، وتسرّب من منافذ الحواس الظاهرة إلى الحواس الباطنة ، فعرف النفوس وطبائعها ، والعقول ومذاهبها ، والمدارك ومراكزها ، حتى كاد يسمع حديث النفس ودبيب المُنى ، واخترق بذكائه كلَّ حجاب ، وفتح كل باب ، ولكنه سقط أمام باب الغد عاجزاً مقهوراً لا يجرُؤ على فتحه ، بل لا يجسُر على قرعه ، لانه باب الله ، والله لا يطلع على غيبه أحداً .

أيها الشبح الملثم بلثام الغيب ، هل لك أن ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلاً لنرى صفحة[1] واحدة من صفحات وجهك المقنّع ، أوْ لا ، فاقتربْ منا قليلاً علنا نستطيع أن نستشف صورتك من وراء هذا اللثام المسبَل دوننا ، فقد طارت قلوبنا شوقاً إليك ، وذابت أكبادنا وجداً عليك .

أيها الغد ، إن لنا آمالاً كباراً وصغاراً ، وأمانيَ حساناً وغير حسان ، فحدثنا عن آمالنا أين مكانها منك ، وخبرنا عن أمانينا ماذا صنعت بها ، أأذلْتها واحتقرتها ، أم كنت لها من المكرمين .

لا لا . صن سرك في صدرك ، وأبق لثامك على وجهك ، ولا تحدثنا حديثاً واحداً عن آمالنا وأمانينا ، حتى لا تفجعنا فيها فتَفجعنَا في

(1) صفحة الشيء : جانبه .

أرواحنا ونفوسنا ، فانما نحن أحياءُ بالآمال وان كانت باطلة ، وسعداءُ بالاماني وان كانت كاذبة :

وليست حياة المـرء إلا أمــانيا

إذا هي ضاعت فالحياة على الاثر .

سليمان البستاني

(وُلد سنة 1856، وتُوفِّي سنة 1925 م.)

سليمان بن خطار بن سلُّوم البستاني ، وُلد في بكشتين ، من لبنان . وقد درس العربيَّة في « المدرسة الوطنيَّة » لصاحبها المعلِّم بطرس البستاني وتولَّى التَّدريس فيها مدَّةً ، ثمَّ حصَّل العلوم والرياضيَّات على نفسه . حرَّر في « الجنَّة » و « الجنان » و « الجنينة » وقد أقام في العراق مدَّةً يعمل في التَّدريس والقضاء . قصد اسطنبول والقاهرة مراراً ، وانتُخب نائباً عن بيروت في مجلس النوَّاب العثماني ، ثمَّ عضواً في مجلس الأعيان العثماني ، ثمَّ أُسندت إليه وزارة التِّجارة والزِّراعة في إسطنبول . وفي مصر عُيِّن عضواً في عمدة « الجامعة المصريَّة » . وبعد نشوب الحرب العامَّة سنة 1914 أقام في سويسرة ، وبعد الحرب المذكورة قصد مصر ، ثمَّ قصد نيويورك فتوفِّي فيها ، وحُمل رفاته إلى لبنان .

هو مترجم « إلياذة هوميروس » شعراً عن اليونانيَّة ، وقد صدَّر التَّرجمة بمقدِّمة مسهبة في تاريخ الأدب عند العرب وغيرهم ، طارت لها شهرة واسعة .

أمَّا أسلوبه في الكتابة فصافٍ ، واضحٌ ، منزَّهٌ عن اللَّغو ، هيهات

أن يتَّخذ له شيئاً من الزِّينة . وانَّك لا تجد عنده تلك الوثبات البيانيَّة الَّتي تبلغ مبالغها العالية ، بل تجد نسَقاً يتتابع بعضه في اثر بعض سْهلاً ، متيسِّراً ، كمنوال الحرير آلية في اطِّراد النَّسج .

له في النَّثر : « عبرة وذكرى » ، و« الدَّولة العثمانيَّة قبل الدُّستور وبعده » ، و« الاختزال العربيّ » . وقد ساعد في إصدار ثلاثة أجزاء من « دائرة المعارف » البستانيَّة ، ونشر في بعض المجلاَّت والجرائد مباحث بين الأدب والاجتماع كثيرة .

هومير وس في « الإلياذة »[1]

أبرز لك بالتَّشبيه الصَّادق جميع صفات البشر ، وما يقابلها من صفات الحيوان بجميع حالاته ، فنظر إلى الكبير منها والصَّغير ، والقويّ والضَّعيف ، والوحشيّ والدَّاجن . فوصف الأُسود ، والذِّئاب ، والخرانيص والمها ، والظّبى ، والأيِّلة ، وغير ذلك ممَّا لم يستذلَّه الانسان . والخيل ، والحمير ، والبغال ، والكلاب والبقر ، والمعز ، والغنم ، وغير هذا ممَّا دخل في حظائر النَّاس .

وتناول الطُّيور من النُّسور ، والعقبان إلى البطّ ، والأوزّ ، والرّهو ، والغرانيق ، والزَّرازير ، والحمام . وانعطف إلى الزَّحَّافات والدَّبَّابات والدِّيدان ، وانتهى إلى الهوامّ والحشرات فوصف الأفاعي ، وشبَّه بالصَّراصير والزَّنابير والنَّحل والذُّباب . « وإنَّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها »[2] .

ولقد عابه بعض المتسرِّعين على التَّشبيه بصغار الحيوان . ولكنَّك إذا نظرت إلى كلّ ما قال فيها علمتَ انَّه إنَّما ذكر الشَّيءَ الحقير ليستخرج

---

(1) وهو فصل من مقدِّمة البستانيّ « للالياذة » . (ص177-179 من طبعة مجلة « الهلال » بمصر سنة 1904) . [المحقِّق] .

(2) من « سورة البقرة » .

منه الأمر الخطير . وتلك عبرة يجب أن يُنظر إليها بعين الإعظام والإكبار . فأيُّ تشبيهٍ لعصبة تذود عن حوضها وتتفانى في الدِّفاع عن العرض والمال أوقع من قول الشَّنفرى مشبهاً بالنحل والزنابير :

والنحل لا يتخلَّى عن خليَّتهِ ... مثل الزنابير ذبت عن خشارمها[1]

وأي تمثيل لجيش كثيف يمور وجند من حول زعمائها تدور اصح من قول عنترة مشبهاً بالذباب :

حلُّوا بضفته في عدةٍ غمضت ... يصلَون نار انتقام داخل الكبدِ
مثل الذباب اذا حان الربيع وقد ... حامت بعنة راعي العنز والنَّقدِ
تهافتت تبتغي الالبان هاجمة ... على القصاع بلا حصر ولا عددِ
وكل سيِّد قوم قام منفرداً ... بهم كراعٍ بما يستاق منفردِ

ثم انه نظر الى الطبيعة فتناول بتشبيهاته منها كل ما يلوح للناظر ويروق الخاطر فوصف النار من القبس والشرار الى الحريق الذي يلتهم الغاب ويدمر المدن الكبار . ووصف الاهداء والأنواء من النسيم العليل الى الزوبعة والعاصفة والإعصار الوبيل . وجمع المهابّ من صبا ودبور وجنوب وشمال . والسحب والامطار من البخار المتصاعد حتى الغيم المتلبد ومن القطر الى الغيث المدرار والسيل الهدّار . واحاط بالبروق والرعود وظواهر الجوّ من قوس قزح حتى الشهب الثواقب . وضرب في الفيافي وصعد الجبال فمثل بالتشبيه جميع ما فيها من شجر وغاب وصخر وتراب ووصف الورقة الجافة والشجرة

---

(1) خَشْرَم الزنابير : مأواها .

الشماء . وارتقى الى عالم الافلاك واتخذ ما شاء لموصوفاته من شمسها وقمرها وثوابتها وسياراتها . ثم خاض عباب البحر فاخذ بناصية حيتانه ونينانه وسائر سكانه من حيوان وجان . وتلقى عجاجه واستقبل امواجه ومثله صافياً وساكناً ومشتدّاً ومربدّاً ومزبداً مرعداً . وجال في الاقطار وعبر الانهار فولج جوف الارض فمثّل ما فيها وما تحتها وما يكتنفها من ماءٍ وهواء .

واذ فرغ من ذلك مدَّ بصره الى احوال البشر فما الهاه الملك الوقور والزعيم الجسور عن الجندي الفقير والطريد الكسير . وما اغفل عاملاً ولا صانعاً ولا تاجراً ولا زارعاً . وتطرق الى الشؤون البيتية فما غادر ابّاً ولا امّاً ولا زوجاً ولا زوجة ولا اخاً ولا اختاً ولا ابناً ولا ابنة والمّ بكل قريب ونسيب . وبحث في اطور الحياة فمثّل حالة الشيخ والكهل والشاب والطفل . وهو في كل ذلك مستنفر الى الخير منفرٌ من الشر يشتدُّ موضع الشدة ويرقُّ موضع الرقة . فيقف بك تارة ترقب العواصف والانواء وقد اكفهرّ الجوّ واضطرب اليم ومادت الجبال وزلزلت الارض زلزالها ثم ينثني بك طوراً وقد هاج العاطفة واستنزل الحنان بالتمثيل النافذ والتشبيه السهل الممتنع فترى وصفه في معظم ذلك غريب الصنعة قريب التناول . فأيُّ وصف للائذ أصدق من لياذ الطَفلة بأمّها اذ يقول :

شهقت كطفل جرت تسرع ، ومن دونها امها تهرعُ
فتعلق في ذيل أثوابها ، ومقلتها صبباً تهمعُ
وترسل طرفاً بليلاً إليها ، عساه بذلّتها يشفعُ
وتجذبها ، وهي ضارعةٌ لتحملها ، فتكفُّ البكاء

واي تمثيل اصدق وارق من قوله مشبهاً موت فتى غض الاهاب في مقتبل الشباب وقد مال رأسه على صدره وهو يُحتضر:

فرأس الفتى لما بمحنته مُني بمغفرِهِ المسرود أُثقل ينحني
كزهرة خشخاش بيانع روضة يثقّلها طلٌ الربيع فتنثني

وكان مبغضاً للاغراب في اللفظ والمعنى الا ما ترضاه الخاصة وتفهمه العامة ينتحي مجاراة الفطرة وانطاق الطبيعة . يسعى الى الحقيقة ، ولا يتوخّى المجاز ، فلا يتطلّبه في شعره ولا يتجنبه اذا عبّر عن فكره . ولهذا كان كالجاهليين من العرب كثير التشبيه قليل الكنايات والاستعارات لا يأتي المجاز إلا مرسلاً فجاء جميع ما ورد منه في شعره آية في بابه على قلّته كقوله « وأغمض عينيه ستر المنون » . وقوله : أو تفغر الحرب المهدمة الفما . وامثال ذلك من الاستعارات البسيطة السهلة .

أحمد شاكر الكرمي

(وُلد سنة 1894، وتوفِّي سنة 1927 م.)

هو أحمد شاكر بْن سعيد بْن علي بْن منصور الكرمي . وُلد في طولكرم ، في فلسطين ، وتوفِّي في دمشق . أَصل أُسرته من عرب اليمن ، نزح أَجدادها إلى مصر ، ثمَّ نزحوا عنها إلى فلسطين . وقد تعلَّم في الأَزهر . وفي سنة 1917 غادر القاهرة إلى مكَّة للتَّحرير في جريدة « القبلة » ، وبعد مضيٍّ سنة رجع إلى القاهرة ، وحرَّر في جريدة « الكوكب » الاسبوعيَّة ، وأكبَّ على درس اللُّغة الانكليزيَّة . وعاد بعد ذلك مدَّةً إلى طولكرم ، ثم غادرها إلى دمشق ، حيث كان والده نائباً لرئيس « المجمع العلميِّ العربيِّ » ، فوظِّف في دمشق ، سنة 1920 ، كاتباً في دائرة المحاسبة في « سكَّة حديد الحجاز » . وفي سنة 1924 استقال من الوظيفة واتَّخذ دمشق دار اقامة له ، وطفق يكتب بين الأَدب والاجتماع في الصُّحف السُّوريَّة ، مستعيراً لما يكتبه فيها اسم « قدامة » . وساعد سنة 1921 في إنشاء جمعيَّة « الرَّابطة الأَدبيَّة » وتحرير مجلَّتها في دمشق . وفي سنة 1923 حرَّر جريدة « الفيحاء » ، وفي سنة 1925 أَصدر جريدة « الميزان » أَدبيَّة أُسبوعيَّة ، وأَوقفها عن الصُّدور سنة 1926 لمرض السِّلِّ الَّذي قد برَّح به .

آية الكرمي : الصَّفاء في المعنى وفي المبنى ، فأسلوبه يشفُّ عمَّا وراءه ، خالياً من كدر الغموض والمعاظلة . ذلك إلى رونق في الدِّيباجة ، وسلامة في اللُّغة في مقوله ومنقوله إلى العربيَّة . وترى له في النَّقد نظراً بعيد المرمى ، نافذاً ، يتناول أيسر الدَّقائق .

قالت ماري عجمي في مجلَّة « العروس » : « يستخرج عواطفه من نبعها الطَّبيعيِّ الصَّافي ، المتدفِّق مشاعر حيَّة . وقلَّما عرفنا لأدباء هذا العصر ميزة هذه الشَّخصيَّة الباهرة ، مقرونة بميزة التَّدقيق ، وجمال الأسلوب ، واناقة اللُّغة ومتانتها » .

له من المؤلَّفات : « الكرميَّات » الجزء الأوَّل ، ورواية « ميّ أو الخريف والرَّبيع » عن الإنكليزيَّة لشوسر ، ورواية « خالد » عن الإنكليزيَّة أيضاً لماريون كروفورد .

وقد أخرجت « وزارة الثقافة والارشاد القوميّ » السُّوريَّة ، سنة 1964 ، كتاب « أحمد شاكر الكرمي ، مختارات من آثاره » ، جمعه الأُستاذ عبد الكريم الكرمي وقدَّم له الأُستاذ فؤاد الشَّايب .

الكاتب والجمهور[1]

يكتب الكاتب لنفسه أو لصديق من أصفيائه ، فلا يبالي بتطرفه في الرأي ، أو خروجه على عقيدة موروثة ، أو تجاوزه حداً من الحدود التي فرض المجتمع على الناس الوقوف عندها .

ولكنه لا يستطيع أن يسلك هذا السبيل فيما يكتبه للجمهور ، ان الجمهور عدو في ثياب صديق ، فهو يطرب لما يكتبه الكاتب ، ويظهر له الحب والاعجاب ، وقد يتولع به ويعبده أيضاً ، ولكنه لا يتسامح معه البتة ، بل تراه على استعداد دائم للانقلاب عليه واسقاطه عندما يشتم منه رائحة الخروج عن عقائده وعاداته ، فهو يحاسبه على أتفه الامور ، ويحكم عليه أحكاماً قاسية لاقل الهفوات ، والانكى من هذا ، انه لا يقبل في احكامه استئنافاً ولا تمييزاً .

ان أغبى الكتاب وأشدهم عمى وحماقة ، هو الذي يخدعه رضى ذلك المولى الاحمق الذي يسمونه الجمهور .

ملء الفراغ

الكتّاب في كل الامم طبقتان ، طبقة تكتب لتشرح حقيقة ، وطبقة تكتب لتملأ فراغاً ، تعرض للطبقة الاولى فكرة أو يمر ببالها خاطر أو تقع لها تجربة من التجارب ، فتكتب للفكرة السانحة او

---

(1) كل هذه القطع من « مختارات الكرمي » . [المحقق] .

الخاطر الطاريء والتجربة الواقعة ، أما الطبقة الثانية فلا تكتب لشيء من ذلك ، بل لملء فراغ يطلب منها ملؤه ، أو ينالون من وراء ملئه مغنماً ، وهذه الطبقة وحدها ، هي التي تفسد جو الادب دوماً ، بما تطلقه فيه من الغازات المضرة والاهوية العفنة .

ولقد كان رجال هذه الطبقة ، يحصرون نتاج أدبهم في الصحف وبعض المجلات ، ولكنهم تجاوزوا ذلك الحد في هذه الايام ، وبرزوا الى ميدان التأليف ، فأفسدوا بعملهم هذا صناعته ، كما أفسدوا صناعة الصحافة من قبل ، وهم مع هذا كله ، يعيشون من الكتابة ويملأون من فراغ عقولهم فراغ جيوبهم وفراغ القراطيس .

مخافة النقد

ليس للجبن دخل في كمال مواهب الرجل ، لكنه مما يقتل تلك المواهب ، أو يخفيها ويحول دون ظهورها ، ففي الناس كثيرون من ذوي المواهب الطيبة ، التي ينتفع الناس بجهودها حتماً ، اذا فسح لها مجال العمل ودفعت الى ميدانه ، ولكنهم يجبنون عن الدخول في الميدان ، ويفرون منه ، مخافة كلمة تقال عنهم ، يرضون بالخمول ما دام في الخمول راحة ، ويهربون من المعركة مخافة عار الانكسار ، ولو أنهم ثبتوا لجاز ألا يفوتهم مجد الانتصار ، سامحهم الله ! . . انهم لا يعلمون ان الذين يخافون النقد لا يعملون في العالم شيئاً ولا يقولون شيئاً بل ولا يكونون في الحياة شيئاً أيضاً .

متمردون

يريد أحدنا أن يكون طبيباً ، فيقضي السنين الطوال في الدرس

والتعلم ، ثم يدخل الفحوص والامتحانات ويذوق أمرّ العذاب ، قبل أن يسمح له أن يكون طبيباً .

وهكذا يفعل ، اذا أراد أن يكون مهندساً أو محامياً أو ما أشبه ذلك ، واذا أراد الرجل منا أن يكون خياطاً أو اسكافاً أو بناء ، فلا بد بأن يتعلم صناعته ويحذقها قبل أن يقدم على الاشتغال بها .

بل اذا أراد الرجل ان يكون لاعب شطرنج أو نرد أو ورق ، فلا مندوحة له عن أن يتلقن قواعد اللعبة التي يريد أن يتعلمها ويعرف أصولها وطريقة ترتيب أدواتها ، قبل أن يقدم على اللعب بها .

هذه حقيقة بدهية ، يفهمها الناس جميعاً من غير كد ولا تعب ، فما بال بعض الناس الذين يحاولون أن يكونوا كتابا ، لا يحبون الاعتراف بها .

تعصف في رؤوس بعضنا عاصفة الطموح ، وتدب في عروقهم حمى الطمع في الشهرة وبعد الصيت ، فيندفعون الى الكتابة أو يهيئون أنفسهم لشيء منها ، فيشوهون وجه الادب بالخبائث التي ينفثونها والجراثيم التي يبثونها . اذا كانت الكتابة علما فحري بالناس ألا يقدموا عليها ، الا كما يقدمون على بقية العلوم ، وواجب عليهم أن يدرسوا قواعدها ويحذقوها قبل أن يخوضوا غمارها ويشتغلوا بها .

واذا كانت صناعة من الصناعات ، فخليق بالراغبين في احترافها ألا يحترفوها الا بعد الاتقان وطول المران عليها ، والوقوف على أسرارها وأصولها .

واذا كانت ملهاة أو لعبة ، فجدير بمن يود التلهي بها ، أن يلم قبل الاقدام على اللعب بها ، بترتيبها وطرق لعبها وأساليب الغلبة فيها وما الى ذلك من الامور التي تنفي الجهل وتؤدي الى المعرفة .

اذن ما بال بعض أدعياء الكتابة عندما ، يقدمون على الكتابة ، من غير أن يكون لهم بها علم العالم بعلمه ومعرفة الصانع بصناعته والمام اللاعب بلعبته ؟ ذلك لانهم متمردون ، يخطئون في اللغة ، فاذا نبهتهم الى أخطائهم قالوا لك اننا متمردون .

ويغلطون في قواعد الاعراب ، فاذا كشفت أغاليطهم أجابوك بأنهم متمردون . ويحيدون عن قواعد البلاغة وأساليب البيان المقررة ، فاذا عاتبتهم أو لمتهم قالو لك : اننا متمردون .

فما هو ذلك (التمرد) العجيب ، الذي يجعل الادب عبثا محضاً وسخافة خالصة ، ويخرجه من عالم الفنون الرفيعة ذات القواعد المقررة والاصول المحكمة ، الى فوضى شنعاء ، لا أول لها ولا آخر ولا حد ولا غاية .

يقولون : اننا متمردون على اللغة وقواعدها وعلوم البلاغة ومقرراتها ، اننا قوم نتعلق بالمعنى ولا نبالي بالالفاظ وطرق صياغتها .

حسن جداً ، فأين هي معانيكم الرائعة التي تفادون في سبيلها تلك المفاداة الكبرى ؟! نرجع الى معانيكم هذه ، فلا نرى أنها أجود من ألفاظكم ولا أسمى ، بل هي لو صيغت في صيغ فصيحة لما كان لها ميزة على العادي مما يكتب ويقال ! فالتمرد اذا ليس الا جهلا

محضا يستره أهله بوقاحة بالغة وصفاقة وجه غريبة ، و (المتمردون) ليسوا الا جهالا وقحين .

موازين الشعر

كان الشعر والموسيقى في أوائل حياتهما فنا واحدا كما يقول سبنسر ، الا أنهما افترقا بعد ذلك ، واستقل كل منهما عن الاخر ، وليست هذه الاوزان التي نراها في الشعر ، الا أثر من آثار اتحاده الاول مع الموسيقى ، بقي له بعد الانفصال ، كما بقيت الاعضاء الاثرية في بعض أنواع الحيوان ، والفرق بينهما أن للاوزان في الشعر منفعة ومكانة ، اما تلك الاعضاء فانها زائدة لا فائدة لها ولا نفع .

والشعر العربي جار على حكم ذلك الرأي ، فان العرب الاولين لم يكونوا يعرفون اسماء تلك الاوزان ، ولا أعلام تلك القوالب التي كانوا يصبون فيها ما يجيش في صدورهم ، من مختلف العواطف وتنوع الاحساسات ، وما زال هذا شأنهم ، حتى جاء علماؤنا المتأخرون ، فسنوا قوانين خاصة لتلك الموازين ، وحصروها في حدود لا تتجاوزها ، ووضعوا لها أسماء تعرف بها ، كان الخليل بن أحمد ، صاحب الفضل الاعظم في ذلك العمل الذي كان نافعاً للشعر ومضرا أيضاً .

تدنى الناطقون بالضاد بعد رفعتهم ، وأصيبوا بالجهل والانحطاط ، ونضب في نفوسهم معين النبوغ والعبقرية ، بتأثير العوامل التي انتابتهم ، الا أنه بقي لهم الشوق الملح للشعر ، فكانت تلك الموازين الممقوتة ، أكبر مشجع لكثير من الناس ، الذين لم

تزودهم الطبيعة ولا التهذيب بالمواهب اللازمة ، على الاندفاع في نظم الشعر ، ولم يصدهم عن ذلك ما يشعرون به في أنفسهم ، من نقص الاستعداد وعدم موافاة الطبع .

انهم درسوا العروض ، وعرفوا بحور الشعر وموازينه وعيوبه ، حتى غدوا ينظمون الكلام الموزون الجاري على قواعد الخليل ، ولكنهم مع هذا كله ، ومع كل اسف أيضاً ، لم يصيروا شعراء ، ولقد كان مثلهم فيما ذهبوا اليه ، مثل رجل عثر على قالب مما يسك فيه الدينار ، فخطر له أن يصوغ الدنانير ، وقال في نفسه : ماذا ينقصني بعد أن وصلت يدي الى القالب ، ثم بحث في بيته ، فلم يجد الا قطعا عتيقة من نحاس وحديد ، فصبها في ذلك القالب وأخرجها بعد حين ، فاذا لها نقش الدينار وشكله وحجمه وليس لها قيمته وبهاؤه .

ولا يزال كثير من ناظمي الشعر عندنا ، يعتقدون أن الشعر لا يحتاج الى شيء ، سوى القافية والوزن ، وان صناعته من الصناعات التي يحذقها الانسان ، بعد قراءة قليل من كتب الادب والمجلات والصحف ، ولا يعلمون هداهم الله وغفر لهم ، ان هناك الهاما إلَهيًا يملأ نوره القلب ، فيفيض تارة على أطراف اللسان فيكون شعرا ، ويسري طورا الى البنان فيكون صناعة وتصويرا ، وينفذ آونة الى القلب فيكون فلسفة وحكمة ، وان الشاعرية شيء لا يأتي بالقهر والغلبة وقسر النفس ولا ينال بالتعمل والتكلف .

أمثولة العنكبوت

اشتد الحر، ولجأت الهوام والحشرات إلى الظل، تنشد في رحابة الراحة والسكون، ورأيت وأنا جالس أردد الطرف هنا وهناك عنكبوتاً رابضاً على الجدار، وقد انتشرت حوله أسراب الذباب وهو يجدّ في مطاردتها، فلفت نظري ذلك المشهد، وظللت أراقبه علي أرى أمراً يستحق التدوين، ولم يمض إلا زمن يسير، حتى رأيت العنكبوت الرابض ينقضّ على ذبابة قريبة منه، فيأخذ بخناقها ثم أبصرته يضمها إليه ويلصق بها فمه، فقلت سبحان الله، أن الخبيث يقبلها ويحنو عليها، ثم أبصرته يحرك أرجله حركة سريعة حول جسم تلك الذبابة، وبعد قليل رأيت سوادهما يتحول إلى بياض، فقلت ما أعجب شأن هذا الشيطان، لقد كساها حلة من خيوط نسجه، وكنت أشاهد الذبابة وهو دائب على العمل، تحاول التملص والانفلات، فأظن أنها تظهر التمنع والدلال لتزيده بها حباً وكان هو كلما بدرت منها بادرة، أدناها من فمه فقبلها قبلة تهدأ على أثرها قليلاً، ثم تعود إلى سابق سيرتها، وما زال هذا دأبه حتى هدأت حركة الذبابة هدوءاً تاماً، فقلت لقد نامت السعيدة نوماً هنيئاً على نغمات القبل اللذيذة، ثم تركها العنكبوت على أثر ذلك وأخذ يبحث عن سواها، وخطر لي أن أنظر ما جرى للذبابة الساكنة، فدنوت منها وأمسكتها، ثم قلبتها فإذا هي ميتة، وأخذت أميط عنها ذلك الثوب الأبيض الرقيق، فلما انتهيت من ذلك، رأيت أنه لم يبق منها إلا قشرة رقيقة جوفاء، فقلت في نفسي لقد قتلها ذلك الشيطان، وأنا أظن أنه كان يقبلها ويحنو عليها ويخلع عليها الحلل والبرود، لقد كانت قبلات ذلك الشرير سماً زعافاً، أورد المسكينة

حتفها، وكانت الحلة البيضاء الناعمة التي كساها إياها، غلا يحول بينها وبين الفرار ويمنعها من الخلاص والانعتاق.

ان البشر يفعلون ما يفعل العنكبوت في اصطياد بعضهم بعضا ، فاذا رأيت شابا يظهر حبا وعطفا على فتاة ، فاعلم أنه يريد أن يفسد حياتها بسمومه ، واذا رأيت قويا يخلع على ضعيف حلة غالية ، فاعلم أنه يريد أن يجعلها له كفناً ، ليس الناس الا كعناكب قتالة ، وقد زادهم التهذيب حذقا في تقليد الحيوانات المفترسة والهوام المضرة .

الشعر والتاريخ

رأى كثير من العلماء الذين عنوا بتاريخ الامة العربية وألفوا فيه ، ان الشعر العربي مصدر من المصادر التي يستقي منها تاريخ العرب ، وانه ركن ركين من أركان معرفة وقائعهم وحوادثهم وأطوارهم وأحوال عصرهم ، خصوصا في أيام جاهليتهم التي لم يبق لنا من أخبارها الموثوقة الا قليل ، ولم يكن هذا الرأي جديداً مستحدثاً ، بل هو قديم العهد ،عمل به مؤرخو العرب الأولون ومدونو أخبارهم واعتمدوا عليه في معرفة أحوالهم وأمورهم في ذلك الحين ، وقد سلك العلماء المحدثون سبيلهم في ذلك ، وجروا على هذا الرأي ، الا أنهم نقحوه وقيدوه واشترطوا له شروطاً خاصة ، سنأتي على بيانها فيما بعد .

والشعر كله يفيد التاريخ ، الا أن أكبره فائدة هو الذي يحتوي على أحد شيئين : اما على ذكر حوادث عامة ، وعلى وصف أحوال الناس أو طوائف خاصة منهم وبيان ما كانوا عليه من عادات وأخلاق ، واما

على وصف أمور فردية وذكر ما يتعلق بشخص واحد من الناس ، وشرح شيء من أطواره وأخلاقه وحوادثه ، وفي الشعر العربي - الجاهلي والاسلامي - من كلا النوعين ، شيء كثير ، وقد دوّن المؤرخون الاولون من العرب جزءاً كبيراً من تاريخ أهل الجاهلية ، اعتمادا على ما نقله اليهم الرواة من الشعر الجاهلي ، ويظهر ذلك أكثر وضوحا في بيان أحوال عرب الجاهلية الادبية وأمورهم الاخلاقية ، فاننا لا نبالغ اذا قلنا ان المؤرخين استقوا أكثر ما قالوه في ذلك مما وصل اليهم من الاشعار التي تشرح عادات الجاهليين وأخلاقهم ، وما وصلت اليه نفوسهم من التهذيب والكمال ، فتراهم يقولون : كان أهل الجاهلية يحمون الجوار ويفون بالوعد ويكرمون الضيف ويأبون الذل ، لانهم وجدوهم يذكرون تلك الصفات في أشعارهم ويرددونها ويفخرون بها ، وهكذا تراهم يذكرون أيام العرب وحروبهم بما قالوه فيها من الشعر أيضاً .

غير أننا لا ندري كيف كانت طريقة استدلال أولئك المؤرخين بالشعر ، ولا نعرف الاسلوب الذي اتبعوه في اعتمادهم على الشعر في تدوين أخبار العرب في الجاهلية وشرح أحوالهم وأفكارهم وعقائدهم ، ولا نعلم أكانوا يزنون ما ينقله اليهم الرواة ويمحصونه ، وما هي طريقتهم في ذلك ؟ أم كانوا لا يبالون بتمحيص ما يصل اليهم وتحقيقه ، ولا يأبهون لتحري صدقه ومطابقته للواقع ، الا أن الذي لاحظه كثير من الناس ، هو أن أغلب المؤرخين الاولين ، كانوا يلتزمون خطة نقل كل ما يسمعونه من أفواه الرواة ، ويجمعون ما يصل اليهم ، من غير أن يعنوا بتمحيصه ، ومنهم من لم يكن يبالي بسرد

روايتين متناقضتين عن حادثة واحدة من غير أن يتعرض لنقض احداهما أو ردها ، وهي طريقة تدل على الامانة العظيمة وان كانت تعد نقصا في التحقيق .

أما المؤرخون المحدثون ، ونخص منهم أهل الغرب ومن اتبع طريقتهم من رجالنا ، فقد ضيقوا هذا الباب كثيراً وادعوا أن تلك الطريقة محاطة بالظنون والشبهات ، واشترطوا لها شروطاً قلما يمكن تحقيقها ، فقد قالوا كانت أمة العرب أمة لا تعرف الكتابة ولا القراءة ، ولم تكن تدوّن وقائعها ولا تكتب أشعارها ، بل كانت تعتمد في حفظها على استظهارها ورواياتها ، وكان فيها رجال يحفظون في صدورهم حوادث حروبهم واشعار شعرائهم ويتناقلونها على ممر العصور ، وهؤلاء هم الذين أوصلوا الينا الاشعار الجاهلية وتناقلوها خلفا عن سلف ، حتى جاء دور التدوين والكتابة ، ويقول أولئك العلماء ان ما ينقل بتلك الطريقة المحاطة بالشبهات لا يجوز الجزم بصحته ولا بناء حكم من الاحكام عليه ، لان ذاكرة الانسان معرضة للخطأ والنسيان ، ونقل الخبر الواحد من رجل الى آخر ، لا يسلم من التحريف والتغيير ، وقلما تسلم الروايات من الزيادة والنقص ، ويقولون : لقد كنا ننظر بعين الارتياح الى رواية التاريخ والشعر لو رزقت تلك الرواية ما رزقته رواية الحديث من العناية والاهتمام ، أما وهي لم ترزق مثل تلك العناية وذلك الاهتمام ، فان الركون اليها والاعتماد عليها لا يكون من الحكمة والحزم بل هو تفريط واهمال ، والدليل على عدم العناية برواية الشعر ، ما اشتهر عن بعض شيوخ الرواة كحماد الرواية مثلا من الكذب ونسبته أشعارا الى غير أهلها وادخاله فيها ما ليس منها ، مما

يحمل من كان مثلنا على الشك في كل ما رواه أو جاء من طريقه ، ويقولون : ومما يدلنا على ضعف الرواية ويدعونا الى عدم الثقة بها ، ما نراه في المعلقات ، فان هذه القصائد التي قالها شعراء متعددون من قبائل مختلفة وبلاد متفرقة قد جاءت على نسق واحد وبلغة واحدة ، مع أن فيها ما قيل قبل أن تتوحد لغة قبائل العرب وتسود لغة قريش ، فلو صحت نسبة تلك القصائد الى من نسبت اليهم من شعراء القبائل المختلفة ، لوجب أن يكون في أساليبها وألفاظها اختلافات كثيرة.

لهذا كله يرى العلماء المحدثون ، ان صحيح النسب من الشعر الجاهلي قليل ، ويقولون ان الاستشهاد به غير حميد ، ونحن وان كنا لا نقوى على دفع شبهاتهم كلها ، الا أننا نراهم قد سلكوا مسلك الغلو والاغراق في رأيهم ، فحكموا أن الشعر الجاهلي مشكوك في صحته لشكهم في جزء قليل منه وأعرضوا عن أمر مهم قد كان من الجائز أن يشفي شكهم ، وهو الاستدلال على صحة نسب الشعر في الجاهلية ، بوجود الروح التي اختص بها شعر تلك الايام ، فان لشعر كل عصر روحا خاصا يسهل تمييزه عن سواه بواسطته ، فاذا لاحظنا هذا ، سهل علينا أن ننقّي شعر الجاهلية من الزوائد ونصفّيه من الدخيل ، وتسنى لنا أن نطمئن الى استخراج ما يهم التاريخ من ذلك الشعر المصفى ، أما أمر نسبة البيت أو القصيدة الى شاعر معين عندما يعرض الشك ، فلا يضيرنا ، خصوصا وان لاساليب الشعراء أيضاً ، صفات خاصة تتمايز بها وتدركها الأذواق .

وقد بقيت لنا كلمة أخرى في طرق الاستدلال بالشعر على حوادث التاريخ نرجئها الى بحث آت .

طور الهدم

الهدم ـ وهو أظهر مميزات هذا التطور في تاريخ الادب العربي ـ عمل فني جليل لا يستطيع القيام به ، الا من رزق فقها جما في فنون الادب ، وأوتي بسطة من العلم بأسرار البلاغة ودقائقها وأغراضها ، على عكس ما يظن كثير من الناس ، وان حاجة الادباء الى محصول علمي بعيد مدى القرار ، ورأي ناضج وذوق سليم ، عندما يتصدون لمحاربة المختل من طرائق الادب وأساليبه ، وتنقية حقوله من النباتات الطفيلية والاشواك التي تظهر فيها ، مثل حاجة المهندس الى البراعة والمهارة ، عندما ينوي هدم الابنية المتداعية والتي لا تنطبق على أصول الصناعة وقواعدها ولا تتفق مع الذوق الفني .

ولقد رأيت كثيراً من الناس يتوهمون أن الهادمين من رجال الادب ، سيحملون بمعاولهم على كل قديم ، حسن أو خبث ، وهم على خطأ فيما يتوهمون ، وان كان لهم عذر في ذلك ، فان معنى (القديم) في قولنا رجل قديم وطريقه قديمة ، يكتنفه الغموض والابهام ، ويحتاج الى تحديد وتفسير ، فالقديم في هذا الموطن ، لا يراد به ما تطاولت عليه الازمان وتعاقبت العصور ، ولكنه يطلق تجوزا على طريقة كثير من المعاصرين ، الذين يرون الخير كل الخير ، في تقليد بعض المتقدمين ، وسلوك الطرق التي سلكوها ، من غير نظر الى موافقتها لروح هذا العصر وذوق أبنائه ، ثم هم مع ذلك يعجزون عن محاكاة القديم ولا يرتضيها الجديد ، هؤلاء هم الذين

يسمون في عرف الادب الحديث (قدماء) وهذه هي طريقتهم (القديمة) ، ولا حاجة لي على ما أظن ، الى بيان فساد هذه الطريقة وبعدها عن روح الادب الصحيح ،فقد أصبح هذا الرأي حقيقة يعتقد بها الفريق الاعظم من المتأدبين ، وان كان بعضهم لا يزال يكابر فيها لطول ألفته تلك الطريقة واستئناسه بها ، الا أن هذه المكابرة لا بد أن تنتهي بالاذعان والتسليم عاجلا أو آجلا ، فان الحرب التي أجج نارها جبران وحزبه في المهجر على تلك الطريقة ، والمدافع التي صوبها العقاد والمازني وأشياعهما الى صدور أهلها ـ وان اختلف الفريقان في طريق العمل ، فسلك أحدهما طريقاً ايجابياً والآخر طريقاً سلبياً ـ هي ولا ريب بشير الثورة المقدسة التي يرتقبها الادب العربي بفارغ الصبر ، ونذير العاصفة التي ستطهر صفحة محيط آدابنا ، من تلك السفن البالية الاشرعة ، التي كانت ولا تزال تجول فوق متنه الهادىء ، من غير أن تخشى ضيراً ، وسنرى كيف تحطمها كما يحطم الحجر الاصم لوح الزجاج ، وتقذف بها على ساحل الهلاك حيث تدفن بقاياها الى الابد .

وقد دعاني الى كتابة هذه الكلمة ، صدور الجزء الثاني من كتاب « الديوان » ، الذي يشتغل بتأليفه ووضعه (العقاد والمازني) ، والذي أحدث في عالم الادب ضجة لم يسبق لها نظير ، « والعقاد والمازني » أديبان كبيران ، وشاعران شهيران ، عرفا بسعة الاطلاع على الادب العربي والاداب الغربية ، وقد رميا في كتابهما الى غرضين اثنين : الاول هدم أبنية المذهب القديم وبيان دخائله وعيوبه ، والثاني : الابانة عن المذهب الجديد في الشعر والنقد والكتابة ، وقد انقسم

المتأدبون في النظر الى علمهما ، الى قسمين ، اضعفهما ، المعارضون الذين غضبوا لتحطيم الاصنام التي سجدوا لها أمدا طويلا فقاموا يدافعون ويناضلون ووقفوا في وجه مهاجميهم ولكنها وقفة السدود المتداعية أمام السيل الجارف ، وقد وصموا مؤلفي الديوان بكل نقيصة ، ونسبوا اليهما كل سيئة ، ولكنهم نسوا وتناسوا أن ينفوا كفاءة الرجلين للهدم ومعرفتهما بطرقه الفنية ، وأنا وان كنت لا ابريء عمل العقاد والمازني من كل عيب ، الا أنني مع ذلك ، أعده من أعظم المجهودات الفنية ، التي تصدّى للقيام بها أدباؤنا في العصر الجديد ، وليس يدرك قيمة هذا العمل تمام الادراك ، الا الذين يعرفون حاجة آدابنا القصوى الى المعاول الصلبة والهادمين الخبيرين .

سكنى الاعالي

لا أريد بالاعالي هنا ، أعالي الرتب والمناصب ، ولكني أريد أعلى طبقات المنازل وغرف السطوح التي لا حجاب بينها وبين السماء ، وما كان لي أن أنبه الى هذا ، لولا معرفتي بوجود أناس منا يفهمون غير ما يسمعون وينقلون غير ما يفهمون .

إن الذين يعرفون فضائل سكنى الطبقات العليا من المنازل عندنا قليلون ، خصوصاً بين أدبائنا الذين لا يميلون الى الارتفاع والتعالي في سكناهم الا نادراً ، اما في الغرب فان لسكنى الاعالي منزلة رفيعة عند رجال العلم والفلسفة ، رغماً عن رداءة الطبقات العليا في البيوت هناك ، وقد أظهر لنا خطر تلك السكنى وجلالها ، الكاتب الانكليزي

« صموئيل جونسون » (1709-1784) في مقالة خاصة سماها (مزايا سكنى الاسطحة) أتى فيها على الاسباب الفلسفية التي تدعو الى سكنى الاعالي ، وتحمل الفلاسفة والمفكرين ورجالات الادب على تفضيلها وتقديمها على سواها حتى قال ان لسكنى الاعالي تأثيراً قوياً على العقول ، حتى أنه يستطيع أن يعرف من سطور أي كاتب في أي طبقة من الجو كان ، حينما كتب مقالته أو كتابه ، وقد سمى الكاتب الفرنسي « أميل سوفستر » كتابه الذي نقل الى العربية حديثاً وطبع باسم يوميات الفيلسوف القانع - (نظرة على العالم من غرفة السطح) ، كل ذلك يدلنا على ما لسكنى الاسطحة من الشأن عند الغربيين .

وكاتب هذه السطور ، من المغرمين بسكنى الاعالي ، وقد زاد في نفسي الميل اليها وثبته معرفتي برطوبة مناخ دمشق وما تجره السكنى في الطبقات السفلى من منازلها ، من العلل والامراض ، وأنا وان كنت اتفق مع أنصار سكنى الاعالي في الجوهر ، الا أنني أخالفهم في أمور أخرى ، فقد علمتني التجارب الطويلة ، ان لسكنى الاعالي مقابح كما أن لها محاسن وان الانسان اذا مال الى مقابحها وحدها كان سكنى الحضيض به أجدر .

ان من محاسن سكنى الاعالي ، أن يبتعد الانسان عن ضجة المدينة وضوضاء الناس ، وان يتمتع بمناظر الطبيعة عن كثب ، فيشاهد بهجة طلوع الشمس وروعة غروبها ، ويرى بهاء القمر وسناء النجوم ، ويشعر بسكينة الليل وجلال الظلام ، وان يستنشق الهواء

النقي الذي لم يتدنس بالجراثيم والادران ، أما مساوئها ، فمنها أن ساكنها لا يرى الا ما فوقه أما ما تحته فلا يكاد يلتفت اليه ، واذا التفت اليه في السنة مرة واحدة ، فلا يراه كما هو لبعد المسافة ما بينهما ، ومنها الخوف الدائم من السقوط ، والتمكن من الاطلاع على عورات الناس ، فان ساكن الاعالي لا يعدم ـ وخصوصاً اذا كان ممن يلازمون غرفهم بياض النهار ـ أن يرى في كل يوم مناظر رائعة ، فمن متبذلة من من الجيرة تنشر غسيلها ، وهاربة من ضجة المنزل الى سكينة السطح ، أو فارة من برد البيت الى حرارة الشمس ، وما أشبه ذلك من المشاهد التي لا تتاح الا لساكني الاعالي ، فاذا لم يكن زاجر من تربية وأدب ، كانوا جواسيس على الناس ، يطلعون على عوراتهم ويذيعون من أمرهم ما استتر .

وأنا اذا فضلت سكنى الاعالي ، فاني أفضلها لما تهبني اياه من الهواء الصافي والمناظر الطبيعية البهيجة ، أما تلك المساويء التي ذكرتها ، فانني محروم منها طوعا أو كرها ، لانني مرغم على ترك غرفتي على السطح بياض النهار وعدم الرجوع اليها الا مع هبوط الليل ، بعد أن يسدل على وجه النهار ومناظره الستار ، ولو لم يكن هذا شأني ، لجاز أن تضلني الاعالي فأميل الى سفاهاتها ، واني أنصح أولئك الذين يقرأون شيئاً عن مزايا سكنى الاعالي ، ويسمعون مدح الناس لها واكبارهم شأنها ، ثم يكتب لهم التمتع بسكناها ، ألا يتجاوزوا لذاتها المشروعة الى مساويها المحرمة ، ليستحقوا الحشر في زمرة سكان الاعالي الحقيقيين من فلاسفة وأدباء وحكام .

الغيوم

ما لي أراك كاسف البال كئيباً ؟ أتخشى على حديقتك الجميلة ، شر هذه الغيوم التي حجبت صفحة السماء النقية وسودت وجه الجو البراق ؟ أتقول ان رياحينك وزهورك تحتاج الى ضوء الشمس وحرارتها لتسري فيها روح الحياة .

ألم تمر بك قبل اليوم ، فصول السنين وألم تعرف أن الحياة ربيع وشتاء وصيف وخريف ، وان لكل فصل زمانا ولكل أجل كتابا ؟ ولولا غيوم الشتاء لحرمت حديقتك الجميلة من الغيوث فيبست أشجارها وذوت أزهارها ، فاذا كانت حديقتك نفسك ، وكانت الغيوم هي هموم الحياة وأحزانها ، فماذا أنت فاعل ؟ أتبكي لوعة وجزعا ؟ .

ان من شأن الهموم أن تستنزف عبراتنا ، انها تبكينا دموعا أو دما . . كل ذلك سواء ، ولكن تلك الدموع التي نذرفها تكون مرهما لجراح قلوبنا وغيثا يطفىء لوعتنا ويبرد غليلنا .

ليس الإنسان غريباً عن الهموم والأحزان ، فد صاحبته طول حياته ، وما الحياة الا سلسلة عبوس وابتسام ، لا تمر منها حلقة عابسة الا تبعتها حلقة ضاحكة ، وما الدهر الا رجل ماجن يبتسم في وجه البشر تارة ويكشر لهم عن أنيابه تارة أخرى .

الغيوم طلائع رحمة الله ، يسوقها الى كل بلد ميت فيبتل بها ثراها ويحيي مواتها ، والهموم طلائع رحمته أيضا يرسلها الى كل قلب خامد ، لتبعث فيه روح النشاط ، هي الخمرة الألهية يسقيها الله عباده

الابرار . انهم لا يستطيعون مذاقها ولا يستعذبون كأسها ، ولكنها بالرغم من ذلك كله تنقلهم الى عِلِّيِّين وتلحقهم بالأنبياء والصديقين، وتدرج أسماءهم في سجل الخالدين من أبطال العالم وعظماء الكون .

مرحبا بالغيوم تجلل سماء الحياة وأهلا بالسحب تسود صحائف العيش ، انها بشير خير وان كانت سود الخوافي ، ورسول بركة وان كانت سحم القوادم ، يحيا بها مواتنا ويخضر زرعنا ونظفر منها بسر الحياة واكسير الخلود .

كلمات في النقد

النقد ثورة يثيرها أحرار الكتاب على عيوب الادب ونقائصه ولكنها ثورة نقية طاهرة لا تسفك فيها الدماء ولا تزهق الارواح .

يلتقي الخصمان في ميدان النقد فيقتتلان ويصطدمان ثم يخرج كل منهما من المعركة ـ غالباً أو مغلوبا ـ بجبين وضاح وصحيفة بيضاء لا تلوثها جناية ولا يسودها اجرام .

قلنا ان النقد (ثورة) ونعني بذلك أنه لا يسلم من شدة تصاحبه وعنف يرافقه ولكن لشدته وعنفه حدا يقفان عنده ولا يتعديانه .

ان كتابة الكاتب وشعر الشاعر وأحكام الحاكم وعلم العالم وصور المصور وأبنية المهندس وكل ما يصنع للجمهور ويعرض عليه أو يؤخذ منه ثمنه يجب أن يكون خاضعاً للنقد ، وللناقدين الحق في أن يقولوا فيه ما يعتقدون بصراحة وجلاء أما ما عدا ذلك فالتجاوز اليه

خروج عن حدود النقد وآدابه .

ليس للنقاد أن يتعرضوا لكرامة الناس وليس لهم أن يخوضوا في شؤونهم الخاصة ولا أن يتطاولوا على أعراضهم وأحسابهم وانسابهم ومن يفعل ذلك منهم كان هَجّاءاً سبَّاباً ، لا نقاداً ملهما .

وليس للمنقود بحق أن يجزع أو يشكو ومن يفعل ذلك كان سخيفاً جبانا .

النقد وسيلة من وسائل الاصلاح فمن كان يحب اصلاح نفسه تلقاه بقبول حسن ومن كان لا يحب اصلاحها فان عليه أن يتعلم ذلك الحب .

ان الاطفال الصغار يكرهون الادوية المرة وان كان فيها شفاؤهم ولكن الحريصين عليهم الساهرين على حياتهم يكرهونهم على تجرعها اكراها .

والنقد دواء مر ، وفي جمهور المتأدبين كثير من المرضى الذين يحتاجون الى ذلك الدواء .

ان عقاقير النقد ضرورية لاولئك المرضى فان كانوا صغارا لا يفرقون بين ما ينفعهم وما يضرهم اضطروا جماعة النقاد الى تجريعهم تلك العقاقير المرة بالقسر والاكراه . وان كانوا كبارا استقبلوها برضى وقبول وقد حكم عليهم في كلتا الحالتين بأن يتجرعوها فاما أن يحيوا حياة مجردة من عناصر الضعف والانحلال أو يلاقوا موتا أبدياً مريحاً .

النقد الصحيح

ان النقد الصحيح هو أقوم سبيل يسلكه المخلصون الذين يرغبون في خدمة الادب العربي في هذه الديار واعلاء شأنه .

لقد مني الادب عامة والشعر خاصة في بلادنا هذه بادعياء شوهوا محاسنه وحولوا حدائقه الغناء الى مدافن ومقابر ، وافسدوا جوه النقي بما طرحوا في حماه الطاهر من الجيف المنتنة ، التي ضاقت فيها أنفاس الناس ، وبلغت أرواحهم التراقي ، حتى صار حقا على كل أديب أن يعمل على تطهير رياض الادب الطاهرة من تلك الجيف القذرة ، وانه ليخيل الينا أن الوقت حان للشروع في العمل فقد أخذ فريق من الادباء يشعرون بشدة الحاجة الى محاربة الادب السخيف ولزوم القضاء عليه ، وقد رأينا من كبارهم في هذا البلد رغبة أكيدة في القيام بحملة خطيرة تذهب بالاخضر واليابس من تلك الترهات والاباطيل التي يسمونها تارة أدبا جديداً وطوراً شعراً عصرياً وستظهر بواكير تلك الحملة المباركة في وقت قريب أما نحن فلا يسعنا الا أن نرحب بها سلفاً رغما عن علمنا بأن تلك الحملة ستؤدي الى سقوط كثير من الشعراء والادباء الذين ملأوا الدنيا طنينا وأقلقوا راحة البشر باشعارهم وآثارهم والذين تربطنا ببعضهم روابط صداقة ومودة وذلك لان اخلاصنا للادب أشد من اخلاصنا لكل شيء في الوجود .

أجل سينتحب من جراء تلك الحملة بعض أصدقائنا وسيعولون ويولولون ويبكون فلينتحبوا ما شاؤوا وليبكوا ما أرادوا فلا رحم الله امرءاً يرحمهم أو يرق لشكواهم بعد أن طال ما أبكوا الشعر والادب من

قبل وأسالوا منهما العبرات . ان أدبنا في حاجة الى اصلاح ولا يتم اصلاحه المنشود الا اذا أخرست غربان السوء الناعقة التي يغطي نعيقها المزعج سجع بلابل الادب الحق وهديل حمائمه ، وما الذي يخرس تلك الغربان المشؤومة غير صولة النقاد ؟ .

محمد السباعي

(وُلد سنة 1874، وتُوفِّي سنة 1931 م.)

هو محمد بْن محمد بْن عبد الوهَّاب السِّباعي . وُلد في القاهرة ، وتُوفِّي فيها . وقد كتب زماناً في جريدتي « الجريدة » و « البلاغ » المصريتين .

أوتي السِّباعي في مقوله ، ومنقوله إلى العربيَّة ، من نصوع البيان وغزارة المادَّة ما لو خلص في الأحيان ممَّا لا يتجنَّب التَّمسُّك به ، من استعمال للغريب والمواضعات القديمة (وانَّما ذلك حبَّاً منه للُّغة والتَّشدُّد في الحفاظ عنها) لكان الكاتب الذي لا يُلزُّ به في زماننا كاتب ، في فحولة الكلام ، وصحَّة التَّراكيب ، وطلاوة الفرائد والجمل .

قال مصطفى لطفي المنفلوطي في كتابه « المختارات » : « محمد السِّباعي هو أحد كتَّاب هذا العصر الممتازين بالبراعة في التَّرجمة من الانكليزية إلى العربيَّة ، المعروفين بالتَّمكُّن في كلتا اللُّغتين ، على قلَّة المتمكِّنين فيهما معاً . إلاَّ انَّه في ترجمته أميل إلى التَّندُّر بالغريب ، وتدوين التَّراكيب الجزلة منه إلى السَّلاسة والرِّقَّة ، ولعاً باللُّغة العربيَّة ، وشغفاً بإحيائها . فمن لا ينظر إلى الكتابة بالعين الَّتي

ينظر بها إليها ، يرى في كتابته أحياناً من التَّعقيد والمشادَّة غير ما يراه » .

وقال عبد الرَّحمن صدقي في مقدِّمته « لخواطر في الحياة والأدب » من كتب السِّباعي : « فهو - يريد السِّباعي - غير منازع ، كاتب من القلائل الذين لم يكتبوا إلاَّ بعد ان استكملوا العدَّة لكلِّ ما يستعان به على الإجادة . وذلك بما اجتمع له من التَّضلُّع في الأدب العربيّ ، وسعة الاطِّلاع على الآداب العالميَّة ، مع التَّبحُّر في فنِّ الكتابة ، والتَّمكُّن من أسرار البلاغة » .

له من المؤلَّفات في النَّثر : « الصُّور » ، و« السَّمر » ، و« خواطر في الحياة والأدب » ، و« مملكة الحبّ » ، و« رسائل غرام » . وله في التَّرجمة إلى العربيَّة : « الأبطال » لكارليل ، و« بلاغة الإنكليز » للوبين في ثلاثة اجزاء ، و« التَّربية » لسبنسر ، و« رسائل النَّادي » لأديسون ، و« مقالة ماكولي » في جزئين .

زينَة الملبس[1]

كما أن اللفظ الأنيق يضاعف جمال المعنى ، فكذلك الثوب البهيج يزيد في ملاحة الصورة البشرية :

والللفظ حلى المعنى وليس ير
يك الصُّفر حسناً يريكه ذهبه

ألم يتفق لك أنك رأيت بعض الناس مراراً فلم تعشقه ، ثم رأيته من بعد ذلك مرة فعشقته فجأة حتى إذا أخذت تتبين سر ذلك العشق الفجائي علمت أنه من جراء ثوب جديد كان له من حسن الملاءمة مع صورة ذلك الإنسان ما قدح في قلبك شرارة ذلك الغرام المباغت .

وكذلك كل مليح يضاعف حسنه أو يذهب به الوعاء الذي يجعل فيه ، كالمصابيح المشعلة تتفاوت في الجمال درجاتها والنار في جوفها واحدة ، والخمرة الصافية تختار لها الكئوس الشفافة ، وكم رأيت العنب والكريز والبرقوق في الدكاكين أو على الموائد فوددت لو اتخذت منه ـ بدل الأكل ـ عقوداً وقلائد تحلى بها جيد من تهوى . ألم يقل ابن الرومي في العنب الرازقي :

لو أنه يبقى على الدهور
شنف آذان الحسان الحور

وكان لهذا الشعر قصة . وذلك أن ابن الرومي خرج في زمرة من إخوانه إلى بعض المتنزهات وقصدوا كرماً رازقياً فشربوا هناك عامة يومهم ، وكانوا يتهمونه في شعره يزعمون أنه مسروق ، فقالوا : إن

---

(1) كل هذه القطع من كتابه : « خواطر في الحياة و الادب » . [المحقق] .

كان ما تنشدنا لك فقل في هذا شيئاً ، فقال والله لا تريموا حتى أقول فيه ، وأنشدهم على البديهة :

ورازقـي مخـطف الخصـور
كأنـه مخـازن البـلور
قد ضمنـت مسـكاً إلـى الشطور
وفـي الأغالـي ماء وردٍ جورى
بـلا فـريد ولا شـذور
له مذاق العسـل المسّور
ويرد مس الخصر المقـرور
ونكهـة المسـك مع الكافـور
ورقـة المـاء علـى الصـدور
باكرتـه والـطير في الوكـور
وعـذر اللـذات في البكـور
مملـوءة من عسـل محصور
والظـل مثـل اللؤلـؤ المنثـور
ثم جلسـنا جلسـة المحبور
بين حفافـي جـدول مسجور
أبيض مثـل المهـرق المنشـور
أو مثـل مـتـن المنصـل المشهور
ينسـاب مثـل الحيـة المذعور
بين سمـاطـي شجـر مسطور
ناهيـك للعنقـود من طهور

فنيلــت الأوطــار في سرور
وكل ما يقضي من الأمور
تعلــة من يومنـا المنظور
ومتعــة من متـع الغـرور

وربما كان للثوب البهيج من قوة التأثير مثل ما للخطبة الطنانة ، ويقال لمثل ذلك الثوب « الثوب البليغ » على جهة الاستعارة ، وأعرف فتاة لها حظ من الجمال ولكنه قد يقاوم بالثبات وقوة العزم والإرادة ، ولكن لديها ثوب أزرق متى لبسته انهزمت أمامهـا القلـوب وطاحـت العزائم ووقعت الرجال تحت قدميها أسرى دامية الجراح ، ولا والله لا ينجيك من هذا الثوب الأزرق شيء . . لا حزم ولا عزم ولا صبر ولا جلد ، ولا ينفعك منه طبيب ولا آس ولا عَرَّاف ، ولا تشفيك رقية ولا تعويذة ، ولا تقيك منه الحصون ولا القلاع ، ولا عاصم اليوم من أمر الله !

لا عذر للابس الرث البالي من الثياب إلا الفقر أو الضرورة ، أما من انتحل الفلسفة أو التعبد عذراً لذلك فإما متصنع أو مهمل .

حدا بي مرّة إلى اشتراء حلة جديدة سببان : وجود الدراهم ، وأني رأيت الكون برمته يرتدي أبراده القشيبة (في دخول فصل الصيف) ، فلو لم يكن في وجود الدراهم سبب كاف للتجمل والتحلي ، لكان في استحيائي أن أستقبل الطبيعة المتزينة المتبرجة بثيابي الرثـة القبيحـة أقوى سبب وحجة .

وكذلك تشبهاً بالشجر والطير والسماء والماء ، وتشبهـاً بالنحـل

وأبى دقيق وأشباهها من ذوي « القيافة » من الشبان ، اشتريت حلة جديدة ، بعدما مرّ عليّ في ثيابي الرثة العتيقة ألف عام ألهمني الله في أثنائها الصبر والسلوان ، ومشى الزمن في خلالها بالصلح بيني وبين ثوبي الهرم القديم ، وحبذا الزمن ذلك الفيلسوف الحكيم ، ما من مصيبة تقدح في الأحشاء إلا ويستطيع أن يفل من حدها ويقلم من أظفارها ، وما من نقمة تشب لوعتها على الكبد الحرّى جمرة يحتدم أوارها الا مشى عليها الزمن بقدمه الساحرة فلا يلبث حتى يطفىء لهيباً ويعيدها رماداً تذروه ريح النسيان والسلوان .

وقد بلغ من حسن توفيق الزمن بيني وبين ثوبي القديم أني أحسست نوعاً من الألم حينما نزعته للبس الجديد فكأنما عناني الشاعر بقوله :

خلقت ألوفاً لو رددت إلى الصبا

لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

على أنه رغماً من تلك الحسرة لفراق ثوبي القديم لم أكد أرتدي الحلة الجديدة حتى أخذني الزهو ومالت بعطفي الخيلاء فكأني « أبو قابوس أو عبد المدان » . ولكني لما تأملت فرط بهاء الحلة ورونقها ولا سيما بعد شناعة الثوب القديم وبشاعته . . اعتراني من شدة الخجل ما منعني الظهور في تلك الأبراد الفاخرة في الشوارع الغاصة والميادين ، فبدأت بعمل عدة « بروفات » أولية في الزي الجديد تحت ظلال الأزقة والحواري ، وقد خطر ببالي أن أؤجر الحلة الانيقة لبعض من هم أجرأ مني من الشبان وأصلب وجهاً بضعة أيام ريثما ينطفي رونقها ويغيض ماؤها ، ثم أظهر فيها بعد ذلك أمام الناس .

الأَدب العصْرِي وَالقديم

لقد ولع الكثيرون من أدعياء الأدب اليوم بكلمة « الأدب الجديد » و « الثقافة الحديثة » و « الأدب العتيق » و « الثقافة البالية المندثرة » و« الاحتياجات العصرية » و« المدنية الحديثة » ويقولون « هذا كاتب عصري » و « ذلك عتيق النزعة والأسلوب » ، حتى لكأن دنيا اليوم هي شيء آخر خلاف دنيا الماضي والعبقرية اليوم مركبة من عناصر خلاف ما كانت تتركب منه سالفاً . . وكأن قراء هذا العصر قد صيغت عقولهم وقلوبهم ومشاعرهم ومداركهم من مواد مغايرة لما كانت تصاغ منه الأذهان والألباب في سالف العصور . . وكأن الفابريقة التي أنتجت أجدادنا وأسلافنا هي خلاف التي أنتجتنا نحن ، وكأن الله سبحانه وتعالى الذي يعترف أولئك الأدعياء بأنه خالق أسلافنا وأجدادنا ، قد استبدل قوماً غيرهم ليسوا أمثالهم . . سبحانه جل وعلا ! أولئك الأدعياء يتهمون بالعجز والتخلف وقلة الكفاية كل من يرون على أسلوبه مسحة من طلاوة أئمة الأدب وأعيان البيان من جهابذة العصور الغابرة ، ممن لا يسمح الدهر بأمثالهم ولا بأقل من أمثالهم ، في هذا العصر القذر الخبيث الفاسد المنتن الدنس الذي نبذت فيه الشرائع السماوية والأديان الإلهية ، وأعيدت الوثنية بأصنامها الذهبية ، وأنصابها « البنكنوتية » ، والذي طاحت فيه المادية السافلة بالروحانية السماوية فأصبح الناس فيه وما هم سوى جيف قذرة ذات كروش ولا عقول ، ومعدات ولا ألباب ، وفروج ولا أرواح ، وأفواه مفتوحة

لمقاذر المادة الممقوتة ، وعيون عمى عن صوت الحق وصرخة الضمير ، وتسبيح الملائكة والعالمين وعن كلمة الله عز وجل في كل ذرة من ذرات ملكوته ! أجل . . أولئك الأدعياء يتهمون الجهل والضعف من يكتب بلغة الجاحظ وابن المقفع وتشهد آثار قلمه على أنه قد أخذ من بلاغة الأئمة بالسهم الوافر والقسط الراجح ، ولو أتاح الله لهم أن يبلغوا في مضمار البيان بعض شأوه لما عابوا عليه فضله :

إذا محاسني اللاتي أدلّ بها
كانت ذنوبي فقل لي كيف أعتذر

يدلك على ذلك أن أحدهم إذا ظفر مصادفة وفلتة في خلال أسلوبه العامي « الشوارعي » باللفظة الجزلة الشريفة أو بالكلمة الناصعة الأنيقة نصبها وسط كلامه الركيك كأنها أعجوبة جيء بها من عوالم السحر أو من ملاعب الجن ، أو بدعة وقعت عليه من المريخ أو من الفرقدين ، وهلل لها وكبر ، وطبل لها وزمر . . وبعد ذلك ينهال بالذم والقدح على أسلوب ، كل ألفاظه من قبيل تلك الأعجوبة والبدعة التي تنزل من أسلوبه القبيح منزلة الكحل أو الطلاء الأحمر من وجه عجوز شمطاء .

وما هذا اللغط واللغو والهراء الذي يثرثر به أولئك الأدعياء بشأن الأدب « العصري » و« القديم » وما هذه البدعة التي اخترعوها في هذا الجيل المرزأ المنكوب المبتلي بهم وبأمثالهم من الأدعياء في كل مهنة وحرفة وفي كل منحى من مناحي الحياة .

ألا إنما الأدب ما زاد ولا نقص عن كونه تصويراً لما اشتمل عليه

هذا الوجود من آيات الروعة والجمال . . فهل تغيرت ايات الجمال والروعة في الكون وبدلت بآيات جديدة ؟ هل القمر الآن خلاف ما كان يوم وصفه « هوميروس » في « إلياذته » ، أم الشمس غير ما صوّرها « ابن الرومي » في « عينيته » ، أم الورد والنرجس والأقاح اليوم شيء مغاير لما حكاه ابن المعتز في زهرياته ، أم الكرم وعصارته مباين اليوم لما نعته النواسي في خمرياته ؟ لقد كان عنترة في غابر الأزمان يرى أن الأقدمين لم يتركوا مجال قول لأهل زمانه ، حتى قال في معلقته « هل غادر الشعراء من متردم » يعترف عنترة بذلك في وقته . . ونجيء نحن بعد زهاء أربعة عشر قرناً ، فنقول : إن روائع المعجزات ، وبدائع المدهشات مما جادت به قرائح الفحول منذ كانت الدنيا إلى جيلنا هذا الخرب العقيم المجدب إلا من الركاكات والسماجات والقاذورات وممجوج القول وسقط الكلام ، هي عتيقة بالية لا خير فيها ولا ثمرة . . وإن كل الخير والثمرة والكنوز والذخائر في منتجات قرائحنا نحن الجهال الأغبياء الغفل الأصفار المعدمون إلا من قشور وحثالات كان يعرف أضعاف أضعافها غلمان قدماء الفحول وعبيدهم .

الحياة المنزلية

البيت بيت مهما صغر وحقر ، وما من فقير أعياه الكد والجهد إلا واجد في بيته دعة وراحة . فالبيت هو الوالد الرحيم والظئر الرءوم ، والعصمة والملاذ والموئل من آفات الدنيا وشرور المجتمع ، والبيت إذا أضاف إلى حاجيات العيش وإلى الساذج الرخيص من كمالياته كحسن الغناء وشجى الموسيقى وإلى الطيب الحلال من آلات اللهو

والممتع اللذيذ من الكتب والأسفار ، سكينة الجو وكرم الجوار ورقة آداب الزوجة والبنين وحسن مواساتهم وبشاشة قناعتهم ، وضحكة النزاهة ودمعة الرحمة ، والعطف والحنان . . كان جعبة المسرات وحقيبة الملذات .

البيوت ضروب وأشكال ، من القصر الفخم الجميل إلى الكوخ الحقير ، ومن الدار القائمة في الفضاء إلى المخنوقة بين المساكن لا تكاد تبصر السماء ، وأفضل البيوت عندي الخلوى الذي تضحك له الطبيعة ويغذوه الريف بطيباته ، ولا ضرورة أن يكون حاوياً لأرقى أدوات الترف وأنفس آلات الزخرف ؛ فحسبنا بالطبيعة مزخرفاً ومنمقاً ، وأجمل الغرف ما فرشها الزهر ، وعرشها الكرم ، وأضاءها القمر ليلا ، والشمس نهاراً ، وعطرها النسيم بأذياله المسحوبة على كئوس الطل وأكواب الندى ، فإذا كان لا بد من الغرفة المبنية فأعطني غرفة بساطها قش أحس فيه رطوبة الثرى وطراوة الروض ، ولتكن مملوءة بالنوافذ المشرفة على المزارع والمغارس ، ولتكن قريبة من الأرض كيلا تعلو على مطارح أيدي النبات وبنان أطراف الغصون الممدودة لعناقها ، ولا على شفاه الأزهار المشرئبة لتقبيلها ، ولا بأس أن تزين جدرانها بالصور التي كلها حدائق وبساتين فكأنها مرايا ترتسم عليها مكتنفات الدار ومحدقاتها ، وأجزل النعم المنزلية في مذهبي السكون ، وحسبك دليلاً على ذلك أن الطبيعة ساكنة ، فإذا قيل فماذا إذن تغريد العصافير وخرير المياة وعزيف الرياح ؟ قلت : تالله ما صوتت هذه الأشياء إلا لتزيد السكون سكوناً ، وإني أسأل القارىء : أيرى بين سكون الطبيعة وبين هذه الأصوات تنافراً كالذي يجد من

جلبة الصارخين ، وضجة الصاخبين ؟ . . أم يرى بين أصوات المياه والرياح والطير وبين سكينة الأرض والسماء وفاقا ما شاء من وفاق ، والتئاما وحسن تمازج كالذي بين آلات الطرب المختلفة الأشكال ، المتحدة الأنغام .

السكون عندي أجمل مزايا الدار وإنما يلجأ إلى البيت من ضوضاء المجتمع ، فما معنى الفرار من الضجيج إلى الضجيج ، أما أصوات الأطفال فتلك أغاريد الدار والأطفال عصافير البيت وريحانه وملائكته المرئية الملموسة إذا كانت سائر الملائكة خافية ، فإن كان لهؤلاء الصغار عيب فذلك هو كثرتهم على الفقر ، فأما طفلان أو ثلاثة فأحلى مذاقاً من العافية .

أما الزوجة فإنها الملجأ الناعم والملاذ اللين ، وهي الكهف الحلو المذاق كأنها خلية الشهد ، وهي حصن من البلور في ضمانة الشرف ومعقل من الحرير في خفارة العفاف ، وهي الساحل المتين ، إليه يأوي ملاح الحياة بعد ثورة الموج وثورة الرياح ، وهي الظل الوارف يلبسه سائح الإنسانية بعد وعثاء السفر ولظى الهجائر .

في حلاوة الزوجة ورقتها ما يمحو مرارة الزمن وخشونة الحياة ، والحسنات يذهبن السيئات .

إن الزوجة لتبث حولها هواء من السرور وتنفث نسيماً من الحبور وجواً من الأفراح لا تطرقه الأحزان والأتراح وإن الهموم لتضمحل في صدى صوت الزوجة كالخوف أمام البشرى .

وإذا كانت أوتار الطرب هي فتنة الألباب فقل ما شئت في نبرات صوت المرأة التي تفتن الأوتار لو يعقل الجماد .

المرأة تحفة الدنيا وزينة الحياة ، فمن أحسن تدبيرها وجنى ثمرها ، راح أميراً على أعظم دولة وأجمل مملكة ، ومن أساء تدبيرها فخسر حبها وطاعتها كان كما قيل :

أعطيت ملكاً فلم أحسن سياسته
وكل من لا يسوس الملك يخلعه

المرأة هي المرآة التي تمثل محامد الزوج ومناقبه حتى يبصر فيها نفسه ويصلح من شأنها ، وهي الجدول المنسجم الذي ينقل فضائل الأب إلى النسل مع ما للأم من شيم حسان .

إذا بنيت عشرة الزوجين على الحب والإجلال أصبح لا همّ لأحدهما إلا الظهور أمام الآخر على غاية ما يرام من الكمال فلا تبرح أخلاقهما في ارتقاء كالجسمين الخشنين لا يزال بهما الاحتكاك حتى يبلغا الغاية في الملاسة والنعومة والتهذيب .

تلك منزلة المنزل عند المتزوج ، أما الأعزب فإنه واجد على كل حال غبطة ومتاعاً في داره وإن خلت من المناعم الزوجية ، وأقفرت سماوتها من قمر الزوجة وكواكب البنين ، ولو لم يكن في دار الأعزب من المتاع سوى أنه يطرح على بابها من الأثقال والأعباء ما يتصل بأعمال مهنته ومعاملاته الخارجية لكفى ، وحسب الدار أنها تطلق أسير الحياة من قيود ملابسه التي تكده وتعوق حركاته .

الإنسان حيوان لاعب محتاج بطبيعته إلى اللعب طفلاً ويافعاً وكهلاً وشيخاً ، ولا غرو فإن اللعب في ذاته عمل بريء طاهر . . وهو مهرجان النفس ، وعيد القلب ، وهدنة الروح في معترك العمر ، وإن للنفس في مواصلة الجد مللاً ومجة بل صدأ يجلوه اللهو . . والنفس مطيتك فإن حملت عليها في التعب خسرتها ، والقلب إذا أكره عمى ، قال الحكيم العربي : « إني لأستجم نفسي بالشيء من الباطل ليكون أقوى لها على الحق » وجاء في الحكمة المأثورة : « لا ينبغي للعاقل أن يخلي نفسه من واحدة من أربع : من غدو لمعاد ، أو إصلاح لمعاش ، أو فكر يقف به على ما يصلحه مما يفسده ، أو لهو حلال يستعين به على الحالات الثلاث » .

فإذا كان لا بد للإنسان من اللعب ، وكان الوقار يحرم على الحازم مراح اللهو ونزقه أمام الملأ ، إذ يعد ذلك منه خلاعة ومجوناً ، بل حزقاً وجنوناً ، وجب عليه أن يجعل للهوه خلوة تحجبه عن الأبصار ، وتبيحه ما شاء من الخفة والمرح ، وأين تكون هذه الخلوة إلا في البيت . . البيت أمين الإنسان وكاتم أسراره .

الكتب

قال أحد الحكماء مرة لمن أنكر عليه فرط ولعه بالأدب القديم والكتب القديمة « أولى لك أن تستنكر من نفسك ولوعك بالأدب الحديث والكتب الحديثة ، وتالله ما بصرت قط بامرىء يشتري كتاباً جديداً إلا حكمت عليه بالجهل لأول وهلة » .

وهذا الحكيم لا يريد أن يقول إن الكتاب الجديد لا بد أن يكون

سخيفاً ، وإنما يقول إنه قد يكون سخيفاً ، كما أنه قد يكون قيماً ، فالذي يشتريه يخاطر بماله وبوقته . . وما أنفسهما . . فينفق الطيب الكثير من هذا وذاك . . قبل أن يعرف رداءة الكتاب من جودته ، وقد يقرأه فيستطيبه ويستعذبه ويكون مخطئاً في حكمه ، وقد يستعظمه ويستجله أهل العصر جميعاً ، ويكونون كلهم مخطئين . . ويكون الكتاب برغم أنوفهم الشامخة وبرغم آرائهم المحترمة حقيراً ساقطاً محكوماً عليه بالفناء من الأجيال القادمة . . ومما لا مراء فيه أن حكم الجيل الحاضر لا يصح أن يعتد به في محكمة الآداب . . تلك المحكمة الشديدة القاسية التي تتشكل هيئتها من أجيال عديدة وتستغرق جلساتها متعاقب الحقب والأزمان المديدة . . وكم من كتاب سخيف في ذاته نال أعلى مراتب الإعجاب والإجلال عند عامة أهل عصره (وما أسخف العامة والجماهير) لتناوله مسألة سخيفة في ذاتها . . عظيمة الخطر عند ذلك الجمهور السخيف فرفعوه ومؤلفه إلى أوج المجد والفخار حتى إذا طاح طوفان الزمن بتلك المسألة السخيفة الوقتية التي من أجلها وضع الكتاب ، انطفأ من صفحاته ذلك البرق الخلب والجذوة الكاذبة فلم يبق منه إلا حفنة رماد ميت يابس . . ثم جاء الجيل القادم فقذف بالكتاب وصاحبه في هاوية السقوط السحيقة وحضيض الخمول الأوهد . . وكم كتاب عظيم القدر ، جليل الشأن . . سجل الله له الخلود قبل ميلاده وقدّر له أن يكون أبهى درّة في تاج الفخار المكلل هامة الدهر ، كان من سوء حظه في البداية أن ظهر في أناس لم يهيئهم القدر لفهم وعرفان قدره فظل بينهم من سقوط الشأن وغموض الذكر بحال كما قال النواسي :

لقـد ضاع شعري على بابـكم
كمـا ضاع عقـد على خالصة

وكما قال البحتري :

أهـز بالشعـر أقوامـاً ذوي وسن
لو أنهـم ضربوا بالسيف ما شعروا

حتى إذا انكشفت عنه تلك الغمـة بفنـاء الجيل الـذي قبـره في ظلمات جهله . . ثم أتاح له الله في بعض الأجيال التالية من بهرتـه آياته الرائعة فما زال به حتى أطلع أهل زمنه على عجائب آثاره وبدائع أسراره ، فرفعوه إلى ما هو أهله من عليا منازل الرفعة والثناء وبوّأوه مقعد صدق بين لداته وأترابه من الأسفار الخالدة .

وأي امرىء أوتي ذرّة من العقل يؤثر كتاباً عصرياً لم يطرح بعد في بوتقة العصور المتوالية فتسبكه نيران النقد الحامية تمحيصاً فيعـرف مقدار ما فيه من الجوهـر والخبـث ، ولـم يلـق في راووق الأجيال المتواترة وغربالها ومنخلها فيصفى وينتخل ويغربل ليميز الصفو من الرنق والصريح من الرغوة واللباب من الحثالة . . أي امرىء له مثقال ذرّة من الحجى يؤثر مثل هذا الكتاب العصري على الكتـب الهرمـة العتيقة ذوات الهيبة والوقار الهابطة إلينا على محك الزمن ومسبر الأيام حاملة شهادات متعاقب الأجيال متوّجـة بأكاليل الفـوز والانتصـار ، محلاة بأوسمة الشرف والفخار ، الموثوق منها بأجزل الفوائد وأطيب الثمرات . . وبأنها ما برحت ذات الأثر الأعظم في رفع مقام الأمـم

وإعلاء شأن الشعوب وتشييد الدول وخلق المدنيات والحضارات وتثقيف العقول وتهذيب النفوس . . وإني ربما ارتدت مكاتب الأسفار العتيقة فأصبت من بين سلعها الكتاب القديم ، «هوميروس» مثلا أو «فرجيل» أو «دانتي» أو «سرفانتيز» أو «رابليه» . . ويكون رث الصحائف ، ممزق الغلاف قد كساه الدهر صفرة القدم وضربت عليه بنسيجها العنكبوت ، فأرحب به وأهش إليه وأرتاح . . ويقع من صدرى موقع الجندي الرديف . . الذي طالما شهد الوقائع وغشى الملاحم وقاسى عواصف الدهر وأعاصيره ومشى على أخطار الزمن وأهواله ، وجاب القفار واقتحم المهالك :

أخا سفر جوّاب أرض تقاذفت
به فلوات فهو أشعث أغبرُ[1]

وكأن ذلك الكتاب في رثاثة جلبابه ، وتمزق إهابه . . الراهب المتصعلك يسير عاري الرأس حافي القدم في مرقعته وأطماره خاشعاً ، ضارعاً . . وله مع ذلك هيبة وجلال تغض من دونها الأبصار وتنكس الرؤوس ، وبنفسي ما يحمله ظاهراً وباطناً من تلك الثلم والصدوع ، إنها جراحات وقائع الدهر وكلوم غارات الأيام . . ونعم دلائل صدق الجهاد ، وحسن البلاء .

(1) البيت لعمر ابن أبي ربيعة . [المحقق] .

حافظ إبراهيم

(وُلد سنة 1871، وتوفِّي سنة 1932 م.)

محمد حافظ بْن ابراهيم فهمي وُلد في القاهرة ، ودرس العربيَّة في « المدرسة الخيريَّة » ، فمدرسة « المبتديان » ، فالمدرسة « الخديويَّة » ، واشتغل في مستهلِّ شبابه مع بعض المحامين في طنطا والقاهرة محامياً . وفي سنة 1890 دخل « المدرسة الحربيَّة » المصريَّة ، وخرج منها في سنة 1893 برتبة « ملازم ثانٍ » . وشخص مع « حملة السُّودان » إلى السُّودان ، وأقام فيه مدَّةٍ ، أُحيل بعدها إلى « الاستيداع » وذلك سنة 1899 ، ثمَّ أُعيد إلى عمله في الجيش ، ثمَّ أُحيل إلى « المعاش » ، وهو في رتبة « يوزباشي » ، فاشتغل محرِّراً في جريدة « الأهرام » . وفي سنة 1911 عُيِّن « رئيساً للقسم الأدبيِّ » في « دار الكتب المصريَّة » ، ثمَّ وكيلاً للدَّار ، حيث استمرَّ إلى آخر سنة وفاته .

إنَّ حافظاً من أجلّ كتَّاب زماننا في الصَّوغ والجزالة والنَّفس العالي . إلاَّ انَّه في بعض مقامات الكلام يلجئه النَّسق المزيَّن ، الذي اتَّخذه لنفسه في الأحايين ، إلى الإتيان بالغرائب والنَّوادر ، وبالسَّجعات المتكلّفة .

قال الشَّيخ ابراهيم اليازجي في « الضياء » يذكر حافظاً ، لمناسبة صدور الجزء الأوَّل من « البؤساء » ، وهو الذي ترجم به حافظ جانباً من رواية فيكتور هيجو الشَّهيرة : « نهنِّىء حضرة صديقنا الفاضل بما أحرزه من الحظِّ الكبير في هذه اللُّغة الشَّريفة ، كما نهنِّىء اللُّغة بما أُوتيت على يده من الحياة الجديدة ، بعدما أوشكت أن تلفظ آخر أنفاسها . وفي يقيننا انهَّا إذا رُزقت من بينها من يقتفي أثره في تجديد رونقها ، فلا نلبث أن نراها قد نفضت عنها ثوب الهرم ، واستعادت ماضي شبابها » .

وقال الدكتور طه حسين في كتابه « حافظ وشوقي » يذكر الجزء الثَّاني من « البؤساء » : « كنت أظنُّني أعرف العربيَّة ، وأستطيع أن أقرأ فيها كتاباً ، ولا سيما من هذه الكتب المعاصرة ، دون أن أحتاج إلى بحث كبير في القاموس ، فلمَّا قُرىءَ عليَّ [البؤساء] عرفت أنَّ من تواضع لله رفعه ، ولكنِّي لا أدري أمزيَّة هذه أم نقيصة ! ولعلَّها مزيَّة ونقيصة في وقت واحد . مزيَّة لأنهَّا تدلُّ على انَّ حافظاً قد وعى لغته ، وأحسن الإلمام بها . على انَّه قد كدَّ وعنَّى نفسه في تخيرُّ الألفاظ الشَّاردة وتصيُّدها ، وحسن الملائمة بينها وبين هذه المعاني والعواطف الحضريَّة المألوفة ، ونقيصة لأنها تكلُّف ، ولأنهَّا عقبة تحول بين القارىء وبين الفهم ، ولأنهَّا لا تلائم روح العصر » .

وقال مصطفى لطفي المنفلوطي في كتابه « النَّظرات » ، في فصل له على طبقات الكتَّاب في مصر يذكر حافظاً : « بلغ الغاية القصوى في بؤسائه ، ثمَّ حاول أن يكتب بعد ذلك فما صنع شيئاً » .

وقال عبد العزيز البشري في كتابه « في المرآة » ، من كلام له ضافٍ على حافظ : « كذلك لم أرَ قطّ رجلاً اجتمع له من متخيَّر القول ، ومصطفى الكلام ، مرسَلاً ومقفًّى مثل ما اجتمع لحافظ ابراهيم (إلى أن يقول :) ولا تنسَ لحافظ يداً جليلة على اللُّغة بما نظم وما نثر إنشاءً وترجمةً ، فلقد طالما استخرج من مجفوِّها صيغاً طريفة بليغة أدَّت كثيراً من الأسباب الدَّائرة بين النَّاس مِمَّا تتحرَّك معانيه في الأنفس ، ويُعيي أداؤه على الأقلام » .

وقال عبد الفتَّاح ابراهيم في كتابه « شعراؤنا الضُّبَّاط » : وكان حافظ شديد التَّعلُّق بالعربيَّة الفصحى ، وكان من أكبر أنصارها ، وأقواهم حجَّةً ، وأبعدهم تعمُّقاً في آدابها ، واطّلاعاً على دفين روائعها اللَّفظيَّة من المنثور والمنظوم » . وقال أيضاً في كتابه « المذكور » ، من كلام له على « البؤَساء » : « وفي هذا العصر نقل إلى العربيَّة الجزء الأوَّل من روايته [البؤَساء] » إلى أن يقول : « فكانت روايته درَّة القصص الوصفيَّة التي كُتبت بلغة الضَّاد في مستهلِّ هذا القرن » إلى أن يقول : « وفي جزئها الأوَّل وضع حافظ كل نبوغه كناثر » .

ولحافظ في النَّثر : « البؤساء » المذكور ، و « ليالي سطيح » ، و« التَّربية الاولى » (وهو مدرسيٌّ ، مترجم) . وقد شارك خليل مطران في ترجمة « الموجز في علم الاقتصاد » ليول لروابوليو ، من أئمَّة فنِّ الاقتصاد عند الفرنسيِّين .

إلى الإمام الأستاذ[1]

إنَّك موئل البائس ، ومرجع اليائس . وهذا الكتاب ، أيدَّك الله ، قد ألمَّ بعيش البائسين ، وحياة اليائسين . وضعه صاحبه تذكرة لولاة الأمور ، وسمّاه كتاب البؤساء ، وجعله بيتاً لهذه الكلمة الجامعة ، وتلك الحكمة البالغة : « الرَّحمة فوق العدل » .

وقد عنيتُ بتعريبه لما بين عيشي وعيش أولئك البؤساء من صلة النَّسب ، وتصرَّفت فيه بعض التَّصرُّف ، واختصرت بعض الاختصار ، ورأيت أن أزفَّه إلى مقامك الأسنى ، ورأيك الأعلى ، لأجمع في ذلك بين خلال ثلاث :

أوَّلها : التَّيمُّن باسمك ، والتَّشرُّف بالانتماء إليك ، وثانيها : ارتياح النَّفس ، وسرور اليراع برفع ذلك الكتاب إلى الرَّجل الذي يعرف مهر الكلام[2] ، ومقدار كدِّ الأفهام ، وثالثها : امتداد الصِّلة بين الحكمة الغربيَّة والحكمة الشرقيَّة بإهداء ما وضعه حكيم المغرب إلى حكيم المشرق .

(1) وهو تصدير لكتاب « البؤساء » . وقد أراد « بالإمام الأستاذ » الشيخ محمد عبده .

(2) من مَهَر الشيءَ وفيه وبه : حَذَقه ، أي كان ماهراً فيه .

فليتقدَّم سيِّدي إلى فتاه بقبوله . والله المسئـول أن يحفظـه للـدُّنيا والدِّين ، وأن يساعدني على إتمام تعريبه للقارئين .

كتاب إلى صاحب « النظرات »[1]

قدم أحد أقيال اليمـن إلى دار النَّـدوة ، فبصر فيهـا بصاحـب الشريعة الإسلاميَّة ، وهو إذ ذاك غلام مراهق ، فقال لمن حضر من القوم : « إنَّ هذا الغلام تارةً ينظر اليكم بعيني لبوَّة ، وتارةً بعيني عذراء خفِرة . فلو أنَّ نظرته الأولى كانت سهماً لانتظمـت أفئدتـكم فؤاداً فؤاداً . ولو أنَّ الثَّانية كانت نسيماً لأنشرت أمواتكم ! » .

وكذلك أراك في « نظراتك » إلى قومك ، أيهُّا الكاتـب الكبـير ، فلولا أنَّك غير معصوم ، وأنَّ الله قد أجـلَّ مقـام النُّبـوَّة عن الأشبـاه والنَّظائر ، لقلتُ ما أشبه هذه بتلك ، والسلام .

كلمة في التَّعـريب[2]

هذا كتاب « البؤساء » ، وهو خير ما أخرج للنَّاس في هذا العهد . وضعه صاحبه وهو بائس ، وعرَّبه معرِّبه وهو بائس . فجاء الأصـل والتَّعريب كالحسناء وخيالها في المرآة . وضعه نابغة شعراء الغرب وهو في منفاه ، وعرَّبه كاتب هذه الأسطر وهو في بلواه !

---

(1) وقد بعث به إلى صاحب كتاب « النَّظرات » (السيد مصطفى لطفي للنفلوطي) يوم أخـرج كتابه .

(2) وهي مقدِّمة « البؤساء » .

ولولا انَّني أشرب بالكأس الَّتي كان يشرب بها ذلك الرَّجل العظيم لما وصل مبلغ علمي إلى مبلغ علمه ، ولما سبح يراعي في قطرة من سيول قلمه . ولو انَّ لي قلماً من أعواد اشجار الجنَّة ، وصحيفةً من صحف ابراهيم وموسى ، وقد تلقَّتني البلاغة من كلِّ جهة بفضلها إلى لباب مُصاصها[1] ، وأَخذت منها حاجتي ، لما حدَّثتني النَّفس بتعريب ذلك الكتاب ، لولا اتّحادنا في الألم ، وتشابهنا في الشّقاء !

فلقد كنتُ أنظر فيه نظرة المنجّم في الميقات[2] ، وأَستوزعُ[3] الله بيان تلك المعجزات ، حتَّى إذا نفذ الفكر إلى ما وراء سطوره ، واهتدى الخاطر إلى مكامن حِكَمه ، دعوتُ إليَّ أُمَّ اللُّغات[4] ، وعملتُ على التَّوفيق بين هذه الغادة الشَّرقيَّة وتلك الفتاة الغربيَّة ، وعمدتُ إلى مدِّ صلة النَّسب بين الغادتين اللَّتين انتهت إليهما بلاغة العرب وبلاغة الافرنج . فإذا شمست[5] إحداهما، وازورَّ جانبها[6] أغريتُ بها سلطان العقل ، فلا يزال بها يروضها[7] كما يروض الرَّاكب الصَّعبة[8] حتَّى تسكن إلى اختها ، وترتاح إلى جوارها . ولم تزل تلك حالي:

(1) المُصاص من الشَّيءِ : خالصهُ ، أو سرُّهُ .

(2) الوقت المضروب للشَّيءِ يُفعل فيه . وقد يُستعار للموضع الَّذي جُعل وقتاً للشَّيءِ .

(3) استوزع الله شكرَه : استلهمه إيَّاه .

(4) يريد : العربيَّة .

(5) شمسَ : امتنع وأبى . وشمسَ الفرسُ : كان لا يمكّن أحداً من ركوبه أو إسراجه ، ولا يكاد يستقرُّ .

(6) إزورَّ عنه : عدلَ وانحرفَ .

(7) راضَ المهر : ذلَّله ، وطوَّعه ، وعلَّمه السَّيْر .

(8) الصَّعبة ، هنا : الدَّابَّة عسرَ ركوبها .

ادخُلُ بينهما دخول المِرْوَد[1] بين الجفن والجفـن ، وأمشي بينهما مشية الحكيم في الصُّلح بين القوم والقوم ، حتّى ائتلف الذَّوقان ، وامتـزج الرُّوحان ، وضمَّت شمسيهما طفاوة[2] ، واحتوت بدريهما هالـة[3] ، وخلعت الأُولى على الثانية جلالها ، وأعارتها الثَّانية نضارتها وجمالها ، وأصبحت تلك المعاني الافرنجيَّة ، بعد أن صقلهـا اللِّسـان المبـين ، وجندرها[4] الذَّوق الشرَّقيُّ ، وهي تسكن في هذه المعاني العربيَّة .

ولم يقعْ للنَّاطقين بالضَّاد ، حتَّى اليوم ، شيء من مؤلَّفات ذلك الحكيم ، وهم أَحوج النَّاس إلى معرفة أَسرار الحياة ، والانتفاع بمثـل ذلك الفكر الذي كنتُ بينا أراه يسابح الأَجـرام في أَفلاكهـا ، إِذا هو يدارج الشِّمال في مدابها ، وبينا أَلمحه بين ذروة العَلَم[5] وشرفة القصر ، إذا هو بين قاع البحر وعقيق النَّهر[6] . فكم أَفلتَ من هجيرة واختبأَ في خميلة . فمن تلهُّب جمرة القيظ في صميم القائلة[7] إِلى تراوح النَّجم[8] في الرَّوضة ، ومن التَّردُّد بين زفير العاشق وحرقته إلى التمشِّي بين نَفَس الحبيب وريقته !

---

(1) المِرْوَد : أداة من المعدن ، أو العاج ، يُكتحل بها .

(2) الطَّفاوة : دارةُ الشَّمس .

(3) الهالة : دارة القمر .

(4) جندرَ الثَّوبَ ونحوه : صَقَلَهُ بالجَنْدرة . وهي آلة خشبيَّة تُتَّخذ لصقل الملابس وبسطها .

(5) العَلَم ، هنا : الجبل الشَّامخ .

(6) العقيق ، هنا : الوادي الَّذي شقَّه السَّيل قديماً فأنهره .

(7) القائلة ، هنا : الظَّهيرة .

(8) ما طلع من النَّبات على غير ساق .

ولا يزال الكتّاب في كلّ أمّة يلتمسون أن يُعقل[1] عنهم ما أُلهموا أن يُدخلوه في مؤلّفاتهم من الحِكَم والأمثال ، فيصدحون عنها الشّرُور بأقلامهم كما يُصدح المطر[2] . ويستهبطون الحكمة من سمائها ، فيسكنونها بين سطورهم ، وينُشدن لذلك الأمثال ، فينثرونها فيما يتخيّرونه من الأقاصيص التي تدعو إلى العظة ، وتصفح[3] النُّفوس عن ركوب سبل الغواية .

ومن تلك الأقاصيص ذلك الكتاب الذي أُعاني تعريبه اليوم . فلقد قصَّ علينا صاحبه أحسن القصص ، فكان مَثَله فيه كما قال عن نفسه « مثل المنجم الذَّهبي ، لا تصل الأيدي إلى تبره حتَّى تكاد تحصي ثراه عداً ! » .

وقد خار الله لي[4] ان أعرِّبه ، فاستعنتُه فأعانني ، واستهديتُه فهداني ، وسلختُ اثنى عشر هلالاً في تعريب تلك الصَّفحات التي ترونها اليوم . وحاولت أن أصل بها تلك الرَّحم الَّتي قطعتها يد التَّرجمة التّجاريَّة بيننا وبين أُولئك الرِّجال الذين تجرَّدوا لتعريب أساطير الأوَّلين ، فوفُّوها قسطها من الإتقان ، وألبسوها من البهجة لباساً ترضاه اللُّغة ، ويرضاه أبناؤها .

---

(1) عقلَ فلاناً عن حاجته : حبسَه عنها .

(2) أخرجها مثلاً ، وكان من وسلوس العرب إذا خشوا سقوط المطر أن يعمد أحدهم إلى خيمته ، فيرسم حولها دائرة رقيةً يعلمها ، رجاءَ أن يخطىء المطر في سقوطه ما يكون ضمن تلك الدّائرة .

(3) صفحه عن حاجته : ردَّه .

(4) يقال : خار الله له في الأمر : إذا جعل له فيه خيراً .

أرأيتك ، أيهُا النَّاظر في كتاب « كليلـة ودمنـة » ؟ أكان يقـوم ، وأنت تذوق حلْو تركيبه ، وتستمرئُ لذَّة أُسلوبه انَّ عبد الله ابن المقفَّع قد عرَّبه عن الفارسيَّة ، لو لـم يصلِ خبـر ذلك اليك ؟ فسـقياً لتلك الأقلام التي عرَّبت فأعربت ، وسطَّرت فأعجبت ! وواهاً لهذه اللُّغة الَّتي أَصبحت بين أعجميّ ينادي بوأدها[1] وعربيٌّ يعمل على كيدها .

ومن نظر في بطون تلك الكتب التي تُترجم اليوم رأى هذه الغادة الشرقيَّة ، وهي على فراش موتها تندب خدراً قد ابتذلته الأقلام ، وستراً قد هتكته الأوهام ، وقد فتحوا لها في بطون هذه الكتب قبوراً ، وخاطوا لها من تلك الصُّحف أكفاناً ، وهيأوا من هذه الأقلام أعواداً ، وما هو إلاَّ أن يثني ذلك الغربيُّ بدعوته حتَّى يسرع إلى جنازتها أهلها ، وذو قرابتها .

اللَّهمَّ : أنت تعلم أنَّنا نعلم موضع الدَّاء ، وفينا الطَّبيب الماهر ، ونسمع ذلك النِّداء ومنَّا المعين النَّاصر . اللَّهمَّ إنَّ هذا خذلان منك ، فأدركنا برحمتك ، وهيِّءْ لنا من أمرنا رشداً .

أيكون بين أبناء اللِّسان العربـيِّ مثـل من أرى اليوم من فحـول البلاغة ، وملوك الكلام ، وأنا لا أعـرف من هذه الزُّهـور ، قديمهـا وحديثهـا ، غـير أسماء معـدودات ، ولا أكاد أُجيد وصف قصر من القصور ، أو آلة من الآلات ، ومخترعٍ من المخترَعات ، إلاَّ ما وقـع تحت نظر العرب في تلك الجزيرة الجرداء ، وما سمت إليه حضارتهم في

---

[1] وأد الرَّجل ابنته : دفنها حيَّة . وكان ذلك في الجاهليَّة .

عهد الدَّولة الأندلسيَّة ! أيَّ رجل كان صاحب كتاب « البؤساء » ، وأيُّ غيث سقاه ، وجوٍ حواه ، حتَّى أدخل في لغته من الكلمات ما يخطئه العدُّ ، ووقف في وجوه المعارضين فيها وقفة « البسفور » في وجوه الطَّامعين في هذه الدَّولة[1] حتَّى انقلبوا عنه خاسرين ؟ أوليست رجالنا بقادرين على أن يأتوا متساندين بمثل ما أتى به ذلك الرَّجل وهو وحيد ؟!

تباركت أسماؤك ، اللَّهمَّ ، أيُدعى البعير ، وهو ذلك المركب الخشن بهذه الأسماء الَّتي تضيف عنها بطون الكتب ، وهذه مراكب البخار والكهرباء لا نكاد نجد لأسمائها مرادفاً في هذه اللُّغة ! فما عسى أن تكون حالنا بجانب ذلك العربيِّ الذي يقول في وصف عيشه :

الأبيضان أبردا عظامي :
الماءُ والفتُّ بلا إدامِ[2]

وهو فوق راحلة[3] ظالع[4] ، على قَتَبٍ[5] يكاد يدمي عجانه[6] ، تحت شمس تكاد تأكل ظلَّها ، في مفازةٍ :

---

(1) يريد الدَّولة العثمانيَّة .
(2) الأبيضان ، هنا : الماء والخبز . وفتَّ الرَّجل الشَّيءَ كسره بالأصابع .
(3) الرَّاحلة : هو هنا : القويُّ من الإبل على الأسفار .
(4) يقال : « ظَلَعَ البعير » أي : غمز في مشيته .
(5) القتب (وجاء أيضاً بتسكين ثانية) : هو هنا : بمعنى مَركَب البعير .
(6) العِجان : ما بين الخصيْة وحلقة الدُّبُر .

تمشي الرِّياح بها حيرى ، مولَّهةً ،
حسرى ، تلوذ بأطراف الجلاميدِ

إذا أردته على أن يصف تلك الرَّاحلة العجفاء[1] ، فأرهف[2] بالقول ، وسردَ من الوصف ما يبلغ حدَّ الإعجاز ، وأردتنا على أن نصف ، ونحن نستطيب من صنوف الطَّعام ما يضيق به صدر الخوان ، ونتبوأ أريكة « الأوتومبيل » تحت ذلك الظِّلِّ الظَّليل ، في مخارف[3] ضفاف النِّيل ، على فراش وثير ، ومتكأٍ من حرير ، بين نسيم عليل ، وماء سلسبيل ، ذلك المركب الذَّلول الَّذي لا تلحق به صافنات الخيول ، فوقفنا أمامك موقف الحائر ، لا نعرف له اسماً يدلُّ على مسمَّاه ، ولا مرادفاً في اللُّغة يؤدِّي معناه !

فخذوا أيُّها القادرون على الإصلاح بيد اللُّغة ، وانظروا كم أدخل فيها آباؤكم الأوَّلون من كلمة فارسيَّة .

وهذا كتاب الله بين أيديكم يأذن لكم ، بما ندعوكم اليه . وهذا باب الاشتقاق ، وباب النَّحت لا يزالان ، بحمد الله ، مفتوحين ، لم يصبهما ما أصاب باب الاجتهاد . فادخلوا منهما آمنين .

مؤلِّف « البؤساء »

وُلد هيغو ، والقرن الغابر صبيٌّ في مهده ، لم يدرج من حجر

---

(1) العجفاء : المهزولة .

(2) أرهف بالكلام : قاله على البديهة دون أن يُرَوِّي فيه .

(3) مخارف : جمع مَخرفة ، وهي المتنزَّه .

أمّه ، ولم يفرّق بين أمسه ويومه ، فاصطحبا طفلين ثمّ افترقا ، وضرب الدّهر بينهما بضرباته فالتقيا شيخين فانيين . فإذا الأوّل سيّد القرون ، وإذا الثّاني نادرة البطون . هذا يمشي على قدمين من ليل ونهار ، ويطير بجناحين من كهرباء وبخار ، وذلك يتوكّأ على عصوين من عظة واعتبار ، ويرتدي بثوبين من حكمة واختبار . وقد جلس الأوّل على سرير دولة الأيّام ، وأخذ الثّاني بصولجان دولة الأقلام . فالتقت دولة العجب بدولة الأدب ، واجتمعت بدائع الاختراع ببدائع اليراع ، فاخضلّ ظلّ هاتين الدّولتين ، وامتدّ من المغربين إلى المشرقين . فظلّ النّاس بين نعيم الحرّيّة ونعيم المدنيّة .

سبحانك اللّهمّ ! هل كانت تعقل هذه الذّرّات ، وهي في عالم السّديم[1] أن سترتقي بها الحال إلى العيش في هذا النّعيم ! فتبارك الله الذي علّم بالقلم ، علّم الانسان ما لم يعلم .

ولد هيغو ، واللّغة الفرنسيّة بمنزلةٍ بين الضّعف والحاجة ، والقوم بين أسر التقليد ، وذلّ التّقييد ، والأدب لم يبق منه إلاّ الذماء . فأنبته أبوه نباتاً حسناً . فما كاد يشهد ستّة عشر ربيعاً حتّى تتحركت نفسه إلى معالجة الشعر . فقرض قصيدة دار لها قلك البلاغة ، وردّدها لسان الكون . رفعها إلى المجمع العلميّ ، فاهتزّت جوانبه عجباً ، وكادت تطير أعضاؤه طرباً . ولولا انّه كشف فيها عن سرّه ، وأوضح عن بيان عمره ، لأجذلوا ثوابه ، ورفعوا جنابه . ولكنّهم قارنوا بين شعره وعمره ، فاستنزروا أيّامه ، واستغزروا بيانه . فظنّوا انّه يسخر

---

(1) يريد عالم الذرّ الأوّل ، كناية .

منهم . فلم يجيزوه إلاَّ يسيراً . وهبَّت بعد ذلك رياح سعوده ، فأخذ بناصية القوافي ، وتنازل له سلطان الخيال ، فسبح في ملكوته ما شاء الفكر . وما زال يتنقَّل في تلك العوالم الخياليَّة حتَّى نُودي به أميراً على دولتي النَّظيم والنَّثير .

وشجر بينه وبين جماعة الشعراء الخلاف ، فرأوا الحفاظ والتمسيك للقديم ، ورأى غير ذلك . فلم يزل بهم يصابرهم ويطاولهم حتَّى ظهر عليهم ، ورفع للشِّعر مناراً أطلَّت منه الحقيقة بجلالها ، وأشرفت منه الطَّبيعة بجمالها .

ولمَّا صَدع قيود الشِّعر ، وأطلق سراحه من سجن التَّقييد ، وقد وقف إذ ذاك على أبواب الثلاثين من عمره ، نظر فإذا فنُّ التَّمثيل يتضاءَل تحت أستار الملاعب تضاؤل الحسناء تحت الأطمار ، لأَخذ رجاله بأسباب التَّقاليد ، وترسُّمهم أثر الرُّومان واليونان فيما وضعوه من الأقاصيص الَّتي تمثِّل أدوار تلك الأزمان الغابرة . ورأى انَّ الواضعين فيه لم يجيئوا بما ينفع الغلَّة . فانبرى إلى منازلة أولئك المقلِّدين ، وقامت بينهما حرب عقدت عجاجها الأقلام ، وأدارت رحاها الأفهام . فما زال يكرُّ عليهم بجيوش البيان ، وكتائب البرهان ، حتَّى خضعوا لقلمه ، وساروا تحت علمه .

ولاحت بعد ذلك تباشير الاصلاح في سماء الأدب ، وظهر كتابه الَّذي سمَّاه « نتردام دو باري » Notre- Dame de Paris ، فطلع على النَّاس طلوع القمر على المدلج الحائر ! حشرت له فيه اللُّغة جنودها من الألفاظ والمعاني ، فاستعرضها صفّاً صفّاً ، وتفقَّدها حرفاً

حرفاً . ثمَّ أبرزها إلى ميدان التَّحرير على أحسن تعبئة وأكمل نظام ، وقد وفَّق بين قلبها وجناحيها كما يوفِّق القائد الخبير .

ولمَّا قضى من الأدب لبُانته ، وأخذ من الشِّعر حاجته ، هجر الشِّعر إلى السِّياسة . وما هي إلاَّ جولة من جولات الفكر حتَّى دعته السِّياسة إلى مواصلة الشِّعر ليوضح لها سبيل استهواء الأفئدة ، واستبطان الضمائر ، ويكون طليعتها في اكتشاف ما يستكنّ في قرارة النَّفس وخلجات الفؤاد .

وبلغ هيغو من السِّياسة كوكبها ، فركب سفين الحرِّيَّة عرض بحارها ، فما زالت توفي من بحر إلى بحر ، وترمي به من عبر إلى عبر ، وهو على ظهرها يطالع في أفق الدَّهاء صحيفة الرَّجاء ، وقد وضع أمامه ابرة الأمل ، وجعل وجهته قطب العمل ، حتَّى بلَّغته شاطىءَ آماله ، وحمد مغبَّة أعماله .

وما كاد يتنسَّم الإفرنس نسيم الحريَّة حتى هبَّت ريح الاستبداد من رقادها ، وعصفت من جوانب العرش المالك ، فاحتملت هيغو على أكتافها واندفعت به حتى اذا بلغت سماء « بروكسيل » ، عاصمة بلجيكا ، ألقت به هناك في منفاه الجديد . فنزل الرجل متماسكاً ، لم يعتره الدَّهش ، ولم يتطرَّق إلى عزمه الخمول . وغادر باريس ، وقد أقسم أن لا يهبطها أو يهبط عرش الملك فيها . وبرَّت يمينه . فإنَّه لم يطأ أرضها حتى وطئتها بوادر خيل الألمان في حرب السَّبعين .

ولبث هيغو في منفاه . وكانت أيَّامه فيه أخصب أيَّام حياته .

فأسلس العنان لفكره ، وأوسع المجال لقلمه . فوضع كتابه الَّذي سمَّاه « نابوليون الصغير » ، ونظم بعده كتاب « العقوبات » ، فنال فيه من نابوليون الثالث ما لم ينلْ منه زوال ملْكه . وكان عليه أشدَّ غضاضةً من تسليم سيفه إلى يد عدوّه في يوم خذلانه !

وجاء ذلك الكتاب مثال ما يملي الحقد على القريحة ، وتوحي الموجدة إلى اليراع . ووضع بعده كتاب « المشاهدات » ، وكتاب « البؤساء » الَّذي نعرِّبه اليوم . وكم له غيرها من مؤلَّفات جليلة ، ومنظومات بديعة ، منها ما صنعه في صباه « كأوراق الخريف » و « أناشيد الشَّفق » ، ومنها ما وضعه بعد عودته إلى الوطن ككتاب « العام الأسود » . ومات هيغو وهو نادرة الفلك ، وواحد عطارد .

تعريب « الالياذة »[1]

بقيت « الالياذة » منذ وضعها هوميروس اليونانيُّ سرّاً مكتوماً في فؤاد الزَّمان ، توادعه الأيَّام ، وتواصي به الليَّالي ، حتى كُشف لأَهل النَّظر من رجال الغرب عن مكانها ، فكانوا أسرع شيء إلى نقلها إلى لغاتهم . ثمَّ أتحفوا أهل لسانهم بأحسن ما يتحف المرءُ أَخاهُ . ولم تُحرم لغة من لغات الأرض الحيَّة من الاستمتاع بتلك التحفة اللّهم الا لغة العرب فعزّ ذلك على الاستاذ المحقق و العالم المدقق سليمان افندي البستاني حسنة هذا الزمان فشمّر الى تعريبها وكره على علمه

(1) وهو من مقالة له ، نشرها في جريدة « الأهرام » يوم صدور « الإلياذة » ، ونُقلت عن جريدة « الأهرام » في « هديَّة الإلياذة »(66-68) .

بالكثير من اللُّغات التي نُقلت إليها ، أن يستقيها من غير موردها ، فعكف على درس اليونانيَّة ، وتجرَّد لتخليصها ، حتى حذقها ، واطَّرد له فيها القول والكلام ، ثمَّ جلس لتعريب الالياذة جلسة درجت فيها شبيبته ، واستوفت من عمره سبعة عشر ربيعاً . جلس للتَّوفيق بين لغة العرب ولغة هوميروس فما رام عن مكانه حتَّى راض منهما الجماح ، وازال النفرة ، وحتَّى أشكل الأَمر على الناظر في الكتابين ، فلم يدرِ أيّهما المترجَم عن الآخر. ولو انَّه اقتصر منها على التَّعريب لأَعجز المفوَّهين منَّا عن بلوغ مدى شكره ، والثَّناء عليه ، فكيف به وقد توَّج التَّعريب بمقدِّمة أودع ما بين دفَّتيها بحثاً أَخفى من مدارج النِّمال ، وأدقَّ من صناعة القدماء في النَّقش على صغار اليواقيت ، وكرام الفصوص . فلو انَّهم أَوجزوها أُمياً لأَصبح وهو أعلم النَّاس بمغامز الشِّعر ، قديمه وحديثه ، وأَخبر الخلق بطبقات الشَّعراء ، عربيِّهم وأَعجمهم !

نظرتُ في المقدِّمة نظرةً رنت النفس لها رنيناً ، وحنَّ الفؤاد إليها حنيناً ، وصرتُ كأنَّني أَنظر في كتاب سطَّرته يد الطَّبيعة من إملاء لسان الكون !

نظرتُ فيها نظرة الطَّالب المستفيد ، أَتيتُ عليها حتَّى قضيتُ العجب من قدرة ذلك الرَّجل ، وحسن تصرُّفه بأَساليب الكلام . وكنتُ ، وأنا أَقرأُ في المقدِّمة ما كتبه المعرِّب عن المؤلِّف ، كأَنِّي أرى هوميروس ، ولا أَسمعه . فلَّما انتهيتُ إلى قراءَة المتن صرتُ كأَنِّي أَسمعه ولا أَراه فقلتُ في نفسي : لم يكنْ ملك سليمان بإملاء للعيون من مقدمة سليمان ! فانَّه وإن وسع الأَوَّل ما بين قطريها ، فقد وسعت

الثَّانية ما بين قطبيها . فهمٌ تقف دونه الأفهام ، وحديث تخفُّ له الأحلام ، وأسلوب كأنَّه لحسن انسجامه ، وعذوبة ألفاظه ، نهرا منبعه الحكمة والبيان ، ومصبُّه القلوب . فلله درُّ هذا الكهل الكريم فقد ملأ عليَّ مخدعي صبرا حتى خيِّل لي انني في قاعة استحضار الارواح كلما مر بي في القراءة ذكر شاعر القي في روعي ان روحه ترفرف عليَّ . ثمَّ يتمثَّل لعيني في تلك الصورة التي ركَّبها له صاحب المقدِّمة . وما انتهيتُ من المقدمة حتى ألممتُ بتأريخ العالم الشعريَّ منذ برته القرائح البشريَّة ، ومرَّت أمامي صُور الشعراء مرور الصُّور المتحرِّكة .

هذا ما شعرتُ به وأنا أُطالع مقدِّمة الالياذة . أمَّا المتن فاني كدتُ ، والله ، أزهد فيه لو لم يتداركْني المعرِّب بشرح غوامضه . فعلمت انَّ المتن ، كلَّ المتن ، في الشَّرح ، وانَّه لولا المعرِّب لما عرف أبناء هذا اللِّسان فضل المؤلِّف . وقد أكبرتُ صبر البستانيَّ وجَلَده على استخراج هذه الورود من شوك الأَعجميَّة ، واشتيار ذلك الشهد من إبر اليونانيَّة . ولقد كنتُ أُقف عند اللَّفظة لا أفقه معناها ، فأنظر في الشَّرح فأَرى العجب . أرى صاحبنا لا ينفكُّ يسرد نسبة ذلك اللَّفظ حتَّى يردَّه إلى أصله . فهو من الأَلفاظ والمعاني بمنزلة النَّسابة من العرب . وكذلك الشَّرح فانَّهما للنَّظر في أحشاء الالياذة بمثابة أشعَّة « رنتجن » للنَّاظر في خفيِّ العلل ، ودفين الأدواء .

أمَّا الكتاب لجملته فانَّ ما اشتمل عليه من المباحث العلميَّة ، وما حواه من المقارنات الشِّعريَّة ، بين طبقات الشُّعراء من جميع الأُمم ،

فشيءٌ قد بلغ حدَّ الكمال ، وأصبح حقيقاً بقول القائل :

ما كان أحوج ذا الكمال إلى
عيبٍ يوقِّيه من العينِ !

(إلى أن يقول :) فمن كان هذا كلامه ، وهذا مبلغ علمه ، كان مثلي عاجزاً عن تقريظ مثله !

خليل مطران[1]

شاعر لا يلتمس القافية ، ولا يتكلَّف القول ، يصف فيصيب فصَّ الشيء[2] ، ويكتب فلا يخطىء عين القرطاس . قوافيه لا تُطلب ، ومعانيه لا تُغلب . إذا شاءَ أنضر بشعره الشَّجر ، وإذا شاءَ دهده[3] به الحجر . يدخل في القصيدة ويخرج منها في جلسة واحدة ، فإذا جلس لها حفَّت به المعاني ، ومثل بحضرته الخيال ، وتغايرت[4] فيه الألفاظ ، وتقاتلت عليه القوافي !

بديهة تغلي كالمِرجل[5] ، وخاطر ينهلُّ كالمطر ، قد جثم شيطان القريض بين كتفيه ، فهو لا يفتأُ دهره يملي عليه . فخليلنا شاعر في جدِّه وهزله ، في قوله وفعله ، في يقظته ومنامه ، في ملبسه وطعامه ،

---

(1) من « مجلّة سركيس » .
(2) فَصُّ الشّيءِ : أصله وحقيقته .
(3) دَهدَه الحجرَ : دحرجه فتدحرج .
(4) تغايرت الأشياء : اختلفت .
(5) المِرجل : القِدْر .

في نعيمه وبؤسه ، في يومه وأمسه . قويٌّ جانب الإقناع ، قليل جموح اليراع . إذا شاءَ فاخر بأنفه ألفَ شاعـر ، وخـرج يشمـخ به خروج الظافر .

فهو في طليعة أولئك الَّذين خرجوا عن أُفق التَّقليد ، وصدعوا قيود التَّقييد ، وأوسعوا صدر الشِّعر العربِّي للخيال الأعجميِّ ، وأفسحـوا فيه للقصص ، وتصوير الحوادث ، وطوفوا لسرد وقائع التأريخ ، ففتح بذلك فتحاً جديداً شنَّ فيه الغارة على أهل الحفاظ والتَّمسيك[1] .

لقد كنتُ أَعرض على المطران شعري لمكانه من نفسي ، ومكانته من الأَدب . فكان كلَّما رأى انَّني اتَّهم عقلي ، واتتبَّع على نفسـي ، صاح بي : ويحك أَلـق الـكلام علـى عواهنـه توخياً للتَّخفيف علـى نفسك ، ولا تنْصب بيدك في طريق شعرك تلك الموانع التي وقفـت عندها الأَفهام . وكانت تلك عادته في شعره ، ونحيزته[2] في نثره .

قلتُ انَّ المطران لا يلتمس القافية ، ولا يتـكلَّف القـول . فاذا وجـدتَ في شعـره ريح التَّـكلُّف ، وأَصابتـك عنـد تلاوتـه كزازة[3] التَّعسُّف ، فاعلْم انَّه حدث حادث ، أَو وقع أمر أُعجل فيه المطران على أَمره ، وطُولب بالنَّظم ، ولم يتَّسع له العذر في الإِمساك ، فاضطُرَّ إِلى القول على خير إجابة من النَّفس ، وقوَّة من الطَّبع ، ونشـاط من الخاطر .

---

(1) مسَّكَ به تمسيكاً : تعلَّقَ به ، أو اعتصم .

(2) النَّحيزة ، هنا : الطَّبيعة .

(3) الكزازة ، هنا : الانقباض .

نظرتُ في ديوانه الذي أخرجه للنَّاس ، فاذا هو منجم من مناجم الماس . إلاَّ انَّه نضج واستوى ، وحوى من الكنوز ما حوى ، فتحوَّل ما فيه من فحم الحجر إلى جوهر اليتيمة من الدُّرر .

قوَّة الاصطلاح[1]

ليس الاصطلاح بأوهى قوَّةً من النَّقل ، ولا هو بدونِهِ في مراتب الهيمنة على اللُّغات . فلا يهولنَّك قول أُولئك المتزمِّتين[2] الذين وقفوا باللُّغة عند حدِّ النَّقل ، فتمشّت لغات العالم مع المدنيَّة والعمران ، ووقفت لغتنا وحدَها عند ذلك الحدِّ تنظر إلى أخواتها ، وقد سبقنها وقصَّرت ، نظر الشَّرقيِّ إلى الغربيِّ !

لكلِّ عصرٍ من العصور التي تقلَّبت فيها الأُمم أثر خالد في لغاتها . فما من كلمة تَنبُت ولا من لفظة تدوي إلاَّ وللاصطلاح يدٌ في حظِّها من الموت أو الحياة .

هذه لغة الفرنسيس ، ساكنتها مدنيَّة العلم ، وكاثرتها[3] بآلاتها ومخترعاتها ، فلم ترهقها تلك المكاثرة ، ولم تضق ذرعاً بضيوفها . فقد وجَدَت من مرونتها ، ووقوف أبنائها على أسرار الحياة ما مهَّد لها السبيل ، واستلَّها من بين يدي الجمود الَّذي وقعت فيه أُمُّ اللُّغات[4] .

---

(1) من مقدِّمة « الموجز في علم الاقتصاد » . وقد ذكر خليل مطران لصاحب هذه المختارات انَّ مقدمةَ « الموجز » هي بقلم حافظ .

(2) للتزمِّتون : للتشدِّدون الذين لا يترخَّصون في شيء (وهذا التَّعليق هو من الأصل) .

(3) يقال : كاثر الرَّجل صاحبه ، غالبه في الكثرة .

(4) يريد : العربيَّة .

ولقد بلغ من قدرة الاصطلاح أن أصبح ينسخ معاني الكلمات ، وان أبقى كرماً منه على أشباحها ! فكم أخرج من لفظة عن معناها ، وساقها في طريق الاستعمال سوقاً لم يقوَ النَّقل على الوقوف في سبيله .

أفلا يعزُّ علينا بعد ذلك أن يمرّ هذا العصر العبَّاسيُّ(*) الزَّاهر باللُّغة مرّاً ، لا يترك فيه أثراً ، ولا يحُدث معها ذكراً ، حتى إذا طوانا الدَّهر ، ونزل في منازلنا خلقٌ جديد ، جهلوا أنَّنا سبقناهم إلى هذه الدُّنيا ، لأنَّهم لم يجدوا لنا رسماً يُترسَّم ، ولا رأياً يُتوسَّم ؟!

لهذا كنَّا كلَّما عرض لنا في طريق التَّعريب شيءٌ من الأشياء التي لم تجدْ لها عندنا نصيباً من الأسماء ، رحَّبنا به ، واستعرضنا له من الكلمات ما يأنس له ، ويسكن إليه . فاذا ضاق اللَّفظ القديم بما عسى أن يتعدَّد من معاني الشَّيء الجديد ، احتلنا له احتيال أسلافنا : وقد رأوا أن يضعوا للُّغة قواعد تعصم النُطق ، وتقيم اللِّسان ، فسمُّوا ذلك العلم نحواً ، وقلنا ما بالنا نتابعهم متابعة الأرقَّاء في النَّقل ، ولا نجاريهم مجاراة الأكفَّاء في الاصطلاح ، وإنَّا إليه في عهدنا لأحوج ، وإنَّا به لأولى !

بين الاستهانة « بشوقي » والتَّعظيم له[1]

ثمَّ أتراءَى له[2] ، فأُحيِّيه ، وننبسط على الحديث ، فأسأله لمن

(*) ينسب هنا إلى عبَّاس حلمي الثَّاني ، خديوي مصر يومئذٍ .

(1) وهو فصل من « ليالي سطيح » .

(2) تراءَى له : تصدَّى . والكلام هنا « لأحد أبناء النِّيل » ، وهو الذي على لسانه جُعلت القصَّة .

الشّعر ، يا فلان ؟ قال هو بعض ما أعبث به . قلتُ : لقد أسمعتني منذ اللّيلة كلاماً لو نحلته « ابن أوس »[1] ، ما شكَّ سامعه في انّه من مختاراته . فما لك تكتم النّاس مثل هذا الشّعر السريّ[2] ؟ ولو انّك أذعته لغضضتَ به[3] من كثيرٍ من أولئك الذين باتت تطنُّ الصُّحف بذكرهم . قال : ليس من أمري المديح ، ولا سبيل إلى اذاعته في تلك الصُّحف ، إذ أنا لم اسلكْ به في تلك الطَّريق . قلت : فإنَّ أعياك الأمر ، فما لك لا تجمعه في ديوان ، ثمَّ تخرجه للنّاس ، كما يفعل الشُّعراء ممّن هم دونك في منازل الأدب ، ومراتب القريض . قال : كان يكون ذلك حقيقاً بي ، لو انَّ من يقرأ الأثر في مصر يقرأه لذاته ، لا لذات صاحبه . ونحن بحمد الله في بلدٍ لا تنفق فيه سلعة الأديب ما لم يكن صاحبها حظيظاً عند تلك الصُّحف ، حتّى إذا ظهر أثره في النّاس ، قامت تقرِّظه بصنوف المديح والإطراء ، وتنزل نفسها في الدَّعوة إلى كتابه منزلة أُلئك المبشّرين في الدَّعوة إلى دينهم .

فلو بُعث اليوم صاحب « اللُّزوميّات »[4] ، وحاول أن ينشر في تلك الصُّحف حرفاً ممّا أخذه على الأمراء ، وأنكره على الكبراء ، لأَبت عليه أن تفسح لذلك الحرف مكاناً بين جداول الأموات ، فضلاً عن جداول الأحياء ! ألم ترَ إليها كيف كانت تقول يوم كانت تقرِّظ « الشَّوقيّات » ، وقد أسندت إلى صاحبها من الألقاب ما تعجز صحف

(1) يريد : أبا تمّام .

(2) كان قد مرَّ في سياق القصّة مقطّعات من شعر حافظ .

(3) غضَّ من فلان : وضع من قدره .

(4) يريد : أبا العلاء .

الآستانة[1] عن إسناد بعضه إلى جلالة المتبوع الأعظم[2] ، وقد أدّى فريضة الجمعة ، أو تحرّكت شفتاه بالإنعام على بعض أهل الزُلْفى برتبة أو وسام !

بربّك : ماذا رأيتَ فيها من الآيات ، وما جاءَ به صاحبها من المعجزات ، اللّهمَّ الاّ ما يباصر به[3] علينا من تلك المعاني الغريبة التي ما سكنت في مغنى عربيٍّ ، الاّ وذهبت بروائه ؟!

قلتُ : حسبك ! لا تغضض من شاعر الشّرق ، ولا تنتقض من أدبه . فتالله انّه لظريف الوزن ، لطيف القافية . خاطره طوع لسانه . وبيانه أسير بنانه . كأنّما يتناول الشّعر من كمّه لسهولة متناوله عليه . إلاّ انّه مكثار ، وقلَّ أن يسلم المكثار من العثار . فشعره ، كما قال الأصمعيُّ في شعر أبي العتاهية : كساحة الملوك يقع فيه الخزف والذّهب .

قال : إنّي لا أرى رأيك فيه . وفي مصر من لو انقطع لصناعة الشّعر ، لوسع النّاس احسانه فيه . ولكن قد ثنى الله عنان الكثيرين عنه . إمّا لشرفٍ يخشى عليه أن يغضّ منه ، وإمّا لاشتغالٍ بشؤونٍ للحياة لا تقوم الحياة إلاّ بها . وصاحبكم ، بفضل ما هو فيه من السَّعة ، فارغ للشّعر ، غير مشغول بغيره : فالعجب انّه لا يجيد ،

---

(1) أي إسطنبول .

(2) يريد : السُّلطان العثمانيّ .

(3) باصره : باراه في الإبصار . وباصر الشيءَ أشرفَ ينظر إليه من بعيد .

وأعجب منه أن يقال انَّه مكثار ، وقصائده في العام معدودة ، وقوافيها مقدَّرة محدودة ! (إلى أن يقول :) أي فلان إنَّ ما خضت فيه من أمر صاحبك مع ذلك الـواقف بجانبـك ، فأنتما فيه سواء في زلَّـة الآراء ، وانحراف عن خطِّ الإستواء . أغرقت أنت في القدح ، وبالغ صاحبك في المدح . فخرجتَ بشاعر النِّيل عن أُفق الحسنـات ، وكاد يسمـو به صاحبك إلى سماء المعجزات . ولو أنصفتما لأنزلتماه في برجه ، وأركبتماه في سرجه .

إنَّه أرقُّكم طبعاً ، وأجملكم صنعاً . فهو إن ركب الغزل والنسيب كان كأنَّه يُوحى إليه من قريب . وإذا سلك سبيل المديح ، فقد عجز عن وصفه « سطيح » ! إلاَّ انَّه ضيِّق المجال ، وإن كان واسع الخيال . يقع له المعنى الجليل في سبحات الفكر الطَّويل ، فيمسكه خاطره ، وتحرص عليه سرائره . والمعاني كالظِّباء كثيرة النَّفار ، شديدة الإحضار . فهي إن لم تجدْ من نضارة الألفاظ خميلةً تنسح فيها ، أو لم تظفر من عذوبتها بعيون تنهل من نواحيها ، ذهبت عنها ، إن لم يضق بها المذهب . وكذلك حالها في شعر صاحبكم . فهي إمَّا نافرة ، وإمَّا حزينة باسرة[1] . ولو أنَّه مُنح من دقَّة المباني ما مُنح من رقَّة المعاني ، فسلم أُسلوبه من ذلك التَّعقيد الذي أخلق ديباجته ، لكان شاعركم غير مدافع ، وواحدكم غير منازَع .

قال صاحبي ، وهو يكظم غيظه : انَّه لم يغادر معنىً من معانـي العرب والفرنجة إلاَّ سلخه ، ثمَّ مسخه ! فإن كان الأُسلوب على نحو ما

---

(1) بسَرَ : قطَّب وجهه .

وصفتَ ، وكانت المعاني لغيره فما عسى يكون فخره علينا ، وقد ذكر صاحب « دلائل الإعجاز »[1] انَّ البلاغة لا تقع في اللَّفظ ، ولا في المعنى ، ولكنَّها تقع في الأُسلوب . فمن كان أُسلوبه يجري على غير هذا الحدِّ كان خليقاً أَن لا يُسمَّى بليغاً . وصاحبنا لا يزال مهزول اللَّفظ ، غامض المعنى ، يحتاج النَّاظر في كلامه إلى تخوت الرَّمل ، وطوالع التَّنجيم ! وقد قصر همَّه على اصطحاب طائفة من الأَلفاظ لا يعدوها إلى غيرها ، حتَّى أصبح بعضها علامةً تدلُّ على شعره ، وإن كان غُفلاً من ذكره . ولقد نظرتُ في طريقة شعره ، فأَلفيتها في الغارة على صحائف الأوَّلين . فهو لم يغادر معنىً في خدره إلاَّ سباه ، ولا لفظاً في وكره إلاَّ وأزعجه . ألا ترثي ، بربِّك ، إلى عظام أُبي الطَّيب ، وهي تئنُّ في قبرها على أبياتٍ شادها صاحبها ، وخرَّبها صاحب « الشَّوقيَّات » ؟! ولو كُشف لكَ عن مجامع الأَرواح في عوالمها ، لرأيتَ منها ثلاثاً قد ضمَّها الحزن ، وجمعها الأسى . ولو وقع في سمعك صوت أُبي عبادة[2] ، وهو يندب شعراً دخل عليه الإفساد ، وأُنين المتنبيِّ وهو يبكي كلاماً ذهب به المسخ ، وزفير بن الأَحنف وهو يتحسَّر على رقَّة لعبت بها يد السَّلخ !

ومن نظر في قول أَبي الطَّيِّب : « نودُّ من الأَيَّام ما لا تودُّهُ » وفي قول صاحبنا : « يودُّ من الأَرواح ما لا تودُّهُ » ، علم أَنَّ الثَّاني أَغار على الأوَّل ، فسلبه مطلعاً أبهى من مطالع الشَّمس ، ولم يقتصر على هذا السَّلخ حتَّى تخطَّاه إلى المسخ ، فرفع لفظة « الأَيَّام » من شطر بيت

---

(1) يريد الإمام عبد القاهر الجرجانيّ ، صاحب « دلائل الإعجاز » في علم المعاني .

(2) هو البحتريّ .

المتنبيِّ ووضع مكانها لفظة « الأرواح » في شطر بيته . ثمَّ جعل ذلك مطلعاً من مطالع التَّهاني أنزل فيه ممدوحه منزلة عزريل من النُّفوس ! فانِّي لا أعرف أحداً « يودُّ من الأرواح ما لا تودُّه » اللَّهمَّ إلاَّ ملك الموت . فهل بعد هذا نغفر له ضعف الأُسلوب لما عساه يقع في شعره من لطف المعاني وجهلها على نحو ما سمعت ؟!

قال سطيح : إنَّك لا تفتأُ تتعقَّب سيِّئاته ، وتتحامى[1] ذكر حسناته . فما لك لا تذكر بجانب ذلك قوله في هذا البيت الحكيم :

فانَّما الأُمم : الأَخلاق ما بقيت ،
فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا !

قال صاحبي : لو شئتُ أن أَضع بجوار كلّ سيِّئة من سيئاته حسنة من حسناته ، لنفدت الحسنات وأنا في الرُّبع الأُول من ليلة السيِّئات !

قال سطيح : إنَّك إن أَخذتَ عليه أَخذه للمعاني ، فقد أَخطأْتَ مواقع الرَّأي . فلو طلعت الشَّمس على جديد ، لكان صاحبكم خليقاً بما تقول . ولكن ألا ترى أنَّ المعاني كالنُّقود : تداولها النَّاس ، وليس عليهم في ذلك من بأْس . ولكن بعض ما أُوتيه الرَّجل من الفضل أصبح داعياً إلى حسده ، والوقوع فيه[2] .

قال صاحبي : لو كنتُ ممَّن يعرفون الحسد لحسدتُ ذلك الذي

---

(1) تحاماه : اجتنبه وتوقَّاه .

(2) وقع في فلان : سبَّه وعابه واغتابه .

يقول[1] :

أسمع في قلبي دبيب المنى ،
وألمحُ الشُّبهة في خاطري .

ولكنّني لا أنزل بنفسي إلى حسد من يقول[2] :

مال واحتجبْ وادّعى الغضبْ .

بل أرثي له من التصاقه بمثل هذا الكلام .

قال سطيح : وهذا نوع من أنواع الحسد . فانَّك تعتمد إلى ذكر شعرٍ ملؤه الوهن والغميزة[3] ، وتعرض عن ذكر ما هو رصين من شعره. فتالله ! إنَّ في قوله :

بسيفك يعلو الحقُّ ، والحقُّ أغلبُ ،
ويُنصر دين الله أيان تضربُ .

وفي قوله :

همت الفلك ، واحتواها الماءُ ،
وحداها بمن تقلُّ الرَّجاءُ .

لآيات لقومٍ يعقلون .

---

(1) يريد البارودي . والبيت الذي ستمُر به القراءَة في المتن هو له . قاله وهو في منفاه في « سيلان » ، وقد جاءَته البشارة من طرفٍ خفيٍّ بالعفو عنه ، وبات بين مصدقٍ الخبر ومكذِّبه .

(2) يريد شوقي . والبيت الذي في المتن ، هنا ، هو مطلع شوقيَّة نُظمت في وصف مرقصٍ خديويٍ .

(3) الغميزة : المَغْمز .

قال صاحبي : حسبي فيما ذكر ، وحسبي فيما تنكره عليَّ من ذلك أن أنشدك هذين البيتين . ثمَّ ذكر بيتين لا يحضرني منهما غير الشَّطر الأوَّل : « تلك القوافي التي شاهدت شهرتها » !

قال سطيح : صنع الله لك[1] ، يا فلان ، فانِّي أراك تستبطن أمره[2] ، وتستقصي شعره . ولكن هذا لا يعيب من لبث ما أدري كم سنة يضرب على وتر واحد في الغزل والمديح ، وهو يأتي في كلِّ ضربة بنغمة جديدة . فلو انَّك جئت بأطبع خلق الله على الشِّعر ، وكلَّفتَهُ أن لا ينظم ما عاش في غير المدح ، لما غنيَ عن الظَّهير[3] والمشير ، ولما جاء بأبدع ممَّا يجيءُ به اليوم شاعر الشرَّق ! فاعلمْ بانَّه حقيق بالرِّئاسة عليكم ، وأنَّه في مقدَّمة أولئك الذين انبروا لتشييد هذه الدَّولة الأدبية ، ورفعوا على ألسنة الأقلام . فإن أنكرتَهُ بعد اليوم ، فقد أنكرتَ نفسك ، وكذَّبت حسَّك . فهو عميد رجال هذه الدَّولة الجديدة .

---

(1) صنعَ له ، أو إليه ، معروفاً : أسداه .

(2) استبطن أمره : عرفَ باطنه .

(3) الظَّهير : المعين .

أحمد شوقي[1]

(وُلد سنة 1868، وتوفِّي سنة 1932 م.)

شوقي الناثر[2]

عرفنا سعادة احمد شوقي بك شاعر الامير شاعراً واذا به ناثر من الطبقة الاولى قال وقد طعن اللواء عليه في كتاب الى محمد بك فريد ماياتي يصف « وطنيته ».

« اراك ايها الرئيس الكريم قد خفى عليك مكان وطنيتي فهل تأذن ان ادلك عليه ولا فخر فقد احرجتني أحراجاً واخرجتني من خلقي المتواضع اخراجاً فان زهيت واستكبرت مرة في العمر واحدة فان القراء كرام والكرام يغفرون.

وطنيتي ايها الرئيس الكريم هي في فؤاد ولدك الصغير المحروس فاذا انقلب اليك من المكتب فادعه يتل عليك من آياتها ما يخفق له فؤادك وتهتز له جوانحك اهتزازاً لأن فريقاً يهزون الرضيع في مهده ويوحون الوطنية الى الصغير في درسه اولئك هم المفلحون.

وطنيتي تطيف بكل حجر القي اساساً للعلم في هذا القطر من

---

(1) لم يترجم له. [المحقق].

(2) عن مجلة سركيس.

الجامعة الى النادي الى امثالهما من مصادر الحياة الحقيقية للامم والشعوب يعرف ذلك ويذكره المؤسسون .

وطنيتي هتف بها البدو وتغنى بها الحضر وجاوزت ذلك الى الاعجام من ترك وفرس فهي معلقة على جدران قصورهم ودورهم يقرأها هنالك القارئون .

وطنتي هي مخبأة ناحية في مقبرة سلفك العظيم فطف بها وناجه يخرج بك من جانب القبر صدى الصدق صدى الحق صدى الحياة التي لم يتغلب عليها الموت ولا تمكن منها البلى - صدى الشباب الذي نصفه في الجنة ونصف لا يزال في هذه الدنيا يملأها ويسري فيها وهذا الصدى : يقول شوقي همزة اللواء طالما تباهي به وافتخر واعتز به وانتصر وصال بوطنيته ما ظهر منها وما استتر وهو اصدق من نظم فيه ونثر في وقت عز فيه الصادقون .

وطنيتي في الاهرام كان قلمي في قمته كانت هممي في خدمته وكان صاحبه يحبني كما يحب واحده جبرائيل وليس وراء الحب غاية في الأحترام - ثم في المؤيد مدرسة الوطنيين الاولى ثم في اللواء الذي كان صاحبه الوفي الكريم يتلقى الكلمة مني كأنما يتلقى سنة تقوم لجريدته عرفاناً للفضل والفضل يذكره الخيرون .

وطنيتي في الشوقيات قليلها الذي ظهر وكثيرها المنتظر وفي عذراء الهند ودل وتيمان ولادياس وبنتاؤر . ولو اطلعت على واحد من هذه الاثار التي يقتنيها ربات الحجال ويفهمها الرجال والاطفال لعلمت كما علم كثير من العقلاء قبلك انني كما وصفني المرحوم مصطفى ذلك

الجامعة الى النادي الى امثالها من مصادر الحياة الحقيقية للامم والشعوب يعرف ذلك ويذكره المؤسسون .

وطنيتي هتف بها البدو وتغنى بها الحضر وجاوزت ذلك الى الاعجام من ترك وفرس فهي معلقة على جدران قصورهم ودورهم يقرأها هنالك القارئون .

وطنتي هي مخبأة ناحية في مقبرة سلفك العظيم فطف بها وناجه يخرج بك من جانب القبر صدى الصدق صدى الحق صدى الحياة التي لم يتغلب عليها الموت ولا تمكن منها البلى ـ صدى الشباب الذي نصفه في الجنة ونصف لا يزال في هذه الدنيا يملأها ويسري فيها وهذا الصدى : يقول شوقي همزة اللواء طالما تباهي به وافتخر واعتز به وانتصر وصال بوطنيته ما ظهر منها وما استتر وهو اصدق من نظم فيه ونثر في وقت عز فيه الصادقون .

وطنيتي في الاهرام كان قلمي في قمته كانت هممي في خدمته وكان صاحبه يحبني كما يحب واحده جبرائيل وليس وراء الحب غاية في الأحترام ـ ثم في المؤيد مدرسة الوطنيين الاولى ثم في اللواء الذي كان صاحبه الوفي الكريم يتلقى الكلمة مني كأنما يتلقى سنة تقوم لجريدته عرفاناً للفضل والفضل يذكره الخيرون .

وطنيتي في الشوقيات قليلها الذي ظهر وكثيرها المنتظر وفي عذراء الهند ودل وتيمان ولادياس وبنتاؤر . ولو اطلعت على واحد من هذه الاثار التي يقتنيها ربات الحجال ويفهمها الرجال والاطفال لعلمت كما علم كثير من العقلاء قبلك انني كما وصفني المرحوم مصطفى ذلك

الغدير الصافي في الفاف الغاب يسقي الارض ولا يبصره الناظرون .

ولقد ذكرت من اعظم ذنوبي لديك انني الوذ بالادباء الافاضل رجال الصحافة من وطنيين واوربيين ويلوذون بي ولو سألتني عن السبب لاجبتك بالصدق والصراحة اللذين هما في طباعي ان لي من المركز الادبي والمادي بحمد الله ما يجعل الوزراء والكبراء يقبلون علي ان لم أقل يحبون لقائي ولكني اميل بجملة عواطفي الى تلك الفئة القليلة من اهل الادب والرأي في الامة ولربما دعيت الى مائدة اعظم عظيم في القطر واعتذرت من اجل دعوة تكون قد سبقت من احد اولئك الافاضل وهذا ما لا يفعله الاكثرون .

من مقدمة الشوقيات

الطبعة الاولى[1]

الحمد لله الذي علم البيان . وجعله أثراً من روحه عند الانسان . والصلاة والسلام على نبي الامة . القائل ان من الشعر لحكمة . (أما بعد) فما زال لواء الشعر معقوداً لأمراء العرب وأشرافهم. وما برح نظمه حبيباً الى علمائهم وحكمائهم . يمارسونه حق المراس . ويبنون كل بيت منه على أمتن أساس . موفين اجلاله : حافظين خلاله . مدنين الى الاذهان خياله .

قاله امرؤ القيس واصفاً وحاكياً . وضاحكاً وباكياً . وناسباً وغازلاً . وجاداً وهازلاً . وجمع شمله بحيث تعد المنظومة الواحدة له أثراً في البيان مستقلاً وبنياناً قائماً برأسه .

---

(1) مطبعة الاداب والمؤيد سنة 1898 . (ص2-13) .

ملاحظة : كتب شوقي مقدمة ديوانه الشوقيات في طبعته الاولى ، بينما وضع مقدمة الشوقيات عندما نشرت فيما بعد في أربعة أجزاء ، الدكتور محمد حسين هيكل .

وقد ورد في مجلة المقتطف ، مجلد 24 (1900) ص352 ما يلي :

« وكان بعضهم قد انتقد، نثر الناظم حتى علق بالأذهان انه ان كان شاعراً فهو غير ناثر فقدّم لديوانه مقدمة اثبت فيها انه ناثر كما أنه شاعر ، وهي من أبلغ ما صدّرت به الدواوين ولا سيما حيث يخرج الكاتب من قيود التقليد ويطلق لمخيلته العنان» . [المحقق] .

ونظمه أبو فراس فخراً عالياً . ونسيباً غالياً . وحكماً باهرة . وأمثالاً سائرة . لكنه لم يقله فوضى ولا قرب في نظمه الخلط فان قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها :

أراك عصّى الدمع شيمتك الصبرُ أما للهوى نهي عليك ولا أمرُ

ليست الا عقدا توحد سلكه وتشابهت جواهره ودق نظامه . تعاونت فيه ملكة العربي وسليقة الشاعر على حسن الحكاية . فاذا فرغت من قراءتها فكأنك قد قرأت أحسن رواية . وهذا وكونها أشبه شيء بالشعر في شعور الانفس هما سر بقائها متلوة الى الابد .

وكان أبو العلاء يصوغ الحقائق في شعره ويوعى تجارب الحياة في منظومه ويشرح حالات النفس ويكاد ينال سريرتها ومن تأمل قوله من قصيدة :

فلا هطلت عليّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

وقابل بين هذا البيت وبين قول أبي فراس :

معللتي بالوصل والموت دونه اذا مُتُّ ظمآنا فلا نزل القطرُ

ثم نظر الى الاول كيف شرع سنة الايثار وبالغ في اظهار رقة النفس للنفس وانعطاف الجنس نحو الجنس والى الثاني كيف وضع مبدأ الأثرة وغالى بالنفس ورأي لها الاختصاص بالمنفعة في هذه الدنيا تعيش فيها جافية ثم تخرج منها غير آسية علم أن شعراء العرب حكماء لم تغرب عنهم الحقائق الكبر ولم يفتهم تقرير المبادىء الاجتماعية العالية

وانهم أقدر الأمم على تقريبها من الأذهان واظهارها في أجلى وأجمل صور البيان .

وكان أبو العتاهية ينشيء الشعر عبرة وموعظة . وحكمة بالغة موقظة . وكان أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه يرجع اليه كذلك في الوعظ والارشاد والتحذير من الرذائل . والاغراء بالفضائل .

وكان الشافعي رحمه الله وهو القائل :

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد .

تجري ألفاظه بالشعر وله مقاطيع مختارة . وحكم في الناس سيارة . وحسبك أن الطب جميعه لو جمع لما خرج عن البيتين المنسوبين اليه وهما :

ثلاثٌ هنّ مهلكة الانام وداعية الصحيح الى السقام
دوام مدامة ودوام وطء وادخال الطعام على الطعام

ولو انفسح لهؤلاء وأمثالهم المجال من الزمان والمكان وشهدوا عصر البخار كما نشاهده . وكابدوا الدهر في الهرم مثلما نكابده . لامتلأت الصدور من محفوظ أشعارهم . ولضاقت المطابع على تنافسها عن نشر آثارهم .

* * *

قدمنا هذا ليعلم به فريق يحتقرون الشعر وآخرون منا معشر الشبان يضمرون للعربي منه عداوة من جهل الشيء ويرون بينه وبين الشعر الافرنجي بعد ما بين المشرق والمغرب ناسين أن العرب أمة قد خلت ودولة تولت فلا ينبغي أن يؤخذوا الا بما تركوا وان المسؤول عن

خروجه بعدهم من هالته انما هو الخلف المفرط والوارث المتلاف .

اشتغل بالشعر فريق من فحول الشعراء جنوا عليه وظلموا قرائحهم النادرة وحرموا الاقوام من بعدهم . فمنهم من خرج من فضاء الفكر والخيال ودخل في مضيق اللفظ والصناعة . وبعضهم آثر ظلمات الكلفة والتعقيد على نور الابانة والسهولة . ووقف آخرون بالقريض عند القول المأثور « القديم على قدمه » فوصفوا النوق على غير ما عهدها العرب عليه وأتوا المنازل من غير أبوابها ودخلوا البيداء على سراب . وانغمس فريق في بحار التشابيه حتى تشابهت عليهم اللجج ثم خرجوا منها بالبلل . وزعمت عصبة ان أحسن الشعر ما كان بواد والحقيقة بواد فكلما كان بعيداً عن الواقع ، منحرفاً عن المحسوس ، مجانبا للمحتمل ، كان أدنى في اعتقادهم الى الخيال . وأجمع للجلال والجمال . حتى نشأ عن ذلك الاغراق الثقيل على النفوس والغلو البغيض الى العقول السليمة .

على أن الكل قد مارسوا الشعر فناً على حدة . واتخذوه حرفة وتعاطوه تجارة اذا شاء الملوك ربحت واذا شاؤا خسرت . ثم لم يكفهم ذلك حتى هجوا الشعر وذموه بكل لسان فزعموه مجلبة الشقاء وقالوا انه محسوب على الشعراء يغيض من ارزاقهم وينحت من قلوبهم ويعرضهم لاراقة ماء الوجوه ولقد والله زعموا صدقاً وقالوا حقاً وان هذا الجزاء فئة يتوقعون ارزاقهم من ملوك كرام يخلقهم الله لرواج حرفتهم فاذا لم يخلقوا كسدت الحرفة واخطأت الارزاق على أنه يستثني من هؤلاء قليل لا يذكر في جنب الفائدة الضائعة بضياع الشعر

مديحاً في الملوك والامراء ، وثناء على الرؤساء والكبراء ، والآ فمن دواوينهم ما يخلق ان يكون المثال المحتذى في شعر الامم كابن الاحنف مرسل الشعر كتباً في الهوى ورسائل ، ومتخذه رسلاً في الغرام ووسائل . وكابن خفاجة شاعر الطبيعة ومجنون ليلاها ، وواصف بدائعها وحلاها . وكالبهاء زهير سيد من ضحك في القول وبكى ، وأفصح من عتب على الاحبة واشتكى . وحسبك أنه لو اجتمع ألف شاعر يعززهم ألف ناثر على أن يحلوا شعر البها أو يأتوا بنثر في سهولته لانصرفوا عنه وهو كما هو .

ولا أرى بدأ من استثناء المتنبي مع علمي أنه المدّاح الهجّاء . لان معجزه لا يزال يرفع الشعر ويعليه . ويغري الناس به فيجدده ويحييه . وحسبك أن المشتغلين بالقريض عموماً والمطبوعين منهم خصوصاً لا يتطلعون الا الى غباره . ولا يجدون الهدى الا على مناره . ويتمنى أحدهم لو أتيح له ممدوح كممدوحه ليمدحه مثل مديحه أو لو وقع له كافور مثل كافوره ليهجوه مثل هجائه فمثل أبي الطيب في تشبه الشعراء به وسعيهم لبلوغ شأوه في المدح أو الهجو كمثل قائد مشهور الايام . معروف بالحزم والاقدام . قد أشربته قلوب الجند وملئت نفوسهم ثقة منه فلو قذف بهم في مهاوي الهلاك وهم يعلمون لما جبنوا ولا أحجموا . هذا مع اعترافي بأن المتنبي صاحب اللواء . والسماء التي ما طاولتها في البيان سماء . ولو سلم من الغرور وسلم الناس من لسانه لاجللته اجلال الانبياء .

والحاصل ان انزال الشعر منزلة حرفة تقوم بالمدح ولا تقوم بغيره

تجزئة يجل عنها . ويتبرأ الشعراء منها . الا أن هناك ملكاً كبيراً ما خلقوا الا ليتغنّوا بمدحه ويتفننوا بوصفه ذاهبين فيه كل مذهب آخذين منه بكل نصيب وهذا الملك هو الكون فالشاعر من وقف بين الثريا والثرى . يقلب احدى عينيه في الذرّ ويجيل أخرى في الذرى . يأسر الطير ويطلقه . ويكلم الجماد وينطقه . ويقف على النبات وقفة الطلّ . ويمرّ بالعراء مرور الوبل . فهنالك ينفسح له مجال التخيل ويتسع له مكان القول ويستفيد من جهة علماً لا تحويه الكتب ولا توعيه صدور العلماء ومن جهة أخرى يجد من الشعر مسلياً في الهم . ومنجياً من الغم . وشاغلاً اذا أملّ الفراغ ومؤنساً اذا تملكت الوحشة ومن جهة ثالثة لا يلبث أن يفتح الله عليه فاذا الخاطر أسرع والقول أسهل والقلم أجري والمادة اغزر بحيث لا تمضي السنون حتى تتداول الايدي مؤلفاته . واذا مات اكبر الناس من بعده مخلفاته . أو لم يكن من الغبن على الشعر والامة العربية أن يحيا المتنبي مثلاً حياته العالية التي بلغ فيها الى أقصى الشباب ثم يموت عن نحو مائتي صحيفة من الشعر تسعة اعشارها لممدوحيه والعشر الباقي وهو الحكمة والوصف للناس .

هنا يسأل سائل وما بالك تنهي عن خلق وتأتي مثله فاجيب أني قرعت أبواب الشعر وأنا لا أعلم من حقيقته ما اعلمه اليوم ولا أجد أمامي غير دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها وقصائد للاحياء يحذون فيها حذو القدماء والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر الا ما كان مدحاً في مقام عال ولا يرون غير شاعر الخديوي صاحب المقام الاسمى في البلاد . فما زلت أتمنى هذه المنزلة واسمو اليها على درج الاخلاص في

حب صناعتي واتقانها بقدر الامكان وصونها عن الابتذال حتى وفقت بفضل الله اليها ثم طلبت العلم في اوروبا فوجدت فيها نور السبيل من أول يوم وعلمت أني مسؤول عن تلك الهبة التي يؤتيها الله ولا يؤتيها سواه واني لا أؤدي شكرها حتى أشاطر الناس خيراتها التي لا تحد ولا تنفد واذ كنت أعتقد أن الاوهام اذا تمكنت من أمة كانت لباغي ابادتها كالافعوان . لا يطاق لقاؤه ويؤخذ من خلف باطراف البنان جعلت أبعث بقصائد المديح من أوروبا مملوءَة من جديد المعاني وحديث الاساليب بقدر الامكان . الى أن رفعت الى الخديوي السابق قصيدتي التي أقول في مطلعها :

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهنّ الثناء .

والتي غزلها في أول هذا الديوان . وكانت المدائح الخديوية تنشر يومئذ في الجريدة الرسمية وكان يحرر هذه أستاذي الشيخ عبد الكريم سلمان فدفعت القصيدة اليه وطلب منه أن يسقط الغزل وينشر المدح فودّ الشيخ لو أسقط المديح ونشر الغزل ثم كانت النتيجة أن القصيدة برمتها لم تنشر فلما بلغني الخبر لم يزدني علماً بأن احتراسي من المفاجأة بالشعر الجديد دفعة واحدة انما كان في محله وان الزلل معي اذا أنا استعجلت .

ثم نظمت روايتي « على بك أو فيما هي دولة المماليك » معتمداً في وضع حوادثها على أقوال الثقات من المؤرخين الذين رأوا ثم كتبوا وبعثت بها قبل التمثيل بالطبع الى المرحوم رشدي باشا ليعرضها على الخديوي السابق فوردني منه كتاب باللغة الفرنساوية يقول في خلاله :

« أما روايتك فقد تفكه الجناب العالي بقراءتها وناقشني في مواضع

منها وناقشته وهو يدعو لك بالمزيد من النجاح ويحب أن لا تشغلك دروس الحقوق التي يمكنك تحصيلهاوانت في بيتك بمصر عن التمتع من معالم المدنية القائمة أمامك وان تأتينا من مدينة النور (باريز) بقبس تستضيء به الآداب العربية » . فصادفت هذه النصيحة العالية من أمير ذكي حكيم هوى في فؤاد مطوي على طاعته نازل على حكم الشعر والادب فترجمت القصيدة المسماة « بالبحيرة » من نظم (لمرتين) وهي من آيات الفصاحة الفرنساوية . ثم أرسلتها الى الباشا المشار اليه في كراس وبعض كراس ليطلع الجناب الخديوي عليها واذ كنت لا اتخذ لشعري مسودَات رجوت اني أجدها عنده بعد العودة الى مصر ثم عدت دون ذلك عواد .

وجربت خاطري في نظم الحكايات على أسلوب (لا فونتين) الشهير وفي هذه المجموعة شيء من ذلك فكنت اذا فرغت من وضع اسطورتين أو ثلاث أجتمع باحداث المصريين واقرأ عليهم شيأ منها فيفهمونه لاول وهلة ويأنسون اليه ويضحكون من اكثره وأنا أستبشر لذلك وأتمنى لو وفقني الله لأجعل لاطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للاطفال في البلاد المتمدنة منظومات قريبة المتناول يأخذون الحكمة والادب من خلالها على قدر عقولهم .

والخلاصة اني كنت ولا أزال ألوى في الشعر على كل مطلب . وأذهب من فضائه الواسع في كل مذهب . وهنا لا يسعني الا الثناء على صديقي خليل مطران صاحب المنن على الادب . والمؤلف بين أسلوب الافرنج في نظم الشعر وبين نهج العرب . والمأمول اننا نتعاون على

ايجاد شعر للاطفال والنساء وأن يساعدنا سائر الادباء والشعـراء على ادراك هذه الامنية على اني لا أستصعب في مصر اليوم صعباً بعـد ما علمت ان كثيرا من المخدّرات في العاصنمة أصبحن يرقبن ساعة ظهور الجرائد بصبر نافد وان احداهن طردت خادماً لها أرسلته يشتري نسخة من جريدة فأبطأ مع علمه بأن مولاته لا تعطي صبراً عن أخبار الحرب الترنسفالية. اذاً فالواجب على الكتّاب ورجال الصحافـة في أولهـم أن يهيؤا أسباب النجـاح لهـذا الميل الحـادث وعلى الادبـاء والشعـراء أن يعرضوا فاكهتهم على النساء مثل الرجال حتى تصبح جنات قرائحهم فيها من كل فاكهة زوجان .

بقي استدراك لا بد من ايراده وذلك أن بعضهم يستنتج من كون الناثر لا ينظم وأن الشاعر لا ينثر كذلك ولا ينبغي له وهذا وهم يداني اليقين عندهم وقد جاوز الشعراء في الانخداع به حداً أضرّ بهم مع انه يكفي للخروج منه أن نعلم أن اكثر ما أعجز به أدباء الافرنج اليوم في القصص والانشاء وما يمثل على اكبر ملاعبهم وتتداولـه ألسنتهـم من مرسل الكلم ومنثور الحكم وما كتب في هذا القرن والـذي قبلـه في الفلسفة العليا والسياسة الكبرى انما هو من قلم مشاهير الشعراء حتى لتسمع عن أحدهم انه مات عن عشرات من المؤلفات ثم ترى المنظوم منها أقلّها.بل ان بعضهم يقدم « الاشقياء » كتاب لفكتور هوجو على سائر مؤلفاته وفيها الشعر كما يرون «اعتراف ابن العصر » لألفريد دي موسيه أجل أثر له بين كثير من الآثار وفيها الروايات المنظومة والاشعار وكلا الشاعرين مطبوع لم يختلف في سليقته اثنان .

على أني كنت أول من انقاد بأزمّة هذا الوهــم وطـالما أوذيت به فكنت اذا عرضت لي كتابة أشفق منها وأجفل عنها فصرت مثلي مثل الشاعر الفرنسوي الذي يحكي عنه انه لما رأى أهل باريز يبالغون في الحفاوة به ويكثرون من دعوته الى موائدهم ومجالسهم ليسمعوا حديثه على ظن أنه يقول ما لا يقوله الناس بلغ به الاحتراس منهم الى ان كان اذا دعي الى وليمة حضر والقوم على المائـدة فأكل صامتـا ثم انصرف والقوم لم يفرغوا من الطعـام فقيل له في ذلك فقـال أنـا على المائـدة كأحدكم فاذا جلست ازاء مكبتي فتصوروني كيف شئتم .

اما كون الناثر لا ينظم الا اذا كان حاصلاً على هذه الملكة الموهوبة فحقيقة لا مشاحة فيها وان لم يكن بذلك عار على الكاتب بل الغبن الفاحش والخسران المبين أن تضيع حياة الكثيرين من الكتاب والعلماء وليست بقليلة الثمن في محاولة المحال والتمادي في مثل هذا الضلال على أن الشعر ليس من حاجيات العمران المادي الذي تتوقف عليه سعادة الانسان في هذه الحياة الدنيا ولكنه من كماليات العمران الادبي الذي تسأم النفس عنده الحقيقة المجسدة . والمادة المجردة . وتميل في بعض أوقاتها الى التنقل بشعورها من عالم الى آخر ومن فضاء الى سواه ولعل هذه هي الحكمة في كون الشعراء قليلاً عديدهم في كل زمان ومكان لا تعطي الامم منهم الا بقدر حاجتها اليهم . ومما يجمل ايراده في هذا المقام انه بدا لاحد الانكليز أن تكون عنده مجموعة فيها من كل شاعر عصري شيء من نظمه بخطه فجعل يطوف بها على مشاهير الشعراء حتى وفد على جول سيمون فقيد فرنسا وفيلسوفها المشهور فطلب منه أن يكتب شيئاً من نظمه فاعتذر الرجل بكونه ما نظم قط ولا يملك قول الشعر فما

زال الانكليزي يلح عليه حتى أحرجه وكان جول سيمون يحفظ أبياتا للشاعر الشهير لمارتين وكانت أحسن ما في منظومته التي سماها « البحيرة » فأخذ المجموعة وكتب الابيات ثم جعل اسمه تحتها واتفق بعد ذلك أن المجموعة وقعت في يد منتقد أدبي لبعض الصحف السيارة في باريز وكان لا يعرف الشعر ولا يدري لمن هو فلم يكن منه الا آن ملأ أعمدة الجريدة من انتقادها ورمى جول سيمون بالدخول فيما لا يعنيه والتطفل على موائد الشعراء ثم نصح له أن يبقى فيلسوفا كما كان ومن الفلسفة أن لا يحاول الانسان ما ليس في الامكان .

يعلم مما تقدم جميعه أنني أرى للمشتغلين بالشعر من أبناء « الوطن العربي » أن يجمعوا في مسيرهم على الدرب بين أزواد ثلاثة لا وصول بدونها مجتمعة .

« الاول » ثقة الانسان من كون الشعر في طباعه وهذا هو الشرط الأوجب وانه لامر يعني الآباءَ والاساتذة اكثر من سواهم ولا ينبغي لهم أن يتصرفوا في مستقبل الاطفال الذين هم أمانة الله في أيديهم بمقتضى أميالهم الشخصية وأفكارهم الخصوصية بل عليهم اذا آنسوا هذه الهبة عند الطفل أن يأخذوا بيده ويعينوه عليها ولو كانوا ممن ينظرون الى الشعر بعين السخط لان الله سبحانه وتعالى وهو الواهب قد رأى له ذلك وما يرى الله أفضل واذا وجدوه دعيًا في الشعر دخيلاً منذ الطفولة وجب عليهم تبغيضه اليه وممانعته عن نظمه ولو كانوا من محبي الشعر ونصرائه .

« والثاني » أخذ العلوم وتناول التجارب لان الشعر لا يخرج عن

كونه اخباراً وحكمة وهما لا يكونان الا من عليم مجرب .

« والثالث » أن لا يتخذ الشعر حلية على عطل من سائر أمور الدنيا وأشغالها فان كان ولا بد من التفرغ للأدب حبا به أو طلبا للكسب فليكن الشعر هو اليتيمة القسعاء في عقد علومه وصاحب العلم في موكب فنونه لا ينافي تعاطيه الكتابة نثرا في جميع المطالب وضروب المواضع فانك لا تجد الشعر وسلطانه عندئذ الا مرشدين أمينين وذخرين ثمينين .

فمن جمع بين هذه الامور الثلاثة وكان عاملاً متقناً لعمله حريصاً عليه مترقياً فيه يخاف الله في الغرور ويخشاه في ايذاء خلقه فقد انكشف له سر النجاح وأحرز قصب السبق في حلبة الكتاب والشعراء .

أمين تقي الدين

(وُلد سنة 1884، وتُوفِّي سنة 1937 م.)

هو أمين بْن سعيد بْن محمود تقيّ الـدِّين . وُلـد في بْعَقْلين من لبنان ، وتعلَّم في مدرسة « الحكمة » ، وأخذ فيها العربيَّة عن الشيخ عبـد الله البستانــي المشهــور ، ودرس « الحقــوق » في جامعــة « ديجون » ، في فرنسة ، وأقام في مصر مدَّةً يعمـل في المحامـاة ، وينشر فيها مع انطون الجميِّل مجلَّة « الزُّهور » . وبعد عودته من مصر إلى وطنه ، وذلك سنة 1914 ، راح يعمل في المحاماة ، في بيروت ، إلى أن توفَّاه الله .

أمين تقيّ الدِّين حلو المفردات ، حلـو التَّـراكيب . يشيع طرب المبنى في أسلوبه شيوعاً يرتفع بالمعنى إلى الدَّرجات العالية . وهو من أشدّ كتَّاب وقته تحفُّظاً على سلامة الأداء .

لـه من المؤلَّفـات « الأســرار الــدَّامية » ، وقــد ترجمهــا عن الفرنسويَّة ، وهي من تأليف جول دي كاستين .

القسطنطينية(*)

بناها قسطنطينُ على أنقاض بيزنطية . كانت عاصمةً لمملكة الرُّوم الشرقية ، كما كانت رومة قاعدةً للامبراطوريّة الغربية . اختان تشابهتا بالعزّ ، وعاشتا زمناً ، لكلٍّ مجدُها المؤثل ، وجلالها المهيب . وهي كرومة قائمة على سبع تلالٍ مرتفعات،في مثل شبه جزيرة مثلّثة الزوايا يحيطُ بها الماءُ من جهاتٍ ثلاث : تطلُّ على بحر مرمرء من الجنوب ، وتُماشي البُسفور من الشرقْ ، وتلمس خليجَ قرن الذهب من الشمال . ثمَّ ينبسط اليها من الغرب سهلٌ يقف حذاءَاها ، متهيّباً جلالها ، فتُشرف عليهِ من مكانها العالي كالنسر باسطاً جناحيهِ .

حصّنها الرُّوم منذ القِدَم ردّاً لغارات الاعداء ، وعزّزها الترك على أثرهم صدّاً لهجمات الطامعين . فبنى الأوّلونَ سورها وابراجها ، وشادَ الآخرون حصونها وقلاعها . ولكن الطبيعة بزَّت أولئك وهؤلاء في كل ما بنوهُ وشادوهُ ، فمنَّعت موقعها بالهضاب المتسلسلة ، والبواغيز الضيّقة ؛ فاذا هي كعقاب الجوّ ، لا تؤخذ ، واذا هي ، كحلقِ الليث ، لا تباح .

أرادها العرب ، يوم كانوا يستطيعون ما يريدون ، ففشلوا ، وحاصروها حين لم تكن مدافع ولا قنابل ، فارتدّوا عنها عاجزين . وظلت تردُّ بمنعتها غوائل الاعداء ، وتدافع بعزَّتها كوارث الأيام ؛ المُلك عزيز بها ، وسلالة بانيها تتوارث مجدها وتتنعَّم بجاهها ، حتى

(*) مجلة « الزهور » ، مارس (آذار) 1913 ، السنة الرابعة .

ملاحظة : هذا المقال غير موقّع من قبل أمين تقي الدين . [المحقّق] .

دبَّ الضعف الى الرُّوم ، وتغلغلَ الوهَن في نفوسهم ، يوم ابطرتهم نعمة العيش ، واسكرتهم غبطة السلطان ، فمشى عليها محمد الفاتح ، وحاصرها من البحر والبرّ ، ثم اخذها عنوة واقتداراً في سنة 1453 .

* * *

محمدُ ! كسرتَ جناحَ النسرِ ، فأهوى من سمائه ، واقتلعتَ ناب الليث ، فاستبحتَ حماه !

بناها قسطنطين ، واستأثرتَ بها أنت ؛ كانت للرُّوم فصيرَّتها الى الترك ؛ ما خفق عليها الصليب ، حتى رفعتَ فوقها الهلال ؛ بينا هي قاعدة الامبراطورية ، اذا بها دار الخلافة !

فتحتَها ببأسك ، وصنتها بحولك ومجدك ، ثمَّ توارثها ابناؤك من بعدك !

ما نمتَ عنها ولكن نامَ بنوك !
عجباً ينام الترك عنها ، وعيون الروم يقظى عليها !
أمغتصبَ الروم ملكهم ، قمِ انظر الى بقايا ملكك العظيم
النسرُ الذي اصطدتَهُ قد استنسرت أفراخهُ ؛
والليث الذي اقتنصتَهُ قد استأسدت أشبالُه ؛
البلغارُ على ابوابِ فروق ، والرومُ أمام الدردنيل ! !

* * *

ليست فروقُ عروسَ الشرق وحدَهُ ، بل هي عروس الدنيا جميعها . خُلقت صورة مكبَّرة للجمال ، ومثالاً مصغَّراً لجنان النعيم !

هي إنجيل الطبيعة أنزلت فيه آيات الحسن ، ونمَّق الدهر صفحاتِه بطراز البديع ! فيه وحيُ الحب ، والهام الشعر ؛ وكلّ لفظةٍ يحتويها ، تحتوي ألف معنىً من معاني العظمة والجلال !

فَرُوقُ درَّة في فم البُسفور ، ولؤلؤة في عنُق الدردنيل ؛ هي عقد من الماس يصل بحر مرمره بالبحر الأسود ؛ هي تاجٌ من الجوهر على مفرقِ آسيا وأوروبا ؛ هي كوكب وقَّاد أطلعته الطبيعةُ بين الشرق والغرب !

ربِّ ان سمحتَ بأن نَعْبُدَ الجمال فلِفروق السجودُ والعبادة !

* * *

وقفتُ على البوسفور حيث تمشَّى من البحر الاسود ، وماشيتهُ الى حيث التقى ببحر مرمره ، فلم أجد منظراً أعظم تأثيراً في النفس ، من مشية ذلك البوغاز الضيق ، العميق ، الطويل ، المتلوّي في مسيره ، كما تتلوّى الأفعى في زحفها .

أحاطت بهِ من على ضفتَّيه : الأسيوية والأوروبية ، ربوع خضراء زاهية ، ومغانٍ مشجَّرة تعانِق سهولها الماءَ في ذلك الوادي ، ثم تتدرَّج في الصعود حتى تراها تلالاً عالية ، قريبة المآخذ ، متصلة الرؤوس بالكعاب كالرمح أنبوبٌ على أنبوب .

وأطلَّت مآذن الجوامع على قرنِه الذهبي فتماوجت خيالاتها سابحةً في مياههِ الرائقة ؛ وتراكضت أشعة الشمس اليهِ ، فانعكست عنهُ الى جانبيهِ ، فتلهَّى النسيم يلعبُ بها ، كما يتلهَّى وليدٌ يلعبُ بانعكاس النور عن المرآة .

ورأيتهُ ، ليلةَ عيد الدستور ، في أوائل الصيف ، وقد راق الجوُّ وصفا أديمُ السماء ، وتلألأت الأنوار على ضفَّتيهِ ، ومشت فيهِ البواخر مشعشعةً بالأضواء ، ونزلت اليهِ نجوم الفلك تغتسل فيهِ الى جانب الأشعة المتحدّرة اليهِ من برّي آسيا واوروبا ، في وسط الأنوار المتدفقة عليهِ من تلك البواخر السارحات الرائحات ؛ فأخذ هذا المنظر بمجامع قلبي ، وسكتُّ مخافة ان يشغلني الكلام بوصفهِ ، عن التمتع لحظةً بجمالهِ ؛ غير اني أسررتُ الى نفسي هذه الكلمات :

طوبى لمن دفنهُ عبد الحميد في البُسفور فقد ذهب الى الجنة من أقرب طريق !

* * *

أكان البسفور طريقَ الأحرار الى الجنة ، كما كان طريقَ وليّ الدين بك يكن الى سيواس ؟؟؟ لست أدري ! غير ان وليَّ الدين نفسهُ يقول في وداع فروق يوم نفيَ منها :

« . . . واذا نحن نسير بين منظرين ما تفتحت الأعين على أحسن منهما : شطّي آسيا وأوروبا ، يتناغيان بالمصابيح . عاشقان ضنّت عليهما الاقدار بالتلاقي . مررنا بهما أم مرّا بنا . لا أعلم . صحائف أجاد الحسن فيها منمقهُ . نشرت فانطوت . زلت عنها الأبصار وضاقت عنها الفهوم . فرائيها متخيّل وعارفها متوّهم . ما شكَّ ناظر الى السماء واليها ان تلك المصابيح كواكب سقطت عليها . عهدي بها في حالتيها ، بينا هي عرين اذا بها كناس . يخالط فيها كل زئير ليث عندلةُ عندليب . تتجاور بها مسارح آرام ومصارع كرام . تسقى من

ماء معين ، ومن دم مهراق . تطالعها وجوه ضاحكة ، وأخرى مجهشة . تقسمتها مواسم الصبا فهي تارة مشتىً ، وآونةً مصيف ، وحيناً مربع . جنة يحرسها حارس جهنم . فروق يا ظلوم . خذي روحي فما هبطت عليَّ الاَّ فيكِ . كان بكِ مهدي . وأريد أن يكون بكِ لحدي . الوداع الوداع يا فروق . وسلام الله عليكِ وعلى بنيك كلهم . هذا طريد جديد ، مظلوم يلحق بمظلومين . يخرجونني منكِ ليلاً لأراك في ثوب حدادك . أمن أجلي كل هذا ؟ كلا . بل حدادكِ على اختكِ الغزالة . أنا أضيَعُ فيك من دمعة على خد مهجور . أنا أهون على الدهر من ذرّة من ذراتك ضلّت بين ثنيات الأثير . . . . . »

ما هذه بلاغة الواصف ، إنْ هيَ إلاَّ حقيقة الموصوف !

* * *

رويداً رويداً أيها الدَّهر ! ترفَّق بفروق ؛ أقصرْ خطوبَكَ عنها . فروقُ بنت الأجيال الطويلة ؛ مدينة الأمبراطرة ، وكرسيّ السلاطين . أفي كلّ يومٍ نكبةٌ تروعها ، وفي كلّ ساعةٍ كارثة تساق اليها ؟ بنوها يتآمرون على بنيها ؛ وشعوبها تقاتل الشعوب دفاعاً عنها . لوَّثوا محاسنها بالدمِ المسفوك على مذابح المطامع والأنانية ؛ ضجَّت الأرض لهول ما تلقاهُ من فظائع حربهم ، واتخمت ذئابُ الفلاةِ من أشلاءِ قتلاهم !

رويداً أيها الدهر ! هل أتعب مرورُ الأجيال كاهل بيزنطية ؟ خذ بيدها ! ان أنقاضها تتحرّك تحت فروق !!

عبد العزيز البشري

(وُلد سنة 1872، وتُوفِّي سنة 1943 م.)

هو عبد العزيز ابن الشيخ سليم البِشْري ، شيخ « الأزهـر » في وقته ، وُلد في القاهرة وتوفِّي فيها . وقد تعلَّم في « الأزهر » ، وعمل في القضاء الشَّرعيّ في بعض الحواضر المصريَّة ، إلى أن عُيِّن « مراقباً إداريّاً » في مجمع اللُّغة العربيَّة في القاهرة ، وظلَّ في هذا المنصب العلميّ إلى أن تُوفِّي . وكان في اثناء ذلك يوالي الكتابة في الصُّحف القاهريَّة . وهو يلمُّ بالأدب الفرنسويّ إلماماً قصيراً جداً .

يرسل البِشريُّ القول في كلّ ما يتصل بفكره وشعوره وخياله من أحاديث ، أو مطالعات ، أو مشاهدات ، حتَّى الَّتي لا تلتفت إليها في العادة خواطـر الكتَّـاب ، فاذا هو في ما دقَّ أو جلَّ من ذلك قد أتـى بالعبارة متينةً صافية رفيعة النَّسق ، في سماحة وحلاوة وفيض طبع .

جاء في ترجمة البشري في « الأعلام » : « قال عالم بالأدب في جريدة [البلاغ] : استحدث البشـري في أسـاليب العـربيَّة أسلوبـاً فذّاً ، أضفى عليه من روحه المرحة وعلمه الواسع وذوقه السَّليم ما تفرَّد به بين الكتَّاب » .

وقال طَه حسين في مقدِّمتـه لكتـاب « المختـار » : « وأخصُّ ما يمتاز به أدب عبد العزيز أنَّه حلوٌ سمح خفيف الرُّوح . لا يجد قارئه مشقَّةً في قراءَته ، ولا جهداً في فهمه ، ولا عناء في تذوُّقه وتمثُّله » إلى أن يقول : « إذا قرأه الأزهريُّون أُعجبوا به لأن فيه شيئاً من الأزهر ، وإذا قرأه ابناء المدارس المدنيَّة أُعجبوا به لأنَّ فيه روحاً من أوروبا . وإذا قرأه أوساط النَّاس ، الذين ليسوا من أُولئك ولا هؤلاء ، أُعجبوا به لأن فيه رُوحاً من مصر . واذا قرأه أهل الشَّام والعراق أُعجبوا به لأنَّ فيه الرُّوح العربيَّ الخالص القويّ » إلى أن يقول : « ومن أجل هذا كلِّه كان عبد العزيز مدرسةً وحدَه في هذا الجيل ، لا تستطيع أن تُلحقـه بهذه البيئـة أو تلك من بيئاتنـا الأدبيَّة ، ولا تستـطيع أن تصلـه بهـذه المدرسة أو تلك من مدارسنا المنتجة في الشِّعر والنَّثر » .

وقال طَه حسين أيضاً في مقدمِّته لكتاب « قطوف » ، يذكر فصول عبد العزيز في الكتاب : « فهي الأدب كلّ الأدب ، وهي الفـنُّ كلّ الفنّ . وهي الكلام الَّذي يجمع إلى رصانـة الأدب القـديم وجزالتـه خصب الأدب الحديث وثروته » إلى أن يقول : « فما أعرف أقدر منه على تحبيب الأدب العربيّ إلى الشباب وتزيينه في قلوبهم » إلـى أن يقول : « رحم الله عبد العزيز ، وهيَّأ للأدب العربيّ من يقوم مقامه . ولولا الثِّقة بالله لقلت كما قال الحجَّاف في العصر القديم : [وما أراه يفعل] » .

وقال جمال الدين الرّمادي في كتابه « عبـد العـزيز البشـري » : « كان أديباً من طراز فريد ونـوع جديد ، وفـكر متحـرِّر ، وأُسلـوب

رصين ، ودعابة حلوة ، ونادرة لطيفة ، ونكتة عذبة تتناقلها الشِّفـاه ، وتتردَّد على الألسنة من جيل إلى جيل » .

وللبشري من المؤلَّفات : « في المرآة » ، و « المختار » جزآن ، و « قطوف » جزآن . و « التربية الوطنيَّة » .

أيام في الريف(*)

لقد طال عهدنا بالريف حتى كاد ينكرنا وحتى كدنا ننكره . ولست أزعم أنني ولدت في الريف ، أو أنني نشأت فيه . على أنني كنت أكثر من انتيابه والعيش فيه كلما تهيأ لي انتيابه والعيش فيه . ولكن الدهر الماكر قد قطع السبب إليه ، فحرمني غشيانه سنين عددا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

وإذا نحن قلنا الريف ، قلنا الطبيعة ، أو أدنى الأشياء إلى الطبيعة . والطبيعة ، مهما يكن لون حياتنا ، هي مصدرنا ، وهي اللاصقة بخلقنا ، وإذا رددنا ساعة إلى نفوسنا ، لم نجد غير الطبيعة بين أيدينا وعن الايمان والشمائل جميعاً . ولقد يبعد بنا طول العيش في المدن ، ولقد يمعن بنا في شتى السبل ، حتى ننسى الطبيعة أو نكاد ننساها ، ويرجح الظن بأنه قد انحسم بيننا وبينها كل سبب ، وانقطعت جميع وشائج الرحم ، ولا نزال منها على هذا ، ولا تزال منا على ذاك ، إلى أن نغشى الريف ، فاذا السبب موصول ، وإذا الرحم ما برحت واشجة ، وإذا العطف يعتلج في الصدور ، وإذا الحنان يترقرق في النفوس ، وإذا لهوات القلوب تتفتح ، فلو أمكن لها لحست هذه الطبيعة حسواً .

(*) من كتابه « قطوف » . [المحقق] .

وهل كان عجباً أن يحس المرء أبلغ الغبطة والأنس ، إذا آب إلى أمه الحنانة الرؤوم بعد طول النوى ، مهمـا يكن قد ضرب في الأرضين ، وتقلب في شتى الأقطار ، وعايش أصناف الخلق ، وتوسم مختلف الوجوه ، وهفا قلبه إلى من هفا من الناس ؟ .

اللهم إن عيش الطبيعة هو الموصول بفطرنا ، واللاصق بطباعنا لأننا ، كما قلت ، عنها صدرنا . فاذا أحال المقام في المدن أساليب عيشنا ، ولون في فنون حياتنا ، وأوال لنا صوراً من صور ، وأبدل مناهج متعنا بمناهج أخر فان شيئاً من هذا لم يقطع ما بيننا وبين الطبيعة ، ولم يخرجنا منها أو ينزعها منا ، وإنما يشغلنا عنها . فاذا نحن طالعناها لم يزل شأننا على الحالم إذا استيقظ ، والغريب إذا آب واستقر به القرار بين الأهل والصحاب ! .

وكذلك كنت من الطبيعة حين هبطت الريف ، وامتد بصري في الآفاق ، وأحاط بي الزرع والماء . وما كدت أسلخ بضع ساعات حتى استشعرت أنساً كأنني كنت في وحشة . ووجدت من الألف ما يجد الآئب من الغربة . ومالي لا أجد هذا وأستشعر هذا ، وقد رجعت إلى أصلي ونزعت إلى طبعي ، وخلعت عن نفسي كل كلفة ، وامتلختها من كل ما غرست من تصنع استكرهت عليه مناهج تلك الحياة . وما أجدر الطبيعة بأن تقهر الصنعة وإن طال بها الزمان !

هذه سماء كبيرة بعيدة الآثار ، وهذه أرض مبسوطة تشقها الأنهر والترع ، وتنعطف فيها الجعافر والخلجان ؛ وقد لبست حلتها الخضراء فأصبحت نهباً للعيون من حسن وجمال .

ولقد أحسن ، كدأبه ، كل الاحسان المغفور له الملك فؤاد الأول إذ تقدم بتغيير لون العلم المصري من الحمرة إلى الخضرة ، فجانس بين شعار هذا الوطن وبين حليته وبهجة منظره ، ومعين ثروته ومادة حياته من العهد القديم ! .

ثم هذا الفلاح جاهد في حرث الأرض وفلحها ، ولا زال كدأبه معها ، ولا زالت كدأبها معه من الزمان القديم : كلما غذاها بالسماد ، ورواها بالماء ، أمدته بالخير ، ووصلته بالنعماء .

ولعل أول صناعة عالجها الإنسان في هذه الحياة هي استنبات الأرض واستخراج ما تجود به من ألوان الثمرات . وستظل ، على التحقيق هذه الصناعة قائمة إلى غاية الزمان .

عاش الفلاح للأرض ، وعاشت الأرض للفلاح ، وعاشت كلاهما للخلق أجمعين .

هذا عيش الريف في النهار ، فاذا جن عليه الليل نامت الطبيعة ونام معها الإنسان والحيوان ، فلا تسمع فيها حساً إلا ما تسمع من نباح كلب أو عواء ذئب ، أو نقيق ضفدع ؛ ولقد تسمع في بعض الليل عزيف بندقية يطلقها بعض عسس القرية ، أو حراس البيادر (الأجران) ، أو الزروع إذا أدركت الثمار . فاذا كانت الليالي قمراء ، تجاوبت الكروان بالتنغيم والتغريد ، وأطالت الأنفاس بالشدو والترديد .

وناهيك بليالي القمر في الريف ، هذا وجهه قد تفرّد في الأفق جميعه ، تفرد ملك لا يشركه أحد في الحكم والسلطان . على أنه مفيض على الأرض ما أعطاه الله من حسن وبهاء ؛ وهذه منحة المتصلة من اللجين المذاب ، وقد دبغت بخضره النبات ، فخرج من اجتماعهما لون هو سحر في السحر وفتنة في الفتنة . منظر ، وإن كان يوحى بالشعر ، لا يتعلق بوصفه الشعر . يضيء النفس ويملأ الصدر ألينَ الفرح وأرفقه ، ويحرك عواطف حلوة لذيذة هادئة ، دونها ما ترى في أمتع الأحلام .

يحرك في صدرك ألواناً من العواطف تشعرك بأنك بت أسعد الناس . عواطف ، وإن كانت جديدة لا عهد لك بها من قبل ، سرعان ما يعتريك الشعور من قرارة نفسك ، بأن هذا هو الشيء الذي طالما حاولت الاستشراف له ، فتحول بينك وبينه ظلمة النفس واختلال أداة الحس ، بما جشمتها من كلفة في وسائل الحياة .

فاذا كانت ليالي السرار ، فالأفق كله كتلة واحدة من الفحم الحالك السواد . هيهات أن ينفذ فيه النظر ، ولو أبى فتر من الأفتار :

« ظلماتٌ بعضُها فوق بعض إذا أخرجَ يدهَ لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نورٍ »[1] . صدق الله العظيم .

هذا حديث موجز عن الطبيعة ماثلة في ريف مصر . أما الحديث عن الفلاح المصري في هذه الأيام ، فمما يردع ويهول : فقر لا يعدله

---

(1) سورة النور .

فقر ، وبؤس لا يلحقه بؤس . مال غائب ، ومطالب لا تبرح حاضرة . ومن أين للمسكين بالمال يواتي به بعض الحاجة أو يدافع المطالب الملحة من كل جانب ؟ .

هذه غلات أرضه مكدسة بين يديه ، لا يجد لها في أسواق الأرض منصرفاً ولا مفيضاً . لقد سجنتها الحرب ، وأبطل حركتها الكساد العام .

هذا شأن ملاّك الأرض ومستأجريها ، كبارهم وصغارهم في ذاك بمنزلة سواء . فكيف بالأكرة والمتكسبين بكد الأبدان ؟ .

أما أولاد الفلاحين ، فشخوص وأشباح بالية ، تغدو وتروح في أسمال بالية ، تكشف من الأبدان أكثر مما تستر ، وتبدي من اللحوم ، أستغفر الله ، بل من العظام والجلود ، أعظم مما تحجب . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ! .

وكيفما كانت الحال ، فانك قلَّ أن ترى الفلاح مع كل ذلك ، متسخطاً أو مهتاج النفس . بل إنك لتراه راضياً برغم حزنه الشديد ! .

ولعل مرد هذا الرضا إلى أن آماله كلها مجموعة في أرضه . وأرضه لم تخنه ولم تخلف له موعداً . ولقد أقبلت عليه من فنون الغلات بما تقبل به كل عام . فاذا كان بؤس من أثر حصار أو كساد عام ، فذلك ما لا شأن لأرضه به على كل حال . نسأل الله تعالى اللطف بالعباد ، فهو القادر على أن يجعل لنا من هذا الضيق مخرجا ، ويبدلنا من هذه الشدة فرحاً : « فان مع العسر يسراً ، إن مع العسر

يسرا » ولن يغلب عسر يسرين كما روى عن الرسول الأعظم ، صلى الله عليه وسلم .

بقى ما يظن أن يتأذى به المهاجرون في الريف من منكر الأصوات. ووالله لقد رضينا أن نسمع ، عامة الليل والنهار ، نباح الكلاب ، وعواء الذئاب ، ونعيب الغراب ، وطنين الذباب ، وما شئت من نقيق ونهيق ، وثغاء ومواء ، وفحيح وخوار[1] ، على أن تعفى آذاننا من . . . صفارة الإنذار ! .

ولع ! . . .(*)

لبعض الناس ولعٌ غريب بهتُاف الصحف بهم وترديدها لأسمائهم ، فهم دائبو الجهد في اختلاق المناسبات مهما تَفُهت ، ليَحملوا عليها أسماءَهم إلى الجرائد . وإني لأعرف رجلاً أتلف ثروة ضخمة في سبيل بسط الثناء عليه ، وترديد اسمه على متون الصحف ، كما أعرف موظَّفينَ لا شأن لمناصبهم في الحكومة ولا خَطَر ، لقد يسافر أحدهم ، في غير حاجة ، لتنشر له الصحفُ خبر عودته (بالسلامة) ، وأنه : « ذهب توّاً إلى مكتبه بوزارة (كذا) أو بمصلحة (كذا) . » تشبهاً بما يُكتب عن كبار الحكام ! . . والله يعلم أنه ما ذهب (توّاً). إلاّ إلى إدارات الجرائد لتزفَّ إلى جمهرة القراء بشرى عودته الميمونة ! .

---

(1) النقيق : صوت الضفدع ، النهيق للحمار ، الثغاء للشاة ، المواء للهرة ، والفحيح للأفعى ، الخوار للعجل .

(*) من « المختار » ص213-215 .

وأغرب ما رأيت في هذا الباب أنني مضيت في إحدى الليالي لزيارة صديق لي يتولى رياسة التحرير في جريدة كبيرة ، فلم أجده ، فاستوَيت إلى مكتبه لأُثبت له رُقعة بحضوري لزيارته ، وبثَّ الأشواق التي جرت العادة ببثها ، والله يعلَم إن كانت مما يَطوي القلب أو مما يَنشر اللسان ! وإذا رجل في حدود الأربعين يلبس قَباءً أرسل عليه معطفاً استرسل إلى كعبه ، وعلى رأسه طربوش متواضع جداً . وكان جاء لينشر في الجريدة إعلاناً يتعلق (بدائرة) مولاه . فلما فرَغ من شأنه التمس غُرفة رئيس التحرير فدلُّوه عليها . فأقبل عليَّ في خشوع وشدة تظرُّف ، وجرى بيننا ، بحضرة بعض المحررين ، هذا الحديث :

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ! .
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، وأزكى تحياته ! .
- محسوبك فلان ناظر زراعة سعادة فلان باشا .
- تشرَّفنا !
- بَسّ من فضلك . . .
- من فضلي ماذا ؟
- من فضلك يعَني . . .
- من فضلك أنت ، ماذا تريد من فضلي ؟
- بسّ تسمح (تنشرني) في الجرنال !
- أنشرك بأي مناسبة ؟
- يعني تقول فلان !
- أقول فلان ماله ؟

ـ يعني تكتب فلان !

ـ يا سيدي ، فلان هذا مبتدَأ ، وكل مبتدَإ لا بدَّ له من خبر . فنحن إذ نذكر فلاناً ، لا بد أن نقول شيئاً جرى له أو جرى عليه . فكيف تحبّ أن نقول ؟

ـ تقول : فلان جاء عندنا في الإدارة .

ـ كل يوم يختلف إلى الإدارة خمسمائة رجل ، فلا ينشر عن واحد منهم في الجريدة كلمة واحدة !

ـ أمَّال إيه الطريقة علشان أنْكِتِب ؟

ـ ذِكر الناس في الصحف إنما يكون لمناسبة كوقوع حادث ، أو القيام بعمل عامّ أو خاصّ له بعض الشأن ، كإقامة حفلة عُرس ، أو مأتم ، لا سمح الله . ونحو ذلك . فهل عزمت على الزواج ؟

ـ أنا متزوج .

ـ ألَك ولدٌ أقدمت على تزويجه فننشر لك نبأ عُرسه أو خِطبته ؟

ـ ولدي ما يزال صغيراً .

ـ إذن فاختِنه واحتفل بخِتانه .

ـ سبق أن ختنته من مدة طويلة !

ـ لم يبق يا صاحبي إلاَّ أن تمرَض وننشر خبر مرضك وإبلالك !

ـ وحياة النبي يا بيه إن (أشْيِتِي عيَّانه) !

ـ فما شَكاتُك ؟

ـ يعني ما فيش مُرُوَّة زيّ زمان !

- إنما أريد المرضَ الذي يُلزم الفراش ، ويَسْتدعِي الطبيب ، ويبَعث القلَق في الأهل والأصدقاء !

- طيِّب وأعمل ازّاي في الحكاية دي . . . ؟ (وقد أطلقها في قلق وحيرة وانكسار) !

- قلتَ لي كيف تصنع ؟ وإني لأدلّك على السبيل : ما عليك إلاَّ أن تَمضي من هنا قُدُماً إلى البلد، فتتقدم إلى أهلك بأن يُحمُوا لك الفرن ، فتظل قاعداً بأزائه حتى تتفصّد عَرقاً ، ثم تستحمّ من فورك بماء بارد . ونحن ولله الحمد في صميم الشتاء ، فتأخذك الحُمَّى يومين أو ثلاثة ، وتبرأ بعدها فنسوق للقراء خبر مرضك ، ونزف إليهم البشرى بشفائك !

فَبسط الرجل كلتا يديه ، وأدار وجهه إلى السماء ، وأقبل يدعو جاهداً : (الله يخليك ! الله يعمر بيتك) !

وانطلق إلى حيث يخرب بيته هو ! .

شفاه الله إن كان حياً ، ورحمه الله إن كان في الأموات ، وغفر لي في الحالين .

والولعُ بالذِّكر في الصحف فنون . . . ! .

الغرام المجّاني ! (*)

هناك في ميادين العتبة الخضراء ، والخازندار ، والسيِّدة زينب ، وباب الخلق ، وغيرها من المواطن التي يَكثُر فيها الصاعدون إلى مركبات الترام ، والهابطون منها . في هذه المواطن ترى طائفةً من

(*) من « المختار » ص218-221 .

الشّبان ماثلين دائماً ، وقد رَجَّل كلٌّ منهم شَعرَه ، وأمال طربوشه ، وحمّر شفتيه ، وصَقَل عارضيه وحِذاءَه ، وتأنَّق في سائر ثيابه ، ودلَّى طَرَف مِنديل حريريّ على نَهده الأيسر ، وراح يَتمشَّى على الطُّوار (الرصيف) في لين وتكُّسر ، حتى ما تَدري حقيقة شأنه : أهو فتى متأنِّث ، أم آنسة مُتفتّية ؟! ولا يزال ذلك شأنه حتى يُقبِل القِطار ، فإذا انحدرَت منه سيدة أو فتاة عذراء عليها مَسْحة من جمال ، أسرع فتَراءَى لها وهو يصُفّ خيوط « زرّه » ، ويُسوِّي شعرَ حاجبيه ! ويضبط ربطةَ عُنقه . وتأخذ السيدةُ أو الفتاةُ سَمْتَها ، فيَمشي وراءَها ، فإذا تَيامنَتْ تَيامَن ، وإذا تَياسَرَتْ تياسر خلفَها ، حتى لتحسبه من بعض ظِلّها . وهو يتمتم بكلام غير واضحٍ ولا مفهوم ، حتى إذا أمِنَ غفلةَ العيون ، أسرع حتى حاذاها وعرض عليها نُزهةً في الجزيرة ، أو حدائق القبة مثلاً ، فلا يكون شأنُ الحرائر دائماً مع هؤلاء العشاق إلا السكوت المطلق ، أو سوء الردّ بالسبّ والشّتم . ومع ذلك فهيهات أن ينثني (صاحبنا) أو يَتَداخله شيءٌ من الحياء أو القنوط . بل ما يزال على ذلك حتى يُبلِغها الدارَ التي تَطلبها ، ولا يرجع إلا أن تَصُكّ مصراعَ الباب في وجهه صَكَّة يُسمع لها دويٌّ كهدَّة الهدم . ويعود إلى (الموقف) الذي اختاره لهواه ، وتعاهَدَه لغزَله ، وقَصْد صبابته ، وهكذا ما يزال هذا شأنه وديدنه من الساعة الثامنة صباحاً إلى ما بعد الساعة التاسعة مَساءً !

ولعله ، لكيلا يُضيع ساعةَ الهجير في الانقلاب إلى البيت للغَداء ، إن كان لمثل هذا بيت ، يَدُسّ من الصَّباح الباكر غَداءَه في جيبه ، فيجرّد (للهوى) عامّةَ نهاره وليله !

وإنك لو فَتّشتَ نفوسَ هؤلاء وامتحنتَ عقليَّاتهم ، لخرج لك من بحثِك شيءٌ عجيب : ذلك أنك تَحسب أنهم يؤمنون إيماناً وثيقاً ، ويعتقدون اعتقاداً راسخاً أن جميعَ نساء القطر المصري وساكناته مباحاتٌ مبذولاتٌ الأعراض لهم ، اللّهم إلا البَغَايا فقط ، فهؤلياء وحدَهن العفيفاتُ الشريفاتُ المصونات ، اللاتي ينبغي إذا طَلَعن عليهم أن يُطأطِئوا رؤوسَهم ، ويَغضُّوا أبصارَهم ، ويَعقِدوا ألسنتَهم !

وذلك الظنُّ يَخرج لك من أنك تراهم لا يتبعون إلا مُحتشِمةً في طريقها ، متوقِّرة لا تَتثنّى ولا تتخلّع ، ولا تُرسل على النَّاس نظراً حاداً . أما المائعةُ المترجِّحةُ في مِشيتها ، المفتَنّةُ في إبداء زينتها ، الدائمةُ التلفُّت إلى يمينها ويسارها ، المثبتةُ نظرَها في كلِّ من لِقيَها ، فهذه يولونها ظهورَهم ، لأنها لا مَطمَع لهم فيها ولا أمل !!

والواقع أنك يا سيدي فيما استنتجتَ من شأن هؤلاء جدُّ مخطيء ، ولو أردتَ أن تقَع من أمرهم على الصَّواب ، فاعمِد إلى أيِّ واحدٍ منهم ، وفتّش بأيّة وسيلة جيوبَه ، فلن تظفَر فيها إلا بثلاثة قروش (تعريفة) على الأكثر ، وصورة فتاة رائعة الجمال استلَّها من علبة دخان ، وكتاب خَطَّه بيده لنفسه ، على لسان فتاة تكاشفه بهواها، وتصِف ما لحقها عليه من الولَه ، (وكان الله بالسر عليما !!) . وهذا الخطاب وتلك الصورة هما كلُّ أداته وعُدَّته في مُهِمّه ، وهما كلُّ وسيلته في الإعلان عن نفسه ، وأنه ملتقَى الأنظار ، وقِبلة القلوب الولْهى عندَ أصحابه المغفلين !!

لهذا لا تراه يتَقدَّم إلى بَغيّ ، أو نصف بَغيّ ، لأنها ستجيبه إلى

طلبه ، وهو يعلم أنه صِفْر الكفّ خالي الوفاض ! ولو قد تَشجَّعت سيدةُ ممن يَتبعهن ، ويضايق أنفاسَهن ، فسألته أن يجيء بمركبة أو بسيارة (تكس) ، ليخرُجا للنزهة التي يدعو إليها ويُلحّ فيها ، لرأيته قد دار على كعبه وطار على جناحي نعَامة !

* * *

ولهؤلاء الغِلمان صفَاقةٌ عجيبةٌ ، وفتنة بالنفس مدهشة . وهذا شيءٌ تَشهَده كلَّ يوم في شوارع القاهرة وميادينها . فإن الرجل المحترم لَيكون في مركبته أو سيارته مع زوجته أو أخته أو بنته ، وتقف بهما في بعض الطريق لأيِّ عارض ، فلا يستحي الغُلامُ من هؤلاء أن يقف في مقابلة السيدة ، ويحدّ فيها عيناً ما يختَلِج لها جَفن إلاَّ بالغمزات ، وإظهار التَّصابي ، وترى دعوته واضحةً صريحة ، بحركاته الكثيرة المضحكة ، إلى أن تَستأذن السيِّدة أو الفتاةُ زوجَها أو أخاها أو أباها ، في النزول إلى « حضرته » لتروِي غُلّتها من غرامها بهذا العاشق (السَّرِّيح) !!

ولقد شَهِدت بنفسي في هذا الباب حادثاً ظريفاً : ذلك أنني ركبتُ الترامَ يوماً من المحطة التي أمام المدرسة السَّنية ، وصَعِدتْ سيدةٌ جميلةٌ واضحةُ النُّبْل والغنى والحِشمة ، وأخذَت مجلسها في المكان المحرَّر للسيدات . وما إن رآها (الكمساري) حتى لجأ إلى الوقوف بباب (الحريم) ، وجعل يَفتل شاربَه ، وتارةً يميل طربوشَه ، وأخرى يُسوِّي رداءَه الأصفر (الرسمي) ، وحيناً يثبّت (النمرة) النحاسية في موضعها من عنقه . إذ عيناه وحاجباه أثناء ذلك لا تَفتُر عن التَّلعُّب وشدة التحرُّك والاختلاج !

ولا يترك هذا الموقفَ ولا يَتحوَّل عنه إلاَّ إذا وقف القِطار . وما هو إلا أن ينفخ في زَمَّارته حتى يَثِب إلى موقفه ، فيُصلح من ثيابه ما كَرَّشَت منها حركةُ النزول والصعود ، ثم يعود إلى شأنه مع تلك السيدة . وظَلَّ على هذا لا (يَصرف لراكب تذكرة) ، ولا يبالي من هَبَط ومن صَعِد ، حتى بلغ القِطار مَيدانَ الأزهار . فثار لهذه الحال ثائر بعض الركاب ، وإن سُرَّ آخرون بما وفر عليهم من قروشهم . فوثب إليه من بين الرَّكْب رجلٌ غيورٌ من الظرفاء ، وصكّه على صُدغه بجمع يده ، وقال له : يا ابن الـ . . . هَبْ هذه السيدةَ وقعت في شَرَك غرامك ، وسألتك النزولَ معها لنزهة تَقضيان فيها حقوقَ الغرام ! فلمن تدفع الآن هذا الخُرْج المعلَّق في رقبتك بحمائله ؟ وأيُّ فَمٍ يقوم مقام فمك لهذه الزَّمَّارة التي في يدك ؟! فكان اغتباطٌ وكان ضَحِك !

* * *

فإذا بحثتَ بعد ذلك عما يَبعث هؤلاء الفتيانَ على كل هذا ، مع ما فيه من كدٍّ لا فائدةَ فيه ، وعَناء لا رجاءَ وراءَه ، إلى ما فيه من الهوان وشدَّة الابتذال ، والتعرُّض للأذى بالشَّتم ، أو الضَّرب ، أو السِّجن ، فلا ترى الأمر كلَّه يعدو أن يكون هوايةً (غيّه) حَمقاء لا أكثر ولا أقلّ . أو كما قال المثل العامي : (اليد البطَّالة نجسة) .

وصدق من قال : (أصحاب العقول في راحة) !!

الشيخ حَسن غَنْدَر (*)

(كان من حق هذا المقال أن يوصَل
بحديث التطفيل والطفيليين ؛
ولكنه كتب بعد طبع ما تقدم من الكتاب)

وما أدراك ما الشيخ حسن غَنَدر ؟ . لقد كان الشيخ غندَر من مباهج مصر ، وآيةً يتيه بها ذلك العصرُ على كلِّ عصر . نعم ، لقد كان المفرَد العَلم في (فنّ) التطفيل ، وهيهات في الزَّمان بمثله (فإن الزَّمان بمثله لبَخيل) !

كان ، رحمه الله ، طويل القامة ، ليس بالبدين ولا بالهزيل . مستطيل الوجه ، شديد حمرته ، لو نَضا عنه عِمَامتَه لخِلته من أبناء التاميز . تدور حوله لحيةٌ دقيقةٌ بيضاء ، لا أثر في شَعَراتها لسواد. أزرق العينين ، رقيق الحاجبين ، مقوَّس الأنف . ولعلك في غير حاجة إلى من يزعُم لك أنهُ لم يكن دقيق الفم . وكيف يُتصوَّر له هذا ، وفمهُ هو سبيلهُ إلى ذهاب صيته ، وشُيوع ذِكره ، وخلود اسمه ؟!

وكان ضَخْم الصَّوْت ، إذا تحدَّث أحسستَ أن صوته إنما يجيء من أقصى حَلقه !

(*) من « المختار » ص263-268 .

ثم لقد كان حسَن السَّمت ، نظيف الثَّوْب ، فاخر البزَّة . لا يَلبَس القَباء إلاّ من صُنع الحمّصَاني . ولا يفصِّل الثيابَ إلاَّ عند أشهر الخيَّاطين . فإذا كان الصَّيفُ وضع عليهِ الجُبَّة من الحرير المتموِّج (موريه) المعروف عند أولاد البلد (بالألاج) .

وترى في إصبعه خاتَماً كبيراً من الماس النقيّ . فإذا اقتحم به مِهرَجان العُرس وتساقطت عليهِ أضواء الثُّريَّات ، تموَّجت من حوله ألوانُ الطيف ، وبرَقت من أقطاره أَشعةٌ تكاد تَخطَف الأَبصار !

وبعد ، فلقد كان ، إلى هذا التأنق والتجمُّل ، عذب الرُّوح ، فكِه الحديث ، حسَن المحاضرة ، حُلو المنادمة ، حاضر النكتة ، عالماً بأخبار الناس ، محيطاً بصفاتهم وأسبابهم وشمائلهم . يحُدّثك عن أجوادهم وبخلائهم ، ومن يهشّ للأضياف منهم ، ويتبسّط على طعامه معهم . ومن يُغلِق دونَ الضَّيف بابَه ، ويُقيم عليهِ إذا حضر الغَداءُ أحراسَه وحجَّابه . ومن يُخفِت نَشيش[1] اللحم حتى لا يسمعه الجار ، ويكتُم ريح القُتار[2] فلا تَشَمّه القِطَّة ، ويُضلّ بلطف حيلته النَّملَ عن موضع السكَّر في البيت .

وإنهُ ليحدّث عن عادة كلّ عين من أعيان البلد في طعامه وشرابه ، ويَعرف ما يُؤثِر من ألوان الطَّعام وما يَكره . وكم يقرِّب إليه من الصِّحاف في غَدائه وفي عَشائه ، ووظيفة مطبخه من اللحم والطير في

(1) النشيش : صوت اللحم وهو يطبخ أو يُقلى .

(2) القتار : رائحة الشواء .

كلِّ يوم . وكيف يَطهِي له طاهيه ، وأيّ الألوان يحَذِقه ويجود فيهِ . وما الذي يعالجه بالسَّمن ، والذي يعالجه بالزيت أو الخلّ . وماذا يُشوى منهُ وما يُقلىَ ، وما تُذكَى له النارُ وما تخُبَى . وما يُكمخ منهُ ويُتبَل[1] ، وما يُعجَل بالطَّهي وما يُنظر حتى يُذبَل الخ . حتى ليُخيَّل إليك أن بصيرة هذا الرَّجل تَقتحِم كلَّ بيت ، وتَنفُذ إلى كلِّ مطبخ . وأن عينه تَسلُك كلَّ قِدر ، وأنفه يجول في كل بُرْمة ! .

وهو إذ يحُدّثك في هذا ترى شِدقَه دائمَ الاختلاج ، وشفتيهِ لا تَفتُران عن التحلُّب ، شأنَ من ألحَّ عليهِ الجوع ، وهو يرى أشهَى الطَّعام بين يديه ، ولكن لا سبيلَ له ألبتة إليهِ !

ولقد يجَول الشيخ غندَر في غير حديث الطَّعام ، فيبُدع في حديثه ، ويُلوّن في سَمره ، ويَفتنّ في إيراد النكتة كلما دعت مناسَبات الكلام . وبهذه الخِلال فيهِ كان أثيراً عند كثرة الخاصَّة ، محبَّباً إلى نفوسهم ، يشتهون مجالستَه بقدر ما يَشْتهي هو مؤاكلتَهم والإستواءَ إلى موائدهم . حتى إذا انتظمهم الخوانُ في عُرس أو نحوه ، لم يتبرَّموا بتدسُّسه ، في سرٍّ من ربّ الدار ، بينهم . بل ربما فَسَحوا له وكفُّوا سَطوةَ ربّ الدَّار عنه . وأنت خبيرٌ بأن هؤلاء ، في العادة ، إنما يُجيبون دعوةَ الدَّاعي لأرضائه ، وإظهار الإحتفال لشأنه ، لا ليُصيبوا عنده دسَماً ، ولا ليُشبِعوا من طعامه نَهَماً . فلا بأسَ عليهم بأن يحَتاز هذا الطفيليُّ الظَّريف الطَّعامَ دونهم ، ويملِكه كلَّه عنهم . بل إن

---

(1) المراد ما يشهَّى به الطعام من المخللات و (البهارات) ونحوها .

تقبيحَه في طعامه ، وشهودَهـم لافتراسِـه والتقامـه ، لممَّـا يُعجبهـم ويُدخل السَّرورَ عليهم !

وكيفما كان الأمر ، فإن هذا الرَّجل ما يـزال إنسانـاً وديعـاً أنيس المَحضَر ، ظريفَ المجلس ، حتى يحضُر الطعام . فإذا حضَـر جُنَّ جُنونهُ ، وثار ثائرهُ ، وخِيفَت بوَادره ، وتغير خَلقُهُ ، وتنكَّرت صورتُه ، وأمسى منَظَره مفزِعاً مرعباً . ولو قد رأيتَه وهو يَفرِي الفَرِيَّ ، ويَلتهم اليابسَ والطَّريَّ ، لخِلت أن كل شيءٍ فيهِ قد استحال فماً : فهو يأكل بفمهِ ، ويأكل بعينـه ، ويأكل بأنفـه ، لا تراه يَلـوك لقُمـةً أو يحـرِّك للمضغ ضرساً . بل إنهُ ليَكوّرها ثم يقذف بها في حلقه ، فتكاد تسمَع رنينها في قَرارة بطنه . فإذا فرغ من شأنه ، وما بيده أن يفرغ ، لبث يتلمَّظ ساعة . ثم ارتدَّ إنسانـاً وادِعـاً ظريفـاً يلـوِّن السَّمـرَ ، ويُفنـن الحديثَ تفنيناً ! .

* * *

وبعـد ، فسترَى من هذا الرجـل في أسبـاب تطفيلـه العَجَـب العاجب : لقد كانت له ضَيعةٌ في ضواحي القاهرة لا تقـلّ عن مائـة وسبعين فدانـاً . وكانت له بُنيَّات (منازل ودكاكين) في قلب المدينة يَجبِي رَيعها . وقد أتلف هذه الثروةَ الضخْمة . وأتى عليهـا تمزيقـاً وتبديداً ، حتى خرج في مُؤخِرات أيامه عنها كلها ، كما خرج بالموت عن الدنيا كلها !

لم يكن الشيخ غندر مقامراً ولا مضاربـاً . ولـم يكـن سِكِّيراً ولا طِلْب نساء . ولم يدخل في (مقاولة) أو يجازف في تجـارة . ولـم

يداخل طَوالَ حياته سبباً من الأسباب التي تأتي ، في العـادة ، علـى رؤوس أموال الناس ! إذن فاحزُر . وما أراك بعدُ بقادر !

لقد أتلف الرجلُ ثروته كلهـا ، وأتـى عليهـا جميعهـا في سبيل التطفيل وحدَه لا في أيّ سبيل آخر !

أليس من أعجب العَجَب أن يُتلف امرؤٌ جلائلَ الأموال في سبيل الإصابة من طعـام النـاس بالمجّـان ؟ وأيُّ شيء يكون التـطفيلُ غيرَ الارتصاد لأصابة جيِّد الطعام بالمجّان ؟

إذن فاليك السبـب ، وإذا عُرف السبب ، بطـل كمـا يقولـون العَجَب ! :

لقد استَمكنَت شهوةُ التَّطفيل من الرجـل ، حتـى استحالـت فيه طبيعةً وغريزةً وجِبِلة . فأمسى يَطلبهـا لذاتهـا متجـرّدة من أي اعتبـار آخر . إنه شَهْوان إلى طعام الناس ، يَسقط عليه ، ويقتَحِـم له مهمـا يُصِبه في سبيله من المشَقَّة حتى في إتلاف الأموال !

ولقـد كان في مصـر طوائفُ من أولاد (الـذوات) المسـرفين المستَهتَـرين بألـوان المنـكرات . ولقـد تُصفِـر أيديهـم في بعض الأحيان ، بِضـنّ الوالـدين ، أو بتعجيل الإتـلاف لوظيفـة الشهـر أو لذخيرة العام . أو بغير ذلك من أسباب العُسر . فكيف لهم بالمال ؟

لقد عَرَفوا الشيخ غندراً ، وأدركوا مَدَى همّ البطن فيه ، وهداهم الرأيُ إلى استغلالـه من هذه النـاحية . فاذا أعـوَزوا واحتاجـوا إلـى

المال . بعَثوا في طلب حَمَل (قوزي) أو ديك رومي ، ودفعوه إلى طاهى أحدهم ، وأوصَوه بأن يحُسن إنضاجَه ، وبأن يَطهي ألواناً أخرى من شهيّ الطعام وفاخر الحلوى . ثم دسُّوا على الشيخ حسن من يخبره الخبر . ويَستوصيه بألاّ يُفشي للجماعة سرَّه. فيُهرول من فَوره إليهم. حتى إذا طلع عليهم تنكَّروا له ، وربما ردُّوه بالقول الغليظ ، وهو يَستعطفهم ويَتوسَّل إليهم ، وربما تركهم في إصرارهم وانسلّ إلى المطبخ ، حتى إذا رأى ما رأى وشمَّ ما شمَّ ، انقلبَ إليهم وقد زاغ بصرُه ، وتَقلَّصت شفتُه ، وجعلت أسنانُه تُقضقِض قضقضةَ المقرور . ثم عاد يَتوسَّل ويَتذلَّل . فيُباديه بعضُ القوم بأنه حلَف بكل مؤثِّمةٍ من الأيمان ألاّ يقرب الطعامَ إلاّ إذا أقرَضه عشرين جنيهاً أو ثلاثين لغاية الشهر ، فيُسرع إلى داره ، إذا لم تكن حاضرةً في جيبه ، ويجيء بها ما تَنقُص قرشاً واحداً . وهو الذي يحتمِل أجر المركبة إذا كانت المسافة مما يَستدعِي اتخاذ المركبات . وربما ورَّطوه في ضمانة أو نوحها من وجوه الالتزامات ، ففعل ، نزولاً على حكم البطن العاتي الجبار . وهكذا . . . !

ولقد تَرامَى هذا إلى غيرهم من (أولاد البلد) فحذوا في استخراج الأموال منه حَذوَهم . حتى أَفلس الرَّجل وأمحلَ ولصِقت يدُه بالتراب !

* * *

هذا ما كان من أمر الشيخ حسن غَندَر في طعامه . أما ما كان من أمر شَرابه . فلقد كان لبطنه فيه كذلك عبقريةٌ وجَبَروت .

وإني أبادر فأوكد لك أنني لا أعني بالشراب الخمر ، فان الرجل

لم يكن يذوقها قط ، فلقد كان ، رحمه الله ، شديدَ التأثُم . حريصاً على دينه من هذه الناحية . إنما أعني بالشراب ما آحلولَى طعمهُ ، وساغ في الشرع حُكمهُ . وإن كان لا يرى حرجاً من منادمة جماعات الشاربين .

وإني أكتفي ، في هذا الباب ، بذكر نادرة واحدة من نوادره ، نُتمّ بها الكلام ، لتكون (مِسك الختام) :

في ذات عشيَّة سقَط الشيخ غندر على (فلان بك) ، وكان ، غفر الله له ، من أبناء (الذوات) الموسرين ، المستَهتَرين بالشَّراب . وهو كذلك من أولاد النكتة أصحاب البدائه ، وكان الشيخ غندر أثيراً عنده ، يستمتع بلطف حديثه ، كما يستمتع برؤيته في ثورة نَهَمه .

وقبل أن يمضي إلى مَباءات سُكره وعَبَثه . استصحب الشيخَ إلى بعض المطاعم المشهورة ، وحكَّمه فيما يشتَهي ، حتى إذا بلغ كفاياته من الطعام ومن الحلوى والفاكهة أيضاً . وناهيك بكفايات الشيخ غندر ، انكفأ به إلى بعض الحانات الكبيرة . ودعا لنفسه بخمر مما يُشرب في الكؤوس الدِّقاق ، ودعا للشيخ بكوب من (الشربات) ، فجاء الغلامُ بكأس الخمر ، وجاء معه بكوب كبير جداً من (الشربات) . وما كاد صاحبنا يُفرغ الخمرَ في حلقه في جرعة ، حتى رأى الشيخ يَصبّ كوبَه الضخْم في بعض جرعة . ثم دعا بالغلام وسأله كاساً له أُخرى . وهنا تقدّم الشيخ حسن وقال للغلام : أريد يا بنيّ أن تأتيني هذه المرَّة بشراب الورد ، فانه طيب الرائحة لذيذ الطعم . ثم طلب صاحبنا الثالثة ، فأسرع الشيخ وقال للغلام : أمَّا هذه المرّة فعليّ

بشراب اللوز (الصومادة) ، فانه يُصلح المعدة ويبرد من حرارة القلب . ثم دعا صاحبنا بكأس رابعة . فقال الشيخ للغلام : عليَّ هذه المرَّة يا بنُيّ بشراب البنفسج (الفيوليت) ، فانه بديع النَّكهة ساحر المذاق !

ثم رأى صاحبنا ، على عادة المستَهتَرين من أصحاب الشَّراب ، أن يتَحوَّل إلى حان آخر ، فدعا لنفسه بخمر ، ودعا الشيخُ لنفسه كذلك (بشربات) . وظلاًّ يتحوَّلان معاً من حان إلى حان ، يَشرب صاحبنا خمراً ، ويَشرب الشيخُ بإزائه (شربات) حتى كاد يَنصدع عمودُ الصبح . ثم انقلبا إلى الدُّور . فاذا هذا قد أصاب اثنين وعشرين كأساً من الخمر ، وإذا الشيخُ غندرٌ قد والَى بإزائه بين اثنين وعشرين كوباً من . . . (الشربات) !!!

الأمير شكيب أرسلان

(وُلد سنة 1869، وتوفِّي سنة 1946 م.)

هو شكيب بْن حَمُّود أرْسْلان ، من سلالة التَّنوخيِّين . وُلد في الشُّويفات ، من القصبات الكبيرة في جبل لبنان ، وتعلَّم في مدرسة « الحكمة » في بيروت ، ونبغ منذ حداثَته في الشِّعر والأدب. وقد عمل في المناصب الحكوميَّة في وطنه مدَّةً ، وانتُخب نائباً عن حوران في « مجلس المبعوثان » العثمانيِّ . وفي الحرب العامَّة الأُولى ، أقام في دمشق وشارك في تحرير جريدة « الشَّرق » ، ثمَّ قصد بعد الحرب المذكورة إلى برلين وسكنها ، ثمَّ سكن جنيف ، في سويسرة ، وأقام فيها زماناً طويلاً . وقد عاد من غربته إلى لبنان ، وتوفِّي في بيروت ، ودُفن في مسقط رأسه. وكان من المضطَّلعين بالقضايا العربيَّة ، ومن صفوة العاملين لها ، وأصدر لذلك ، وهو في جنيف ، مجلَّة « الأُمَّة العربيَّة » ، باللُّغة الفرنسويَّة ، فانَّه كان يتقن هذه اللُّغة فوق إتقانه للُّغة التركيَّة ، ومحاولته في أواخر أيامه لإتقان اللُّغة الألمانيَّة . وله سياحات في الشَّرق والغرب ، ألَّف عليها كتباً مشهورة . وقد نُعت « بأمير البيان » ، وانتُخب عضواً في « المجمع العلميّ العربيّ » . كان يكتب كثيراً جدّاً ، سبعاً أو ثمانياً من السَّاعات كلَّ يوم . قال عارف النَّكديّ في ترجمته للأمير شكيب ، في « مجلَّة المجمع العلميّ العربيّ » :

« يكتب في الشّهر الواحد ما لا يقلُّ عن عشر مقالات » إلى أن يقول : « وكان يرد عليه في الشّهر ما لا يقلُّ عن 200 مكتوب ، كان يجيب عنها كلّها » .

كتب الأمير شكيب في الأدب ، واللُّغة ، والتأريخ ، والاجتماع ، والسِّياسة ، وفي كلِّ ما ينبري له من مجال في رسالة خاصَّة ، أو إخوانيَّة ، أو في غير هذه وتلك من مقامات الكتابة ، فاذا قلمه لا ينحدر شيئاً من المنازل العالية في الفصاحة ، والذَّوق المتنخَّل ، والطَّبع الرَّيَّان من الطُّلاوة والنَّضرة . ذلك لولا ما تجد له من مسحات خفيفة لتعمُّل التقفية والفواصل ، عالقة تعلق بأسلوبه في بعض الفترات ، وقد بقيت له من أوَّل أمره بالكتابة ، أيَّام افتتانه بالسَّجع وتمسُّكه به . قال الأستاذ محمد كرد علي في كتابه « أمراء البيان » : « وآخر من عرفناهم ممَّن يعطفون على السَّجع أحياناً ، وإن كان لهم في الكلام المرسَل إحسان وابداع ، صديقنا أمير البيان الأمير شكيب أرسلان ، فانَّه محافظ على الطريقة القديمة في مقدّمات الكتب وعناوينها » . وقال الدكتور سامي الدَّهَّان في كتابه « الأمير شكيب أرسلان » : اعترف شكيب بأنَّ السَّجع والجناس في الفاتحة والمقدّمة كقاعة الاستقبال ، وأنَّ السَّجع رسميّ في المقدّمات » إلى أن يقول : « وجدنا عند الأمير شكيب أسلوباً آخر غير هذا الأسلوب التَّقليديّ ، هو نثره في كتبه ومقالاته ، لا يتقيَّد فيها بسجع ولا ترادف وانَّما يجري مجرى الطَّبع » . وقال الأستاذ احمد الشرباصي في كتابه « أدب أمير البيان » : « واذا كان شكيب قد حرص في أوَّل أمره على السَّجع ، وألحَّ فيه كثيراً ، فانَّه حاول التَّخلُّص منه ، أو التَّخفيف منه خلال

حياته ، وان ظلَّ برغم هذا يحنُّ إلى النَّثر الفنِّـي حتَّـى السَّبعين من عمره ، لحرصه على تقليد الفحول وأعلام البلغاء ، حتى لا يُقال انَّه قد قصَّر عنهم » .

وقد جاء على نثر الأمير شكيب ، وأُسلوبه ، وعلوِّ مكانه ، كلام كثير . قال خليل مطـران في « مختـارات الزُّهــور » : الأمير شكيب أرسلان حضريُّ المعنى بدويُّ اللَّفظ . يحبُّ الجزالة حتى يستسهـل الوعورة » إلى أن يقول : « ترك الشِّعر وانصرف الى التَّرسُّل ، فحبس فيه ما أُوتيه من العبقريَّة ، فهو الآن في مذهبي إمام المترسِّلين » . وقد علَّق خير الدين الزّركلي في كتابه « الأعلام » ، على ما هنا من كلام خليل مطران في ما يتعلـق ببـداوة اللَّفـظ التـي كانـت للأمير شكيب يومئذٍ ، ما يأْتي : « قلتُ : كان ذلك قبل الأعوام الأخيرة من حياته ، ثمَّ انطلق ، فتحوَّل إلى الأسلوب الحضريِّ في لفظه ومعنـاه » . وقال خليل مطران أيضاً في مقدّمته « لديوان الأمير شكيب أرسلان » : « آثر الأمير التَّرسُّل ، ومضى فيه متدفّقاً تدفُّق الينبوع الصَّافـي ، مجلجـلا أحياناً جلجلة السَّيل الكثير الشّعاب » إلى أن يقول : « ملك اللُّغة من أوَّل أمره . ولا أتغـالى اذا قلت إنَّه جمع معجمها في صدره » إلى أن يقول : « عـدل عن تشبُّـه الأوَّل بالمحض الخـالص من الأسـاليب المأخوذة عن الصَّميم من القديم ، ولم يُرَ له بعد ذلك مكتوب الاَّ وهو مطبوع بطابع السَّلاسة والانسجام والغـزارة مع الحـرص علـى شرف المفـردات ورصانـة التَّـراكيب مجتمعـاً كلُّ أولئـك في طابــع الأمير شكيب . تلك غاية لم يدركها غير هذا العبقريّ في التَّرسُّل » . وقال

مصطفى لطفي المنفلوطيّ في كتابه « مختارات المنفلوطيّ » : من كلام له على الأمير شكيب : « كاتب من أقدر كتّاب العصر على البيان الفصيح ، واللّفظ الجزل . ويمتاز في الصّناعتين بسرعة البديهة ، والذّهاب مذهب الطّريقة البدوية في الأسلوب » إلى أن يقول : ولو كان للأدب عنده من الحظّ ما للسّياسة ، لرفع من شأنه ما قصّرت عنه أيدي سواه » . وقال أيضاً في كتابه « النّظرات » : « لو لم يكن كاتباً فريداً ، لكان شاعراً مجيداً » . وقال الدكتور سامي الدّهّان في كتابه « محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان » : « أوردنا هذا لنبرز الجمال في كتابته ـ يريد كتابة الأمير شكيب ـ والعذوبة في بيانه، والسّلاسة في تعابيره ، على قصر الزّمن الذي يكتب فيه ويحرّر . فكأنّه خزانة ألفاظ وصور وتراكيب وأخيلة ،يستلّ منها حين يريد ما يريد»إلى أن يقول: « يجلّي في الحلبات كلّها » إلى أن يقول : « فكان كأدباء القرون السالفة يلمّ بكلّ بحث ، ويتناول كلّ موضوع ، ويبلغ في بعضها مبلغ المتخصّصين » .

وبالجملة : إنّ الأمير شكيب أعظم كتّاب العربيّة وفرة كتابة ، مع أصوليّةوعلوّ طبقة . وقد قال خليل مطران في ذلك ، في مقدّمته المذكورة « لديوان الأمير شكيب » : « لو تفرّغت طائفة من حملة الأقلام ، جمّ عديدها ، فيّاضة قرائحها ، فيما يشاء الله من مسائل السّياسة والاجتماع والأدب ومباحث التأريخ والأخلاق لكتابة ما كتب ـ يريد الأمير شكيب ـ من تلك الفصول والمقالات ، لتعذّر عليها أن تأتي مجتمعة بما أتى به ذلك العَلَم الفرد ! » .

له من المؤلّفات المطبوعة نحو من عشرين كتاباً . أعظمها :

«آخر بني سراج» عن الفرنسويَّة لشاتو بريّان ، و «أناتول فرانس في مباذله » عن الفرنسويَّة ايضاً لبروسُّون ، ومعه كتاب سيغور في أناتول فرانس ، و « حاضر العالم الإسلامي » لستو دارد في أربعة اجزاء علَّق الأمير شكيب عليها ، و « الارتسامات اللِّطاف في خاطر الحاجّ إلى أقدس مطاف » ، و « تاْريخ غزوات العرب في فرنسة وسويسرة وإيطالية وجزائر البحر المتوسط» ، و « الحلل السُّندسيَّة في الأخبار والآثار الأندلسيَّة » في ثلاثة أجزاء ، و « شوقي أو صداقة أربعين سنة » ، و « السيِّد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة » ،و « لماذا تأخَّر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم » .

صنعة الشعر وإبداع شوقي فيها[1]

ومن أهم ما يغفل عنه الناس وهو من أحق الحقائق ان نفوس الأدباء لها أوقات صفو وأوقات كدر وانها في اوقات الصفاء قد تبرم قوانين وتخلق معاني لا تتأتى لها في جميع الأحايين . وربما لاح في فكر الأديب خاطر في احدى السويعات لو استرسل فيه لأتى فيه بالعجائب ، على حين انه اذا نشده في وقت آخر وحاول أن يستأنف ما كان يلوح له في ساعة الصفاء لوجد زنده فيه صلدا ورأى أنه يهيب بتلك الخواطر السابقة فلا تجيبه ويطمع أن يقتنص تلك الشوارد التي كانت بين يديه فاذا هي الآن لا تطيعه ومنها ما ذهب غير معاود ومنها ما عصي غير مقرِن . ولذلك كان يجب على الأديب شفاف الطبع انه اذا عنّ له في سويعات الصفاء معنى مبتكر أو خاطر شريف ووجد هذا

---

(1) من كتابه « شوقي او صداقة أربعين سنة » (ص21 - 22) . [المحقق] .

الموضوع مثالا عليه أن يسرع الى قيده أوابده ويأخذ القلم فيحرره واذا كان شعراً نظمه واذا كان نثراً دبجه ، حتى لا يفوته فيما بعد ، فان الافكار من جملة حظوظ الدنيا تهب أحيانا وتركد أحيانا فاذا هبت مرة وجب اغتنامها ولم يجز اهمالها على نية أن يعاد اليها مرة أخرى ، وإن الافكار نظير الأقدار ليس في مقدور الكاتب او الشاعر ان يجيدها كل حين ، وقد تفيض على الرؤوس أشعة إذا ولت تعذر استردادها . فاللبيب اللبيب هو الذي يقنص الشاردة لأول سنوحها ولا يدعها تذهب على أمل انه يصطادها فيما بعد فانها إذا شردت قد تفوت والفلاة طويلة عريضة فلا يحيط بها الصائد ولا تطوى له كيف يشاء .

وقد كان شوقي ممن يقيد الشوارد ولا يدعها تفوت ، وممن يقف في المظان التي تختلف فيها الطرائد فكلما عنّ سانح رمى بسهمه ، فلهذا عظم توفيقه في الصيد وجاء بما لم يجيء به غيره ، ولم يقل لنفسه في وقت من الاوقات : دعينا من هذا الآن لأن لنا ما يشغلنا عنه وسنعود اليه في ساعة أخرى ، بل كان المعنى المبتكر هدفا له كيفما عنّ وأنىّ عرض ، فلا يكاد يتراءى له شيء الا وتّر قوسه وفوّق سهمه .

وهكذا ينبغي ان يكون الشاعر اذا أراد أن يجيد وان يقول فيه الناس : من ذا قالها ؟ ولا يجوز للشاعر أن يجعل السياسة أو الاقتصاد أو الصناعة أو الفقه او شيئاً آخر من مناحي الحياة فوق الشعر بل ينبغي أن يكون الشعر هو غرضه الأول وأن تدور حياته من حوله فجميع المشاغل تكون له فضلة ويكون الشعر هو العمدة ، ولهذا قال خليل مطران : أن شوقي كان يفكر في الشعر قاعداً وقائماً وحاضراً وبادياً وسائراً وسارياً وفي المركبة وماشياً الى غير ذلك . فقد قام نحو الشعر

بالواجب الذي لم أقم به أنا ولا غيري ممن جعل الشعر فضلة عمله ولم يقله إلا عند الضرورة . قد اعطى شوقي نفسه للشعر فأعطاه الشعر ما لم يعط غيره في هذا العصر .

(إلى أن يقول : ص 125) .

واني لأتخيل شوقي ـ وهو الذي يقول كما جاء في جريدة كوكب الشرق : اني أحد أصحابه الثلاثة الذين لا يعز أحداً عليهم ـ قد نظر الي من برزخه وأطل عليَّ من نافذة الغيب وحدق بي بعيونه تلك التي كان يقول فيها صديقنا الشيخ علي الليثي (محاجر مسك ركبت فوق زئبق) وقال لي : أهكذا ضمنتني يا أخي بعد وفاتي ؟ وانه في تلك الساعة قد ينشدني قول أبي العتاهية :

سيعرض عن ذكري وتنسى مودتي	ويحدث بعدي للخليل خليل
اذا ما انقضت عني من الدهر ليلة	فان بكاء الباكيات قليل

فأبداً أجيبه قائلا : لو نسي عهدك الاولون والآخرون لما خفرت لك عهداً ولا مذقت لك وداً وانك في الغيب عندي لكما في المشهد وانت تعلم أنها صداقة أربعين سنة تساقينا كؤوسها صفواً بدون قذى وتبادلنا رياحينها عفواً بدون أذى .

فان أظمأ عهدك النسيان فلي مدامع ترويه ، وان شطت بشعرك النوى فان الدهر كله يرويه ، وانه وإن بكاك الناس حباً بالأدب ورحمة للسان العرب فاني لأبكيك بصفتين : صفة الأديب البر بلغته الغيور على صناعته ، وصفة الأخ الضنين باخوته الحريص على مروءته ، فأنا

في مقدمة من لك من الاخوان والاتراب الذين يبكون فضلك ويذكرون عهدك الى أن يواروا في التراب .

رأي للمؤلف[1]

فأما اسلوب التحليل الذي درج عليه بعض أدباء هذه الحقبة الاخيرة من هذا العصر يذهبون فيه مذاهب الافرنج لا في المعنى فقط بل باللفظ تقريباً ويورد الواحد منهم البيت فيأخذ بتشريحه من وجهه ومن قفاه ومن أسفله ومن أعلاه ويشير الى ما هنا من عاطفة جريئة وما هناك من ابتسامة بريئة ويستعمل في الوصف تلك الألفاظ الأوروبية التي ليس فيها من العربي الا الحروف بحيث ان كثيراً من العرب لا يفهمون منها قليلاً ولا كثيراً فلسنا من هذا الأمر في قبيل ولا دبير . واننا لا نحب أن نخلط العربي بالاعجمي ولا أن نخاطب العرب الا بما يعقلون ويشعرون وما تسيغه أذواقهم فان لكل أمة أدبا ولكل قوم مشربا وان الخلط بين شعبان ورمضان اظهارا لسعة العلم وتزيّداً بما ليس من مقتضى الواقع ليس بطريقتنا واننا نؤثر على ذلك أن نكتب مثل هذه الفصول التحليلية بلغة أوروبية رأساً كما يفعل المستشرقون الاوروبيون اذا أخذوا كتابا عربياً فشرعوا في تحليله ، نعم نؤثر الكتابة بلغة أوروبية في هذا الموضوع على أن نباشر هذا التحليل بجمل أوروبية في حروف عربية يمشي فيها القارىء مرحلة وكأنه واقف مكانه لعدم ألفته بهذه الالفاظ المترجمة وبهذه الاعلام التي هي غريبة عن قومه .

---

(1) من كتابه « شوقي او صداقة أربعين سنة » (ص 136 - 137) . [المحقق] .

فالذي يحمل نفسه على قراءة هذه التحليلات التي نحاول أن نجري فيها مجرى كتاب الاوروبيين تراه أبدا يشرب ولا يرتوي . ومن الناس من يظن عدم عقله لها ناشئاً عن مجرد جهله ، والحقيقة ليست كذلك بل انها من باب وضع الشيء في غير محله . لا بأس في الاحايين في أن يورد الكاتب في تحليله لبيت من شاعر عربي معنى قد توارد عليه مع شاعر اجنبي او ملاحظة ظهر فيها شيء من الموافقات أو المفارقات بين أدبنا وادبهم ، فأما اتخاذ هذا الاسلوب دأبا وديدناً كلما اردنا ان نصف بيتاً لطرفة بن العبد أو قصيدة للاعشى لزمنا ان نفحم فيها فيكتور هوغو والفرد ديموسيه ولامارتين وغوته وشكسبير وان نكثر على قراء العرب من سرد اعلام لا يعلمون عنها شيئاً تقريباً فهذا تنطع بالفارغ وتحذلق غير سائغ والأولى بنا أن نراعي قبل كل شيء الذوق العربي وان نستشهد بادباء العرب ونعلم انه كما كان العربي يعاف طعام الأمم الأجنبية وشرابهم فانه لا يتسوغ بالسهولة أشعارهم وآدابهم وليس الشعر والأدب ميكانيكيات ومواد ، يستوي فيها العربي والعجمي . وقد فات الناس ان الشعر هو شيء والعلم شيء آخر فلو فكروا ملياً في هذا الأمر لأراحوا أنفسهم مما يعانونه هم ويعانيه قراؤهم .

وصف غرناطة(*)

« وغرناطة الحمراء مبنية في سفح جبل (سيارًا نيفاده) الشارات على رابيتين مسترسلتين صعداً يفصل بينهما واد عميق ، والأبنية ممتدة على الصبب من الجانبين ، وآخذة برقاب السفوح إلى قعر الوادي على شكل يعطي البلدة للناظر هيئة الرمانة . ومنها اشتق اسمها ، إذ معنى لفظة غرناطة رمانة[1] » .

وقال شاتوبريان كذلك يصف لقاء العاشقين أول مرة :

« وقد حركها منه ما حركه منها ، ورأى بعينها ورأت بعينه ، وأخذت ترنو إلى ابن سراج وعمامته وطيلسانه ، وأسلحته تزيد صباحة وجهه وبهاء طلعته رونقاً وجلالا ، ثم ثابت من دهشها الذي أصابها لأول وهلة ، فأشارت إلى ذلك الغريب الديار أن يدنو منها ، وقالت بلطافة وهشاشة تمتاز بها نساء تلك الأحياء : أيها السيد المغربي ، يظهر لي أنك قادم جديداً إلى غرناطة ، وربما كنت أضعت الطريق[2] » .

(*) مقاطع من ترجمته لرواية « آخر بني سراج » لشاتوبريّان . [المحقّق] .

(1) الرواية ص9 .

(2) الرواية ص14 .

وقال شاتوبريان يصف المرج حول غرناطة :

« وهذا المرج الذي تشرف عليه غرناطة كاس من ملتف الدوح وفينان السرح ، وأشجار الكرم والرمان ، والتين والتوت والليمون ، حلة خضراء سندسية وقد حفت به جبال مدهشة المنظر ، شائقة الملمح . فإذا مر السائح من هناك ، وقلب طرفه في صحو تلك السماء ، وصفاء ذلك الماء ، وتبسم ذلك الأفق ، واعتلال ذلك الهواء ، لم يتمالك أن يستشعر قلبه الانحلال ونفسه الالتياث ، بل يحس أن عواطف الرقة في هذه البلاد تتغلب على حفائظ الشجاعة ، وأن مناخها يحل عقود العزائم ، وينكث مفتول الشكائم[1] » .

(1) الرواية ص10 .

خليل مطران

(وُلد سنة 1871، وتُوفِّي سنة 1949 م.)

هو خليل بْن عبده بنْ يوسف مطران، وُلد في بعلبك، وتُوفِّي في القاهرة. وقد تخرَّج في السابعة عشرة من عمره في المدرسة البطريركيَّة، في بيروت، ودرس العربيَّة فيها بعض السَّنة على الشَّيخ ابراهيم اليازجي، وبعد تخرُّجه عُيِّن معلِّماً في تلك المدرسة. وما عتَّم يومئذٍ أن نظم قصيدة في مظالم العثمانيِّين، كانت سبباً في نقمة حكومة بيروت عليه، واستتاره أياماً، فرَّ بعدها، أي سنة 1890، إلى فرنسة.

إلى أن قصد في سنة 1892 إلى مصر وسكنها، حيث ساعد في تحرير جريدتي «المؤيَّد» و«اللِّواء» مدَّة، تولىَّ بعدها تحرير جريدة «الأهرام». ثمَّ أنشأ في القاهرة سنة 1900 «المجلَّة المصريَّة» شهريَّةً، وظهر منها ثلاث مجلَّدات، ثمَّ انشأ في سنة 1902 جريدة «الجوائب المصريَّة» يوميَّةً، وعاشت إلى سنة 1909. ومن كلام «للموسوعة العربيَّة»، في ترجمته، قولها: «وعمل في الصّحافة طويلاً، ثمَّ تحوَّل إلى التّجارة والاقتصاد. وعندما أُصيب بنكبة ماليَّة عُيِّن سكرتيراً معاوناً للجمعيَّة الزَّراعيَّة الملكيَّة. وكان مستشاراً في

الشؤون الاقتصاديَّة لهيئات كثيرة » . وقال الدكتور المحاسني في « مجلَّة المجمع العلميّ العربيّ » من كلام له على مطران : « كان لشاعرنا عمل في وزارة الزّراعة ينال عليه وظيفة شهريَّة يستعين بها على الحياة . ومن هنا لا تجد أثراً لشكوى الحاجة في شعره » إلى ان يقول : « وكان له من الفضل على الأدب المعاصر أن نقل آثاراً مسرحيَّة من الانكليز والفرنسيِّين أَبَه لها[1] أولو الأمر ، فأفادوا منه بجعله مديراً فنِّياً للفرقة القوميَّة المصريَّة الَّتي تتولَّى روايات الأوبرا المصريَّة (إلى أن يقول) وإذا عمدت إلى تصوير مطران ، كما رأيته في آخر عمره ، قلت : كان شيخاً همّاً[2] ، انطوت ذقنه على فم خلوٍ من الأسنان ، وغوَّر العمر عينيه الصَّغيرتين ، وهما تشعَّان بالذَّكاء ، من وراء نظَّارة في وجه ترتسم عليه براءَة المسيح . كان جسمه هزيلاً طول عمره . ولم يعرف التَّزويج . وحلاَّه الله بأخلاق انسانيَّة سامية ، فليس من مخلوق يقول : عرفتُ منه أذيَّة » . وقال خير الدِّين الزّركلي في معجمه « الأعلام » ، في ترجمته لمطران : وكان « رقيق الطَّبع ، ودوداً ، مسالماً ، قلَّ أن ذكر أحداً بغير الخير » .

لا أعرف فى قدماء ، ولا في محدثين ، شاعراً كخليل مطران ترجح كفَّة نثره ، وتشيل كفَّة شعره ، ثمَّ يقال له الشَّاعر ، ولا يُقال له الكاتب ! على انَّ طبقة نثره هيهات أن تجد في هذه العربيَّة كاتباً يكاد يبلغها في روعة الألفاظ ودقَّة المعاني ، مع شعور يكاد يلتمع من وراء

---

(1) أَبَه له : فطن له ، التفت إليه .

(2) الهِمُّ : الشَّيخ الكبير الفاني .

الحروف ، وخيال يكاد يُؤخذ باليد ! ذلك إلى براعة في وضع الأشياء مواضعها في مقامات الكلام ، ليس بعدها براعة .

قال مصطفى لطفي المنفلوطي في كتابه « النَّظرات » ، يذكر مطران في فصل عنوانه « طبقات الكتَّاب » : « يكاد يُلمسك خياله ، ويُسمعك رنين أوتار قلبه » . وقال أيضاً في ترجمته لمطران ، في كتابه « مختارات المنفلوطي » : « كاتب لا أعرف له شبهاً في القدرة على تصوير جزئيَّات المعاني ، وأدقّ ما في أعماق القلوب » .

وقال الأمير شكيب في رسالة له ، في جريدة « المقطَّم » يذكر مطران : « شيخ الأدباء في هذا العصر غير مدافع ، وجهبذهم في التَّنقاد غير مرفوض حكومة (الى أن يقول ذاكراً مطران والعربيَّة) :
« إنَّه خليلها المفدَّى ، وسلطان بيعتها ، ومطران بِيعتها ، وواحدها المشار إليه بالبنان ، وشيخها الَّذي لا يختلف فيه اثنان ! » .

وقال الدكتور محمد صبري في كتابه « خليل مطران » : « إنَّنا نتردَّد في تفضيل الشَّاعر على الكاتب ، لأنَّ مطران سيِّد الكتَّاب جميعاً بسعة أفقه ، وقوَّة بيانه . له مقالات كسلاسل الذَّهب (إلى أن يقول) وهو في هذا مجدِّد مائة في المائة ، لأنَّه لم ينسج على منوال أحد من الكتَّاب القدامى ، ولم يسبقه أحد إلى النَّهج الَّذي سار عليه » . (إلى أن يقول) خليل مطران جهبذ اللُّغويِّين وإمام الفصحاء (إلى أن يقول) . « برع مطران في جميع فنون الكتابة ، من صحافة إلى نقد الى سياسة ، إلى أدب خياليّ ، وكانت قوَّة التَّصوير السَّاحرة لا تلمس الموضوع العاديَّ الوضيع إلاَّ وتعلو به إلى المستوى الفنِّيِّ الرَّفيع » . (إلى أن يقول) وقد عرف النَّاس مطران الشَّاعر ، ولكنَّهم لم يعرفوا إلاَّ

القليل عن مطران الكاتب . ولعلَّ شخصيَّته الآن قد اكتملت في معالي أوجها ، واستقرَّت في منازلها وأبراجها » .

وللمطران في النَّثر مؤلَّفات كثيرة ، أشهرها : « مرآة الأيَّام في ملخَّص التَّاريخ العام » ، انتهى فيه إلى حوادث سنة 1896 ، و« الموجز في علم الاقتصاد » للروا بوليه ، اشترك مع حافظ ابراهيم في ترجمته إلى العربيَّة ، و« الأخلاق » . ومن أشهر معرَّباته : « عطيل » و« تاجر البندقيَّة » لشكسبير ، و« السِّيد » لكورني .

وفاة طفلة[1]

بالأمس مات أبوك ورثيته بدمعة منك مزْج دمعة مني فلماذا لحقتِ به إلى ذلك العالم الذي وراء ملتقى البحر والأفق .

أكنت أشد حبا له منك لأمك الحزينة ، أم كان أوّل إشرافك على الدنيا من باب حداد فعفتها ، أم ذهبت لتكوني شفيعة بين يدي الله لهذه الثاكل الأسيفة التي جزيت عن مسرة زمن قصير بحزن دهر طويل ، وكان جزاؤها بشبابها أن يذبل ، وبيتها أن يقوّض ، وبإحدى سلوتيها وهما ابنتاها أن تزول ، وبالذل أن يكون أليفا ، والوحشة أن تكون أنيسا ، والغربة أن تكون وطنا ، والوحدة أن تكون أهلا وسكنا .

أم أنار الله فكرك بنور الحق باكراً فرأيت هذه الحياة حق رؤيتها قبل أن تتأصل بها أعراق وجودك ، رأيت ما فيها من دسائس ومفاسد ومطامع لا تنجو منها الأيِّم ، ولا يسلم اليتيم ، ففزعت منا إلى ربك قبل أن تختبري فتعلمي ما النكد ، وقبل أن تحبي فتحيي مسافة ما بين سرور النظر بلمع السيف ، وألم الأحشاء بمروره فيها ، وقبل أن تشبّي على اليتم فتشعري أن كل حي يتسلط عليه أقوى منه ، ولو من

(1) عن « المجلة المصرية » في 15 مايو سنة 1902 . [المحقّق] .

أدنى عوامل الطبيعة ، فهو يتيم بالنسبة إليه ، وأن الأعمار في كفالة الموت ، والأشباح والأشياء ، التي تنتمي الأشباح إليها ، في حضانة الفناء . ذهبت وذهب سرك معك ، وربما لم تكوني أدرى من الباقين ، ولكنك كنت أحكم أو أتم توفيقا .

فيا قطرة الندى التي اتخذت من أشعة الصباح أجنحة وطارت بها إلى أبيها ، وصلت إلى الغاية من أقرب طريق ، وسواء كانت الغاية النعيم محسوسا ، أو الراحة بلا حس فهي أكرم مثوى وأطيب مقاما للنفس .

وقيل إنك ابتسمت ساعة الاحتضار ، أليست كذا قطرة الندى تلمع لمعة السرور حين تتحول إلى نسمة وطِيب ونور .

قارئة [1]

وأوّل ما سمعناه منها سورة يوسف . ففي تلاوة القسم الأوّل منها وهو مقدّمة المواضع المؤثرة في القصة كان صوتها يسلسل الآيات كعدّ الجواهر على صفاء وكان تلحينها مستويا كأنه ممهد لما يتلو . فلما ألقى يوسف في غيابة الجب ثم نقله السيارة إلى مصر وجرى له فيها ما جرى من عظيم الأمور أخذ الصوت ينتقل بين المحزن والمفرح ، والترغيب والترهيب ، والقرع والزجر ، والوعد والوعيد . وكل ذلك يتميز من عامة سرد القصة كما ترتفع من السهل الهضاب بين أخضر

(1) « المجلة المصرية » عدد 15 ديسمبر سنة 1901 . [المحقّق] .

ومدبج[1] ، وصخرى ومخرَّج[2] .

وكلما تمادت في القراءة عظم الشعور في نفوس الحضور جميعهم من ذوي الأدب والمقام يصغون حق الإصغاء للقول الشريف الذي يتلى عليهم ثم يكون صدى شعورهم التكبير والتهليل في غاية من الحشمة والوقار .

وأذكر أنها لما وصلت إلى قول إخوة يوسف له « وتصدّق علينا » رق صوتها وحنّ ولطف حتى طفرت الدمعة من عيني وذلك أنها كانت تختار لكل موقف أسدّ النغم موافقة له . ولا تخلط بين الألحان على حدّ سويّ في كل موضع كما يفعل سواها من القارئين . فإذا فرغت من اللحن الذي هي فيه ودعت الحال إلى اختيار غيره أطالت الوقف وانتقلت إليه من أقرب مآتيه إلى اللحن السابق . وفي كل هذا لا يضطرب صوتها ، مع أن البرد كان آخذاً بعنقها وصدرها في تلك الليلة ولا يضعف عن صعود عنيف ولا يتقطع في انحدار طويل . قال لي أحد الأصدقاء إن هذا الصوت في النساء أدنى ما يكون شبها إلى صوت المرحومة ألمز وإن كان لا يعادله .

على أننا سمعنا بعد سورة يوسف سورة آل عمران وانصرفنا ذاهلين ممتلئة نفوسنا سروراً وخشوعاً . وقد عرفنا على الحقيقة معنى الطرب الذي تقترن فيه براعة الصوت وجودة المنطق بفصاحة اللفظ

---

(1) دبج الشيء : زينه وحسنه . ودبج المطر الأرض زينها بالرياض . ودبج الأرض : نقشها .

(2) خرجت الراعية المرتع : أكلت بعضا منه وتركت بعضا . وخرج الغلام اللوح : كتب بعضا وترك بعضا . وخرج العمل : جعله ضروبا وألوانا يخالف بعضها بعضا .

وبلاغة المعنى . ولا ريب أن لغة العرب تمتاز بهذا التجويد عن سائر اللغات .

الناي في لبنان[1]

إذا مالت الشمس إلى الغروب . . وجنحت فيما وراء البين جنوح السفينة المحترقة في البحر فحالت عسجدية الأوشحة الملقاة على عواتق الجبال إلى لمعات فضية ، ثم تقطعت قددا وتناثرت خيالات وتلاشت ظلالا ، فهنالك تتحوّل جلالة الجبال إلى روعة من السكون . . ويشعر الإنسان بعد أن كان صغيراً في جانب تلك الشوامخ ، أنه محي محو الذرة في عباب الظلام والوحشة .

عندئذ تجمع النفس حواسها فتكون العين أبصر والأذن أسمع ويكون الطرب أعمق صدى وأبعد مدى في ذات الصدور .

عندئذ يدرك الجاهل لفن الطرب كيف تتكلف الطبيعة ، وهي أمنا الرؤوم ، تعليمنا ما لا نعلمه من ضروب الموسيقى التي أوجدها الخالق العظيم فيها بل أسسها وبناها عليها .

ومن أين يأتينا ذلك الإدراك - يأتينا من رنة جَرْسٍ تروع أحشاء ذلك السكون العميم أو صيحة صائح من الطير يقذف بنغمته المستطيلة المموجة في جوف الوادي فتخطفها الأصداء مصافحة وعناقا وضما .

---

(1) « الجوائب المصرية » في 25 اكتوبر سنة 1905 . [المحقّق] .

فما بالك حين تكون الرنة رنة ناي والنغمة نغمة ما هو مصري رقيق لم تألفها تلك الجلاميد الوعرة ولكنها تأنس إليها أنس الأيايل النافرة ، ولم تُهَزَّ بها أسِرَّة الأعشاب النابتة ، غير أنها تشرئب إليها ناعمة قريرة .

الناي المصري في لبنان تلك نُهْبَة من نُهب الزمان . . أتسمع تلك الأنة التي تتصعد من جوف تلك القصبة فتخرج دقيقة رقيقة ممتدة في العلاء كما يخرج الماء الحبيس من المطفرة حتى إذا بلغت أوجها تفرقت أكاليل وعقودا وترششت على الأغصان المصغية فشربتها سروراً وترنحت لها طربا .

أو تسمع تلك النغمة العريضة المتسعة التي تدوي في فؤاد الكهف وتهوى إلى عمق الوادي فتستوقف الدابة وتزيد في شعشعة الحباحب .

ذلك الناي الرخيم الذي نَسَّم الجبل الشامي المهيب نسمة الوادي المصري الخصيب إنما كان ناي أمين .

مقدّمة ديوان الخليل(1908)

هذا شعر ليس ناظمه بعبده ، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الفصيح ، ولا ينظر قائله إلى جمال البيت المفرد ، ولو أنكر جاره وشاتم أخاه ودابر المطلع وقاطع المقطع وخالف الختام ، بل ينظر إلى جمال البيت في ذاته وفي موضعه ، وإلى جملة القصيدة في تركيبها وفي ترتيبها ، وفي

تناسق معانيها وتوافقها مع ندور التصوّر وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة ، وشفوفه عن الشعور الحرّ ، وتحرّي دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر .

كذلك حاولت أن أصنع شعري ، وأعرف أنني لست من العلم واقتدار الفكر في المكان الذي يبلغني منه أدنى المرام ، ولكنني تيقنت أن ما أردته به من الأغراض قد نفذ إلى قلوب قارئيه ، وأحدث فيها ما ابتغيته من الأثر ، وكفى بذلك سروراً لي ورضى ، إلى أن يجيء في زماني أو بعدي من يدرك من طريقتي الشأو الذي قصرت عنه ، ويصل إلى المقام الذي لم أدن منه .

على انني أصرح غير هائب أن شعر هذه الطريقة ـ ولا أعني منظوماتي الضعيفة ـ هو شعر المستقبل ، لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعاً . وللدلالة على صعوبة الوصول إلى الإتقان في مثل هذا النوع من النظم نشرت في هذا الديوان القصيدة الأولى من شعر الصبا ، وعدّة قصائد أخرى كان في وسعي أن أضرب عنها صفحا ، وأن أكتفي بما أستجده من قولي ولا آخذ على نفسي فيها شيئاً ، غير أنني آثرت أن يدارجني القاريء مدارجة على كونها غاية في الإيجاز تمثلني لديه تمثيلاً إجماليا في كل حال مررت بها من أحوال هذه الطريقة ، وليس أكثر شعري هذا بين الطرس والمداد إلا مدامع ذرفتها وزفرات صعّدتها ، وقطع من الحياة بدّدتها ، ثم نظمتها فتوهمت أنني استعدتها ، وقد عرض لي أن أبقيت في هذا الديوان خليطا من المذهب القديم ، ولكنني لم أفعل إلا وقد طاوعت ضميري وسايرت

اعتقادي ، ولم أتكلف المبالغة في النزر اليسير من المدح إلا لأقيس به شاسع ما أصبح بيني وبين الشعراء الذين ألفوا هذه الخطة من قبل ، ولا لوم في الشعر على البدوات .

على أنني لم أُخل إلى الآن شعري من كل ما آخذت عليه السابقين بسيري على هذه الطريقة الفطرية الصحيحة ، ولكنني أرجو أن أُقْدم على ذلك في المستقبل إن كان في الأجل فسحة .

وغاية ما أتمناه لدى القرّاء من الجزاء على هذه العبر المروية والغرائب المحكية والنوادر الممثلة ، والصور المخيلة ، التي نظمتُ أكثرها مسارقة من وقتي بين سفري وحضري ، وبين مذاهبي إلى أعمالي ، ومشاركتي لشواغلي وأشغالي أن يشاركوني في وجداني أثناء مطالعتهم لهذا الكتاب ، فيرضوا من الفضيلة كما رضيت ، ويأسَوا من الرذيلة كما أسيت ، وأن يستفيدوا من مناصحاتي ، ويتخذوا أدوية لجراحاتهم من جراحاتي .

لذلك عملت ، وذلك منتهى ما أملت ، فإن الناس ركب شقاء ، وسَفْر هيماء ، فما أسعد حاديهم - وهو الشاعر - إذا حدا ، أن يحس لنغماته عند إخوانه في المسير رنّة وصدى .

كيف ينظم شعراؤنا[1]

إسماعيل باشا صبري :

أكثر ما ينظم فلخطرة تخطر على باله من مثل حادثة يشهدها أو خبر

---

(1) سلسلة مقالات نشرت في المجلة المصرية من العدد 11 (21 مارس سنة 1909) الى العدد 18 (أول يونيو سنة 1909) . [المحقق] .

ذي بال يسمعه أو كتاب يطالعه .

ولما كان لا ينظم للشهرة بل لمجاراة نفسه على ما تدعوه إليه فالغالب في أمره أنه يقول الشعر متمشياً وربما قاله بحضرة صديق وهو مائل عنه بعنقه وله بين حين وحين أنة بمثل ما تنطق لفظة إيه مستطيلة .

ينظم المعنى الذي يعرض له في بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة ، وقلما يزيد على هذا القدر إلا حيث يقصد قصيدة وهو نادر .

شديد النقد لشعره كثير التبديل والتحويل فيه حتى إذا استقام على ما يريده ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه .

وهكذا يمرّ به الآن بعد الآن فيجيش في صدره الشعر فيرسل بيتيه إطلاق زوجي الطائر فيذهبان في الفضاء ضاربين من أشطرهما بأجنحة ملتمعة شاديين على توقيع العروض إلى أن يتواريا وينقطع نغمهما من عالم النسيان .

ذلك هو الشعر للشعر .

أحمد شوقي بك :

ينظم بين أصحابه فيكون معهم وليس معهم ، وينظم في المركبة وفي السكة الحديد ، وفي المجتمع الرسمي وحين يشاء وحيث يشاء ؛ ولا يعرف جليسه أنه ينظم إلا إذا سمع منه باديء بدء غمغمة تشبه النغم الصادر من غور بعيد ، ثم رأى ناظريه وقد برقا وتواترت فيهما حركة المحجرين ، ثم بصر به وقد رفع يده إلى جبينه وأَمَرَّها عليه إمرارا خفيفاً هنيهة بعد هنيهة .

فإذا قوطع في خلال النظم انتقل إلى أي بحث يُباحث فيه . حاضر الذهن . صافيه . جميل البادرة كعادته في الحديث .

ثم إذا استأنف ذلك المنظوم ولو بعد أيام طوال عاد إليه كأنه لم ينقطع عنه ، مستظهراً ما تم منه ، حافظا لبقية المعنى الذي يضمره .

يكتب القصيدة بعد تمامها وربما تمت ونسيها شهرا ، ثم ذكرها فكتبها في جلسة واحدة .

يكلّف أحيانا بمعارضة المتقدمين ، ولا يندر عليه أن يبزهم ، لا يجهد فكره ولا يكدّه في معنى أو مبنى .

فأما المعنى فيجيئه على مرامه أو على أبعد من مرامه ولا ينضب عنده لأنه يستخلصه من عقل فوار الذكاء ومعارف جامعة إلى أفانين الآداب في لغات الإفرنج والأعراب فلسفة الحقوق وحقائق التاريخ وغرائب السير التي يحفظ منها غير يسير إلى مشاركات علمية وتنبيهات فنية استفادها من مطالعته في صنوف الكتب واتخذها عن ملحوظاته ومسموعاته في جولاته بين بلاد الشرق والعرب .

وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول . ترى فيه من نسج البحتري ومن صياغة أبي تمام ومن وثبات المتنبي ومن مفاجآت الشريف ومن مسلسلات مهيار . وفي المجموع تجد صفة عامة للنظم وهي أنه نظم شوقي .

ذلك شعر العبقرية والتفوق .

حافظ ابراهيم :

يقول الشعر في كل مكان يتفق له فيه أن يخلو بنفسه ، ومن عادته دخول حديقة الأزبكية بعد الظهر طلبا لتلك الخلوة ، ولا يختلط عليه الفكر خلال الضجيج المحيط به .

يتعب في قرض القريض تعب النحات الماهر في استخراج مثال جميل من حجره . يؤثر الجزالة على الرقة ، وله فيها آيات .

يطرق الموضوع في الغالب من جوهره ، وربما نظم أكثر الأبيات قبل المطلع ، شأن الصانع القدير الذي يبدأ بأصعب ما بين يديه ، آمنا أن تهن عزيمته دون الإجادة بعد ذلك ، عالما أن الكلام لا بدّ أن يأتيه في أي مقام طيعا ولو بعد حين .

حاضر المحفوظ من أفصح أساليب العرب ، ينسج على منوالها ، ويتخير نفائس مفرداتها وأعلاق حلاها .

إذا صب البيت في قالب من العروض أعاده نغما على سمعه ، مستشيرا بذلك ذوقه عن طريق أذنه ، وطالما صدَقته الأذن بنصيحتها ، أما تغنيه فبدوي ، أخذه عن الشيخ عبد المحسن الكاظمي ، وطريقته أن ينطق بالكلمات ، مُلَحَّنة تلحينا ساذجا من إطالة في الحروف المعتلة ، ورجفة في القرار كرة أربعة أنفاس وتُقتضب .

له غرام باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى ، وفي أقصى ضميره يؤثر البيت المجاد لفظا على المجاد معنى ، فإذا فاته الابتكار حينا في التصوّر ، لم يفته الابتكار في التصوير .

أولع بالاجتماعيات ، فقال فيها وأجاد ما شاء .

كبير الآمال عاثر الجدّ ، نجد على أكثر منظومه أثرا من ألم النفس ، أو مسحة من الشكوى ، وتحمل بعض حروفه من بثه ما يلذع لذع النار الكامنة في غير متقد .

فهو على الجملة أحد الثلاثة الذين هم نجوم الأدب العربي في مصر لهذا العصر ، ولكل من تلك النجوم منزلته وإضاءته وأثره الخالد .

أما شعره فشعر البيان ، وإن من البيان لسحرا .

محمود باشا سامي البارودي :

أدركته وقد عاد من منفاه ، وكان أوّل معرفتي به أن زرته مصاحبة لصديقه ومريده الشاعر الناثر محمد بك إبراهيم هلال .

دخلنا عليه وهو في صدر مجلسه ، فحيانا بذلك اللطف الذي كان لا يفارقه الوقار ، ولا تثبت معه الكلفة ، وكان لي معه بعد ذلك ودّ وعهد .

واتفق أن جئته ذات يوم وما بيننا ثالث ، فتطارحنا الشعر وتباحثنا فيه ، ثم اقترحت عليه بيتين يرتجلهما فاستوى يفكر .

استوى ساكنا ساجيا ، مسندا ظهره إلى الحائط ، وفكَّر غير منقبض المحيا ، ولا مُعْنَت الملامح ، متهللةٌ سماحةُ وجهه اللامع بأنوار الزوال بين بلج لحيته البيضاء المستديرة ، وقتم الناظرتين السوداوين اللتان تحجبان عينيه .

مرّت به وبي دقيقة وهو متمكن في تأمّله ، وأنا مسترسل مع خاطرٍ أخطَرته في قلبي رؤية الرجل على هذه الحال ، فخيل لي أنني لدى تمثال من تلك التماثيل التي أقامها صناع اليونان لبعض المتقدّمين من حكمائهم ، وتبدّلت في ذهني الناظرتان السوداوان بالظلين اللذين يحيطان بالعيون المطبَقة في تلك التماثيل .

وعاد إلى وهمي استطراقا قوّة ما أبدعوه في تلك الأنصاب ، حتى أعاروا بإتقانهم أعلام الإنسان بارقة من بوارق الألوهية .

وبينما أنا مستغرق الحواسّ بتلك الذكرى ، إذ تحرّك الرجل تحرّك من يعالج معنى مستصعبا ، فتنبهت تنبه دهشة كأني بالتمثال وقد تحرّك .

وفي تلك الوهلة تصوّرت لأوّل مرة أن الرجل وذلك رسمه ، وتلك بشرته البيضاء ، ليس بعربي النبعة ، وقضيت عجباً لآية البيان التي تنتفي عندها فروق الأصول والفروع ، والأمكنة والأزمان .

أما شعره فهو بجملته صناعة لا تنافس بقديم أو حديث ، مع ابتكار قليل وإحساس فياض .

اختار له أحسن أساليب العرب وأفصح ألفاظهم ، وتغنى بها على وحي نفسه ـ ونفسه جارية النغمة وعاشقة الإيقاع ـ فافتن حتى أنسى الفن ، وجوّد حتى أذهل عن المعنى .

فمثل قارئه مثل سامع المنشد البارع ، لا يبتئس حين يلتبس عليه فهم الألفاظ إذا استمرّ النغم على نظامه وإتقانه ، بل يستمرّ في طربه

ويترقى فيه ، إلى أن يخلق لنفسه شجونا حيث تفوته شجون الأقوال المنشدة .

ذلك كان مذهبه في الشعر وتلك غايته منه . ولا ننس له فضلا جديراً بالذكر الخاص ، وهو أنه أوّل شعراء البعثة الحديثة ، بمعنى أنه أوّل من ردّ الديباجة إلى بهائها وصفائها القديمين ، وما أبزّ قريضه لقريض جيله ، فإنك لتجد الواحدة من قصائده ذاهبة صعدا إلى عهد أرقى أزمنة العرب ، فهي كالجبال الشامخة وحولها القصائد الأخر كالأركان المقامة من حجارة أطلال بلا اختيار ، ولا نسق ولا هندام .

الخلاصة أن المرحوم البارودي كان في الطبقة الأولى بين شعراء العرب ، وكان قلبه كلفا بالنغمة ، وذهنه منصرفا إلى الصناعة ، كما يدل على ذلك منظومه ، وكما يشير إليه اختياره من أقوال المتفوّقين ، فإنه لم ينتق منها إلا كل ما حسن لفظا ومعنى أو حسن لفظا ، وأهمل ما حسن بمعناه دون مبناه .

فشعره إنما هو شعر الصناعة والإيقاع .

إبراهيم عبد القادر المازني

(وُلد سنة 1890، وتُوفِّي سنة 1949 م.)

هو ابراهيم بْن محمد بْن عبد القادر المازني، نسبة إلى «كوم مازن»، من المنوفيَّة، في مصر. وُلد في القاهرة، وتوفي فيها، وقد تخرَّج «بمدرسة المعلِّمين» في القاهرة، وعمل في التَّدريس، ثمَّ في الصِّحافة إلى آخر أيامه وأصدر مجلَّة «الأُسبوع» مدَّة قصيرة. وهو من أعضاء «مجمع اللُّغة العربيَّة» في القاهرة، و«المجمع العلميّ العربيّ» في دمشق.

المازني في زماننا كاتب السُّخريَّة البارعة، والأُسلوب الطَّلق، المرسل بلا كلفة، ولا كدِّ ذهن. يتناول الفرائد من الفصيح الجاري على الألسنة، ويصبُّ فيها خواطره، فإذا هي في المواضع العالية في البيان تلتمع رونقاً، وجمال تركيب، وحلاوة روح.

قال خير الدِّين الزِّركلي في معجمه «الأعلام»، في ترجمة المازني: «امتاز بأسلوب حلو الدِّيباجة، تمضي فيه النُّكتة ضاحكة من نفسها، وتقسو فيه الحملة صاخبة عاتية» إلى أن يقول: «وقرأ كثيراً من أدب العربيَّة والإنكليزيَّة، وكان جلداً على المطالعة. وذكر لي انه حفظ في صباه [الكامل] للمبرد غيباً، وكان ذلك سرَّ الغنى في

لغتـه . ورأى الكتَّـاب يتخيَّرون لتعابيرهـم ما يسمُّونـه [أشـرف الألفاظ] ، فيَسْمون به عن مستوى فهم الأكثرين ، فخالفهم إلى تخيُّر الفصيح ممَّا لاكته ألسنة العامَّـة ، فأتـى بالبيِّن المشـرق من السَّهـل الممتنع » .

وقال أحمـد شاكر الكرمـيّ في كتـاب « أحمـد شاكر الكرمـي ، مختارات من نثره » : « يتفرَّد الأستاذ المازنـي عن بقيَّة كتَّـاب مصـر الكبار بميزتين ، أحدهما السُّخرية الواسعة ، والثَّانية إرسال المعاني إرسالاً طبيعيّاً ليس فيه أثر للتَّكلُّف ، أو الاعنات . وتانك مزيَّتان لم تجتمعا لكاتب من الكتَّاب المعاصرين . أمَّا القدماء فقد جمع بينهما اثنان منهم ـ اثنان فقط بين كتَّاب العربيَّة الذين لا يحُصـى عددهـم ـ وهما الإمام الجاحظ وأحمد فارس الشـدياق » إلـى أن يقـول : « إنَّ المازني يمتاز عن صنويه بميزتين أيضاً ، يرجع الفضل فيهما إلى روح العصر الحاضر ، وهما خلوّ أسلوبه من الحشو المملّ ـ وقـد سمَّينـا المترادفات حشواً لاعتقادنا أنَّها جديرة بهـذا الإسـم ، مهمـا انتحـل المنتصرون لها من الأعذار ـ وجدَّة موضوعاته ، وملائمتها لما وصل إليه التَّقدُّم العقليُّ في هذا العصر . وللأستاذ المازني مزايا كثيرة ذات قيمة لم نذكرها ، لوجود من يشاركه فيها مشاركةً ناقصـةً أو تامَّـةً من المعاصرين » .

وللمازني من المؤلَّفات في النَّثر : « الدِّيوان » في النَّقد ، بمعاونة عبَّـاس محمـود العقَّـاد ، و « حصـاد الهشيم » مجمـوع فصـول ، و«ابراهيم الكاتب» قصَّة في جزئين . و « قبض الرِّيح » ، و « صندوق

الدُّنيا » مجموعاً فصول ، و « رحلة الحجاز » ، و « بشَّار بن برد » ، و « ميدو وشركاه » قصَّة ، و « ثلاثة رجال وامرأة » قصَّة ، و « غريزة المرأة » ، و « عَ الماشي » ، و « شعر حافظ » في نقد شعره . وترجم عن الإنكليزيَّة « مختارات من القصص الانكليزيِّ » ، و « الكتاب الأبيض الانكليزي » .

بين القراءَة والكتابة (*)

مضت شهور لم أكتب فيها كلمة في الأدب ، لأني كنت أقرأ ! والقراءة والكتابة عندي نقيضان ، وقد كنت ـ وما زلت ـ أمرءاً يتعذر عليه ، ولا يتأتى له ، أن يجمع بينهما في فترة واحدة . ولكم أطلت الفكرة في ذلك فلم يفتح الله علي بتعليل يستريح إليه العقل ويأنس له القلب . وما أظن بي إلا أن الله ، جلت قدرته ، « قد خلقني على طراز . عربات الرش » ! التي تتخذها مصلحة التنظيم ـ خزان ضخم يمتلىء ليفرغ ، ويفرغ ليمتلىء ! وكذلك أنا فيما أرى : أحس الفراغ في رأسي ، وما أكثر ما أحس ذلك ! فأسرع إلى الكتب ألتهم ما فيها وأحشو بها دماغي هذا الذي خلقه الله لي خلقة عربات الرش كما قلت حتى إذا شعرت بالكظة ، وضايقني الامتلاء ، رفعت يدي عن ألوان هذا الغذاء وقمت عنه متثاقلا متثائباً مشفقاً من التخمة ، فلا ينجيني إلا أن أفتح الثقوب وأسح !؟ وهكذا دواليك !

ولكم قلت لنفسي : أهذا الذي ركبه الله لك يا مازني بين كتفيك رأس كرؤوس الناس أم معدة أخرى ؟؟ وأداة نظر وإدراك وتفكير هو أم مخزن يكتظ حيناً ويخلو أحياناً تبعاً لانتقال الأحوال بك ؟ والحق أقول أن الجواب يعييني ! وإذا لم اكن قد ركبتُ من الوهم شر الحمير ! فان

(*) من كتابه « قبض الريح » (ص 5 -13) . [المحقِّق] .

الناس في الأكثر والأعم إنما يعالجون الكتابة لأن في رؤوسهم فكرة أو خالجةً ، كائنة ما كانت ، يبغون العبارة عنها والافضاء بها ، ولست أراني كذلك ، ولقد يخيل إليّ في بعض الأحايين أن في نفسي معنى معيناً ، ويؤكد ذلك عندي ويقرر اعتقاديه ، ما أحسه من جيشان الصدر واضطرابه ، فأذهب التمس هذا المعنى أو الخاطر فاذا به قد تبخر ! وإذا بي كابني حين يجلس إلى جانبي ويحاول أن يقبض على الدخان الذي يتصاعد من سيجارتي ، وأنا أضحك من هذا الذي يحاوله ، وألهو به وأقول انه يجرب في عالم المحسوسات بعض ما أعانيه في عالم المعنويات ! وكثيراً ما يدفعني الى الكتابة احساس غامض إلا أنه من القوة بحيث لا يسعني مغالبته فأتناول القلم ، وأنا كالمسحور ، وكأن القلم هو الذي يثب الى يدي ، كما ينجذب الحديد إلى المغناطيس ، وأسرع في الكتابة وأمضي فيها إلى غايتها المقدورة ، شأني في ذلك شأن الذي يسير وهو نائم ! ينهض من فراشه ويخطو ، ويذهب هنا وههنا ، ويتكلم أو يباشر بعض الأعمال ، ولكن وعيه ليس تاماً ، وإرادته لا دخل لها في شيء مما يصدر عنه .

واحياناً أفعل هذا : أسأل نفسي « أفي رأسك شيء ؟ » وأعني بالشيء ما له قيمة ، لا أي شيء على الاطلاق ، فتساورني الشكوك فأنقر بأصبعي على جوانب رأسي كمن يريد أن يتبين من الرنين مبلغ الخلو ! وربما أسفت لأني لا أستطيع أن أتناول رأسي هذا وأن أقلبه بين كفّي وأن أفعل به ما يفعل المرء حين يختبر البطيخ ! ثم أقول لا

عشرين سنة أو نحو ذلك ـ أذهب في أول كل شهر الى واحد من باعتها فيتقدم اليّ العامل سائلاً عن حاجتي فأبينها له فيرفع رأسه الى الرفوف ويدور حول نفسه وهو في مكانه ثم يلتفت إليّ وعلى شفتيه ـ دون عينيه ـ ابتسامة جهل وغباء ، ويهز لي رأسه آسفاً . فأنحيّه عن الطريق وأمضي الى الرفوف وأجيل عيني فيها وآخذ منها ما يروقني وأنصرف عن الحانوت بأثقل من حمل حمار ! وأغرق فيها بقية الشهر الى ما فوق الأذنين ان كان فوقهما شيء يستحق الذكر ! وكنت لا أتخطى عتبة البيت إلا متأبطاً كتاباً ، ولا تمضي علي ليلة إلا طالعت في بعضها قليلا أو كثيراً ، وكانت الكتب أنيسي في وحدتي وسميري في خلوتي ، وكنت أستغني بها عن متع الحياة ولذات العيش وأقول انها « تدخل في متناول الحس ، العواطف والمدركات وكلَّ ماله وجود في العقل » وانها توقظ الحواس الخامدة والمشاعر الراكدة وتملأ القلب وتشعر النفس كل ما تستطيع الطبيعةُ البشرية احتماله وكلَّ ما له قدرة على تحريكها وابتعاثها ، وتدرب المرء على الاستمتاع بتدبر عظمة الجلال والابد والحق ، وانها تمثل ذلك للاحساس وتحضره للذهن وتكشف لنا عن وجوه الألم والحزن والخطأ والاثم ، وانها تعين القلب على تعرف الهول والفزع والسرور واللذة وتخفق بالوهم على جناح الخيال وتفتنه بسحر عواطفه وخواطره ، وانها تسد النقص في تجاريب المرء وتثير فيه تلك العواطف التي تجعل حوادث الحياة أشد تحريكاً لها وتجعله أشد استعداداً لقبول المؤثرات على اختلاف أنواعها ودرجاتها ، لأنه ليس بالانسان حاجة الى التجريب الشخصي لتتحرك فيه هذه العواطف بل حسبه « ظاهرُ » التجريب الذي تهيؤه له الكتب

بأس ! القلم حاضر والورق تحت عيني فلأقم حد هذا على صفحة ذاك ، ولأفتح ثقب هذه « الحنفية » ثم فلأنظر ماذا يقطر منها أو يسيل . أوَ لا يدير أحدنا صمام « الحنفية » أحياناً ليرى أفيها أم ليس فيها ماء ؟؟ نعم ! وكذلك أمتحن نفسي من حين إلى حين كلما شككت وكبر في ظني أن رأسي قد أصبح فارغاً ! ولا أفعل هذا ، حين أفعله ، إلا على سبيل الاختبار وطلباً للاطمئنان لا رغبة في الكتابة ولا عن قصد إليها . حتى إذا وجدت القلم يجري وألفيت مراعفه تقطر ، قلت الحمد لله ! وأقصرت !

وقد أبدأ المقال معتمداً شيئاً بعينه فيجري القلم بخلافه ! وشبيه بهذا أن تريد السفر الى الاسكندرية فتحملك رجلاك إلى قطار يذهب بك السويس ، وأحسب ذلك إنما يكون كذلك لأن الكلام يفتح بعضه بعضاً وقد يفتنك وأنت تكتب ، معنى يعنّ لك فيلهيك عما كنت فيه ويدفعك من طريقه الى غير ما قصدت إليه . وقد تأخذ في كلام تحسبه هيناً فتتكاءدك الوعور وتتعاظمك العقبات فتميل عنه الى ما هو ألين . ومن هنا كان آخر ما أكتبه هو العنوان ! وكثيراً ما استخير الله في الكتابة علَى نية معقودة ثم أعدل في بعض الطريق عنها وأتحول الى سواها ويجيء الكلام متناولاً طرفاً من هذا وأطرافاً من ذاك ويعجزني أن أختزل مضمونه في عنوان فأدع المقال بلا رأس وأقدمه هكذا الى الأستاذ أمين بك الرافعي فيضع هو ـ جزاه الله عني خيراً ـ ما يوافقه من العناوين !

وأمري مع الكتب أغرب . كنت في أول عهدي بها ـ أي منذ

وانما تستطيع الكتب أن تقوم مقام التجربة الشخصية الواقعة بما تمثل للمرء لأن كل حقيقة واقعة يجب أن تمثل في الرأي قبل أن يتعرفها الذهن أو تؤثر فيها الارادة ، ومن أجل ذلك كان سواءاً على المرء أن تؤثر فيه الحقيقة الواقعة بالذات أو يأتي التأثير من طريق آخر كالصور والرموز التي تمثل هذه الحقيقة ، فان في طاقة الانسان أن يصور لنفسه ما ليس له وجود حتى يعود وكأن له جسماً يحس ويلمس ، فسيان عند الانسان أن يؤثر فيه الشيء أو مثاله ، لأنه يحرك فيه عوامل الفرح والحزن مثلا على كل حال ، وسواء أكان الشيء حاضراً أم ماثلاً في الخيال بصورته ، فان الانسان لا يسعه إلا أن يحس حركات الغضب والبغض والرحمة والقلق والفزع والحب والاجلال والعجب والشهرة . فكأن هذه الرموز هي اللسان المترجم ـ كما يقول هوريس ـ عن الحقائق .

كنت أقول مثل ذلك وأصدقه ، وكان مثلي كمثل أشعب الذي حكوا ان صِبية التفوا به وأثقلوا عليه فأراد أن يصرفهم عنه فقال لهم ان في مكان كذا وليمة فاذهبوا اليها وأصيبوا منها ، فلما مضوا عنه بدا له الأمر كأنه صحيح فذهب يعدو في أثرهم . وكما أن أشعب عاد بالخيبة والحسرة والسخر من نفسه كذلك انقلبت عن الكتب ، فلا أنا أفدت شيئاً سوى قمع الشباب واضاعة فرصته واراقة مائه في تلك الصحراء العارية ، ولا أنا فهمت الحياة كما ينبغي أن تُفهم أو سددت نقصاً في تجاربي أو استطعت أن استغني « بظاهر » هذا التجريب عن التجريب الشخصي ، وشر من ذلك أني اطلعت من هذه الكتب على صورة أو صور للحياة ، ليس اكذب منها ولا أبعد ! ولا نكران انها أيقظت نفسي

وفتحت عيني ونبهت حواسي وابتعثت مشاعري وجعلتني أشد تأثراً بالحياة وتحركاً لها واستعداداً لتلقي مؤثراتها ولكن أليس معنى ذلك انها جعلتني أتعس وأشقى مما كنت اكون لو ظللت أرتع في بحبوبة الجهل والغفلة والبلادة ولم أفز بهذه النعمة التي لم أعد بها غنياً ؟ ماذا يكون لو أخذنا كنوز هذه العقول ورمينا بها من حالق للرياح والمدر ، كما أقول من قصيدة صنعتها بعد ان فطنت الى ما أضعت من عمري ؟

كم غصت في لجة الحياة فما ... فزت بغير الصخور والحجر !
وكم نفضت اليدين من حجر ... حسبته درة من الدرر !
فخل كأس العفاء تسلبني ... كنزي وتسحو سلاسل الخبر
ما ضرني لو جهلت ما علمت ... نفسي وما قد أفادني نظرى ؟
أو لو نسيت الذي شعرت به ... في كبري الآن او لدن صغري ؟
أو لو سلوت الذي كلفت به ... على الذي كان فيه من سُكُرِ ؟
أو لو فقدت الذي فرحت به ... وما وجدنا في حدة الظفر ؟
أثمّ صوتٌ تعيد نبرتهُ ... إليّ ذكرَ الربيع والزهر ؟
أثمّ عينٌ تثير نظرتُها ... أحلامَ نفسي في ريّق البكر
وتنشر اللذةَ المضيئةَ لى ... حلماً من العيش جد مبتكر ؟
نعم لعمري في الارض زينتها ... من مسمع فاتن ومن نظر
وروضة العيش جد حالية ... من زهر مونق ومن ثمر
كأنها لافترار بهجتها ... تُحير نطقاً لمدمن البصر
واهاً لقمريّها اذا اتسقت ... أسجاعُه واستراح للسَّحر !
واهاً لسحر في لحظ نرجسها ... يسطو بوقع السجوّ والفتر !
واهاً لأيكاتها إذا همس النـ ... سيم في أذنها مع القمر !

لكن أغصانهــن يا أسفا بعيدة من منــال مهتصر

آصبت في العزم، لا الشعور، فان أدرتُ لحظي في الشيء، لم يدر

وان مددتَ اليدين خانهما عزمُ الشباب الجريء ذي الاشر

يذعرنــي الشــيء كان يجذبني لشــد ما أســتجير بالحذر!

أحمــل عبئــاً من الســنين فما عسى وراء الغايات منكدري؟

ولــي من الــذكريات حاشيةٌ في حيث أمضي، محشودة الزُّمر

فهاتهــا أذعــر الشجــون بها حتــى أراهــا تطير كالشرر

لمْ لا أبــتُّ الــذي يقيدني بما مضى وانقضى من العصر؟

اني أرانــي قد حلــت وانتسخت مع الصبــى سورةٌ من السور

وصــرت غيري فليس يعرفني - اذا رآنــي - صبــاي ذو الطرر

ولــو بدا لي لبــت أنكره كأننــي لم أكنــه في عمري

كأننــا اثنــان ليس يجمعنا في العيش إلا تشبــثُ الذكر

مات الفتــى المازنــيُّ ثم أتى من مازن غيرهُ علــى الأثر

وما أحسبني بالغت، فقد مات «الفتى» المازني حقاً ولم يبق منه شيء!. واني لأمر الآن بالمكاتب فأشيح بوجهي عنها وأغمض عيني دونها، ويردني الكتاب بكرهي فأتركه حيث يقع وأهمله الاسابيع والشهور، واذا فتحته اكتفيت بأن أعبره تزجية للوقت، ولم أبال من أي موضع بدأت، وسيان عندي أن أقرأه من أوله الى آخره، أو من آخره الى أوله أو أن لا أقراه، وقد تعاودني الحمى القديمةُ ويتأوبني الحنين الماضي الى الكتب فأدافع نفسي عنها ما استطعت، فان عجزت وغلبت على أمري طاوعتها على حذر وسايرتها متحفزاً وذهبت

أتخير لها الكتب وأنتقيها ، ومهما يكن من الأمر فلست الآن ذلك الذي كان كأنما يعبد منها دُمى وأصناماً ، ولقد اغتنمت أول فرصة سنحت فبعتها جملة وتحريت بعد ذلك أن أزداد جهلاً !

ولكن الزامر يموت وأصابعه تلعب ! كما يقول المثل العامي ، وللعادة حكم لا يقوى المرء في كل حين على مغالبته ، والنفس لا تطاوع المرء دائماً على ما يريدها عليه من الخمود والتبلد ، وقد يزعج المرء أن يرى نفسه يقضي أيامه بطين الجسد وحده ، أو يموتها على الأصح ، فان من الموت أن يستحيل الانسان جثة خامدة المنقد لا ينقصها إلا الرمس ، وما لا يصلح سلوى ومتعة قد يصلح دواءاً ، وعسير على من تعود أن يحس الحياة بأعصابه العارية أن يروض نفسه على التبلد ويخلد الى الركود ، فلا عجب اذا كنت أقبل على المطالعة حيناً بعد حين .

* * *

ولقد قرأت في هذه الفترة الطويلة طائفة صالحة وأخرى غير صالحة من الكتب بعضها في الأدب والفلسفة ، على بغضي لها واستثقالي ظلها وعجزي عن فهمها ، وبعضها يزعمه واضعوه أدباً وفلسفة وهو ليس من ذلك لا في كثير ولا في قليل . واحسب القراء لا يعنيهم إلا ما أخرجته لهم المطابع المصرية . وهذا هو الذي سنقصر مقالاتنا عليه ونحاول أن نعقد له فصولاً نستطرد فيها ومنها إلى ابواب من البحث متصلة بموضوعاته وسنبدأ « بحديث الاربعاء » الذي وضعه صديقنا الدكتور طه حسين ولسنا ندري بأي كتاب آخر يمكن أن نثني

فان كتاب الدكتور يضطرنا الى النظر في امور عديدة ، والخلاف بيننا وبينه طويل يتناول أصول المسائل ، ولنا فيمن كسر كتابه عليهم من مثل ابي نواس وبشار وغيرهما ، وفي العصر العباسي كله ، رأي يناقض رأيه ونظرة تختلف عن نظرته ، وحسبك دليلاً على بعد ما بين الرأيين واتساع الهوة بينهما قوله عن أبي نواس « أما ابو نواس فأمره غير هذا كله ، لم يكن عذرياً وما كان يستطيع ان يكون عذرياً ، وهو الرجل الذي شك في كل شيء ولم يؤمن إلا بالمجون واللذة يلتمسهما حيث يجدهما لا يتقيد في ذلك بحرج أو جناح ، ولم يكن عذرياً ولم يكن يتكلف أن يكون عذرياً وانما كان يسخر من العرب ومما كان العرب يتكلفون . لم يكن يتكلف العذرية وانما كان يهتم باللذة وبلذة غير التي كان يهيم بها عمر ابن ابي ربيعة . . الى ان يقول « . . ان ابا نواس يكرهك حين تقرأ غزله بالغلمان على ان تعجب بهذا الغزل رغم ما فيه من منافرة للطبع والخلق والدين الخ » .

أما نحن فقد قلنا في المقدمة التي وضعناها للجزء الثاني من ديواننا « فلا جرم كان الشاعر أحسّ الناس وأعمقهم حكمة وأصحهم ادراكاً لخلال الخير وخصال الفضل ـ نقول الفضيلة والخير ولا نخشى أن يهز القراء رؤوسهم انكاراً فان الشعر أساسه صحة الادراك الاخلاقي والادبي ، ولست بواجد شعراً الا وفي مطاويه ادراك اخلاقي ادبي صحيح ، وعلى قدر نصيب الشاعر من صحة هذا الادراك الادبي تكون قيمة شعره . ولا يتعجل القارىء فيحسب انا نقصد الى اظهار الاحساس الديني في الشعر فليس كلامنا على مادة الشعر بل على مصادره ، وينابيعه ، ولا ينبغي كذلك ان يستخلص أن الشاعر يجب

أن يكون صاحب مبدأ عملي لا يتحول عنه ، فقد كان بيرنز الشاعر الانجليزي وأبو نواس وامرؤ القيس متقلبي وجوه الحياة ومظاهرها ولكن نصيبهم مع ذلك من صحة الادراك الاخلاقي والأدبي عظيم ، ولئن كان لهم معايب نؤاخذهم بها فقد أحالها الزمن هباء لا قيمة له ولا وزن ، وأنت خليق ان تنظر الى ما وراء ذلك . فإن أبا نواس اصح مبادىء وانقى ضميراً من البحتري على كثرة ما تقرؤه للأول مما يروع ويخجل ، وكذلك امرؤ القيس افطن معاني الفضيلة واعظم رجولة من أبي تمام وابن المعتز ، ولم يكن الأعشى على حبه الخمر واستهتاره بها وتخلعه فيها بالرجل الناصب الفضيلة الخ » الى آخر ما قلنا يومئذ وكان ذلك في يناير سنة 1917 ولقد غبرت أعوام ثمانية فلم تزدنا الا اقتناعاً بهذا الرأي الذي اشرنا اليه في ذلك الوقت اشارة من لا يحس ان المسألة تحتاج الى افاضة .

ولقد سقنا لك هاتين العبارتين من كلام الدكتور وكلامنا لتعرف مدى الخلاف بين الرأيين ولتدرك ما في المسألة من دقة وتعويص ، لا يسع المرء حيالهما إلا أن يسأل الله السلامة .

الأساليب والتقليد(*)

بسم الله ابتديء وعليه أتوكل ! فما بقيت مندوحة عن تقلد السلاح وملاقاة دكتورنا في الحلبة التي اختارها لنفسه وآثرها على سواها . وعزيز عليَّ أن أنازله وأقارعه ، فإني أنطوي له - أو صرت على الأصح أنطوي له - على الحب والاحترام . وليتني ما عرفته ولا خالطته ! اذن لبقيت يدي حرة ترتفع حين تشاء وتهوي بكل قوتها على رأس كتابه فتهشمه ، أولا تضيره وتوهي عظامها ، على قدر ما فيه من مناعة وقدرة على المقاومة ، دون أن أجعل بالي الى صاحب الكتاب أو يبرز لي وجهه من كل صفحة فيه كأنما ظهر كتابه في الدنيا بفعل الهواء وبتأثير الجو كما ينبت العشب من تلقاء نفسه على الصخور ، أما الآن فوا أسفاه ! ألف الدكتور كتاباً ودفعه الى الناس وقال لهم في تواضع كله كبر : هذا ما رضيت لكم ! وما هو بسفر أو كتاب « كما أتصور السفر والكتاب » وإنما هي مباحث متفرقة « لست تجد فيها هذه الفكرة القوية الواضحة المتحدة التي يعبر عنها المؤلفون حين يؤلفون كتبهم ، وبالغ في هذا الضرب من التواضع المقلوب ، فأعلن إلى الناس انه لم يعن بهذه المباحث « العناية التي تليق بكتاب يعده صاحبه ليكون كتاباً حقاً » وانه يعلم « انه شديد النقص محتاج الى استئناف العناية والنظر » كأنما أراد أن يقول : لستم أهلاً للعناية وان في وسعي أن اؤلف خيراً

(*) من كتابه « قبض الريح » (ص 35-43) . [المحقِّق] .

من هذا الكتاب ولكن لمن ؟ ألقراء الصحف السيارة وهم - فلا تنس ! - جمهور القراء في مصر ؟ كلا يا سيدي : « لم يكن بد من أن يتجنب (الدكتور) التعمق في البحث والالحاح في التحقيق العلمي إذ كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا » ! ولكم وددت انا - أنا المازني حين قرأت هذه المقدمة التي صدر بها الدكتور كتابه ، وقبل أن يصل حائك الأقدار ما بين أسبابي وأسبابه ، ان أعلمه احترام القراء ! ولكني خالطته فأحببته مع الأسف ! واني لأتمرد أحياناً على هذه العلاقة التي توثقت عراها بيننا ، ويتقمصني عفريت النقد الذي لا يحابي الأصدقاء ولا يجامل الاوداء ، فارفع بالفأس كلتا يدي وأشب عن الأرض ، وأهم بالضربة تفلق اليافوخ ، فيطالعني وجهه الساكن وجبينه المشرق ، وهو جالس أليَّ يحادثني ويقاسمني ما أعانيه من المضض ويحمل عني شر شطريه ، فتهي قبضتي وتفلت الفأس ، وتهوي ذراعاي الى جانبي وتتملكني عاطفة فنية تجعلني أقول « خسارة ! نعم من الخسارة ان احطم هذا الرأس ! فإن في الجبين لالتماعاً وفي العظام قوة ، وفي التركيب - متانة وأولى بذلك كله ريشة المصور لا فأس التحطيم ومعول الهدم ! وليتني كنت مصوراً ! إذن لأنطقت هذا الوجه بما عجز عنه قلم صاحبه ! » وهكذا كلما نويت للدكتور نقداً أراني أمسح له جبينه وألاطفه وأربته ! واني لأنقم من نفسي هذا ولكن ما حيلتي ؟ لست أرى لي خياراً : هذه هي الأسلحة ملقاة أمامي . تتخطى يدي من بينها كل درع مسرّدة تتكسر عليها النصال ولا تنتقي إلا درعاً من الكتان لا تقي ولا تغني ! وتدع المعاول والفؤوس والقواضب والسوط وتتناول ما هو بخيط الحرير أشبه . لا

بأس ! ولنبرز له عزلاً من كل سلاح !

وما أظن بالقارىء الا أنه يقول وهو يتلو هذه السطور . وهل أنت أشد احتراماً لقرائك من الدكتور ؟ ألم تصدّر « حصاد هشيمك » بكلمة قال كل من قرأها انها زراية على القراء وتضاحك بهم ؟ وجوابي كلا بالخط الثلث ! وبراءة الى الله من هذا الوهم الذي ركب بعض الناس ! وهل من الزراية والتهكم أن أقول ان هذا أقصى ما وسعه جهدي فإن رضي عنه القراء فبها ولله الحمد والا فماذا لا يصلح كتاباً قد يصلح وقوداً ؟ وفرق ولا شك بين أن أصارح القراء بأن هذا كل ما في الطوق وبين ان ازعمني قادراً على خير منه فأنا كما ترى أصدق تواضعاً من الدكتور : هو يستخف بقرائه ولا يراهم أهلاً لأن يتكلف من أجلهم « التعمق في البحث والالحاح في التحقيق العلمي » وينشر لهم كتاباً « شديد النقص محتاجاً الى استئناف العناية والنظر » وأنا على خلافه أقدر في هؤلاء القراء الذكاء والفطنة فأسبقهم الى الحكم على كتابي على حد قول القائل بيدي لا بيد عمر !

* * *

ولم يكذب الدكتور حين قال في هذه المقدمة « ولقد يكون من الحق علي لنفسي وللأدب ولقراء هذه الفصول أن اعترف بأني ما كتبت منه (كذا) فصلاً الا وأنا اعلم انه شديد النقص « محتاج » الى استئناف العناية به والنظر فيه » والدكتور رجل صادق صريح وقد اعترف فوق ذلك بأن الأيام كانت تحول دائماً بينه وبين ما كان يريد « من تجديد العناية واستئناف النظر » وقد احسنت الأيام بما حالت دون مرامه ، ولو

انها اتاحت له ان ينقح ما يكتب ويتعقبه بالاصلاح ، لما تركت لنا معاشر النقاد من عمل نبيض به وجوهنا ونسوغ به طول السنتنا . فهل يسمح لنا صديقنا أن ننوب نحن عنه في تجديد العناية واستئناف النظر ؟؟ ويسوءنا اننا لا نحب ان نحاكي اسلوبه ونضرب على قالبه في ارسال الكلام . وليس ذلك لأن اسلوبه الكتابي شاق يتعذر تقليده ، بل لأن لنا اسلوبنا الخاص ومن فضل الله علينا ان ليس لنا فيه مقلدون !

ولقد سمعت الدكتور مرة يقول ، وقد عرض ذكر اسلوبه ، ما معناه انه لا يطمع من الشهرة في أكثر مما وفق اليه من كثرة المقلدين الذين يقتاسون به ويحتذون مثاله في طريقة الآداء وفي تأليف الكلام ، وعندي أن الأساليب التي يسهل محاكاتها هي أخلى الأساليب من المياسم الشخصية والميزات الخاصة التي يختلف بها كاتبٌ عن كاتب ، أو بعبارة أخرى هي التي لا تنطبع عليها صورة بارزة مؤكدة من شخصية اصحابها . وتقريباً لذلك من اذهان القراء نقول لهم ان المتنبي مثلاً ينطق شعره باسمه وينسب نفسه له ، دون ان يحتاج القارىء او السامع ـ اذا كان قد حصّل شيئاً من الأدب ـ الى النص على ان هذا البيت او الأبيات للمتنبي . وما من مطلع على الآداب الغربية يعييه أن يفطن إلى أسلوب كارليل الانجليزي مثلاً ولو سيق غفلاً من كل نسبة . والآن فلنسأل : من الذي استطاع أن يقلد المتنبي أو كارليل ؟ اجمع أدباء الدنيا وشعراءها قاطبة وكلفهم أن ينظموا لك قصيدة على غرار المتنبي او يكتبوا فصلاً عن مثال كارليل يعجزوا جميعاً ويبوءوا بالفشل! ذلك لأن الأسلوب صورة من النفس ، ولكل ذهنٍ التفاتاتُه الخاصة وطريقته في تناول المسائل وعرضها ، وكلما كانت هذه

الخصوصيات اوكد واعمق ، كانت المحاكاة أشق والاخفاق فيها أقرب ، فهي لا تسهل الا حيث يكون الأسلوب خالياً من الخصائص التي ترجع في مرد أمرها الى النفس وما رُكبت عليه وانفردت به . واليك مثالاً من عالم الموسيقى : ونعني به هذه الأغاني الشائعة على الألسن والتي يسمونها «الطقاطيق» : يوقعها الرجال والنساء والغلمان والأطفال على السواء توقيعاً مضبوطاً ، ولا يكادون يتفاوتون الا من حيث حلاوة الصوت وصلاحه للغناء . ومعلوم ان الذين وضعوا هذه الالحان وصنعوا فيها هذه الأصوات ، هم من رجال الفن ، ولكن الناس يصنعون أصواتاً مثلها في كلام غير كلامها ، أي يقلدونها ولا يجدون في ذلك عسراً . أما الأدوار الكبرى والقطع التي هي ادخل في باب الفن من الطقاطيق ، والتي يشتهر بها واضعوها ولا تُذكر في الأغلب والأعم ، الا مقرونة ـ على الأقل في الذهن ـ بأسماء اصحابها ، نقول اما هذه فما أقل مقلديها بل حفاظها ، وانت قد تستطيع أن تصنع بركة او بحيرة تشرع فيها على الزوارق ، وتأتي اليها بشتى الأسماك ، وتجعل لحوافيها صخوراً ، وتنثر على سيفها الحصى ، وتفرش الأرض على مستدارها بالرمال ، ولكن ايدخل في مقدورك أن تحفر لنفسك فيما شئت من أرض الله الفضاء بحراً أعظم طامي الموج ، متدافع الأواذي ، مختلف التيارات ، يتعاقب عليه المد والجزر بتأثير القمر الذي في السماء ؟؟

فليس من دواعي الفخر ان يكثر مقلدوك وأن يكونوا موفَّقين في الحكاية . ولعمري ماذا يبقى من المرء اذا كان يكتب على أسلوب اذا رأيت تقليده حسبته الأصل ؟ ألا يكون الانسان في هذه الحالة عبارة

عن صورة طبق الأصل من سواه ؟ ومعنى ذلك انه يكون انساناً عادياً من الأوساط ، أمثاله كثيرون ، إذ كان لا ينفرد بشيء يرتفع به عن مستواهم .

ومن حسن حظ الدكتور ان له مقلدين ولكنهم لا يوفقون كل التوفيق فيما يعالجون من احتذائه ، لأن اسلوبه ليس خالياً من الخصائص وان تكن من اللطف والدقة بحيث تخفى على مقلديه . وأعرف اناساً يخلطون بين كلامه وكلام سواه غير أن هذا مرجعه الى ضعف التمييز وعدم التفطن الى الخصائص الدقيقة التي لا تأخذها العين أول ما تأخذ .

* * *

لا أعرف ، ولا أستطيع أن أفهم ، مسألة اسمها « مسألة القدماء والمحدثين » ولكن الدكتور الذي أثار نقعها بلا مسوغ يبديء فيها ويعيد ، ويشغل بها من كتابه حيزاً كبيراً فلنسمعه يتكلم : قال « لم يخل عصر أدبي في حياة الأمم التي كان لها نصيب من الأدب وحظ في اتقان القول واجادته من هذه المسألة ، مسألة القدماء والمحدثين . ولم تظهر هذه المسألة في عصر من العصور أو عند أمة من الأمم إلا أحدثت خلافاً عظيماً وجدالاً عنيفاً وقسمت الأدباء على اختلاف فنونهم الأدبية أقساماً ثلاثة : قسم يؤيد القدماء تأييداً لا احتياط فيه وقسم يظاهر المحدثين مظاهرة لا تعرف اللين وقسم يتوسط اولئك وهؤلاء ويحاول ان يحفظ الصلة بين قديم السنة الأدبية وحديثها وأن يستفد من خلاصة ما ترك القدماء ويضيف اليها ما ابتكرت عقول

المحدثين من ثمرات انتجها الرقي وأثمرها تغير الأحوال وتبدل الظروف » .

وهو كما ترى - أو فيما أرى أنا - كلام يحتاج الى ايضاح فلنستزد الدكتور سطوراً أخرى :

« وفي الحق أن الاختلاف بين القديم والمحدث ليس مقصوراً على الأدب وحده . . . لأن الحياة الانسانية تقوم على أصلين لا ثالث لهما ولا محيد عنهما ، هما البقاء من ناحية ، والاستحالة من ناحية أخرى . فنحن بحكم البقاء وحاجتنا اليه مضطرون الى أن نصل بين أمس واليوم والغد ، مضطرون الى أن نصل بين القديم والجديد ، مضطرون الى أن نشعر بأن حياتنا الآن هي ، ان لم تكن نفس حياتنا قبل الآن ، فهي أثر قوي من آثارها ونتيجة لازمة من نتائجها . ونحن بحكم الاستحالة والتطور مكرهون على أن نشعر بأن يومنا يغاير أمسنا وبأن حياتنا الآن ، ان اشبهت حياتنا امس من وجه أو وجهين ، فهي تغايرها من وجوه .

« واذن ، فنحن بين الشعور بالبقاء ، والحاجة اليه ، وبين الشعور بالتطور ، والحاجة اليه ، مترددون في ميولنا واهوائنا وآرائنا فمنا من يؤثر هذا الشعور بالبقاء فيغلبه على كل شيء في نفسه حتى تصبح غايته الحقيقية ألاّ يكون الا ابن أمسه ، والا حلقة من حلقات هذه السلسلة المتصلة التي لا نعرف لها أولاً ولا آخراً ، وهي سلسلة الحياة . ومنا من يؤثر هذا الشعور بالتطور والاستحالة ، فيكلف بالجديد ويرغب فيه ، ويندفع في هذه الرغبة وذلك الكلف ، فلا يفكر الا في شيء واحد ، هو ان يعدو ، وأن يعدو ما استطاع ، الى الامام ، دون أن يقف فيفكر في

حاضره ، أو أن يلتفت فينظر الى ماضيه . ويشتد الخلاف ويعظم بين هذين الطرفين المتناقضين ، بين أنصار القديم المسرفين في نصره ، وأشياع الجديد الغلاة في التشيع له يشتد هذا الخلاف ويعظم حتى يشعر به أوساط الناس وجماعاتهم المختلفة التي تخضع للحياة وتحياها هادئة وادعة غير شاعرة بتطور ولا ببقاء ، وانما هي محققة لهذين الأصلين تحقيقاً طبيعياً ، غير متكلف ولا منتحل . تشعر هذه الجماعات الوسطى بما بين هذين الطرفين المتناقضين من جدال عنيف وخلاف عظيم فتتوسط بينهما ويظهر منها هذا القسم الثالث الذي هو خلاصة الأمة والذي هو المحقق الوحيد لاعتدال الطبع وصفاء المزاج ، والذي هو المحقق الوحيد، للصلة الصحيحة المنتجة بين القديم وبين الحديث » اهـ .

والآن أفهمت ؟ كلا ؟؟ ولا أنا ! وأحسب الدكتور أراد أن يتفلسف فأخذ بأيدينا الى اعماق مجهولة من الهواء الراكد فيما وراء المادة ولم يزد على أن اذكرنا تلك السراديب الرومانية التي تذهب في كل اتجاه والتي احتفرتها أيدي الناس بحثاً عما لا ندري ! وخير لنا أن ندع الدكتور وشأنه في هذه السراديب ولنرفض أن نتحدر وراءه الى هذا الظلام الدامس الذي أفاضه على موضوعه ولنبق حيث نحن تحت سماء الله المجلوة وبين مظاهر الحياة والطبيعة ، وليهنه « البقاء والاستحالة » نسأل الله له السلامة !

المسألة أبسط من ذلك : أدب خلفه لنا الآباء يحسبه بعضُ المعاصرين المثلَ الأعلى ، وقد يكون كذلك ، أو لا يكون ، ويتوهمون انهم يستطيعون بالمحاكاة أن يبلغوا مبلغهم ، وانهم اذا استعاروا أجنحة

النسور حلقوا مثلها في سماء الحياة وان في وسعهم أن يوفقوا بين روح العصر الحاضر وأساليب التفكير والحياة القديمة . وهناك قوم آخرون مثلي ومثل الدكتور لا يعنّون أنفسهم بهذا التوفيق ولا يتحرون الا شيئاً واحداً هو الابانة عما في نفوسهم . وهؤلاء فريقان : فريق يُعنى بأن يدرس براعات الأدب القديم وفريق لا يكترث لذلك . فالأمر كما ترى لا يحتاج الى كل هذه الفلسفة التي حصب الدكتور بها وجوهنا في فاتحة كتابه .

وأريد أن أخطو خطوة أخرى لأقول ان مقلدي القدماء لا يقلدونهم ولا ينسجون إلا على منوال نفوسهم . وان امكان النجاح في هذه المحاكاة مستحيل ، وانهم حين يكتبون لا يحتذون مثالاً قديماً ، وانهم واهمون إذ يظنون انهم يطبعون على غرار السلف . وان السبب بسيط جداً وهو أن نجاح التقليد يستلزم أن يتكلف المرءُ أساليبَ تفكير عفى عليها الزمن ، وأن ينظر الى الحياة من وجهة غيرّها كرّ الأيام ، وان يتخيل جواً لا عهد له به ، وبيئة ووراثة انقطع فعلهما في هذه الأيام . ولو أن رجلاً من رجال العصر استطاع أن يتجرد من زمنه الحاضر وأن يكر الى الماضي ويجيء بكلام لا يختلف في شيء عن كلام رجل من كتاب العرب أو شعرائهم ، لكان في نظري أعظم من ذلك العربي ، وحسبك أن تقدر جهد الخيال الذي يتطلبه أن يرجع المرء بنفسه قروناً !

وخطوة أخرى أخطوها : ذلك اني أنكر انكاراً باتاً أن فوق ظهر الكرة الأرضية في هذا العصر رجلاً يكتب كالعرب . وهذا صادق افندي الرافعي زعيم من نسميهم المقلدين وأنصار الأدب القديم : أي عربي

كتب أو يمكن أن يكون قد كتب مثله ؟ وليس المقام مقام مفاضلة وانما هو مقام محاجة . وهذه جملة مستقلة من كلامه فيما سماه من كتبه « السحاب الأحمر » لم أتخيرها ولكن وقعت عيني عليها اتفاقاً ، ويجدر بي قبل أن أنقلها أن أعلن اني لم أفهمها ! وهي قوله « قد يتغير الرجل في نظر امرأته حتى تقول له : يا أنت الأول ويا أنت الثاني ، ولكني عرفت رجلاً قال لامرأته : يا أنت الخامسة والخمسين ؟ ! ؟! » .

ولست آتي بجديد حين أقول ان من المستحيل أن يرجع أحد بنفسه الى عهد العرب لأن الحياة لا سبيل فيها الى هذا النكوص . فلا قديم ولا جديد ، وكل ما هنالك ان واحداً يركب عقله ويتعثر به في الطريق الذي تسلكه قافلة العصر ، وأن آخر يركب رجليه أو مطية أخرى ويسير في طليعة الركب أو بين سواده .

وان الكتاب ليحسنون جداً الى الأدب اذا أراحونا من هذه الضجة الفارغة التي أثاروها حول القديم والجديد ، فإن الزمن ماض لا يثقِّل رجلاً ، فمن سايره فهو معه ومن شاء أن يتكلف المحال فسينقطع عن القافلة وأمره الى الله .

ليلة (*)

من أمتع ما مر بي في هذه الحياة ، التي لا أراها ممتعة ولا أحب أن تطول أو تنكر ، ليلة قضيتها بين شراب وسماع . فأما الشراب فلعل القارىء أدرى به وأخبر ! وأما السماع فقلّ من شجى به كما شجيت في ليلتي تلك ! أي والله ! وما زلت إلى الساعة ، كلما خلوت بنفسي ، أغمض عيني وأتسمع وأحاول أن أبتعث ذلك الصوت البديع الذي هاجني إلى ما بي كما لم يهجني صوت سواه ! وقد أعجب لما يُصب في الأذن أين يذهب ؟ وربما أثارني هذا العجز عن إحياء صوت بأكثر من تصوره في ضمير الفؤاد ، وقد أغالي في إكبار هذه الثروة الصوتية وأتمنى لو رزقت شيئاً منها بكل مالي ـ لو أن لي شيئاً ! ـ ثم أعود فأسخر من نفسي وأضحك من أمنية يستخفني الى انشائها الطرب العارض . ثم أسخر من سخري وأقول لنفسي في حدة « أولا يسر الاسكندر وقيصر وسليمان أن ينزلوا لمثلي عن نصف ما أحرزوا من مجد لو أنه وسعني أن أخول كلاً منهم مما أضفى الله عليَّ من الحياة على ما فيها ، ليلةً واحدة كهذه التي نعمت فيها ؟؟ » نعم ! ولكنهم قد شملهم ظلام أوركوس على حين أحيا وأطرب ! وما أدراني أنهم نعموا بمثل هذا الصوت ؟؟ أمن

(*) من كتابه « قبض الريح » (ص 95-97) . [المحقّق] .

أجل أنهم كانوا ملوكاً أو أقوى وكان لهم سلطان وبأس وبطش ، يلزم أن يكونوا قد سعدوا بغناء كهذا ، يخف منه حليم .

« راجح حلمه ، ويغوى رشيد » ؟؟ .

* * *

وكانت السماء قد جاد الأرض منها هاضبٌ ثم أقلعت وصفا الجو ورق النسيم فنهضنا إلى مائدة مدت تحت أعين النجوم المتلامحة ودرنا عليها نأكل ونشرب ما لا يحسب الحاسب . وأرسل كل منا نفسه على سجيتها وورد من صاحبه « غيرَ المكدر المطروق » وانبسط اليه غير باخس واجباً ثم أخذنا مجالسنا للسماع وآذاننا العود « بالاحسان إيذان صادق الخبر » وأطفنا ببكر من الألحان لم يفض لها خاتم من قبل ، ثم رضينا من منظر بمسمع وانطفأ النور ، وهفت إلى أسماعنا الأنغام من وراء ستور الظلام .

واهاً لذاك الغناء من طبق ... على جميع القلوب مقتدر[1]
يملأ روحاً فؤاد سامعه ... ويصطلي حره من القرر
كأنه قالب لكل هوى ... فكله والمنى على قدر
لا خير في غيره ، وهل أممُ ... من شارب الراح شارب السكر؟

وكأني لم أكن أسمع بل أُسقي من رحيق الجنان ، وكأنه لم يكن غناء مصوغاً من شجى القلوب بل من شعاع العقول ، فلم تطر قلوبنا وحدها بل لحقت بها عقولنا ، ومضى الصوت على دله بتوحده يجيش

---

(1) الابيات لابن الرومي .

نفوسنا ويعصف بسكونها ويزخر أمواجها ويستثير كوامنها ويرسم على الوجوه آثارهـا ، وغبـت عن حاضري برهـة كررت فيهـا ـ ولا أدري كيف ؟ الى لحظة من الماضي المغيب الذي استقر في زاوية مظلمـة من الذاكرة ، فأبصرتني واقفاً مرة أخرى استودع الله لي أحب النـاس إليَّ وأعزهـم عليَّ وقد امتدت الكفان وتضاغتـا عن أحنـى عاطفـة وأوجـع احساس ، وتدانى الوجهان ، واختلجت الشفاه وهمت بالتلاقي في قبلة حارة طويلة ، ثم تباعدت في فزع كأنما كانت ترقبنا عـين ، ولا رقيب هناك ، وثبت انسان العين بعـد أن حُرمناهـا قبلـة فيهـا برد العاطفـة المضطرمة ، وازدجرت عنها الشفاه ازدجاراً أضـاف الى ألـم الحرمـان سخر القدر !

وتشبثت هذه الصورة بالارتسام امام عينـي وأنـا أصغـي إلى ذلك الغناء الساحر الذي يسمو الى السـامعيه مبـارزاً ويستكبـر أن يعتصـم بمساعد فيخفت حتى العود ، ويأبى أن يضاعف تأثيره بالنظر فيضوى حسن الوجه الى الظلام !

وهكذا أمتعنا عبد الوهاب بغبطته في ليلة كانت كلها سحـراً . وردني بعدها بغير ذي أُذن الى كل نغمة من سواه ، وغير ذي صَور إلاّ إلى فتنة من هوى فنّه وشجاه ، ولـو لا أن يعـد ذلك جحـوداً ولؤمـاً لتجاوزت عن ذكر اسمه فإنه أحلى عندي وأوقع في نفسي أن أجرد غناءه من صورته الآدمية على حسنهـا النـرجسي ، وأن أتصـوره أبـداً هوى سابحاً وروحاً هائماً وصوتاً هافياً يُشرب بالأذن صرفاً ولا تُشغل العـين بمونق زهره ، ويستريح الفؤاد الى نسيمـه ويتخلى من الشجـى بحـب مجتهره ، ويأنس الصدر الى هديله ، وينجو بالقلب من حوره . فعسير على طين ابن آدم أن يُجشم احتمال الفتنتين جميعاً .

ماري عجمي

(وُلدت سنة 1888، وتُوفيت سنة 1965 م.)[1]

وُلدت في دمشق، من أسرةٍ حمويَّة الأَصل، وتعلَّمت في المدرستين الرُّوسيَّة والإرلنديَّة فيها، ونالت الشَّهادة من المدرسـة الإرلنديَّـة سنة 1903. مارست التَّدريس مدَّةً، كما أنَّها التحقت مدَّةً بمدرسة التمريض في الكلِّية الأَميركيَّة، ثمَّ تنقَّلت بين سوريا ومصر، مساهمة في أثناء ذلك في التَّعليم والصِّحافة. وفي سنـة 1910 انشأت مجلَّة «العـروس» ٱلَّتي أوقفتها عن الصدور سنة 1925 بعد أن أخرجت منها أحد عشر مجلَّداً، وانصرفت إلى الكتابة في مختلف المجلاَّت، وإلى الاشتراك في الجمعيَّات النِّسائيَّة.

وقد توفِّيت في دمشق سنة 1965، بعد أن لقيت من علَّة في أَعصابها عنتاً شديداً. لا أعرف في الأَقلام النسويَّـة قلماً كالَّـذي تحمله ماري عجمي. فهو شديد شدَّة أَقلام الرِّجال، لطيف لطف أَقلام النِّساء، في آنٍ معاً. ولعمرك، هيهات أن يجتمع النِّساء والرِّجال على شيمةٍ واحدة اجتماعهم في أَدب ماري عجمي!.

قال خليل مردم بك في كتاب «ماري عجمي»: «جمعت ماري بين الصِّناعتين النَّثر والنَّظم، فلها المقالات والخطب والقصائد، وعالجت

(1) ترك المؤلف سنة وفاتها دون تدوين. [المحقِّق].

التَّرجمة كما عالجت الإنشاء».

وقالت السيِّدة وداد سكاكيني في الكتاب المذكور: «اتَّخذت [تريد ماري] لذاتها وحياتها أسلوباً في الكتابة والحديث شاع في آثارها وكلامها، وهو أسلوب التَّهكُّم الَّذي كانت تصيب بلمحاته الخاطفة ما لا يصيب غيرها بالنَّقد والتَّعيير، والحديث المكرور. فإذا استمعت ماري لرأي عاجلته ببديهتها، وطبعته بالنُّكتة الَّتي هي طوع خاطرها وشعورها».

أهَكذا كلُّ حَبيب(*)

أهدى الي اصدقائي غزالين وكنت في مصيف في ضواحي الفيحاء فافلتهما وشأنهما يطفران في الحديقة حتى حان موعد الخريف وآن زمن الرجوع الى المدينة . فلقيت في القبض عليهما واعادتهما الى قفص لسهولة نقلهما به البرح الشديد .

ولما اقفلت عليهما باب القفص وثب الغزال وثبة اليائس من الفوز يستجمع قواه ليطلق آخر سهم في كنانته فضرب القضبان القاسية برأسه ضربة عنيفة انخلع فيها احد قرنيه فاذا الدم يتفجر خاثراً من جرحه فسقط رأسه وتخاذل موجعاً لا يتمالك التجلد والمصاولة ولا يجد مسندا لرأسه لضيق المجال غير الارض . ولما رأته الغزالة على تلك الحال ثار ثائرها وتحول بريق نظراتها من وهيج الغضب والنفرة الى نظرات انعطاف تسيل فيها الوداعة مذوبة صافية وانقلب بغامها من جريض الى انين ودنت منه ترفع رأسه الساقط على عنقها بتأن وخفة لتجعله وسادة له ويا لها من وسادة !

وما هي الا هنيهة حتى طوقت جيدها قلادة من ذلك النجيع المتصبب المتدفق من جرح الفها . فكبر علي ذاك المشهد المروع

(*) من كتابها « مختارات من الشعر والنثر (ص62-63) . [المحقق].

واستحوذت على نفسي هيبة فهتفت : هل بين قلائد الغيد الحسان من عقد يرصعه ياقوت اصفى من هذه الدماء ؟ وهل طوقت حبيبة نحرها بسلك من درر العطف والامانة اجمل من هذا السلك وابدع .

تالله ان ألماً نطقت به عينا تلك الغزالة وفاضت به عبراتها لأشدّ من ألم الغزال ساعة تفجرت دماؤه وددت لو يكذبني الله لو انها عاشت بعده !

تحتَ ظِلال الأرز (*)

يا ارز لبنان ، وملك النبات المهيب !
ما اعظم ان يسمو فوق الغمام عرشك الوطيد !
وان يدوم لك الملك ، ولم يبق لملك سؤدد !
ترنو اليك فواغي الوادي حانية خاشعة
وتبتسم لك فرائد قاديشا عن لالِيء بيضاء تزري بحبك الفراقد .

تجري شلالاته صافية الزلال بين رياض هي كدرجات سلالم الهياكل مدبجة الالوان . مرتلة اجلالا لسنائك ، هاتفة على تعاقب الفصول بحمدك !

يا اقدم كل حي ، وانضر الطاعنين في السن .

هل تغيرت بعد سليمان تلك الازمنة السعيدة التي كنت فيها فخراً لعرش انت عماده ام هزأت بالطوارىء وعبثت بالحدثان وما استطاع ان تعبث بك له يد .

فما برحت مكانك على مر الاجيال ، ما اغصانك الا اجنحة ، تجاوب صدى خفقاتها بلابل الفضاء . كأني بها اذرع ممدودة تصافح الولاء .

(*) من كتابها « مختارات من الشعر والنثر (ص 92-94) . [المحقّق] .

تسارع اليها الغيوم ، وتتجمع حولها السحب ، مبللة اطرافها الفخمة الزاهية .

بل كأني بها معابد ضربت سرادقها ايواء لمعشر المرتلين ـ للطيور والشعراء .

عششت فيها عرائس الشعر . فما هبت الريح على روابيك
الا ناجتك ارواحها ، تقرأ الفاتحة على نفوس الخالدين
بل كأني بك واحة بين هذه الجبال الجرداء .
تتعالى في وقار كوقار هذا الطود الاشم الرافعك على منكبيه !

يا رمز الشمم والثبات وتمثال التعاضد والمضاء .
ان حفيفك صوت الله . ولو شاء ان تتكلم ، لكنت اصدق من نطق .

واقوى حجة من كل شاهد عيان ، ومؤرخ متغرض
خطت على افنانك يد العلي سطوراً ، تتلوها آيات الخلود

فقهقه فيك النسيم ، لا يحبس انفاسه لحظة ، سخراً من المتضائلين .

وزهت النضرة في اخضرارك الدائم تهكما على الشاحبين .

لا في « الخرقة المعهودة » مجدك التالد ، ولا في هتاف ابناءك

انه في التحام اجزائك الهازئة بهجمات الزوابع !
انه في تكاتف اعضائك على رد غارات الاعداء !
انه في ترفعك على ما نزين للنضارة الذبول ، وللحياة السقوط .

رغماً عما عصف فوقك ، وتدفق من السيول بين صخورك !

كم من صدر الهبه الجوى فبردت ايها الارز حناياه ؟
كم من جسم منسرق القوى ، اعدت اليه الحياة ؟
كم من قلب صدعته الهموم ، فأسوت كلومه ؟
كم من احباب أووا الى هذه البقعة الهادئة، فزادتهم رياك غبطة؟
كم من رأس بيضت شعره السنون ، بكى تحت ظلالك زوال شبابه ؟

كل شجرة منك حرج قائم بنفسه !
كل جذع من جذوعك سجل تاريخ ، لمئات من الادهار يا لروعة هذا الغصن الآخر بنحر شجرة اخرى !
كم من دهر مضى على معانقة هذين الحبيبين ؟
عهدي بالزمن يورث القلوب المحبة مللاً .
فهل احرا بك ايها الارز مدرسة الله، وانت فيها استاذ رعي العهود؟
هذه هي شجرة لامارتين : نقش عليها اسمه ومن سبقه وصحبه من ضيوفك .

لم يكف بعد هذا التاريخ ، لبناء قشرة تغشي تلك الاسماء .
فكم من دهر اقتضى لالتحام ذينك الغصنين ، حتما بلغ محيط جذع شجرتك الكبرى امتاراً عدة ؟

لم تسيل مدامعك بين كل مغيب ومطلع ، ايها الارز الجميل !
ان انس لا انس ساعة اسفر القمر ، كأنه كيوبيد مرسلاً سهامه !

خلتك عاشقاً ساهراً ، او ناسكاً جليلاً ، جاثماً في القمم العالية تذري الدموع ، كأنك نادب مضرب غارسيك رعاة الجبال .

او باك من ألم الوحشة ، اذ لا ترى من حولك ما يضاهيك سمواً مؤثراً العزلة والاختلاء بنفسك ، على ان ترعى ارضك الطاهرة حشرات الوهاد .

او لعل دموعك هذه هي عرق خشوعك الحار ، المتصبب من جبهتك النقية على الهضاب .

او لعلها دموع الفرح تندت بها مقلتاك .

طرباً بحر لثمات الكواكب ، المتساقطة على اطرافك المتوهجة الخضراء .

دعني اشاطرك البكاء ، وانظم لك من الدمع نشيداً .

ان نشيد العيون اطرب لحناً من قيثارة الراعي ، وافصح بياناً ، من هتاف الشعراء .

دعني اذكر بك ابناء لك في المهجر ما برحوا أُسداً !

وما برحت هممهم متصلة بعروقك ؟

دعني اهتف : حي الله الارز عماد الارائك والامجاد

دعني اناشد كل امة هاوية ، ان تجعل الارز قبلتها

وإن أحدث من يشاء الخلود ، بالمصاعب التي لقيتها وظفرت عليها .

حبذا لو كنت طيراً، إذن لرقصت أيها الأرز على كل فنن من أفنانك!

حبذا لو كنت شاعرة، إذن لنظمت لك من كل قافية ومعنى درراً وعقوداً!

فهرست

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة